

عشرون ألف فرسخ
تحت سطح البحر
جول فرن

• Author : Jules Verne

♦ المؤلف: جول فرن

• Title: Twenty Thousand Leagues Under the Sea

♦ العنوان: عشرون ألف فرسخ تحت

سطح البحر

• Translated by: Housien Al Kabany

♦ ترجمة: حسين محمد القبانى

• Afaq's first edition: 2018

♦ طبعة آفاق الأولى 2018

• Cover Design by: Amr El Kafrawy

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

• Publishing Consultant: Sawsan Bashier

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

• General Manager: Mostafa Alsheikh

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ١٥٧٤٨

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 113 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

جول فرن

عشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر

رواية

ترجمة

حسين محمد القباني

مراجعة

محمود مسعود

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

فرن، جول.

جول فرن : عشرون فرسخ تحت سطح البحر

ترجمة: حسين محمد القباني

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

584 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 2017 / 15748

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 113 - 4

1 - الأدباء «روايات»

2 - فرن، جول

مقدمة

تعد هذه الرواية من روائع القصص العلمي. وقد بلغ من إعجاب العالم بها أن إحدى كبريات الشركات السينمائية أخرجتها منذ عامين في فيلم ملوّن عُرض في مختلف الأنحاء. ولا غرابة في هذا بعد أن جمعت الرواية كل مقومات الأدب القصصي القيّم. فالإلى جانب عناصر التشويق التي حفلت بها، نراها مليئة بالمعلومات العلمية المفيدة لجميع طبقات القُراء.

وقد عُرف جول فيرن مؤلف الرواية بأنه يتخذ من الأدب القصصي ثوباً قشيباً يغلف به الآراء العلمية المعترف بها تخفيفاً لجفافها، ويشيع فيها من عناصر التشويق ما يجعل قراءتها ثقافة ومنتعة.

وعُرف هذا الكاتب الروائي كذلك بأنه كان يسبق زمانه بعشرات السنين، شأنه في ذلك شأن الكاتب المعروف هـ. ج. ويلز. وكان الاثنان يتباريان في الكتابة عن عالم «الغد» بالنسبة لعالمهما. وقد تخيل جول فيرن الكثير من الحقائق القائمة على أسس علمية، وأثبت الزمن صحة تخيلاته. بل يمكن القول بأنه ساهم بهذا الخيال في تحقيق كثير من المخترعات العلمية التي كانت مجرد حلم في صدور معاصريه.

إن الرواية أنموذج رائع لهذا الخيال الخصب الناضج. فقد تخيل الكاتب فيها إمكان اختراع غواصة تسير تحت سطح الماء قبل اختراع الغواصة بنحو أربعين عامًا. وأعجب من هذا أن الغواصة التي رسمها بخياله لا تكاد تفترق كثيرًا، شكلاً وتصميمًا، عن الغواصات التي تم اختراعها بعد ذلك.

وبعد أن اخترع خياله غواصته الفريدة «نوتيلوس»، استطاع ببراعته الأدبية أن يصور لنا شخصية قائدها وصانعها «الربان نيمو» تصويرًا دقيقًا نابضًا بالحياة. إن الربان نيمو يرمز للإنسان المثقف العالم الذي لم يجد من أبناء عالمه فوق اليابسة غير الاضطهاد والجحود والقسوة، فأثر أن يستغل علمه وماله في استحداث غواصة مزودة بكل أسباب الحياة تحت سطح الماء. ولا يملك القارئ إلا أن يمضي في مطالعة القصة مشوقًا مبهورًا، فهو يعيش مع الربان نيمو، ويعطف عليه، ويعجب به، ويقدر ظروفه، ويتمنى لو أتيح له أن يقضي بضعة أشهر في هذه الغواصة الرائعة؛ ليرى من خلف نوافذها البللورية هذا العالم العجيب.... عالم البحار الذي يشمل أربعة أخماس الكرة الأرضية.

والحق أن جول فيرن يعرض لنا عالم البحار عرضًا باهرًا نابضًا بالحياة، مستندًا إلى أسس علمية صادقة، وإلى أبحاث مُعترف بها سبقه إليها الكثيرون من أساتذة علوم الطبيعة والبحار.

ولا مرأى في أن القارئ ستملكه عوامل الدهشة والابتهاج وهو يرى بأعين أبطال القصة ألوانًا من عجائب البحار في كل محيطات العالم... سيشهد في كل بحر ومحيط أنواعًا وصنوفًا من الأسماك

والوحوش البحرية والمحار والأصداف والقواقع وأعراق اللؤلؤ والإسفنج والثدييات البحرية واللافقاريات، وسيشهد أنواعًا لا حصر لها من النباتات ذات الألوان الزاهية، ومن الشعب المرجانية والمتحجرات النباتية والعناصر المعدنية التي تزود الغواصة بكل حاجتها من الوقود.

وقد يختار الإنسان فيما يختص بالتنويه من أحداث هذه القصة الممتعة. هل يصور جولات الغواصة في مختلف بحار العالم، أو جنوحها في مضائق توريز واستهداف رجالها لهجوم آكلي لحوم البشر؟ هل يصف المقابر المرجانية تحت الماء، أو النفق المائي تحت برزخ السويس، أو غابة كريسبو في قاع المحيط، أو خليج فيمو الزاخر بكنوز الذهب؟ هل يسهب في تصوير الأخطبوطات الهائلة، أو صيد اللؤلؤ في مياه جزيرة سيلان، أو مشاهد قارة الأطلنيس الغارقة، أو شاطئها الجليدي الرهيب في القطب الجنوبي، أو المعركة الدموية الأخيرة بين الغواصة والمدرعة المجهولة الجنسية؟

كلها في الحق فصول رائعة تنبض بالحياة، وتقوم على أسس علمية صحيحة، وتبدو كأنها من صميم الواقع الذي لا أثر فيه لخيال.

محمود مسعود

الفصل الأول

الصخور العائمة

في عام ١٨٦٦ أثارت ظاهرة طبيعية غريبة غامضة الاهتمام بين سكان الدول البحرية في أوروبا وأمريكا. ولم تكن هذه الآثار مقصورة على التجار والملاحين وربابنة وأصحاب السفن والضباط البحريين في جميع تلك الدول فحسب، بل اشتد الاهتمام بالأمر في عدد كبير من الحكومات في القارتين.

وكان مثار هذا الاهتمام الشديد «شيء» هائل تكرر التقاء السفن به. كان شيئاً طويلاً مغزلي الشكل، مشعاً في بعض الأحيان، وكان أكثر ضخامة وأسرع من الحوت.

وقد اتفقت التقارير المنوعة التي كتبت عن ذلك «الشيء» في مختلف سجلات السفن بصفة عامة على وصف كيانه، وسرعته العجيبة، وحيويته الغريبة التي بدا أنه متميز بها.. فإذا كان وحشاً بحرياً هائلاً فقد تجاوز في ضخامته كل نوع سجلته الأسانيد حتى ذلك الحين. وقد رفض علماء مثل كاثبير ولاسيبيد ودي موريل ودي كاترفاج الاعتراف بوجود مثل هذا الوحش ما لم يروه بعين العلم.

وإذا نحن أخذنا بمتوسط المشاهدات التي تمت في أوقات مختلفة، بعد استبعاد التقديرات المتواضعة التي قدرت طول ذلك الشيء بمائتي قدم، والمزاعم المبالغ فيها القائلة بأن عرضه ميل وطوله ثلاثة أميال. كان لنا أن نؤكد في غير مبالغة أنه يتجاوز في ضخامة جرمه كل ما يعرفه علماء الأحياء البحرية المعاصرون، بفرض وجوده فعلاً، لكن وجوده لم يكن محل إنكار. فلا عجب، والإنسان بطبعه ميال إلى العجائب والغرائب، إذا كانت موجة الاهتمام التي بعثها ذلك الشيء قد عمت جميع أنحاء العالم.

وفي العشرين من شهر يوليو عام ١٨٦٦، التقت السفينة البخارية «جافرنر هيجنسون» التابعة لشركة كلكتا وبرناك للملاحة البخارية، بهذه الكتلة الضخمة المتحركة على بعد خمسة أميال من شاطئ أستراليا الشرقي. وقد ظن ربانها الكابتن بيكر في بادئ الأمر أنه أمام سلسلة من الصخور المائية غير المعروفة، وبينما هو يستعد لتحديد مكانها، إذ بعمودين من الماء ينبثقان من ذلك الشيء الغامض، ويرتفعان في الهواء بصوت كالضحج مسافة مائة وخمسين قدمًا. وإذ لم يكن في تلك الصخور فوارة ماء متقطعة الانطلاق، فقد تحتم على السفينة جافرنر هيجنسون أن تواجه وحشًا بحريًا هائلًا - لم يُعرف حتى ذلك الحين - يرسل من منخاريه عمودين من الماء الممتزج البخار والهواء.

ووقع حادث مماثل في الثالث والعشرين من شهر يوليو في العام نفسه للسفينة كولمبوس التابعة لشركة «وست إنديا أند باسيفيك» للملاحة البخارية، في المحيط الهادي، وإذن فقد وضح أن هذا الوحش

البحري العجيب يستطيع الانتقال من مكان إلى آخر بسرعة مذهلة، إذ لم يمض إلا ثلاثة أيام بين المناسبتين، والمسافة الفاصلة بين مكانيهما تربو على سبعمائة فرسخ^(١) بحري.

وحدث بعد خمسة عشر يومًا، وعلى مسافة ألفي فرسخ من الموضع الذي شوهد فيه ذلك الشيء لآخر مرة أن كانت السفيتان «هيلين» التابعة لشركة ناسيونال، و«شامون» التابعة لشركة الخطوط البريدية البحرية الملكية مبحرتين في اتجاه الرياح في ذلك الجانب من المحيط الأطلنطي بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وعندئذ تبادلت كلتاهما إشارة بأنها رأت الوحش في مكان يقع بين خط العرض ١٥ : ٤٢ درجة شمالًا، وخط ٣٥ : ٦٥ درجة غربًا. ولما كانت كل من السفيتتين أصغر حجمًا من ذلك الشيء، رغم أن طول كل منهما لا يقل عن ثلاثمائة قدم، فقد قدر أدنى طول للوحش البحري بما يزيد على ثلاثمائة وخمسين قدمًا. والمعروف أن أضخم الحيتان لا يزيد طوله على مائة وثمانين قدمًا إن وجد حوت بمثل هذا الطول.

هذه المشاهدات توالى الواحدة بعد الأخرى، ثم أضيفت إليها مشاهدات أخرى من سطح عابرة المحيط «لايرير»، كما شاهد ذلك الوحش البحري الغامض بحارة السفينة «أطنا» التابعة لشركة «أمان» وكذلك قدم ضباط السفينة «لانورماندي» تقريرًا خطيرًا. وأخطر منه ما قدمه ضباط وربان السفينة «لورد كلايد»، وقد تركت هذه التقارير أثرها العميق في محيط الرأي العام. وشاعت الفكاهات والنوادر عن الوحش

(١) الفرسخ: ثلاثة أميال.

البحري «في الدول المعروفة بالخفة والمرح»، أما في الدول الرصينة العملية كإنجلترا وأمريكا وألمانيا، فقد استأثر هذا الموضوع بأشد الاهتمام.

وأصبح «الوحش» هو «المودة» الشائعة في الأوساط الكبيرة. فهو في المقاهي والمشارب موضع الغناء، وفي الصحف مثار السخرية، وفي المسارح محور التمثيليات. لقد أتاح الفرصة لكل أنواع التندر والمضحكات، وأخذت الصحف تعيد ما سبق نشره عن المخلوقات الخيالية ابتداء من الحوت الأبيض، والوحش الرهيب «موبى ديك»، الذي يعيش في المناطق الشمالية، إلى الأخطبوط الهائل الذي يمكن إن تلتف أذرعه حول سفينة حمولتها خمسمائة طن وتهوي بها إلى قاع المحيط. كما أعيد نشر الآراء التي كانت معروفة في الأزمان القديمة، كآراء أرسطو وأفلاطون اللذين اعترفا بوجود مثل هذه المخلوقات العجيبة، وأقاصيص النرويجيين عن الأسقف «بتويدان»، وأقاصيص بول هيجيد ثم تقرير المستر هارنجتون الذي لم يستطع أحد أن يشك في صدق روايته عندما أكد أنه رأى في عام ١٨٥٧ - وهو على ظهر السفينة «كاستيلون» ثعباناً بحرياً هائلاً.

ولم تلبث ألوان الجدل والمناقشات الأفلاطونية أن حمي وطيسها في الأوساط والصحف العلمية بين المصدقين والمكذبين. وألهب «موضوع الوحش» الأفكار في كل مكان، فراح الصحفيون الذين ينعتون أنفسهم بأنهم من ذوي النزعة العلمية يبارون زملاءهم من أصحاب الفكاهة في كتابة المقالات العديدة في صدد تلك المساجلات. ولم

يخل هذا الجدل العنيف من اشتباكات نزت بسببها دماء يسيرة بعد أن شَرَدوا عن موضوع «الوحش البحري» إلى دائرة الخلافات الشخصية العنيفة.

وبدا في الشهور الأولى من عام ١٨٦٧ أن هذا الموضوع قد توارى عن الأنظار والعقول، ثم إذا ببعض الحقائق العديدة تعيده إلى بساط البحث مرة أخرى. وقد تحول عندئذ من مشكلة علمية ينبغي حلها إلى خطر حقيقي جدي ينبغي تجنبه. وفي هذه المدة أصبح للموضوع طابع آخر. فقد استحال إلى جزيرة أو صخرة هائلة ذلك عندما اصطدمت السفينة «مارفيان»، التابعة لشركة مونتريال البحرية في الخامس من شهر مارس عام ١٨٦٧ في جانبها الأيمن بصخرة ليست مسجلة على الخرائط البحرية في ذلك الموضع، وكانت تمخر العباب بسرعة ثلاث عشرة عقدة مستعينة بالرياح وبمحركات قوتها ٤٠٠ حصان. ولولا متانة هيكل السفينة لتحطمت بتأثير الصدمة، ولغرقت بركاب تعدادهم ٢٣٧. وقع ذلك الحادث عند شروق الشمس.. وقد أسرع ضباط المراقبة إلى مؤخرة السفينة، وأطلقوا إلى البحر في اهتمام بالغ. ولكنهم لم يروا أكثر من دوامة عنيفة على بعد مائة متر تقريباً. وكأنما عصف بالأمواج مؤثر شديد. وبعد أن حُدِّد الموقع بدقة، سارت السفينة في طريقها دون أن ينالها عطب ظاهري، ولكن بقي سؤال لم يهتد أحد إلى جوابه: هل اصطدمت بصخرة تحت سطح الماء أم بحطام سفينة ضخمة؟ ولما فُحص قاع السفينة أثناء إصلاحها أسفر عن وجود كسر في قاعدتها.

وكان من الممكن أن ننسى هذه الحقيقة رغم خطورتها الشديدة

مثل كثير غيرها لولا أن الحادث تكرر مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع، وفي ظروف مماثلة مع فارق واحد هو أن جنسية السفينة التي وقعت ضحية الصدمة هذه المرة وشهرة الشركة التي تمتلكها، أثارا أشد التعليقات في أعقاب الحادث.

ففي اليوم الثالث عشر من شهر أبريل عام ١٨٦٧ كانت السفينة سكوتيا التابعة لشركة كونراد تمضي في طريقها بسرعة ثلاث عشرة عقدة في الساعة مدفوعة بمحركات قونها ألف حصان، في بحر هادئ ورياح رخاء.

وبينما كان الركاب مجتمعين بقاعة الطعام الكبرى في الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة بعد الظهر، أحسوا جميعاً بصدمة خفيفة في جانب السفينة الأيمن، في القسم المجاور للرافص.

إن السفينة لم تصدم شيئاً، ولكن صدمها شيء حاد نافذ، أو هو بالأحرى ليس بسطح مستعرض. وكانت الصدمة خفيفة بحيث لم يقلق بسببها أحد لولا أن البحار المراقب اندفع إلى ظهر السفينة هاتفاً «السفينة تغرق..... السفينة تغرق....».

وأسرع الربان أندرسون فهبط إلى عنبر السفينة حيث رأى ثغرة في قسمها الخامس ومياه البحر تتدفق، ومن حسن الحظ أن ذلك القسم لم تكن به غلايات وإلا لانطفأت النار فوراً. وسرعان ما أصدر الربان أمره بوقف المحركات، وغاص أحد الملاحين لتقدير مدى العطب. وبعد بضع دقائق كان القوم قد تحققوا أنه حدثت في قاع السفينة فجوة كبيرة يبلغ محيطها نحو مترين. ولم يكن من الميسور سد هذه الفجوة،

فاضطرت السفينة إلى متابعة رحلتها ورفاصها نصف غارق في الماء. وكانت عندئذ على مسافة ثلاثمائة ميل من رأس كبير، وبعد تأخير ثلاثة أيام وصلت إلى أرصفة الشركة في ليفربول بعد أن أثار هذا التأخير قلقًا شديدًا عليها.

وشرع المهندسون عندئذ في فحصها بعد وضعها في الحوض الجاف فكادوا ألا يصدقوا أعينهم حين رأوا فجوة ذات شكل مثلث متساوي الضلعين تحت علامة الماء بقدر ياردتين ونصف ياردة. وكانت القطعة التي انتزعت من الألواح الحديدية محددة الجوانب بحيث لا يمكن أن يكون السبب في انتزاعها مجرد صدمة عشواء. وكذلك تبين أن الأدلة التي سببت الفجوة ذات طابع غير عادي. ذلك أنها بعد أن نفذت بقوة هائلة في ألواح من الحديد سمكها ثلاثة أثمان البوصة، عادت وارتدت بطريقة عجيبة.

تلك هي الحقيقة الأخيرة التي بعثت الموضوع مرة أخرى أمام الرأي العام. ومنذ ذلك الحين و«الوحش البحري» هو المسؤول عن جميع الكوارث البحرية التي لا يُعرف لها تفسير معقول.

وعلى عاتق هذا «الوحش الخيالي» ألقت شركة لويد البحرية التبعة في كافة حوادث غرق السفن. وقد نتج عن هذا أن ازدادت المواصلات البحرية صعوبة بين القارتين. وأخذ الرأي العام يشدد في المطالبة بتطهير البحار من هذا «الوحش البحري الهائل» بأي ثمن.

الفصل الثاني

« ما له و ما عليه »

في الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث، كنت عائداً من بعثة علمية في إقليم نبراسكا. وكانت الحكومة الفرنسية قد ألحقتني بهذه البعثة بصفتي أستاذاً مساعداً بمتحف التاريخ الطبيعي بباريس. ووصلت إلى نيويورك في نهاية شهر مارس محملاً بمجموعات ثمينة ظفرت بها خلال الشهور الستة التي أمضيتها في نبراسكا. وكان موعد رحيلي إلى فرنسا قد حُدد في أوائل مايو. وبينما كنت أشغل نفسي أثناء فترة الانتظار بتصنيف وترتيب كنوزي المعدنية والنباتية والحيوانية، وقع حادث السفينة سكوتيا.

وكنت على علم تام بالموضوع الذي يشغل أذهان الرأي العام وقتذاك. وهو أمر طبيعي. وقد قرأت الكثير من الصحف الأمريكية والأوروبية مراراً دون أن أفوز بطائل. لقد حيرني هذا اللغز، ومن ثم ترددت في الوصول إلى نتيجة ما.

كان الموضوع يشغل الأذهان عند وصولي إلى نيويورك. وكانت نظرية الجزيرة أو الصخور العائمة التي أيدها بعض الناس دون تفكير

منطقي قد لقيت إعراضاً تاماً. لأنه إذا لم يكن في باطن هذه الصخور آلة محرّكة فكيف تغير مكانها بمثل هذه السرعة المذهلة؟ ولهذا الاعتبار أيضاً لم يؤخذ بنظرية هيكل سفينة عائم أو حطام ضخّم غارق.

وإذن فلم يبق إلا تفسيران محتملان لهذا اللغز. كان لكل منهما أنصاره. التفسير الأول أن هذا «الشيء»، وحش بحري هائل، والثاني أنه غواصة ذات قوة محرّكة ضخمة. وهذه النظرية الثانية لم تستطع الصمود -رغم احتمالها- أمام التحريات الدقيقة التي أجريت في القارتين. فإن امتلاك فرد من الناس لمثل هذه الآلة لم يكن من الأمور الممكنة. وإلا فأين ومتى تم صنعها؟ وكيف استطاع أن يحتفظ بسر تركيبها؟ أما الحكومة فتستطيع حقاً أن تمتلك مثل هذه الآلة المدمرة، كما كان يمكن في ذلك الوقت العصيب الذي تضاعفت فيه قوة الأسلحة الحربية أن تمتلك إحدى الدول هذا السلاح الرهيب دون علم الدول الأخرى. فبعد قتال المدافع جاءت الطوربيدات، وبعد هذه جاءت قذائف الغواصات، وبعدها الأسلحة المضادة لها..... أو هذا على الأقل ما أرجو.

ولكن نظرية «السلاح الحربي» لم تلبث أن تهاوت أمام تصريحات مختلف الدول التي نفت امتلاكها لمثل هذا السلاح، ولما كانت مصالح الناس قد تأثرت إلى حد كبير بسبب صعوبة المواصلات بين القارات، فإن أحداً لم يشك في صدق هذه التصريحات الرسمية. وفضلاً عن ذلك فإن الاحتفاظ بالسرية أشدّ تعذراً على الحكومات منه بسر سلاح على الأفراد. ومن ثم فإن نظرية «الغواصة»، قد استبعدت نهائياً بعد التحريات التي أجريت في إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا

وأمریکا، وحتى تركيا.

وقد شرفني الكثيرون باستطلاع رأيي في هذا الموضوع عقب وصولي إلى نيويورك. ونشرت صحيفة النيويورك هيرالد أنها «سألت العالم المحترم» «بيير أرونكس» الأستاذ بمتحف التاريخ الطبيعي بباريس عن رأيه في هذا الموضوع..»، وفيما يلي بعض فقرات من المقالة التي نشرتها في اليوم الثلاثين من شهر أبريل:

«في استطاعتي أن أقرر بعد استعراض مختلف الآراء والنظريات واحدة واحدة، وبعد الإلمام بجميع الاحتمالات التي استبعدت، أن احتمال وجود وحش بحري هائل القوة، أمر لا بد من التسليم به.

إن أبعد أعماق المحيطات لا تزال خافية علينا.. فماذا يحدث في تلك الأعماق؟ أي مخلوقات يمكن أن تعيش في أعماق تبعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً تحت سطح الماء؟ إننا لا نكاد نستطيع أن ندرك التكوين الذي تتألف منه تلك المخلوقات. وأياً كان الأمر فإن تفسير هذه المشكلة المعروضة عليّ قد يتصل بكيان هذه الظاهرة الرهيبة. فنحن إما أن نكون على علم بجميع المخلوقات المختلفة التي تعمر كوكبنا، أو أننا نجهل أمرها. فإذا لم نكن نعرفها جميعاً، وإذا كان الكثير من الأحياء المائية لا يزال سراً غامضاً بالنسبة لنا، فالمعقول أن نسلم بوجود أسماك أو وحوش بحرية تهيئها طبيعتها للحياة في الأعماق التي نعجز عن الوصول إليها، وإنها تصعد لسبب ما إلى سطح البحر بين حين وآخر.

أما إذا كان الأمر بالعكس، أي أننا نعرف كل أنواع المخلوقات الحية، فينبغي بطبيعة الحال أن نبحث عن الوحش الذي يشغلنا هكذا بين

الحيوانات البحرية المصنفة، وفي هذه الحالة، أميل إلى الاعتقاد بوجود كركدن بحري هائل «حوت بقرن كبير». إن «الكركدن» البحري العادي يبلغ طوله غالبًا ستين قدمًا، فإذا نحن ضاعفنا هذا الطول خمس أو عشر مرات، وجعلنا له من القوة ما يتناسب مع هذه الضخامة، وتصورت أن زعائفه الضاربة تتضاعف بنفس النسبة لوجدنا الوحش المنشود. إن حيوانًا كهذا سيطابق الحجم الذي حدثنا به ضباط السفينة «شانون» وسنجدّه مزودًا بالأداة التي اخترقت السفينة سكوتيا، وبالقوة اللازمة لشق هيكل باخرة. والواقع أن «الكركدن» البحري مسلح بما يشبه السيف العاجي أو الحربة كما يسميها بعض أساتذة العلوم الطبيعية وهي الناب الرئيسي في فمه، ولها صلابة الفولاذ. وقد وجدت بعض هذه الأنياب مطمورة داخل أجسام الحيتان التي ينجح «الكركدن» دائمًا في القضاء عليها، ومنها ما كان ينتزع بصعوبة من قيعان السفن التي تعرضت لهجوم هذه الوحوش. وفي متحف كلية الطب بباريس ناب من هذا النوع طوله نحو مترين، ومحيطه عند القاعدة خمس عشرة بوصة.

ولنفرض الآن أن هذا السلاح أقوى عشر مرات، وقد زود به مخلوق أقوى من الكركدن العادي بهذا القدر أيضًا، وأنه اندفع بسرعة عشرين ميلًا في الساعة. وهنا تقع إذن صدمة قد تؤدي إلى الكارثة المتوقعة. ولهذا فإني سأفترض -حتى أظفر بمعلومات أوفى- أن ذلك الوحش المجهول هو كركدن هائل الجسم -مسلح لا بأنياب أو حربة، ولكن بحراشيف تكسوه كالدرع الحديدية لها في الوقت نفسه قوة محرّكة ذاتية. وعلى هذه الصورة يمكن تفسير هذه الظاهرة المحيرة، اللهم إلا إذا

وجد شيء يفوق كل ما سمع الناس به أو شاهده أو تصوره خيال متخيل أو صادفه إنسان، وهو في نطاق الاحتمالات».

لقد تركت مقالتي أثرًا طيبًا في النفوس وأثارت شتى المجادلات بين الناس، وظفرت بفريق من المؤيدين، فقد أتاح التفسير الذي قدمته حرية التحليق في أجواء الخيال، ذلك أن العقل البشري يحب هذه الأخيصة الرائعة عن وجود مخلوقات خارقة للطبيعة. والواقع أن مياه البحار هي خير مجال لهذه التصورات، وهي البيئة التي يمكن أن تعيش وتنمو فيها أحياء تعتبر الوحوش البرية كالفيلة والخراتيت أقزامًا بالقياس لها. إن هذه المساحات المائية الشاسعة تضم بين جوانبها أضخم الحيوانات الثديية المعروفة، ولعلها تشمل أيضًا على حيوانات غير فقارية ذات أحجام هائلة وعلى كائنات بحرية يروع تصورها، مثل «الكابوريا» التي قد تزن مائتي طن أو الجمبري الذي يجاوز طوله مائة ياردة. وكيف لا يحتمل شيء كهذا؟ ألم توجد من قبل حيوانات برية معاصرة للأجيال البيولوجية كالزواحف والطيور وحيوانات رباعية الأيدي والأرجل، خلقت جميعًا في أحجام هائلة؟ لقد خلقها الله في تلك الأحجام الهائلة ثم لم تلبث أن أخذت تصغر على مر العصور. فلماذا لا يكون في أعماق البحار المجهولة أنواع من الأحياء الجبارة بقيت على أحجامها الأصلية؟ إن البحار لا تتعرض للتغيرات كما تتعرض اليابسة، فلماذا لا تخفي في أعماقها الأنواع الأخيرة من هذه المخلوقات الهائلة التي تعتبر السنوات من أعمارها قرونًا، والقرون آلافًا من السنين؟

ولكنني تركت نفسي تستسلم لأحلام لم تعد كذلك في نظري. فلأدع

الأحلام والأوهام بعد أن أحالها الزمن إلى حقائق مروعة. وأعود فأقول إن الرأي قد استقر على طبيعة هذه الظاهرة، وأن الناس قد سلموا دون جدال بوجود حيوان بحري هائل لا يمت بصلة إلى الأفاعي البحرية الأسطورية.

ولكن إذا كان بعض الناس قد رأوا في هذا الأمر مجرد مشكلة علمية تتطلب الحل فإن آخرين ممن كانوا أكثر واقعية - لا سيما في أمريكا وإنجلترا- قد فكروا في تطهير المحيط من هذا الوحش الهائل تأميناً للمواصلات البحرية.

وبعد أن أصدر الرأي العام قراره على هذه الصورة، كانت الولايات المتحدة أول من نزل إلى ميدان العمل، ف اتخذت الترتيبات في نيويورك لإعداد بعثة عاجلة تتولى مطاردة هذا «الكركدن» البحري ووضع تحت إمرة البعثة فرقاطة ذات سرعة كبيرة تسمى إبراهيم لنكولن عُهد بقيادتها إلى الربان فارجوت الذي بادر إلى تزويدها بالمهمات والأسلحة.

ولكن حدث ما يحدث عادة في مثل هذا المقام، فمنذ أن تقررّت مطاردة الوحش، مضى شهران لم يسمع في خلالهما شيء عنه. وكأنني به قد فطن إلى المؤامرة التي تحاك للإيقاع به. فقد كثر الحديث عنه حتى عبر أسلاك المحيط التي تربط بين القارتين، وزعم بعض الظرفاء أن صاحبنا الماكر قد صادر إحدى البرقيات أثناء إرسالها، وأنه الآن يستغل هذه المعلومات لصالحه.

وهكذا لم يعرف المسؤولون من أين تبدأ المطاردة بعد إعداد الفرقاطة لمعركة طويلة الأمد وبعد تزويدها بأقوى معدات الصيد، وأدى

التأخير إلى زيادة الضيق ونفاد الصبر حتى حل اليوم الثاني من شهر يوليو، إذ ورد تقرير يقول إن إحدى السفن التجارية التابعة لشركة سان فرانسيسكو، والعاملة على الخط الملاحي بين كاليفورنيا وشنغهاي، قد التقت بالوحش منذ ثلاثة أسابيع في شمال المحيط الهادي.

وكان لهذا النبأ تأثير بالغ، فلم يمنح الربان فارجوت أكثر من مهلة أربع وعشرين ساعة للرحيل. وكانت الفرقاطة معدة تمامًا بالمؤن والوقود، وكان ملاحوها على أتم أهبة، ولم يبق لها إلا إيقاد النار في الأفران. وقبل إبحار إبراهيم لنكولن من ميناء بروكلين بثلاث ساعات تلقت الرسالة التالية:

«سيدي - إذا كنت تود الانضمام إلى بعثة الفرقاطة إبراهيم لنكولن، فإن حكومة الولايات المتحدة يسرها كل السرور أن ترى فرنسا ممثلة بشخصك في هذه البعثة، وسيفرد لك الربان فارجوت مقصورة خاصة»

المخلص

ج. ب. هوبسون. وزير البحرية



الفصل الثالث

«كما يشاء سيدي»

لم يكن يدور بخلدي قط قبل وصول رسالة المسترج. ب هوبسون بثلاث ثوان أني سأقوم بمطاردة ذلك الكركدن البحري، وبعد ثلاث ثوان من قراءة الرسالة، استقر رأيي علي أن يكون شغلي الشاغل وهدفي الرئيسي في الحياة هو السعي إلى تخليص العالم من هذا الوحش.

ولكني كنت حديث العهد بالعودة من رحلة مضنية، وكنت متلهفًا للراحة في «جنة نباتاتي» بين مجموعاتي العزيزة النادرة. بيد أني لم ألبث أن نسيت التعب، والرغبة في الراحة، والمجموعات العزيزة. وقبلت العرض الذي قدمته لي الحكومة الأمريكية دون مزيد من التفكير.

وقد قلت لنفسني: «فوق هذا فإن جميع الطرق البحرية تؤدي إلى أوروبا» وقد يكون الكركدن ظريفًا معي فيستدرجني إلى الشواطئ الفرنسية، ومن المحتمل أن يسمح لنا بصيده قريبًا من البحار الأوروبية إكرامًا لي. وعندئذ لن أقبل أقل من نصف ياردة من نابه العاجي لمتحف التاريخ الطبيعي بباريس...».

ولكن الكركدن كان في الوقت الراهن موجوداً في شمال المحيط الهادي، وهي منطقة أبعد ما تكون عن طريق العودة إلى فرنسا.

ولم ألبث أن ناديت خادمي في شيء من نفاد الصبر:

- كونساييل... كونساييل!.

وكان كونساييل الهولندي شاباً وفيّاً، شجاعاً، صحنبي في كافة رحلاتي حتى غدت شديد الثقة به. وكان بطبيعته قوي الأعصاب، محباً للنظام كمبدأ، متفانياً في أداء واجبه بحكم العادة، لا ينم وجهه إلا عن أقل الدهشة أمام مختلف مفاجآت الحياة، بارعاً في القيام بأعماله، سباقاً إلى إنجاز ما يناط به، ولكنه رغم اسمه الذي يفيد معنى النصيح، كان ضئيلاً بنصحه على كل إنسان.

وقد نجح كونساييل في الإلمام ببعض المعارف بحكم اتصاله بمحيط العلماء في «جنة النباتات» فهو إخصائي قدير في تصنيف مواد التاريخ الطبيعي، ولكن علمه كان يقف عند هذا الحد. فلست أظن أنه كان يعرف الفرق بين الحوت والقرش... ورغم هذا فإنه كان شاباً باسلاً.

لقد تبعني كونساييل خلال الأعوام العشرة الأخيرة إلى حيثما كان يدعوني داعي العلم، ولم يحدث أن شكا من طول الرحلة أو مشقتها، أو من إعدادة لحقائب السفر سواء إلى الريف أو إلى أقصى مكان كالصين أو الكونغو. كان يمضي معي إلى كل مكان دون سؤال. وكانت صحته بمنعة من كافة الأمراض، وكان قوي العضلات، ولكن قواه المفكرة كانت في حكم العدم. وكان في الثلاثين من عمره بينما كنت في الأربعين..

ولم يكن يعيب كونسايل إلا نقيصة واحدة هي تمسكه الشديد
بالرسميات ولا أذكر أنه حدثني مرة إلا بضمير الغائب مما كان يشير
أعصابي أحياناً.

وعدت أناديه وأنا أبدأ استعداداتي للرحيل بانفعال متزايد:

- كونسايل!.

وكنت في الواقع شديد الاطمئنان إلى هذا التابع الوفي، فقد درجت
على ألا أسأل إذا كانت ظروفه تسمح بمصاحبتة لي في أسفاري. ولكن
الرحلة هذه المرة قد تكون طويلة محفوفة بالمخاطر وهي تقوم على
مطاردة وحش قادر على إغراق سفينة وكأنها قشرة بندقة. ومثل هذه
الرحلة تحتاج إلى تفكير حتى من أشد الناس استخفافاً. ترى ماذا يكون
رأي كونسايل إذن؟

وللمرة الثالثة ناديته:

- كونسايل!

فأقبل كونسايل يقول:

- هل يناديني سيدي؟

- نعم يا بني.. أعد الحقائق لسفرنا معاً في خلال ساعتين.

فرد كونسايل بهدوء:

- كما يشاء سيدي.

- لن نضيع دقيقة واحدة. جهز كل أدوات الرحلة، ولا تنس أن
تجمع من المعاطف والقمصان والجوارب أكبر عدد. أسرع.

- ومجموعات سيدي؟
- ستتدبر أمرها فيما بعد.
- ماذا؟ ألا نأخذ معنا هذه المجموعات النادرة من الحفريات والمتحجرات والنباتات وغيرها؟
- سننقيها في الفندق.
- والبابيروسا الحية؟
- ستتولي إدارة الفندق إطعامها في غيبتنا، وفضلاً عن ذلك سأصدر التعليمات بنقل مجموعات الأحياء إلى فرنسا.
- فقال كونسايل:
- إننا لن نعود إلى باريس إذن؟
- فأجبت بلهجة لولبية:
- بل سنعود حتماً. ولكن بطريق دائري.
- الطريق الذي يختاره سيدي.
- أوه. إنه ليس طريقاً مستقيماً حقاً. سنبحر في السفينة إبراهيم لنكولن.

- كما يروق لسيدي..
- أنت تعرف مسألة الوحش يا كونسايل.. الكركدن المشهور..
- إننا سنخلص البحار منه. إنها مهمة جلييلة ولكنها محفوفة بالخطر أيضاً.
- فنحن لا نعرف إلى أين نذهب. إن هذه الحيوانات شديدة المراوغة.

ولكننا ذاهبون على كل حال. ومعنا ربان يقظ مفتوح العينين.

فقال كونسايل:

- كما يفعل سيدي سأفعل.

- ولكن عليك أن تفكر. فإني لن أخفي عنك شيئاً. رحلة من نوع لا يعود الناس منه دائماً.

- كما يشاء سيدي.

وبعد ربع ساعة كانت حقائبنا معدة. لقد حزمها كونسايل بيد بارعة مدربة، وكنت واثقاً أنه لم ينس شيئاً، لأنه كان يصنف القمصان والملابس كما يصنف الطيور والثدييات.

وهبط بنا مصعد الفندق إلى البهو الكبير في الطابق الأول، ثم نزلت بضع الدرجات المؤدية إلى الطابق الأرضي حيث سويت حسابي في مكتب الصراف المزدحم دائماً، وطلبت أن تُنقل إلى باريس خزائني المشتملة على الحيوانات المحنطة، والنباتات المجففة، وبعد أن فتحت حساباً جاريًا لنفقات إطعام الباييروزا قصدت إلى المركبة يتبعني كونسايل.

ونُقل متاعناً فوراً إلى السفينة ونحن في أثره وسألنا عن الربان فارجوت، فقادني أحد البحارة إلى مؤخرة السفينة حيث وجدته أمام ضابط لطيف بسط يده إليّ مصافحاً وهو يقول:

- السيد بيير أروناكس؟

- نعم. وهل أنت الربان فارجوت؟

- نعم مرحباً بك يا أستاذ. إن مقصورتك معدة لاستقبالك.

فأحيت رأسي له ثم تركته لمباشرة واجباته، وهبطت إلى المقصورة التي أُعدت لي.

لقد أحسن اختيار الفرقاطة إبراهيم لنكولن وأُعدت لمهمتها الجديدة إعداداً طيباً: كانت سفينة حربية كبيرة السرعة مزودة بأجهزة حرارية عالية تسمح للبخار المضغوط بالعمل مدى سبع درجات، وبهذه القوة يمكنها الانطلاق بسرعة ثمانية عشر ميلاً وثلاثة أعشار الميل في الساعة. ولكنها، مع هذا كله، لم تكن كفتاً لمطاردة الوحش الهائل.

وكانت الاستعدادات الداخلية في السفينة تضاهي أهميتها البحرية. وقد سرتني المقصورة المعدة لي، إذ كانت في القسم الخلفي حيث تقع غرفة الحراسة.

وقلت لكونساييل:

- سوف تشعر بالراحة هنا.

- نعم سنشعر فيها بنفس الراحة التي يشعر بها القوقع الناسك داخل صدفته!

وتركت كونساييل يفرغ حقائب السفر، وصعدت إلى سطح السفينة لأرى الاستعدادات الدائرة للرحيل، وكان الربان فارجوت يصدر أوامره في تلك اللحظة برفع مراسيها. إذن فلو أنني تأخرت ربع ساعة لأبحرت السفينة بدوني، ولأفلتت مني هذه الرحلة العجيبة الخارقة التي ليس لها مثيل والتي قد يستقبل الرأي العام أنباءها متشككاً.

ولكن الربان فارجوت لم يكن راغباً في أن يضيع يوم أو ساعة قبل أن
يجوب البحار التي شوهد فيها الوحش آخر مرة. فقد استدعى المهندس
وقال له:

- هل بلغ البخار أقصى درجة؟

- نعم يا سيدي.

فهتف قائلاً:

- لتتحرك السفينة إذن.

وسرعان ما بدأت السفينة تتهاذى بين مئات الزوارق والمراكب
المكتظة بالمتفرجين، ثم مرت في مسيرها برصيف بروكلين حيث
احتشدت عليه وعلى امتداد ذلك الجانب من نيويورك المطل على
نهر إيست، جموع غفيرة من المتفرجين الذين راحوا يلوحون بآلاف
المناديل تحية للسفينة حتى بلغت خليج هدسون عند طرف امتداد شبه
الجزيرة الذي تتكون منه مدينة نيويورك.

ومضت السفينة بعد ذلك محاذية لشاطئ نيوجرسي وعلى الضفة
اليمنى للنهر الجميل حيث تكثر البيوت الخلوية. ومرت في طريقها
بقلعتين حيتها كل منهما بإطلاق مدافعها الضخمة، فردت إبراهيم لنكولن
التحية برفع العلم الأمريكي ثلاث مرات. وكانت نجومه التسع والثلاثون
تتألق في بهاء من قمة السارية المرتفعة. وعادت السفينة فخفت من
سرعتها أثناء اجتيازها للقناة الضيقة التي تحف بها العوامات، وأخيراً
مضت أمام الشاطئ الرملي الطويل حيث وقف عدة آلاف من المتفرجين

يحيونها مرة أخرى.

وظلت الزوارق المتقاطرة خلفها تتبعها حتى بلغت المنارة العائمة التي كان الفرعان الضوئيان المنبعثان منها يحددان مدخل قناة نيويورك. ودقت الساعة إذ ذاك الثالثة بعد الظهر، وهبط المرشد البحري من السفينة إلى الزورق الذي كان ينتظره عن كثب. وازدادت نيران السفينة قوة وطفق رفاصها يضرب الأمواج بسرعة متزايدة وأخذت تسير محاذية لشاطئ جزيرة «لونج أيلاند» الرملي الخفيض. ولما كانت الساعة الثامنة وقد اختفت عن الأنظار أضواء جزيرة «فاير أيلاند» في الشمال الغربي، اندفعت السفينة بأقصى سرعتها تستقبل مياه المحيط الأطلنطي المظلمة.



الفصل الرابع

قاذف الحربة

كان الربان فارجوت ملاحًا بارعًا جديرًا بالسفينة التي يتولى قيادتها. وكان التجاوب بينه وبينها رائعًا حتى لكأنهما شخص واحد. كان روحها وقلبها النابض. ولم يكن يخامرهُ شك في وجود الوحش البحري، ومن ثم لم يكن يسمح لأحد في السفينة بالمجادلة في ذلك. كان يؤمن به إيمان البسطاء بأساطير التنين. إيمانًا يركز على العقيدة لا النظر. إن الوحش موجود. وهو قد أقسم أن يخلص البحار منه، فيما أن يقتل الربانُ فارجوت هذا الكركدن البحري أو يقتل الوحشُ الربان فارجوت... ولا وسط بين الاثنين.

وكان ضباط السفينة يشاطرون رئيسهم رأيه. وكان من الطريف أن نسمع أحاديثهم ومناقشاتهم واختلافهم وتقديرهم لمختلف الفرص التي قد تتاح لهم لملاقاة هذا الوحش، كل هذا وهم يرقبون بعين ساهرة مياه المحيط المنبسطة الشاسعة. وإذا كان أكثر الضباط في الرحلات العادية يضيّقون عادة بمهمة المراقبة، فقد اختلف الحال في هذه الرحلة، إلى حد أن البحارة كانوا يتزاحمون عند غروب الشمس حول الحبال المرفوعة

وهم لا يطيقون البقاء على سطح السفينة. ولم تكن السفينة قد أخذت تشق طريقها بعد في المياه المشتبه فيها في المحيط الهادي.

والمواقع أن البحارة، ما كانوا يشتهون شيئاً كملاقة الكركدن البحري وصيده بحراب الحيتان وجره إلى السفينة، وتقطيعه إرباً. وكان الربان فارجوت قد رصد جائزة قدرها ألفا دولار لأول بحار أو ضابط يشاهد الوحش البحري. وقد ذكرت فما سبق أن الربان فارجوت زود السفينة بكل ما تحتاجه من معدات لصيد الوحش البحري الهائل. ولا أظن أنه كان يمكن أن تجهز سفينة لصيد الحيتان بأحسن مما جهزت به إبراهيم لنكولن، فقد كان لدينا كل ما هو معروف من أدوات صيد هذه الوحوش ابتداءً من الحربة اليدوية إلى السهام الشائكة التي تنطلق من بندق صغيرة إلى القذائف المتفجرة من مدفع السفينة.

وكان في مقدمة السفينة مدفع ساحلي متين سميك القاعدة ضيق الفوهة، وقد شاهدت نموذجاً منه في معرض باريس عام ١٧٦٧. وكان في مقدور هذا السلاح القيم - الأمريكي الصنع - أن يطلق بسهولة قذيفة مخروطية الشكل زنتها تسعة أرتال إلى مسافة لا تقل عن عشرة أميال. وهكذا لم تكن السفينة إبراهيم لنكولن مزودة بكل وسائل التدمير فحسب وإنما الأهم من هذا أنه كان بين رجالها نيد لاند الملقب باسم ملك صيادي الحيتان بالحرايب اليدوية.

كان نيد لاند كندياً موفور البراعة، لا يضارعه أحد في إتقان مهنته الخطرة. وكان يتمتع بالمقدرة والثبات والجرأة، مع قسط كبير من الدهاء. وهكذا لم يكن ينجو من حربته الا حوت ماكر مراوغ. وكان في

نحو الأربعين من عمره، يجاوز في طوله ستة أقدام، قوي البنية ذا رصانة وصمت، به ميل إلى العنف أحياناً، وإذا استفزه شيء بلغ عنفه أقصاه. وكانت هيئته تسترعي الأنظار، ولا سيما قوة نظره التي كانت تسبغ على وجهه مسحة فريدة.

وفي يقيني أن الربان فارجوت قد أحسن باستخدام هذا الرجل. فهو يساوي كل رجال السفينة إذا قيس بحدة النظر وبراعة اليد. ولست أستطيع مقارنته بشيء أفضل من منظر مكبر قوي يمكن أن يكون في الوقت نفسه مدفعاً معداً للانطلاق على الدوام.

إنني أرسم الآن صورة هذا الزميل الباسل كما عرفته فيما بعد. فنحن الآن صديقان قديمان تربط بيننا وشائج قوية من الصداقة التي ولدتها ووطدتها الأخطار المشتركة... أه يا صديقي الشجاع. إنني لأرجو أن أعيش مائة عام أخرى لكي تطول ذكرياتي عنك.

والآن ماذا كان رأي نيد لاند بصدد الوحش البحري؟ لا مفر من الاعتراف بأنه لم يكن يؤمن بوجود ذلك الكركدن البحري. أي أنه كان وحده دوننا لا يشاطرنا هذا الاعتقاد الشائع.

وذاذ ليلة بعد إبحارنا بثلاثة أسابيع، كانت السفينة تسير محاذية لرأس «كاب بلان»، على مسافة ثلاثين ميلاً من شاطئ باتاجونيا، ولم يبق إلا أسبوع تمخر بعده السفينة عباب المحيط الهادي.

وكنت في تلك الليلة جالساً في مؤخرة السفينة مع نيد لاند نتبادل الحديث في شتى المسائل ونمد البصر إلى ذلك البحر الغامض الذي بقيت أعماقه حتى الآن بعيدة عن عين الإنسان. وكان طبعياً إن أخرج

بالحديث إلى موضوع الكركدن الجبار، وأن أناقش مختلف فرص النجاح أمام البعثة. ولما رأيت نيد لاند قد تركني أمضي في الحديث دون أن يقول هو نفسه شيئاً، شددت الضغط عليه قائلاً:

- حسنًا يا نيد. ألم تقتنع بعد بوجود الكركدن البحري الذي نطارد؟
ألديك أسباب معينة تفسر عدم تسليمك بوجوده؟

فنظر نيد لاند إليّ برهة قبل أن يجيب، ثم ضرب جبينه بيده كعادته، ثم أغمض عينيه كأنما يستجمع نفسه وقال أخيراً:

- ربما كانت لديّ هذه الأسباب يا مسيو أروناكس.

- ومع ذلك فأنت صياد حيتان محترف. أنت خبير بالحيوانات
الثديية البحرية الكبرى، وعلى ذلك يسوغ لك قبول نظرية الكركدنات
المائية الهائلة، ويجب أن تكون آخر من يشك في مثل هذه الظروف.
فرد نيد قائلاً:

- هذا هو ما يخدعك من أمري يا سيدي. ليس عجباً أن يؤمن
عامة الناس بالمذنبات الغريبة أو بوجود الوحوش الأسطورية في باطن
الأرض، ولكنك لن تجد فلكياً أو عالماً في طبقات الأرض يؤمن بهذه
الخرافات. وكذلك شأن صياد الحيتان. إنني طاردت كثيراً من الوحوش
البحرية، وأصبت بحرابي عدداً كبيراً منها، وقتلت طائفة أخرى. ولكن
مهما تكن قوتها أو تسليحها الطبيعي، فلا يمكن لذيولها أو معدات دفاعها
أن تخترق ألواح السفينة الحديدية.

- ومع ذلك قيل يا نيد إن بعض السفن قد شقها ناب كركدن بحري
ضخم.

فأجاب الكندي بقوله:

- لعلها سفن من الخشب. وإن كنت لم أرها حتى الآن. وحتى أجد الدليل على عكس ما أظن، فإني لا أعترف بقدرة الحيتان أو الوحوش البحرية على إحداث مثل هذا التأثير.

- أنصت إليّ يا نيد.

- لا. لا يا سيدي إني أصدق كل شيء إلا هذا. لعله يكون نوعاً من المحاربات الضخمة.

- كلا. هذا غير ممكن. فإن المحاربات كائنات بحرية رخوة الجسم. فقال نيد:

- إذن فأنت تعتقد حقاً يا سيدي بوجود هذا الوحش البحري؟

- نعم يا نيد، إني أكرر كلامي باقتناع يقوم على أساس من منطق الحقائق، فأنا أو من بوجود حيوان من نوع الثدييات البحرية القوية التكوين والمنتمية إلى الفصيلة الفقارية كالحوث والدرفيل وغيرها، وهو مزود بنباب قرني ذي قوة اختراق فائقة.

فغمغم نيد بكلمة غامضة وهو يهز رأسه كمن يرغب عن كل إقناع. فاستطردت أقول:

- قدّر يا صديقي الفاضل أنه إذا وجد مثل هذا الحيوان وكان يعيش في أعماق البحار فلا بد أن يكون تكوينه ذا قوة تفوق كل شبه ومقارنة. فقال نيد:

- ولماذا يكون له مثل هذا التكوين؟

- لأنه سيحتاج إلى قوة لا حد لها للبقاء في الأغوار العميقة ولمقاومة الضغط المائي. فالمعروف أن الضغط الجوي يوازي عمودًا من الماء ارتفاعه اثنان وثلاثون قدمًا. والحقيقة أن عمود الماء لن يكون بمثل هذا الارتفاع لأن مياه البحر أشد كثافة من الماء العذب. فأنت حين تغوص في الماء يا نيد، يكون فوقك بضعة أعمدة من الماء بعضها فوق بعض، طول كل منها اثنان وثلاثون قدمًا. وهكذا يتحمل جسمك في الماء ما يوازي الضغط الجوي بضع مرات، وبعبارة أخرى ١٥ رطلًا لكل بوصة مربعة من جسمك. ومن هنا يمكن القول أيضًا أن الهبوط إلى عمق ٣٢٠ قدمًا تحت سطح الماء معناه تحمل ضغط يوازي عشرة ضغوط جوية. وعلى عمق ٣٢٠٠ قدمًا يكون الضغط موازيًا لمائة ضغط جوي، أي يبلغ ستة أميال ونصف ميل تقريبًا، وهذا بدوره يساوي القول بأنه إذا أمكنك بلوغ مثل هذا العمق في المحيط، فإن كل بوصة مربعة من جسمك تحتل ضغطًا مقداره ١٤٩٩٣,٥ رطلًا. فهل تعرف كم عدد البوصات المربعة في مسطح جسمك؟

- ليس لدي فكرة عن هذا.

- نحو ٦٥٠٠، فإذا عرفنا أن الضغط الجوي على البوصة المربعة من الجسم هو ١٥ رطلًا، فإن الجسم الإنساني في هذه الحالة يتعرض لضغط جوي مقداره نحو ٩٧ ألف رطل.

- لم أكن أفطن إلى هذه الحقيقة.

- نعم كنت تنسحق تحت مثل هذا الضغط. أما في الجو فالهواء ينفذ

إلى داخل جسدك بضغط يعادل الضغط الخارجي، ومن ثم فهناك توازن تام بين الضغط الخارجي والضغط الداخلي، وهذا التوازن هو الذي يجعلك تحتمل الضغط دون مضايقة. ولكن الأمر في الماء يختلف.

فقال نيد وقد تزايد اهتمامه:

- نعم فهمت. لأنني سأكون في داخل الماء وليس الماء في داخلي.

- تمامًا يا نيد. فإذا كنت في عمق ٣٢ قدمًا تحت سطح البحر يكون

الضغط الواقع عليك بقدر ٩٧, ٥٠٠ رطل، وعلى عمق ٣٢ ألف قدم

يصير الضغط ٩٧, ٥٠٠, ٠٠٠ رطل، أي أنك في هذه الحالة تسحق

تمامًا وتصبح كالفطيرة.

فهتف نيد:

- يا الله!

- فإذا كانت الحيوانات البحرية الفقارية تستطيع البقاء في تلك

الأعماق، لا سيما تلك التي يبلغ مسطح أجسامها ملايين البوصات

المربعة، فيجب أن نقدر مدى الضغط الواقع عليها بمئات من الأرتال.

ولك أن تقدر إذن مدى مقاومة تكوينها الجسدي وقوة بنائها حتى

تستطيع احتمال مثل هذا الضغط.

فقال نيد:

- يجب إذن أن تكون مكسوة بدروع حديدية سمكها ثمانى بوصات!

- نعم. يمكنك إذن أن تتصور مبلغ الدمار الذي تحدثه مثل هذه

الكتلة إذا هي اندفعت بسرعة قطار سريع إلى هيكل إحدى السفن.

ولكن أبى أن يسلم. فعدت أقول:

- ألم أستطع إقناعك؟

- لقد أفنعتني بشيء واحد يا سيدي، وهو أنه إذا كان في قاع المحيط حيوانات كهذه فلا بد أن تكون بالقوة التي وصفت.

- ولكن إذا لم تكن موجودة أيها العنيد، فكيف تفسر حادث السفينة سكوتيا؟

فقال نيد. متردداً:

- لأنه... لأنه..

- استمر.

- لأن هذا الحادث... غير صحيح!

ولم تكشف هذه الإجابة إلا عن عناد صياد الحيتان. ولم أحاول في يومي أن أثقل عليه أكثر من هذا القدر، ولم يكن ثمة شك فيما وقع للسفينة سكوتيا... فقد كانت الثغرة حقيقة ملموسة بحيث اضطر رجال السفينة للعمل على سدها. ولا أظن أن ثغرة ما في سفينة عرف أمرها بجلاء كما عرفت هذه الثغرة. فهي لم توجد من تلقاء نفسها. وما دامت لم تنجم عن صخور أو آلات غاطسة فمن المحقق أنها نتجت من أداة نافذة لحيوان ما.

وأعتقد الآن، وبعد كل الأسباب التي سلف استنتاجها، أن ذلك الوحش ينتمي إلى نوع من الحيوانات البحرية الفقارية وعلى التخصيص من نوع الثدييات المائية الضخمة. أما عن عائلته بين فصائل الحيوانات

المذكورة، وهل هو حوت أو درفيل أو كر كدن ، فتلك مسألة يكون حلها بعد سلسلة من العمليات. فلكي يتسنى هذا الحل لا بد من تشريح الوحش المجهول. ولكي يتم التشريح لا بد من اقتناصه. ولكي يتم اقتناصه لا بد من صيده بالحربة، وهي مهمة نيد لاند. ولإتمام هذه المهمة لا بد من رؤيته، وهي مهمة بحارة السفينة، ولكي نراه لا بد من ملاقاته، وهي مهمة الصدفة وحدها.



الفصل الخامس

في تيه المصادفات

ظلت رحلة السفينة إبراهيم لنكولن فترة من الوقت خالية من الأحداث، وأخيرًا وقع حادث كشف عن براعة نيد لاند المدهشة ومدى ما يمكن أن نضع فيه من ثقة.

في اليوم الثلاثين من شهر يونيه، كانت السفينة تمخر قريبًا من شاطئ جزائر فوكلاند حيث صادفنا بعض صيادي الحيتان الأمريكيين وسألناهم عن الكركدن البحري فقالوا إنهم لم يشاهدوه، ولكن واحدًا منهم وهو ربان السفينة مونرو طلب من نيد لاند حين علم بوجوده في السفينة إبراهيم لنكولن أن يعاونه في صيد حوت شوهد عن كشب. ولما كان الكابتن فارجوت راغبًا في رؤية نيد لاند وهو يعمل، فقد سمح له بالانتقال إلى سفينة مونرو. وقد حالف الحظ الصياد الكندي؛ فبدلًا من أن يصيد بالحرية حوتًا واحدًا، صاد حوتين بضربة مزدوجة أصابت واحدة منهما أحد الحوتين في قلبه، وصادوا الثاني بعد مطاردة دامت بضع دقائق.

ومن المؤكد أن الوحش البحري لو قدر له أن يصاول نيد لاند، فلست بالذي يراهن في صفه.

وفي اليوم السادس عشر من شهر يوليو، حوالى الساعة الثالثة، ضاعفنا السرعة وقطعنا الخمسة عشر ميلاً الباقيين نحو الغرب حتى وصلنا إلى تلك الجزيرة المنعزلة التي أطلق عليها بعض الملاحين الهولنديين اسم رأس هورن، وهي إحدى مدن بلادهم. وفي اليوم التالي كانت سفيتتنا تمخر عباب المحيط الهادي.

وهنا هتف البحّارة جميعاً:

- راقبوا الماء بكل دقة.

ولم تنقطع العيون، والمناظير المكبرة عن المراقبة لحظة واحدة كلما فكر أصحابها في جائزة الألفي دولار، وما برحت الأنظار تطوف بسطح المحيط ليلاً ونهاراً. وحتى البحارة المعروفين باسم الخفافيش الآدمية لأن قوة أبصارهم تزداد ليلاً بمعدل ٥٠ ٪ لم يكفوا عن المراقبة طمعاً في الجائزة.

ومهما يكن فإنني لم أقلّ عنهم اهتماماً بالمراقبة رغم عدم تفكيري في الجائزة. كنت لا أبرح ظهر السفينة فيما عدا بضع دقائق أقضيها في تناول الطعام، ودون أن أحفل بالمطر أو حرارة الشمس، وكنت وأنا أشرف على البحر من مقدمة السفينة أو من أحد جوانبها.. أكاد ألتهم بنظراتي الملهوفة ذلك الزبد الذي يعلو سطح الماء الممتد إلى غاية البصر. وكم من مرة شاركت الضباط البحارة انفعالهم كلما تمطى أحد الحيتان ورفع ظهره الأسود فوق متن الأمواج. إذ ذاك كان سطح السفينة يزدحم في لحظات، وكانت السلالم الداخلية تقذف إلى السطح سيلاً من الضباط والبحارة شاخصين بأعين قلقة وأنفاس لاهثة لعلهم يرون

الوحش البحري. وكنت أنظر وأمعن النظر حتى أكاد أفقد البصر، بينما كان تابعي كونسایل يظل هادئًا ويقول لي:

- لو أن سيدي لا يكثر من النظر هكذا، لاستطاع أن يرى أكثر.

ولكن يا لضيعة الآمال، كانت السفينة إبراهيم لنكونلن تخفف من سرعتها ثم تتعقب الوحش، فإذا هو لا يعدو أن يكون حوتًا أو قرشًا عاديًا ثم لا يلبث أن يختفي بين هتاف الاستياء.

وكان نيد لاند دائمًا في إنكاره لما يحدث. بل كان يتظاهر بالانصراف عن النظر إلى سطح المحيط في غير نوبة المراقبة المحددة له إلا إذا شاهد حوتًا بالقرب من السفينة. ورغم أن قوة إبصاره العجيبة كانت تغدو ذات فائدة كبرى لنا، فإن ذلك الكندي العنيد كان يلزم مقصورته ثماني ساعات نهارًا أو ليلاً حيث يقرأ أو يستسلم للنوم.

وكان يرد عليّ بقوله:

- ها. لست أعتقد بوجود ذلك الوحش المزعوم. وحتى لو وجد، فكيف يمكن أن نلتقي به؟ ألسنا نضرب في المحيط اعتباطًا؟ سأسلم بأن الوحش شوهد في شمالي المحيط الهادي مرة أخرى، ولكن قد مضى شهران على ذلك، وطبقًا لما عرف عن مزاج صاحبنا هذا فإنه لا يحب أن يطيل البقاء في مكان واحد حتى لا يترهل. فهو يتمتع بقدرة هائلة على الحركة هنا وهناك. وأنت تعرف يا أستاذ كما أعرف أن الطبيعة لا تتصرف اعتباطًا وأنها لا تمنح الحيوان البطيء موهبة السرعة إن لم يكن في حاجة إليها، وإذن، لو وجد هذا الوحش، فهو الآن في مكان بعيد.

لم أدر بماذا أجيب على هذا. كان جلياً أننا ماضون على غير هدى، ولكن ماذا كان في وسعنا أن نفعل غير هذا؟ ثم إن الفرص أمامنا كانت جد محدودة ومع هذا فلم يكن أحد في الوقت نفسه يشك في نجاح مهمتنا. بل لم يكن على ظهر السفينة بحار واحد يرفض المراهنة على وجود الوحش البحري وعلى قرب ظهوره.

وبلغنا أخيراً المنطقة التي شوهد فيها الوحش آخر مرة. والواقع أنه لم يكن أحد على ظهر السفينة يعيش عيشة طبيعية. فقد كان البحارة جميعاً تحت وطأة انفعال عصبي يند عن الوصف. لم يكن أحد يأكل أو ينام طبيعياً، وكانت المخاوف الشديدة تملأ نفوسنا نحو عشرين مرة في اليوم نتيجة خطأ في التقدير أو خداع بصري يستهدف له بحار جالس فوق الأشرعة. وكانت هذه الانفعالات المتكررة على تلك الصورة تجعلنا في حالة من شدة الاضطراب لا بد أن يعقبها رد فعل قريب.

والواقع أن رد الفعل المتوقع لم يطل انتظاره. لقد ظلت إبراهيم لنكولن مدى ثلاثة أشهر كان كل يوم فيها كأنه عام. ومضت تذرع مياه المحيط الهادي الشمالي، فلم تدع حوتاً لاح لها إلا تعقبته وتحولت عن طريقها، واستدارت فجأة أكثر من مرة، وتقلبت في شتى المسالك دون سابق إنذار، ولم تترك بقعة على الشواطئ الصينية أو اليابانية دون أن تجوس خلالها. ورغم ذلك لم تشهد سوى المياه الشاسعة، ولم نبصر شيئاً يشبه الكركدن البحري أو جزيرة غاطسة أو حطام سفينة، أو حاجزاً بحرياً عائماً، أو شيئاً من خوارق الطبيعة.

وهكذا ابتداءً رد الفعل. وقد تجلى في أول الأمر في انحطاط الهمة

الذي استحوذ على عقولنا وفتح باب الشكوك في نفوسنا. وساد السفينة إحساس جديد أيسره خجل وأكثره غضب، وكان البحارة ينعتون أنفسهم بالغفلة لاستدراجهم إلى هذه المهمة الوهمية، مما أثار شديد سخطهم. ولم تلبث المناقشات المستفيضة التي ظلوا يتداولونها طوال العام أن تبددت فجأة، وإذ بكل منهم لا يفكر إلا في تعويض ساعات الطعام والنوم التي ضحوا بها في حماقة.

وانقلب الجميع - بما عرف في العقل البشري من مرونة طبيعية، من إفراط إلى تفريط، فإذا أشد المتحمسين للمهمة، أكثرهم تخاذلاً. وسرى رد الفعل من أعماق السفينة حيث عمال الوقود إلى مقاصر الضباط، والحق أنه لولا شدة حزم الربان فارجوت، لأدبرت مقدمة السفينة نهائياً صوب الجنوب. ومهما يكن فما كان لهذا البحث غير المجدي أن يستمر أكثر من هذا، وأعتقد أنه لم يقدر لفريق من البحارة الأمريكيين أن أبدوا من الحماس ما أبداه بحارة السفينة إبراهيم لنكولن. ومن ثم لن يعزى إخفاق البعثة إلى قصور منهم في هذا المقام. وهكذا لم يبق أمامنا إلا طريق العودة.

وقدّم إلى الربان التماس بهذا المعنى، ولكنه أصر على موقفه، وعندئذ لم يحاول البحارة إخفاء استيائهم. مما كان له تأثير على العمل في السفينة. ولست أعني أنه حدثت ثورة في السفينة، ولكن الربان لم يلبث بعد أن طال عناده فترة من الزمن أن طلب - كما فعل كولمبوس من قبل - أن يصبر البحارة ثلاثة أيام فإذا لم يظهر الوحش خلال هذه المهلة، فإن على المكلف بالدفة إن يدير العجلة لكي تتجه السفينة إلى

المياه الأوروبية.

وانقضى يومان، وظلت السفينة ماضية بنصف سرعتها، وأدليت بمقادير كبيرة من اللحوم المقددة في أثرها لاستدراج الوحش، ولكنها ذهبت طعامًا للأسماك المفترسة، ثم توقفت السفينة وأرسلت جميع قواربها في مختلف الاتجاهات، ولكن ليلة الرابع من شهر نوفمبر مضت دون كشف سر اللغز المقترب بأعماق البحر.

كانت اليابان تقع في اتجاه الريح على مسافة تقل عن مائتي ميل. ودقت الأجراس مؤذنة بالساعة الثامنة وأنا مستند إلى حاجز السفينة وتابعي كونساييل بجانبني محدق في الظلام الوشيك، والضباط يكتسحون الأفق بمناظيرهم الليلية، وفيما أنا أنظر إلى كونساييل لاحظت أن هذا التابع الشجاع قد تأثر بعض الشيء بالجو السائد، أو هذا على الأقل ما بدا لي. ولعل أعصابه كانت - لأول مرة - تستجيب لفضول طرأ عليه.

قلت له:

- حسنًا يا كونساييل هذه فرصتك الأخيرة للحصول على ألفي دولار.

- هل يسمح سيدي أن أخبره بأني لم أهتم أبدًا بالحصول على الجائزة، وأنه حتى لو رصدت مائة ألف دولار لما أثار ذلك اهتمامي؟

- أنت على حق يا كونساييل، إنها كانت مهمة سخيفة على أي حال. إننا أضعنا الوقت والصبر، وكان أولى بنا أن نكون في فرنسا منذ ستة أشهر.

- نعم... في مسكن سيدي الصغير نصنف مجموعات سيدي من المتحجرات ونضع البايروزا في قفصها بحديقة النباتات لكي تستأثر باهتمام أهل باريس جميعاً.

- أجل يا كونسايل. وفضلاً عن هذا سنكون أضحوكة للناس.

فقال كونسايل بهدوء:

- هذا أكيد، أظنهم سيضحكون من سيدي. ولا بد أن أقول..

- ماذا يا كونسايل؟

- إن سيدي يستحق هذا تمامًا. فعندما يتشرف الإنسان بأن يكون من العلماء كسيدي، فإنه لا يتعرض...

لم يتم كونسايل إطرأه فمن خلال السكون المخيم على الجميع،
سمع نيد لاند يصيح قائلاً:

- انظروا إلى هناك.. إن ما نبحث عنه يبدو عند الأفق.



الفصل السادس

بأقصى سرعة

اندفع رجال السفينة جميعًا نحو صيَّاد الحيتان إثر صيحته: الربان والضباط والبحارة والخدم حتى المهندسون تركوا الآلات، وعمال الأفران تركوا أفرانهم وكان الأمر قد صدر بوقف السفينة، فكانت تتحرك بقوة الاندفاع الذاتي. وكان الظلام كثيفًا، فلم أتمالك من التساؤل: ترى ما الذي رآه نيد لاند وكيف استطاع أن يتحقق مما رأى؟

شعرت بقلبي يخفق بشدة.

وعلى مسافة نحو ستين مترًا من الجانب الأيمن للسفينة، بدا سطح البحر كأنه مضاء من سطح الماء، وأدركنا أن الوحش كامن في مكان ما بالأعماق، مرسلًا ذلك الضوء القوي المحير الذي ورد ذكره في تقارير كثير من الربابنة، وكان الضوء منيرًا جسمًا هائلًا بيضاوي الشكل، مستطيلًا جدًا تتركز في وسطه بؤرة الضوء الباهر لا يلبث أن يتلاشى بالتدرج.

وهتف أحد الضباط قائلاً:

- هذا مجرد انعكاس وهج ساطع لجزيئات فسفورية.

فقلت له بلهجة اليقين:

- لا يا سيدي. ليس بين الأحياء المائية المضيئة ما يشع مثل هذا الضوء. إنه ضوء كهربائي. فضلاً عن هذا.. انظروا... إنه يتحرك نحونا.. وتعالص صيحة مشتركة من السفينة، ولكن الربان هتف قائلاً:

- السكوت. ارفعوا المراسي وغيروا الاتجاه.

وهكذا حاولت السفينة أن تهرب ولكن الوحش الخارق أخذ يقترب منها بسرعة مضاعفة.

وتسمرنا في أماكننا، وانعقدت ألسنتنا من فرط الذهول الذي فاق إحساسنا بالخوف. ولحق الوحش بنا، ودار حول السفينة التي كانت تنطلق عندئذ بسرعة أربع عشرة عقدة في الساعة، وغمرها بحلقة من الضوء كأنها ذرات غبار مشع، ثم ابتعد مسافة ميلين أو ثلاثة تاركاً وراءه سحابة فسفورية كالبحار المنساب من قاطرة بخارية. وفجأة اندفع الوحش عائداً إلى السفينة بسرعة مخيفة من وراء الأفق المظلم حيث ذهب ليستجمع قواه. ثم توقف فجأة على مسافة عشرين قدماً، ثم ذهب. إنه لم يغطس لأن ضوءه الساطع لم يتلاش تدريجياً بل مرة واحدة كأنه انطفأ. ثم عاد للظهور مرة أخرى في الجانب الآخر من السفينة. إما بالالتفاف حولها أو الانسياب من تحتها. وكان من المتوقع بين لحظة وأخرى أن يقع الاصطدام الذي قد يكون قاضياً علينا.

وغمرتني الدهشة لموقف السفينة من هذا الأمر، فقد كان الوحش يهاجمها بدلاً من أن تهاجمه، وسألت الربان عن السبب، فقال وقد ارتسمت على وجهه الهادئ دائماً، أبلغ أمارات الدهشة:

- إنني لا أدري يا مسيو أروناكس مدى قوة هذا المخلوق الذي أنازله، ولذلك لن أخطر بالسفينة في الظلام بحماقة وتهور. ينبغي إذن أن نتظر ضوء النهار وعندئذ سيتغير الموقف إلى النقيض.

- ألم يبق لديك شك يا كابتن في طبيعة هذا الوحش؟

- لا يا سيدي. من الواضح أنه كركدن بحري هائل، وهو أيضاً كهربي.

فأضفت قائلاً:

- وربما لا نستطيع الاقتراب منه إلا كما نستطيع الاقتراب من ديناميت أو طوربيد.

- لعل فيه من المتفجرات ما هو أشد وأفتك، فإذا صح هذا، فهو أفظع وحش وُجد في الخليقة. وهذا ما يجعلني ألتزم جانب الحذر.

وظل كافة رجال السفينة ساهرين تلك الليلة. لم يفكر أحد في النوم. ولم يكن في مقدور السفينة أن تجاري الوحش في سرعته، فقد بقيت سائرة بنصف سرعتها. واقتدى بها الكركدن فجعل يسير إلى جانبها ويدفع بالأمواج إليها، وكأنما قرر ألا ينسحب من ميدان النزال.

ومهما يكن فقد اختفى حوالي منتصف الليل: تلاشى ضوءه كوردة مشعة هائلة. وفي الساعة الواحدة إلا سبع دقائق صباحاً سمعنا صفيراً

يصم الأذان كالذي يحدث من عمود ماء يندفع بقوة عظيمة.

وكنت إذ ذاك واقفًا مع الربان ونيد لاند في مؤخرة السفينة، نرسل
البصر في لهفة من خلال الظلام المطبق فقال الربان:

- يا نيد لاند. هل سمعت من قبل حوتًا يهدر؟

- نعم يا سيدي الربان. سمعت كثيرًا. ولكنني لم أسمع مثل هدير
هذا الوحش الذي ربحت جائزة الألفي دولار لأنني أول من رآه.

- أجل لقد أصبح لك الحق في هذه الجائزة. ولكن أخبرني هل هو
هذا نفس الصوت الذي يصدر عن الحيتان؟

- نعم يا سيدي. ولكن هدير هذا الوحش أشد بصورة لا نظير لها.
لا مجال للخطأ هنا. ومن المؤكد أنه وحش بحري هائل موجود في هذه
المياه. وأرجو أن تأذن يا سيدي بأن نتبادل معه بضع كلمات عند شروق
الشمس.

فقلت أنا في لهجة تنم عن الشك:

- هذا إذا سمح له مزاجه بالاستماع.

فقال الصياد الكندي:

- دعني أقترّب منه مدى انطلاق أربع حربات وأنا أعرف كيف
أرغمه على الاستماع لي.

فاستطرد الربان قائلاً:

- ولكن لكي نقترّب منه يجب أن أضع تحت تصرفك أحد زوارق
صيد الحيتان.

- بالتأكيد يا سيدي.

- ولكن في ذلك مخاطرة بحياة رجالي.

فرد الصياد ببساطة قائلاً:

- وحياتي أيضاً.

وفي نحو الثانية صباحاً، ظهرت بؤرة الضوء مرة أخرى، بنفس إشعاعها السالف على مسافة نحو خمسة أميال في اتجاه الريح. ورغم بُعد المسافة وهدير الأمواج والرياح كنا نسمع ضربات ذلك الوحش بل وأنفاسه اللاهثة. ويبدو أن الهواء كان يندفع في رئتي الوحش الهائل حين يطفو على السطح للتنفس وكأنه البخار المندفع في أسطوانات محرك بقوة ألفي حصان.

وقلت لنفسي:

- ها. إن حوتاً له قوة آلاف فرسان لهو حوت بديع حقاً.

وبقينا جميعاً على أتم الأهبة حتى مطلع النهار، ثم أخذنا في إعداد أجهزة الصيد؛ فقام الضابط الأول بحشو البنادق التي تطلق الحراب إلى مسافة ميل، والمدافع البعيدة المرمى بالقذائف المتفجرة التي تصيب أقوى الوحوش بالجراح القاتلة. واكتفى نيد لاند بشحن حربته التي كانت بين يديه سلاحاً رهيباً.

وبدأت طلائع الفجر تنساب، ومع أول أضوائها، اختفى النور الكهربائي المشع من الكركدن البحري، وفي الساعة السابعة صباحاً انتشر حول السفينة ضباب كثيف حجب كل شيء حتى لم تستطع أقوى

المناظير اختراقه.

وتسلقت السارية الكبرى حيث وجدت بعض الضباط قد سبقوني إلى أطرافها. وبدأ الضباب ينقشع حوالي الثامنة صباحًا، وفجأة سمعنا صوت نيد لاند وهو يصيح كما حدث في الليلة السابقة:

- إن الوحش في الجانب الأيمن من السفينة.

فتحولت جميع الأنظار إلى الاتجاه الذي أشار إليه. وهناك على مسافة ميل ونصف ميل من السفينة، رأينا جرمًا أسود ضخماً يبرز بما يجاوز الyarde فوق الأمواج. وكان ذيله المضطرب بعنف يثير دوامات هائلة. ولا أذكر أن هناك حيوانًا بحريًا معروفًا يمكن أن يضرب الأمواج بمثل هذه القوة. وكان ثمة أثر طويل ساطع البياض ينم عن مسير الوحش ويرسم على سطح الماء قوسًا كبيرًا.

واقتربت السفينة من الوحش البحري، واستطعت أن أراه بوضوح. وبدا لي أن التقارير التي قدمها ربانة السفينتين شانون وهلفيا قد بالغت في وصف حجمه. وقد قدرت طوله بما لا يزيد على مائة وخمسين قدمًا... أما بقية أبعاده فلم أستطع أن أرى إلا أنها متناسبة مع طوله.

وبينما كنت أراقبه، إذ بعمودين من الماء والبخار ينبثقان من منخاريه ويرتفعان إلى مسافة خمسين ياردة مما طابق رأيي في كيفية تنفسه. واستخلصت نهائيًا أنه ينتمي إلى فصيلة الثدييات البحرية الفقارية التي تنحدر من أسرة الحيتان الضخمة.. ولكنني لم أكن واثقًا إلى أي فصيلة من فصائل هذه الأسرة كان ينتمي هذا الوحش.. فإن هذه الأسرة تنقسم إلى ثلاث فصائل: الحيتان، والكاتشالوت «القياطس» والدرافيل،

ويتمى الكركدن البحري إلى الفصيلة الأخيرة.

ووقف البحارة ينتظرون بصبر نافذ أوامر الربان الذي ما لبث بعد أن راقب الوحش باهتمام أن استدعى كبير المهندسين وقال له:

- هل البخار على تمامه؟

- نعم يا كابتن.

- إذن أوقد النيران وأطلق البخار بكل قوته.

فانبعث الهتاف ثلاثاً تحية لهذا الأمر، وقد حلت ساعة النزال. وبعد لحظات كانت مداخل السفينة تطلق سيلاً كثيفاً من الدخان الأسود، وسطحها يهتز بهدير المراحل.

واندفعت السفينة إبراهيم لنكولن بأقصى قوتها إلى الوحش الذي تركها تقترب منه حتى أصبحت على بعد عشرين متراً تقريباً، وإذ به يتعد قليلاً وكأنما ترفع عن الغطس، ولكنه ظل محتفظاً بالمسافة التي بينه وبين السفينة.

واستمرت هذه المطاردة ثلاثة أرباع الساعة دون أن تقصر المسافة بينهما ولو أربع ياردات، وكان الواضح أن السفينة لن تدركه قط وهي بهذه السرعة.

وعبث الربان بلحيته في ضيق ثم قال يخاطب نيد لاند:

- يا نيد لاند. هل ترى أنه يحسن إنزال قوارب الصيد؟

فأجاب نيد لاند قائلاً:

- لا يا سيدي. لأن هذا الحيوان لن يسمح لأحد بصيده إلا حينما

يشاء.

- إذن ماذا يجب أن نفعل؟

- نطلق السفينة بكل سرعتها، وأقف أنا في المقدمة إذا سمحت،
حتى إذا أصبحنا منه على مرمى حربة قذفته بها.
- حسنًا جدًا.

قال الربان هذا. وأمر المهندس بمضاعفة السرعة.

وانتقل نيد لاند إلى الموقع المعين، وازدادت نيران السفينة ضرامًا،
وانطلق الرصاص يدور بسرعة ثلاث وأربعين دورة في الدقيقة، واندفع
البخار من الصمامات، ونظر الربان إلى مقياس السرعة، فسجل ثمانية
عشر ميلًا ونصف ميل في الساعة. ولكن الوحش كان ماضيًا بنفس هذه
السرعة أيضًا.

وظلت السفينة منطلقة كذلك ساعة أخرى دون أن تقترب من الوحش
قيد ياردة، وكان هذا الوضع ينطوي على مهانة إذ كانت من أسرع السفن
في البحرية الأمريكية، وأخذ البحارة يشعرون بالتعب المتزايد، فراحوا
يسبون الوحش الذي ترفع عن الرد، ولم يكتف الربان بقتل لحيته، وإنما
بدأ يعرض عليها بأسنانه. وأخيرًا استدعى المهندس مرة أخرى وقال له:

- هل بلغت أقصى ضغط عندك؟

- نعم يا سيدي.

فأمره الربان أن يفعل كل ما في وسعه دون أن تنفجر السفينة،
وسرعان ما أهملت أكوام الفحم داخل الأفران، وتزايدت سرعة السفينة،
واهتزت ساربتها من جديد. ولما قيست هذه السرعة كانت تسعة عشر

ميلاً وثلاثة أعشار الميل.

وصاح الربان:

- أطلقوا البخار كله.

فأطاع المهندس، وسجل قياس الضغط عشر درجات. ولكن الوحش ظل منطلقاً بسرعة تسعة عشر ميلاً وثلاثة أعشار الميل بنفس السهولة التي كان ينطلق بها بسرعة ثمانية عشر ميلاً ونصف ميل.

يا لها من مطاردة. لا أستطيع أن أصف شعور الانفعال الذي كان يعصف بكل كياني. وظل نيد لاند منتصباً في موقعه، والحربة في يده. وقد سمح لنا الوحش مراراً بالاقتراب منه وأحياناً بلغ اقترابنا منه حدّاً جعل نيد لاند يرفع يده لقفز الحربة، ولكن الوحش كان يندفع بعيداً بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة. بل كان يسخر من السفينة أحياناً عند ما راح يدور ويدور حولها.

وانطلقت صيحة غضب من جميع الأفواه، فقد دقت الساعة الثانية عشرة دون أن نتقدم عما كنا عليه في الثامنة صباحاً، وأخيراً قرر الربان فارجوت أن يتخذ وسائل أكثر حزمًا فقال:

- آه، إذن فهذا الوحش ينطلق بأسرع من سفيتي! حسناً سأرى هل يستطيع أن يسبق قذيفة مدفع! أرسل يا رئيس البحارة رجالك إلى المقدمة.

وسرعان ما تم حشو مدفع المقدمة وتصويب فوهته ثم إطلاقه. ولكن القذيفة مرت من فوق الوحش ببضعة أقدام، وما برح يسبق السفينة

بنصف ميل.

وصاح الربان قائلاً:

- ليحاول مدفعي آخر إصابة هذا الهدف... سأدفع خمسمائة دولار لمن يصيب الوحش، وتقدم مدفعي عجوز رمادي اللحية. ويخيل إليّ أنني أرى الآن وجهه الهادئ وهو يقترب من المدفع، ثم وهو بعده ويسدده بإحكام. وأعقب ذلك صوت انفجار مرتفع اختلط بهتاف البحّارة.

وبلغت القذيفة هدفها. وأصابت الوحش. ولكنها انزلقت من سطحه الدائري وسقطت في البحر وهي على مسافة ميلين من مكاننا.

وصاح الربان:

- سحقاً لهذا، لا بد أن يكون هذا الوحش مغلفاً بألواح حديدية سمكها ست بوصات. ولكنني سأناله ولو فجرّت السفينة في هذا السبيل. وكان الأمل معقوداً في أن يبلغ التعب من الوحش حد الإعياء، وألا يكون بمنعة من الكلال كالآلة البخارية. ولكن تعاقبت الساعات دون أن يبدو منه دلائل الإعياء.

وينبغي القول، تقديرًا للسفينة إنها احتملت هذا الصراع دون كلل، ولست أقدر المسافة التي قطعناها في ذلك اليوم الأنكد بأقل من ثلاثمائة ميل، ولكن الليل أقبل ونحن في انطلاق على المحيط المضطرب.

وخطر لي في تلك اللحظة أن مهمتنا قد انتهت عند هذا الحد، وأنا لن نرى ذلك الوحش الفريد مرة أخرى.

ولكنني كنت مخطئاً، لأن الضوء الكهربائي لم يلبث أن لاح مرة أخرى في العاشرة والدقيقة الخمسين مساءً على مسافة ثلاثة أميال منا في اتجاه الريح، وكان واضحاً باهراً كالليلة السابقة.

وبدا كأن الكركدن البحري هامد الجسم. ولعله بعد إرهاقه في اليوم السابق كان مستغرقاً في النوم في مهده المائج وكانت تلك فرصة قدر الربان أن يستغلها.
وأصدر أوامره...

وزحفت السفينة إبراهيم لنكولن بنصف سرعتها في حذر كأنما تخشى أن توقظ غريمها. ولم يكن من النادر أن يلتقي الصيادون في عرض البحار بالحيتان وهي مستغرقة في النوم. وحدث أن أصاب نيد لاند بحرا به بعضهما في هذه الحالة.

وهكذا عاد الصياد الكندي إلى موقفه السالف في مقدمة السفينة. واقتربت السفينة بسكون. وأوقفت محركاتها على بعد نحو ستين متراً من الوحش، ولكنها ظلت تتقدم. وكان السكون العميق مخيماً على سطحها، ولم نلبث أن أبصرنا على مسافة مائة قدم بؤرة الضوء الذي كان يزداد توهجاً حتى بهر أبصارنا.

وفي تلك اللحظة رأيت نيد لاند -وأنا مستند إلى الحاجز الأمامي- ممسكاً في مكانه أسفل مني بحبل وقد راح يهز الحربة المخيفة بيده الأخرى وهو على مسافة عشرين قدماً من الوحش الساكن.

وفي لمح البصر، قذف بالحربة، وسمعت رنينها وكأنما قد

اصطدمت بجسم صلب.

وفجأة انطلق الضوء الكهربائي، وتدفق عمود ماء ضخيم على سطح السفينة يكتسحها كالسيل من الأمام إلى الخلف، فهوى الرجال أرضاً، وتقطعت الجبال، وأعقب ذلك صدمة مروعة، وألقي بي من فوق حاجز السفينة قبل أن أتمكن من الصمود، وسقطت في البحر.



الفصل السابع

حوت من نوع مجهول

استطعت رغم دهشتي من هذا السقوط المفاجئ أن أحتفظ بحواسي .
وكنت في أول الأمر قد غصت إلى عمق نحو عشرين قدمًا، ولما كنت
سباحًا ماهرًا، ولم تفقدني السقطة حضور الذهن فقد استطعت بعد
رفستين قويتين أن أعود إلى السطح .

وكان الظلام كثيفًا، ولكنني استطعت أن أرى كتلة سوداء تختفي نحو
الشرق وتختفي معها أضواؤها على البعد . إنها السفينة إبراهيم لنكولن .
ومعنى هذا أنني فقدت كل أمل في النجاة .

وأطلقت صيحة استغاثة وأنا أصبح نحو السفينة بضربات يائسة
ولكن ملابسي أخذت تعوقني بعد أن ألصقها الماء بجسدي . وهكذا
شلت حركاتي وبدأت أهوي إلى القاع .

- النجدة !

كانت تلك صيحتي الأخيرة، فقد امتلأ فمي بالماء، وحاولت
مستميتًا أن أقاوم السقوط في الأعماق .

ولكنني شعرت فجأة بيد قوية تمسك ملابسي وتردني بقوة إلى سطح الماء ثم سمعت هذه الكلمات تتردد في سمعي:

- إذا تكرم سيدي بالاعتماد على كتفي، استطاع أن يحسن السباحة.

فأمسكت بذراع تابعي الوفي كونسايل وأنا أهتف:

- أنت! أنت! ...

فأجاب كونسايل:

- نعم يا سيدي.

- هل قذفت بك الصدمة إلى الماء أيضًا؟

- لا. ولكن لما كنت في خدمة سيدي فقد تبعته.

لقد رأى ذلك التابع الكريم أن ما فعله أمر طبيعي جدًا.

وسألته قائلاً:

- وماذا عن السفينة؟

فقال وهو يسبح على ظهره:

- السفينة؟ أعتقد أنه يحسن بسيدي ألا يعتمد عليها.

- لماذا؟

- لأنني وأنا أقفز من الماء سمعت الموكل بعجلة الدفة يقول إن

الرفاص والدفة تحطّما.

- نعم بناب الوحش، وهذا هو التلف الوحيد الذي أصابها كما

أظن، ولكنها بدون دفة لن تفيدنا بشيء.

- إذن فقد ضعنا.

فقال كونسايل بهدوء:

- ربما ولكن لا يزال أماننا الآن بضع ساعات، وفي بضع ساعات يمكن أن تحدث أمور كثيرة.

وكان لهدوء كونسايل أثر طيب في نفسي، فأخذت أسبح بقوة، ولكن ملابسي كانت تعوقني وتجذبني إلى أسفل كأنها ثقل من الرصاص، وهكذا تعذر عليّ أن أظل طافيًا. ولاحظ كونسايل موقعي فقال:

- هل يسمح لي سيدي بشق ملابسه؟

ثم دس في ملابسي مدية مفتوحة وشققها بسرعة من أعلى إلى أسفل، ثم ساعدني في التخلص منها بينما كنت أسبح. وبعد أن عاوانته بنفس الكيفية أخذنا نسبح جنبًا إلى جنب.

ولكن موقفنا في الوقت نفسه لم يكن أقل شناعة فمن المحتمل أنهم لم يفتنوا إلى اختفائنا. وحتى لو أنهم فطنوا، فما كان في مقدور السفينة إنقاذنا وهي بغير دفة، وهكذا كان الأمل الوحيد في نجاتنا هو إرسال قواربها للبحث عنا.

وقع الاصطدام في نحو الحادية عشرة مساءً. وحوالي الواحدة صباحًا غمرني إعياء شديد، وتصلبت أطرافي خدرًا، فاضطر كونسايل، أن يشدد من عزيمتي، وهكذا أصبحت نجاتنا متوقفة عليه وحده ولكني كنت أسمع المسكين وهو يلهث، فأدركت أنه لن يستطيع الاستمرار في الكفاح.

وهتفت به قائلاً:

- دعني أغرق دعني.

فرد قائلاً:

- أَدع سيدي؟ مستحيل. سأغرق معه.

وفي تلك اللحظة بزغ القمر من وراء سحابة كبيرة كانت الرياح تدفعها نحو الشرق. وتألّق سطح البحر بأشعته الفضية، ورفعت رأسي فرأيت السفينة وكانت على مسافة خمسة أميال من مكاننا وبدأت كتلة سوداء لا تكاد تبين. ولكنني لم أر أي قارب.

وحاولت أن أصبح مستنجدًا. ولكن لم يكن ثمة فائدة من الصباح لبعد المسافة. ثم أن شفتي المنتفختين لم تدع صوتًا يخرج منها، ولكن كان بوسع كونساييل الكلام. وسمعته يهتف مرارًا مستنجدًا.

وتوقفنا عن الحركة برهة لنرشف السمع. وخيل إلينا أن ما سمعناه في تلك اللحظة لا يعدو أن يكون طنينًا في آذاننا، ولكن بدا لي أن صيحة انبعثت استجابة لإغاثة كونساييل. فغمغمت قائلاً:

- هل سمعت؟

- نعم... نعم..

وأرسل كونساييل في الفضاء صيحة يائسة أخرى وفي هذه المرة لم يكن ثمة التباس فقد جاوبنا صوت آدمي. فهل كان صوت ضحية أخرى لحادث الاصطدام، أو أنه زورق إنقاذ ينادينا في الظلام؟

وبذل كونساييل جهدًا خارقًا فاعتمد على كتفي بينما بذلت جهدًا

أخيرًا للسباحة دونه ثم رفع نصف جسمه فوق سطح الماء، وأرسل صيحة عالية. وعندئذ خارت قواي وانزلت أصابعي، وامتلاً فمي بالماء الأجاج، وسرت البرودة في جسمي، فرفعت رأسي لآخر مرة قبل أن أهوى في الماء.

وفي تلك اللحظة اصطدمت بشيء صلب، فتشبثت به مستميتًا، ثم شعرت بنفسي أرتفع فوق سطح الماء، ثم فقدت وعيي، ولكنني لم ألبث أن أفقت إثر تدليك شديد شعرت به، وفتحت عيني قليلًا وغمغمت:

- كونساييل؟

- هل سيدي يناديني؟

ورأيت في تلك اللحظة على ضوء القمر المنحدر عند الأفق، وجهًا آخر غير وجه كونساييل.. ولكنني عرفته فورًا، فهتفت قائلاً:

- نيد لاند!

فأجاب الكندي:

- نعم يا سيدي. يبحث عن جائزته.

- هل سقطت في البحر عندما اصطدمت السفينة؟

- نعم ولكنني كنت أسعد حظًا إذ وجدت جزيرة عائمة.

- جزيرة عائمة؟

- نعم أو بتعبير أفضل صاحبنا الكركدن الهائل.

- ماذا تعني يا نيد لاند؟

- أعني إنني عرفت الآن لماذا لم تنفذ حربتي في الوحش وإنما تتلمت.

- لماذا يا نيد. لماذا؟

- لأن الوحش مغلف بالواح من الحديد.

وتسلقت بسرعة إلى قمة ذلك الشيء الغاطس الذي وجدنا فيه ملاذنا. وضربته بقدمي فقد بدا لي بوضوح أنه جسم صلب لا ينفذ فيه شيء وليس تلك المادة الرخوة التي تتكون من أجرام الثدييات البحرية الهائلة. ولكن هذا الجسم الصلب لم يكن بأي حال درقة عظمية لحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ. بل لم أستطع أن أضعه بين الزواحف البرمائية كالسلاحف والتماسيح لأن سطحه المسود الذي ركبنا عليه لم يكن ذا حراشيف، بل كان أملس مصقولاً.

وأحدثت ضربة قدمي رنيناً معدنياً، وبدا لي رغم ما يبدو في هذا من موجبات الدهشة، أن الضربة وقعت على ألواح حديد «مبرشم» لم يبق ثمة مجال للشك. فإن هذا الحيوان أو الوحش أو الظاهرة الطبيعية التي حيرت دنيا العلماء، وخدعت البحارة في قصص المعمورة، كان في الواقع، ظاهرة أبعث على الدهشة، ظاهرة من صنع الإنسان. إن اكتشاف وجود أغرب الكائنات الأسطورية والخرافية ما كان ليثير دهشي إلى هذا الحد. إن ما يدخل في باب البساطة أن نجد أشياء معجزة تكون من صنع الخالق، ولكن رؤية المستحيل يتحقق على يد الإنسان فذلك ما يبلبل كل خيال.

لقد تمددنا على قمة شيء يشبه غواصة بدا لي قطرها كسمكة هائلة

من الصلب. كان هذا رأي نيد لاند، ولم يسعني أنا وكونساييل، إلا أن نشاطره رأيه. وقلت له:

- ولكن لا بد وأن يكون داخل هذا الجهاز آلة محرّكة، وبحارة يديرونها.

فأجاب صياد الحيتان:

- هذا ما يظهر، ومع ذلك فإني لم أر في خلال الساعات الثلاث التي أمضيتها في هذه الجزيرة العائمة أي علامة للحياة.

- ألم تتحرك من مكانها؟

- لا. يا مسيو أروناكس. إنها مستقرة بين الأمواج. ولكنها لا تتحرك.

- مهما يكن فإننا نعرف دون أدنى شك أنها ذات سرعة هائلة. ولما كانت السرعة لا تتولد إلا عن آلة، ولا بد للآلة من شخص يوجهها فإني أستخلص من هذا أننا نجونا.

فغمغم نيد لاند بتحفظ. وعندئذ، وكأنما جاء ذلك تعزيزاً لحجتي سمعنا صوتاً كغليان الماء في مؤخرة ذلك الجهاز العجيب، ويبدو أنه رفاص من النوع اللولبي، ثم بدأ يتحرك. فأسرعنا نتعلق بسطحه الأعلى الذي برز من الماء نحو ياردة، ومن حسن الحظ لم تكن سرعته كبيرة.

وغمغم نيد لاند قائلاً:

- ما دام كان يتحرك أفقيّاً، فليس عندي ما أقوله، أما إذا تراءى له أن يغوص، فإني لا أضمن حياتي بدولارين.

كانت تلك هي الحقيقة الواضحة، وإذن فقد صار لزماً أن نبادر بالاتصال بما قد يكون داخل الجهاز من كائنات. فنظرت إلى سطحه باحثاً عن فتحة، ولكنني رأيت الألواح مشدودة بعضها إلى بعض بإحكام شديد.

يضاف إلى هذا أن القمر اختفى إذ ذاك وتركنا في ظلام مطبق. وكان علينا أن نتظر حتى شروق الشمس لنقرر الوسيلة التي نستطيع بها أن ننفذ إلى داخل الغواصة.

وهكذا كانت نجاتنا متوقفة على مزاج الرجال المسؤولين الذين يديرون عجلة هذا الجهاز، فإذا خطر لهم أن يغوصوا كنا من الهالكين، ومتى يتم هذا؟ لم يكن لديّ شك في إمكان الاتصال بهم، وكان من المؤكد أنهم إذا لم يكونوا مجهّزين بالهواء الداخلي بطريقة ما، فهم مضطرون للصعود بين آن وآخر إلى سطح المحيط لتجديد ذخيرتهم من الهواء النقي. وإذن فلا بد من وجود فتحة تصل بين داخل هذا الجرم العائم وبين الجو.

أما الأمل في نجاتنا على يد الربان فارجوت، فكان علينا أن نستبعده تماماً. ذلك أننا كنا نندفع غرباً بسرعة معتدلة نسبياً قدرتها باثني عشر ميلاً في الساعة. وكان الرفاص يضرب الأمواج بانتظام دقيق، وكان أحياناً يبرز ويدفع الماء المضىء إلى علو كبير.

وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً، ازدادت سرعة الجهاز فكنا نقاوم بصعوبة الأمواج وهي تضربنا بكل عنفها وما كان يصحبها من دوار لا بد منه.

ومن حسن الحظ أن لمست يد نيد لاند سياجًا مشدودًا إلى قمة
السطح الحديدي فاستطعنا أن نتشبث به بكل قوانا.

وانقضت أخيرًا تلك الليلة المديدة، ولا تستطيع ذاكرتي المبتورة أن
تستعيد كافة الانطباعات التي اقترنت بها. ولكنني أذكر بوضوح شيئًا ما
برح يعاود ذاكرتي. فبين فقرات سكون البحر والرياح بدا لي مرارًا أنني
أسمع أصواتًا مبهمة.. لوثًا من نغمات غامضة تنساب من أوتار بعيدة.
فأي سر إذن ينطوي عليه هذا الجهاز الملاحي الغائص، الذي كان
العالم كله يلتمس عبثًا معرفة كنهه؟ وأي كائنات تعيش في هذا المركب
الغريب؟ وأي أداة آلية تتيح له أن ينطلق يمثل هذه السرعة الجبارة؟

وعندما لاح ضوء النهار كان ضباب الصباح يكتنفنا من كل جانب،
ولكن ما لبث أن تبدد، عندئذ بدأت أفحص بعناية تامة ذلك السطح
الأفقي الذي كنا فوقه شعرت بأني أغوص تدريجيًا.

فصاح نيد لاند وهو يرفض الألواح الرنانة:

- يا للشيطان، افتحوا أيتها المخلوقات التي لا تعرف معنى الضيافة!
ولكن كان من العسير أن يُسمع صوته بسبب هدير الرفاض الذي
يصم الآذان، ومن حسن الحظ أن عملية الغوص توقفت.

وأخيرًا سمعنا من داخل المركب صليلاً وكأنه مزليج حديدية
تسحب بعنف. ثم رفع ولاح رجل أرسل صيحة عجيبة ثم اختفى فورًا.
وبعد لحظات خرج إلينا في سكون ثمانية رجال أشداء ملثمين، ما
لبثوا أن سحبونا إلى داخل هذه الآلة الرهيبة.

الفصل الثامن

حركة في قلب حركة

تمت عملية خطفنا الوحشية بسرعة البرق. ولست أدري ماذا كان شعور زميليَّ وهما يُدفعان إلى جوف هذا السجن العائم. أما من ناحيتي فقد سَرَت في جسمي رعدة خاطفة جمدت الدماء في عروقي.... ترى بمن سنلتقي؟

لاشك أنهم طائفة جديدة من القراصنة الذين استباحوا حرية البحار بوسائلهم الخاصة.

وما كاد غطاء الفتحة الضيقة يغلق فوقني حتى شملني ظلام كثيف. ولم تستطع عيناى المبهورتان بالضوء الخارجي أن تتبيننا شيئاً في الداخل. وأحسست بقدميَّ العاريتين تلمسان درجات سلم حديدي، وتبعني نيد لاند وكونسايل وهما بين أذرع قوية. وفي نهاية السلم فُتح الباب، ثم أُغلق على الأثر مُحدثاً صوتاً رناناً.

وأصبحنا بمفردنا ولكن أين. هذا ما لم أعرفه أو أستطيع تصوره. كان الظلام يغمرنا. ظلام كان شاملاً بحيث لم أستطع بعد دقائق أن أتبين

حتى تلك الومضات الخافتة التي تبدو في أشد الليالي ظلامًا.
وفي أثناء ذلك كان نيد لاند الذي تملكه الاهتياج لهذه التطورات،
قد استسلم لثورة غضبه فهتف قائلاً:

- إن هؤلاء الناس ما كانوا ليصبحوا أسوأ من هذا لو أنهم من
أكلة لحوم البشر. ولن يدهشني أن يكونوا كذلك. ولكنني لن أدعهم
يأكلونني دون اعتراض.

فقال له كونسایل في هدوء:

- هديء من روعك يا صديقي نيد لاند، لا تغضب سلفاً، فنحن لم
نوضع بعد على النار.

- لا. ولكننا داخل الفرن. إن هذا الجحر الذي وضعونا فيه كالفرن
تماماً، ومن حسن الحظ أن سكينتي الحادة لا تزال معي، وسأعرف كيف
أستعملها. إن أول من يضع يده عليّ من هؤلاء الأوغاد..
وعندئذ قلت له:

- لا تسخط يا نيد. ولا تورط نفسك بالعنف الذي لا يجدي. من
يدري أنه ليس هناك من يسترق السمع؟ الأفضل أن تحاول معرفة طبيعة
المكان الذي نحن فيه.

وأخذت أتحمسس طريقي وبعد أن تقدمت خمس خطوات لمست
جداراً مصنوعاً من ألواح الحديد «المبرشمة» ولما استدرت اصطدمت
بمائدة خشبية بالقرب منها بضعة مقاعد. كانت أرضية السجن مفروشة
بحصير سميك أخفى وقع أقدامنا. ولم يكن بالجدران أي باب أو نافذة،

ولم يلبث كونسایل الذي تقدم في الجهة المقابلة أن التقى بي، فعدنا معاً إلى وسط الغرفة التي ناهزت مساحتها عشرين قدماً في عشرة. أما ارتفاعها فإن نيد لاند لم يستطع قياسه رغم طول قامته.

وانقضى نصف ساعة دون أن يحدث أي تغيير في الموقف، ثم إذ بأبصارنا تنتقل فجأة من الظلام الدامس إلى ضوء أشد ما يكون سطوعاً. لقد أضيء سجننا كله مرة واحدة، أو بمعنى آخر، امتلاً بنور ساطع بلغ من قوته أنني لم أستطع أول الأمر احتمال سطوعه. وقد رأيت من شدة سطوعه وقوته أنه نفس الضوء الكهربائي الذي كان يتألق حول الجرم الغائص كأنه ظاهرة فسفورية رائعة. وبعد أن أغلقت عيني مكرهاً فتحتهما ثانية فرأيت أن مصدر الضوء شبه كرة مصقولة تضيء في الجزء الأعلى من الغرفة.

وصاح نيد لاند قائلاً وهو يشرع المدينة في يده متخذاً موقف الدفاع:

- حسناً سنرى أخيراً.

فقلت وأنا أخشى التناقض في حديثي:

- نعم. ولكن الموقف لا يزال غامضاً.

فقال كونسایل الهادئ:

- ليتذرع سيدي بالصبر.

وأتاح لي إضاءة الغرفة فجأة الفرصة لفحصها بإمعان، فإذا هي لا تشمل إلا على مائدة وخمسة مقاعد، أما الباب الخلفي فكان مغلقاً بطريقة مجهولة - ولم يكن ثمة صوت يصل إلى أسماعنا، وقد بدا كل

شيء ساكنًا داخل الجهاز. فهل تراه كان يتحرك أم كان ثابتًا على سطح المحيط، أم غائصًا في الأعماق؟ ذلك ما لم أستطع أن أتكهّن به.

وأيًا كان الأمر، فإن الكرة المضيئة لم ترسل ضوءها بدون سبب، وكنت أرجو ألا يطول الوقت حتى يكشف البحارة عن وجودهم، وكان لهذا الشعور ما يبرره فلم نلبث أن سمعنا صليل مزاليج وقضبان تسحب، ثم فُتح الباب وأقبل رجلان، أحدهما قصير القامة، مفتول العضلات، عريض الكتفين، كبير الأطراف، ضخّم الرأس، غزير الشعر أسوده، كثيف الشارب، ينم كل شيء في مظهره عن حيوية أهل الجنوب التي تميز أبناء الأقاليم في فرنسا.

أما الثاني فهو جدير بمزيد من الإسهاب في الوصف. لقد طالعت على الفور سمات السيطرة مرتسمة على وجهه الساخر: «ثقة بالنفس يدل عليها ثبات ارتكاز رأسه على كتفيه. وانطلاق النظرات من عينيه السوداوين فيما حوله ببرود الواثق من قوته، وسكون مرجعه» إلا أن لون بشرته يدل على هدوء الدماء في عروقه، ونشاط يتمثل في سرعة اختلاج حاجبيه، وشجاعة لأن تنفسه العميق ينبئ عن انطلاق وحيوية. لقد أحسست رغماً عني بطمأنينة في وجودي معه، وتوقعت أن أجد الخير على يديه. وكان يبدو فيما بين الخامسة والثلاثين والخمسين. وكان طول قامته، واتساع جبينه، واستقامة أنفه، ودقة فمه، وجمال أسنانه، ورقة يديه تنم كلها عن حدة المزاج. والواقع أنه كان أبعد طراز بين الرجال صادفته في حياتي: وكانت ثمة خاصية غريبة بصدد عينيه اللتين كانتا تتباعدان بعض الشيء، فقد كانت لهما القدرة على أن تشملنا بنظرة واحدة ريع

الأفق. وقد اقترنت هذه الميزة التي بينتها فيما بعد بقوة إبصار تفوق حتى قوة إبصار نيد لاند. فإذا أراد هذا الرجل أن يتبين شيئاً، قطب حاجبيه وضم جفنيه ليختصر مدى الرؤية والنتيجة هي نظرة تنفذ إلى أعماق الإنسان. إنه بهذه النظرة يخترق الأمواج السائلة التي تبدو غامضة لنا وكأنما يقرأ ما في أغوار البحر.

وكان كلاهما يغطي رأسه بقلنسوة من فراء كلب البحر، ويلبس حذاء من جلد سبع البحر وملابس من نسيج خاص يسمح لهما بالمزيد من حرية الحركة.

وأخذ أطولهما وكان يبدو بوضوح أنه الرئيس، يفحصنا في عناية بالغة دون أن ينطق بكلمة. ثم استدار نحو صاحبه وتحدث إليه بلغة لم أستطع أن أفهمها. كانت لغة ذات رنين وتناسق ومرونة بدت فيها حروف الحركة متنوعة في أساليب نطقها.

فأجاب الآخر بهزة من رأسه وهو يفوه بكلمتين أو ثلاث بلغة غير مفهومة، وبدا من نظراته أنه يوجه السؤال إليّ مباشرة.

فرددت بلغة فرنسية سليمة قائلاً إنني لا أفهم لغته، ولكن بدا لي أنه لا يفهم الفرنسية، وهكذا ازداد الموقف حرجاً.

وقال تابعي كونسایل:

- إذا سرد سيدي قصتنا، فربما استطاع هذان السيدان أن يفهما بضع كلمات منها.

وبدأت في سرد مغامرتنا. بنبرات واضحة دون أن أترك أدق

التفاصيل. وذكرت أسماءنا وصفاتنا. وأخذ الرجل ذو العينين الرقيقتين الهادئتين ينصت إليَّ بهدوء بل وفي تأدب واهتمام ملحوظ ولكن لم يبد على وجهه ما يدل على الفهم. ولما فرغت لم يفه بكلمة واحدة.

وكان ثمة وسيلة أخرى وهي اللغة الإنجليزية - فلعل أحدهما يفهم هذه اللغة الواسعة الانتشار وكنت أحسن القراءة بالألمانية أيضًا، وإن لم أكن أحسن التحدث بها. لذلك قلت لنيد لاند:

- جاء دورك يا نيد لاند. استفد من إتقانك للغة الإنجليزية. عسى أن تكون أكثر مني توفيقًا.

ولم يكن نيد لاند بحاجة إلى إغراء، فما لبث أن راح يقص أمرنا بالإنجليزية. ثم انتهى بقوله صدقًا، إننا نكاد نموت جوعًا. ولشد ما كان اشمئزاه حين أدرك أنه لم يكن أكثر توفيقًا مني. فإن زائرنا لم يبد عليهما أدنى تأثر. وكان واضحًا أنهما لا يعرفان الفرنسية أو الإنجليزية. وبينما كنت أفكر فيما ينبغي أن نفعل بعد هذا، إذ بكونسایل يقول لي:

- هل يسمح لى سيدي أن أتحدث إليهم بالألمانية؟

فهمت قائلاً:

- ماذا؟ أتعرف الألمانية؟

- كما يعرفها أبناءها.

- حسنًا! ابذل جهدك يا صاح.

وأخذ كونسایل للمرة الثالثة يسرد قصتنا ولكن دون جدوى.

وعندئذ استجمعت كل ما تعلمته من اللغة اللاتينية في المدرسة،

وتحدثت عن مغامرتي بهذه اللغة القديمة. ولو أن شيشرون سمعني لأصم أذنيه وأرسلني إلى المطبخ. ولكنني رغم كل ما بذلت من جهد كانت النتيجة سلبية.

وبعد هذه المحاولة الأخيرة، تبادل الرجلان كلمات قليلة بلغتهما المجهولة، ثم انصرفا دون أن يبدو منهما ما يطمئنا. وأغلق الباب خلفهما.

وانفجر نيد لاند غاضباً للمرة العشرين وصاح قائلاً:

- هذا أمر شائن. كيف نتحدث إلى هؤلاء الأوغاد بالفرنسية والإنجليزية والألمانية واللاتينية دون أن يتأدب أحدهما ويرد علينا.

فقلت لصاحبي الغاضب:

- هدى نفسك، فإن الغضب لن يجدي نفعاً.

فاستمر نيد لاند في غضبه قائلاً:

- ولكن هل تعلم يا سيدي البروفسور أنه من الممكن أن نموت جوعاً في هذا القفص الحديدي؟

فقال كونسايل:

- آه. إن في مقدورنا بشيء من الفلسفة أن نقاوم فترة أخرى.

فقلت:

- ينبغي يا صاحباي ألا نركن لليأس. فقد كنا قبل الآن في ظروف أسوأ من هذه. أرجو أن تفضلاً بالانتظار قبل أن تصدروا الحكم على ربان هذه العائمة وملاحيها.

فقال نيد لاند:

- لقد انتهيت إلى رأي في هؤلاء الناس. إنهم أوغاد.

- حسنًا. وإلى أي بلد ينتمون بهذا الوصف؟

- بلد الأوغاد.

- يا صاحبي نيد الفاضل. إن هذا البلد لم يسجل بعد على خريطة العالم بما فيه الكفاية. وأنا أعترف أن من العسير معرفة جنسية هذين الرجلين. فلاهما إنجليزيان أو فرنسيان أو ألمانان، هذه حقيقة مؤكدة. وعلى كل حال فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الريان ومساعداه هما من البلاد الجنوبية. فإن لهما سمات أبناء البحر الأبيض المتوسط. ولكن هل هما من الإسبان أو الأتراك أو العرب أو الهنود؟ إن هيتتهما العامة لا تيسر لنا التأكد من هذا. أما لغتهما، فهي غير مفهومة إطلاقًا.

فقال كونسايل:

- هذه مساوئ عدم الإلمام بكل اللغات، أو مساوئ عدم الاقتصار على لغة عالمية واحدة.

فقال نيد لاند:

- ما كان هذا ليحدثنا نفعًا. ألا ترى أن هؤلاء الناس لغة خاصة. لغة اخترعوها بقصد إدخال اليأس على نفوس أمثالنا من الشرفاء الذين يطلبون الطعام؟ ولكن في أي بلد في العالم إذا أنت فتحت فاك وحركت فكيك ثم أطبقت أسنانك وشفتيك فهم الناس ما تريد. ألا تعني هذه الحركات في كندا وفي جزائر سوسيتي مثلما تعني في باريس وغيرها

من البلاد أنك جائع وتطلب ما تأكله؟

فقال كونسايل:

- أوه. هناك أناس يبلغ بهم عدم الفهم أن...

وبينما هو يفوه بهذه الكلمات فُتح الباب، ودخل خادم يحمل إلينا ملابس كتلك التي كان يرتديها الغريبان فأسرعنا بارتدائها.

وفي خلال ذلك كان الخادم الذي بدا لنا أصم أخرس هو أيضًا يضع على المائدة أدوات الطعام لثلاثة أشخاص.

فقال كونسايل:

- هذه بوادر مشجعة.

وقال نيد لاند:

أراهن بكل تأكيد أنه لا يوجد هنا شيء يصلح للأكل. ربما لا يزيد عن كبد السلحفاة البحرية أو زعانف سمك القرش، أو شرائح كلب البحر.

فقال كونسايل:

- سنرى قريبًا.

ووضعت الأطباق ذات الأغذية الفضية على المائدة في نسق جميل ينم عن مدنية هؤلاء الذين ستعامل معهم. ولولا ذلك الضوء الكهربائي الذي كان يغمرنا لتصورت نفسي جالسًا في فندق أدلفي بمدينة ليفربول أو في الجراند أوتيل بباريس. ولم يكن على المائدة خبز أو خمر. لا شيء غير الماء القراح الذي لم يكن مستساغًا لنيد لاند بأي حال. ومن بين

ألوان الطعام التي وضعت أمامنا تعرفت على أنواع كثيرة من الأسماك المطهوه بإتقان. ولكن كان بينها أنواع أخرى لم أستطع معرفتها رغم طيب مذاقها. ولم يكن في مقدوري أن أعرف موطنها من دول العالم. وكانت أدوات الطعام أنيقة، تدل على الذوق الجميل، وكل قطعة منها كانت تحمل الحرف «ن» مع هذا الشعار:

«الحركة في قلب الحركة»

أي حركة مستمرة في قلب شيء متحرك. أما الحرف «ن» فلا شك أنه الحرف الأول من اسم الرجل الغامض الذي يسيطر على أغوار المحيط. وكان نيد لاند وكونسايل في شغل عن هذه الملاحظات بالتهام كل ما وضع أمامهما. وقد انتهى أمري بأن حدوت حذوهما.

وأخيراً أحسنا بالشبع، ثم بالرغبة في النوم، وهو رد فعل طبيعي بعد الإرهاق الذي نالنا خلال تلك الليلة التي لا نهاية لها ونحن نكافح الموت. و ما إن رقد صاحباي على السجادة حتى استغرقا في نوم عميق، ولكني لم أنم بهذه السرعة فقد كانت الأفكار العديدة تملأ ذهني، كما أخذت المشكلات الكثيرة التي تواجهنا تطالبني بالحل. وظلت الخيالات والصور تطرد النوم عن عيني: فأين نحن؟ أي قوة عجيبة تحملنا في أحشائها؟ لقد شعرت، أو خُيِّل إليّ، بهذه الآلة العجيبة تغوص بنا إلى أعماق أعماق البحر واستبدت بذهني الأحلام مفزعة. فرأيت في طيات هذه الأحلام عالماً خفياً من الحيوانات من بينها هذه الغواصة التي بدأت حية، متحركة، هائلة مثلها. وأخيراً هدأت أفكارني واندمجت خيالاتي في عالم الأحلام ثم سرعان ما استغرقت في نوم عميق.

الفصل التاسع

غضبة نيد لاند

لم أدر كم لبثنا نيامًا، ولكن لا بد أننا نمنا فترة طويلة، لأننا أحسنا بالراحة بعد الإرهاق الشديد. وكنت أول من استيقظ، أما صاحباي فلم يتحرك أحدهما.

ولم تمض فترة على قيامي من فراشي الصلب حتى شعرت بصفاء في ذهني وجعلت أنلفت حولي.

لم يتغير شيء في الغرفة. فقد ظل السجن سجنًا، والسجناء على حالهم. وانتهاز الخادم فرصة نومنا فرغ أدوات الطعام عن المائدة. ولم يكن ثمة ما يدل على قرب حدوث أي تغيير في حالتنا. وقد سألت نفسي جادًا هل قُدر علينا أن نعيش أبدًا في هذا القفص؟

لقد بدا هذا الاحتمال أبعد على الأمل، لأنني كنت أشعر رغم صفاء ذهني بانقباض في صدري كأن الهواء الكثيف يثقل على رئتي. والظاهر أننا استنفدنا الجزء الأكبر من الأكسجين في الغرفة رغم اتساعها. فإن الفرد يستنفد في الساعة الواحدة الأكسجين الموجود في نحو ٨٥ لترًا من الهواء وهذا الهواء بعد أن يثقل بمثل هذه الكمية من ثاني أكسيد الكربون يغدو غير محتمل.

وكان من المحتم إذن تجديد جو سجننا بأقرب وقت، بل جو الغواصة غالبًا، وتبعًا لذلك عرض لذهني هذا السؤال: «ماذا يفعل ربان هذا المسكن العائم؟ هل يحصل على الهواء بوسائل كيميائية وذلك بالعمل على امتداد حرارة الأكسجين الموجود في كلورات البوتاسيوم، بامتصاص ثاني أكسيد الكربون بالبوتاسيوم الكاوي؟ وفي هذه الحالة لا بد له من الاتصال باليابسة ليحصل على المواد اللازمة لهذه العملية.

هل يقتصر على تزويد الغواصة باحتياطي من الهواء المضغوط في أسطوانات ضخمة ثم يطلقه وفقًا لاحتياجات رجاله؟ ربما، أم لعله يتبع الوسيلة الطبيعية الاقتصادية البسيطة فيرتفع بالغواصة إلى سطح البحر للتنفس، كالثدييات الهائلة - ثم يجدد مؤونته من الهواء النقي كل أربع وعشرين ساعة؟ أيًا كانت وسيلته في هذا الشأن، فقد بدا لي أن الوقت قد حان للعمل دون أي تأخير.

واضطرت إلى مضاعفة التنفس لاستخلاص الكمية القليلة الباقية من الأكسجين في الغرفة. وفجأة أنعشني تيار هواء نقي محمل برائحة المياه المالحة. إنه هواء البحر باعث الحياة الذاهر باليود.

وفتحت فمي على سعته، فتشبعت رثائي بالذرات الرطبية وشعرت في الوقت نفسه بالمركب يتأرجح والظاهر بأن الوحش المكسو بألواح الحديد ارتفع كالحيثان. ولما شبعت تنفسًا، تلفت حولي أبحث عن جهاز التهوية الذي جاءنا بالنسيم المنفس الرحيم، ولم يطل بي الوقت حتى عثرت عليه.

وبينما أنا منشغل بهذه الملاحظات استيقظ صاحباي في نفس الوقت

تقريباً. ولا شك أنهما استيقظا بتأثير الهواء المنعش. وقد فرك كلاهما
عينيه وتمطى. ونهض على الأثر وقال لي كونسایل بأدبه المعهود:

- هل نام سيدي مستريحاً؟

- جداً.. وأنت يا نيد لاند؟

- نمت نومًا عميقًا يا سيدي البروفسور، ولكني -إذا صح ظني-
أتنفس الآن هواء البحر.

كانت هذه حقيقة لا يخطئ فهمها أحد من رجال البحر. وقد أخبرت
الكندي بما حدث أثناء نومه فقال:

- إن هذا يفسر الهدير الذي سمعناه حين كان الكركدن البحري
المزعوم على مرأى النظر من السفينة إبراهيم لنكون.

- نعم يا نيد لاند، كان ذلك صوت تنفسه.

- ترى ما هو الوقت الآن إلا إذا كنا في وقت العشاء؟

- وقت العشاء يا نيد! قل ساعة الإفطار على الأقل، فإننا في الواقع
قد نمنا نحو أربع وعشرين ساعة.

فقال نيد لاند:

- لن أجادلك. ولكن سواء كنا في وقت العشاء أو الإفطار فإنني
على استعداد للترحيب بالخادم إذا جاءنا بأحدهما.

فقال كونسایل:

- بل بالاثنتين.

فقال الكندي:

- نعم بالتأكيد. فإن لنا الحق في وجبتين، وأنا مستعد من ناحيتي لأن أقوم بالواجب نحوهما.

فقلت:

- حسنًا يا نيد. لا بد لنا من الانتظار.. فالواضح أنه ليس في نية هذين الرجلين تركنا نموت جوعًا، وإلا لما كان هناك داع لتقديم طعام العشاء لنا أمس.

فقال نيد:

- إلا إذا فعلوا ذلك بقصد تسميننا.

فقلت:

- إنني أحتج. فنحن لم نقع في أيدي أكلة لحوم البشر.

فقال الكندي بلهجة الجد:

- من يدري؟ فلعل هؤلاء الناس حُرِّموا طويلاً من اللحوم الطازجة. وفي هذه الحالة سيرحبون طبعًا بلحم أشخاص أصحاء أقوياء كالأسْتَاذ وتابعه وأنا.

فقلت:

- اطرِدْ هذه الأفكار يا نيد لاند. وأهم من هذا كله ينبغي ألا تدع الغضب يفسد علاقتنا بمضيفنا وإلا زاد موقفنا سوءًا.

فقال صياد الحيتان:

- أيا كان الأمر، فأنا أشعر بأشد الجوع، وسواء كنا في وقت العشاء أو الإفطار، فإن الطعام لم يصل بعد.

فقلت له:

- لأنه يجب أن تخضع للنظام المتبع في المركب. ويبدو أن ساعة بطوننا متقدمة عن مواعيد الطعام هنا.

فقال كونسايل بهدوء:

- علينا إذن أن نضبط ساعات بطوننا.

فرد عليه الكندي المتضجر قائلاً:

- هكذا أنت دائماً يا كونسايل. لا تستخدم قط أعصابك أو عصارتك الهضمية. دائماً هادئ بوسعك أن تصلي على روحك في ساعة الاحتضار وأن تموت جوعاً دون شكوى.

فقال له كونسايل:

- وما فائدة الشكوى؟

- إن الشكوى مفيدة. إنها تخفف عن الإنسان إحساسه بالضيق. وإذا كان هؤلاء القراصنة، وأنا أقول القراصنة حتى لا أغضب البروفسور الذي لا يحب أن أسميهم أكلة لحوم البشر. إذا كان هؤلاء القراصنة يحسبون أنهم سيقونني في هذا القفص لأموت مختنقاً دون أن يسمعوا رأيي فيهم، فإنهم مخطئون. هلم يا مسيو أروناكس لتحدث بصراحة، هل تظن أنهم سيقوننا طويلاً في هذا القفص الحديدي؟

- أصارحك يا صديقي نيد لاند أني لا أعرف عن هذا الأمر أكثر مما تعرف.

- ولكن ما هو رأيك الخاص؟

- في رأيي أن المصادفة جعلتنا نطلع على سر خطير، فإذا كان

من صالح أصحاب هذه الغواصة المحافظة على هذا السر، وإذا كان صالحهم هذا أضمن من حياة ثلاثة أشخاص، فاعتقادي أن حياتنا معرضة لأشد الخطر. أما إذا كان الأمر بالعكس، فإن هذا الوحش الذي ابتلعنا سيتهز أول فرصة ليلفطنا إلى العالم المأهول بأمثالنا.

فقال كونسايل:

- إلا إذا أدمجنا في عداد بحارته. وعندئذ يحتفظ بنا هكذا.

فرد نيد لاند قائلاً:

- حتى تلتقي بنا سفينة أسرع أو أبرع من إبراهيم لنكولن، فتسيطر على وكر هؤلاء القراصنة، وترسلهم ونحن معهم إلى حيث نلفظ أنفاسنا الأخيرة على أطراف سارياتها.

فقلت له:

- أحسنت الاستنتاج يا نيد لاند. ولكنني أعتقد أن اقتراحًا كهذا لم يعرض علينا بعد، وإذن فمن العبث أن نناقش ما سيكون عليه موقفنا في تلك الحالة. أعود فأقول إنه لا بد أن ننتظر، وأن نقدر الظروف، وألا نفعل شيئًا. إذ ليس ثمة ما يمكن فعله.

فأجاب صياد الحيتان الذي لم يشأ النزول عن رأيه:

- بالعكس يا سيدي البروفسور. فالواجب ألا نقف مكتوفي الأيدي.

- وماذا نفعل؟

- نهرب.

- إن الهرب من سجن على اليابسة من الأمور الصعبة غالبًا. أما

الهرب من سجن في غواصة فهو في رأيي مستحيل.

فقال كونسايل:

- تكلم يا صديقي نيد؟ ما رأيك في اعتراض البروفسور؟ لا أعتقد أن الأمريكي ضعيف الحيلة.

لم يسع نيد لاند إلا أن يلزم الصمت محرّجًا. فإن الهرب في ظروف كالتي فرضتها علينا المصادفات أمر جد مستحيل. ولكن الكندي نصفه فرنسي، وقد بدا هذا في جوابه، لذا قال بعد تفكير دام دقائق:

- إذن يا مسيو أروناكس أنت لا تدري ماذا ينبغي أن يفعل من لا يستطيعون الإفلات من سجن؟

- لا أدري يا صديقي.

- إن الأمر جد يسير.. عليهم أن يعدوا أنفسهم للبقاء فيه.

فقال كونسايل:

- أعتقد هذا. فإن البقاء فيه أفضل من الإقامة فوق سطحه أو تحت قاعه.

وأضاف نيد لاند بقوله:

- ولكن بعد أن تلقي بالحراس والسجانين في خارجه؟

- ماذا يا نيد؟ أتفكر جدًّا في الاستيلاء على هذه السفينة؟

- نعم كل الجد.

- إن هذا مستحيل.

- كيف يستحيل هذا يا سيدي؟ قد تسنح لنا الفرصة المناسبة ولا أرى ما يمنعنا من انتهازها. فإذا كان في هذه الآلة عشرون رجلاً، فلن يخنقوا فرنسيين وكندياً، فيما أظن.

كان من الأفضل أن أسلم برأي صياد الحيتان على أن أجادله، وهكذا اكتفيت بأن رحت أقول:

- دع مثل هذه الفرصة تسنح يا مستر لاند، وسنرى بعد ذلك. ولكني أرى في خلال هذا أن تحد من ضجرك. فنحن لا نستطيع أن نتصرف إلا بالحيلة. ولن نستطيع اقتناص الفرص السانحة بالاستسلام للغضب. عدني إذن أنك ستقبل الموقف دون مزيد من الغضب.

فقال نيد لاند في لهجة تبعث على تمام الطمأنينة:

- أعدك يا بروفيسور ألا تبدر من فمي كلمة عنيفة واحدة، وألا تصدر عني حركة تنم عن الغضب، حتى لو أنهم قاموا على خدمتنا على المائدة بغير اللياقة المنشودة.

فقلت له:

- إنني أسجل عليك هذا الوعد يا نيد.

وتوقفت المحادثة عند هذا الحد، وأخلد كل منا إلى أفكاره الخاصة. وأقرر من ناحيتي، ورغم توكيدات صياد الحيتان أنني لم أستسلم للأوهام. فإني لم أسلم باحتمال سنوح الفرص المواتية التي تحدث نيد لاند عنها. فلكي تدار الغواصة على هذه الصورة الناجحة لا بد أن يكون لها قوة كبيرة من الملاحين، وتبعاً لذلك يتعين علينا في حالة

الاشتباك، أن نواجه رجالاً موفوري العدد، وفوق هذا وأهم من هذا كله، يجب أن نكون أحراراً وليس الأمر كذلك، بل لم أر وسيلة ما للخروج من هذه الزنزانة الحديدية المحكمة من حولنا. وإذا كان لربان هذه الغواصة سر يخفيه - وهو أمر يبدو محتملاً على الأقل - فإنه لن يسمح لنا بحرية التنقل على سطحها. والآن هل يعتمد إلى التخلص منا بالعنف أم يلقي بنا في ركن قصي من أركان الأرض؟ هذا كله من الأمور المجهولة. لقد بدت لي هذه النظريات جد محتملة. ولا بد أن يكون الإنسان صياد حيتان لكي يخامرهُ الأمل في اقتناص حريته مرة أخرى.

وبدا لي أن نيد لاند يزداد غضباً بتأثير الأفكار التي استحوذت على عقله، فقد سمعته يغمغم بالسباب في صوت خفيض خشن، ورأيت في نظرائه مرة أخرى أمارات التهديد والوعيد. وما لبث أن نهض وراح يذرع الغرفة كالوحش السجين في قفص، وضرب الجدران بقدمه وقبضة يده. وفضلاً عن هذا فإن الوقت كان ينصرم، والجوع تشتد وطأته، وفي هذه المرة لم يظهر الخادم. فإذا كان هؤلاء الناس يريدون بنا خيراً حقاً، فقد أسرفوا في نسيان حالتنا المحزنة.

وتزايد غضب نيد لاند وهو يتعذب بوخزات معدته القوية، حتى خشيت رغم وعده لي أن ينفجر في وجه رجال الغواصة عند حضورهم مرة أخرى.

وانصرفت ساعتان أخريان، واشتد غضب نيد لاند. فراح يصرخ وينادي بأعلى صوته، ولكن دون جدوى. فقد كانت الجدران الحديدية صماء، وبدت الغواصة ساكنة تماماً، وغدا السكون مرهقاً شديد الوطأة. ولم أعد أجروء على التفكير مرة أخرى في المدة التي قد نبقي فيها

مهمّلين منعزلين داخل هذه الزنزانة الحديدية. وأخذت الآمال التي كنت أتصورها بعد أن تتيسر لي مقابلة ربان السفينة تتلاشى واحدًا بعد الآخر. واختفت من ذاكرتي الصورة التي كونتها عن الرجل، من نظرة رقيقة، وأمارات للكرم على وجهه، ونبل في مظهره، وعدت أتصور صاحب هذه الشخصية الغامضة كما ينبغي أن يكون رجلًا قاسيًا لا يرحم. أحسست أنه بعيد عن محيط الإنسانية. لا تنفذ إليه مشاعر الرحمة. عدو لدود لإخوانه في البشرية، نذّر لهم كراهية لا يخبو أوارها.

ولكن هل ينوي هذا الرجل إذن أن يدعنا نهلك جوعًا وإعياء في هذا السجن الضيق. فيدفعنا إلى ارتكاب الأعمال الفظيعة التي يفضي إليها الجوع الوحشي؟ إن هذه الفكرة المرعبة التي استبدت بذهني، وجسمها الخيال، مهدت للخوف الأهوج أن يجتاحني.

أما كونسایل فقد ظل هادئًا. واستمر نيد لاند في هياجه. وفي تلك اللحظة سمعنا جلبة في الخارج ووقع أقدام ترن فوق الألواح الحديدية، ثم تحركت المزاليج، وفتح الباب، وأقبل الخادم.

واندفع نيد لاند قبل أن أستطع منعه نحو القادم المنكود وألقى به أرضًا وأطبق على عنقه، فكاد الخادم يختنق من قبضته القوية.

وبينما كان كونسایل يحاول إنقاذ الضحية من يدي نيد لاند وقد هممت أن أنضم إليه لمساعدته إذ بي فجأة أقف مسمرًا في مكاني لدى سماعي هذه العبارة تقال بالفرنسية:

- هدى من نفسك يا مستر لاند. وأنت يا بروفور أرجو أن تنصت

لي...

الفصل العاشر

نيمو

كان المتكلم ربان السفينة. وما أن سمع نيد لاند هذه الكلمات حتى نهض فجأة وانسحب الخادم، الذي كاد أن يختنق، من الغرفة متعثرًا بإشارة من سيده. وقد بلغ من سيطرة الربان على السفينة، أن الخادم لم تبد منه إيماءة تنم عن الامتناع الذي لا بد أنه أحسه حيال الكندي. ووقف كونسايل الذي بدا عليه الاهتمام برغمه، ووقفت أنا مذهولًا، ننتظر في سكون نتيجة هذا الحوار.

ووقف الربان مستندًا إلى جانب المائدة، مشبكًا ذراعيه، ينظر إلينا باهتمام بالغ. وبعد بضع دقائق من الصمت الذي لم يخطر لأحدنا أن يقطعه راح يقول بصوت هادئ نفاذ:

- أيها السادة. إنني أتكلم الفرنسية والإنجليزية والألمانية واللاتينية بطلاقة. وكان يمكن أن أرد عليكم أثناء مقابلتنا الأخيرة. ولكنني أردت أولاً أن أعرفكم، ثم أفكر بعد ذلك فيما قلتم. إن قصة كل منكم تطابقت في جوهرها، وقد أكدت لي حقيقة شخصياتكم. وأنا الآن أعرف أن المصادفة هي التي جمعتني بالبروفسور بيير أرونالكس أستاذ التاريخ

الطبيعي بمتحف باريس، والمرافق لإحدي البعثات العلمية الأجنبية، وتابعه كونساييل ونيد لاند الكندي صياد الحيتان، وثلاثتكم من ركاب السفينة إبراهيم لنكولن إحدي سفن البحرية الأمريكية.

وأجبت على حديثه بإيماءة من رأسي، إذ لم يكن ثمة موجب للجواب. ذلك أن هذا الرجل كان يعبر عما يريد بسهولة تامة، دون أن تشوب حديثه لهجة أجنبية، ومع ذلك شعرت أنه ليس واحدًا من مواطني. وقد استطرده في حديثه قائلاً:

- وربما بدا لكم أنني جعلتكم تنتظرون زيارتي الثانية لكم طويلاً. وإنما كان ذلك لأنني بعد أن عرفت شخصياتكم، أردت أن أتدبر فيما ينبغي أن أفعل بكم. وقد ترددت في هذا طويلاً. فإن أسوأ أنواع المصادفات قد أَلقت بكم في طريق رجل قطع كل علاقة تربطه بالمحيط الإنساني.. لقد جئتم لتفسدوا عليّ وجودي. فقلت له:

- فعلنا هذا بغير عمد.

فكرر العبارة الأخيرة وهو يرفع نبرات صوته قليلاً:

- بغير عمد، هل بغير عمد كانت السفينة إبراهيم لنكولن تطاردني في كافة البحار؟ هل كان انضمامكم إلى السفينة بغير عمد؟ وهل بغير عمد أصابت قذائفكم سفيتتي؟ وهل قذف المستر لاند حربته علينا بغير عمد؟

فرددت عليه قائلاً:

- لا شك أنك لا تعلم مدي الضجة التي سببتها في أوروبا وأمريكا،
عندما كانت السفينة إبراهيم لنكولن تطاردك في أعالي البحار، كان
جميع من أقلتهم يعتقدون أنهم يطاردون وحشًا بحريًا.
فلاحت على شفتي الربان ابتسامة خفيفة ثم استطرد قائلاً بصوت
أهدأ:

- هل تجسر أن تؤكد يا مسيو أروناكس أنكم ما كنتم لتطاردوا
غواصة كما طاردم الوحش البحري؟
وأخرجني هذا السؤال، فإن الربان فارجوت ما كان يتردد في هذا
حتمًا. كان يعد تدمير مثل هذه الآلة واجبًا محتومًا عليه كواجبه إزاء
الوحش البحري الهائل الذي ظنه أولًا.
واستطرد الربان يقول:

- أترى يا سيدي من حقي معاملتكم كأعداء.
لم أجب بشيء ولسبب جد معقول. فقد كان الربان يملك القوة،
وهي تهدم أقوى الحجج.. واسترسل في حديثه قائلاً:

- لقد ترددت كثيرًا. لا شيء يرغمني على استضافتكم. في مقدوري
أن أضعكم على سطح هذه الغواصة التي لجأتم إليها ثم أغوص إلى
الأعماق وأنسى كل اعتبار بأنه كان لكم وجود. لو فعلت هذا لما كنت
إلا مستعملًا حقي.

فأجبت قائلاً:

- لعلك تقصد حق رجل الغاب لا حق الإنسان المتمدن.

فأسرع الربان يجيب:

- لست يا بروفيسور من الذين يطلق عليهم وصف الرجل المتمدين.
لقد فصمت علاقتي بالمجتمع الإنساني نهائياً ولأسباب تبدو في نظري
طيبة. وإذن فأنا لا أطيع قوانينه. وأحب ألا تشيروا إليها مرة أخرى
أمامي.

كان يعبر عن رأيه هذا بوضوح وقد امتزجت نظراته بوميض الغضب
والاحتقار. وطالعتني لمحة من ماضٍ رهيب في حياته. إنه ينزع نفسه
من محيط القوانين الإنسانية. بل جعل نفسه مستقلاً عنها. متحرراً من
قيودها إلى أبعد حدود التحرر. فمن إذن يجرؤ على مطاردته إلى أعماق
البحار، وهو فوق سطحها يفسد كل الجهود المبذولة منك؟ وأي دروع
مهما بلغت قوتها تستطيع احتمال ضربات مهمازه؟ بل ليس هناك رجل
يستطيع محاسبته على كلماته إنما حسابه عند الله، وإلى ضميره إن كان
له ضمير.

طافت هذه الخواطر بسرعة في ذهني بينما كان الرجل العجيب
صامتاً، مستغرقاً في أفكاره منطوياً على نفسه، وتطلعت إليه في روع
ممزوج بالاهتمام. تماماً كما فعل أوديب وهو يتطلع إلى أبي الهول.

وبعد فترة من الصمت غير وجيزة عاد الربان إلى الحديث. فقال:

- لهذا كله ترددت. ولكنني رأيت أن من صالحني ما قد يتفق مع
مشاعر الرحمة التي لا تخلو منها النفس الإنسانية. ومن ثم يمكنكم البقاء
في سفيتي ما دام القدر جاء بكم إليها... سأمنحكم الحرية. وفي مقابل
هذه الحرية التي ستكون طبعاً نسبة أطالبكم بشرط واحد. ويكفيني وعد

شرف منكم أنكم ستخضعون لهذا الشرط...

فقلت له:

- تكلم يا سيدي. أظنه شرطاً يمكن أن يقبله الرجل الشريف.

- نعم وهذا هو الشرط: قد تضطرنني أحداث معينة غير منتظرة إلى إبقائكم داخل غرفتكم بضع ساعات أو أيام. ولما كنت راغباً عن استعمال العنف فإنني أنتظر منكم في هذه الحالة، أكثر مما أنتظر من غيركم الطاعة التامة. ووفقاً لهذا التصرف فإنني أحتمل جميع المسؤوليات. بل إنني أرفع عنكم كل تبعة عندما أحول بينكم وبين رؤية ما لا ينبغي أن تروه. فهل تقبلون هذا الشرط؟

إذن فقد كانت في السفينة أمور فريدة، على الأقل، وينبغي ألا يراها من لا يزالون يعيشون في نطاق القوانين الاجتماعية التي أنكرها الربان وتبرأ منها.

ولم ألبث أن أجبت قائلاً:

- قبلنا ولكنني فقط أرجو أن تسمح لي بتوجيه سؤال.. سؤال واحد:
- ما هو؟

- ما مدي الحرية التي ستمنحنا إياها؟

- حرية التجول داخل الغواصة دون قيد ومشاهدة كل ما يجري أمامكم إلا في أحوال نادرة. وبعبارة موجزة هي الحرية التي أتمتع بها أنا وزملائي هنا.

وكان جلياً أننا لم نفهم أحداً الآخر فقلت:

- معذرة يا سيدي. لكن هذه الحرية لا تزيد عن حرية السجين في التجول داخل سجنه... وهي غير كافية لنا.

- يجب أن تعدوها كافية.

- هل تريد أن تقول إنه ينبغي علينا أن نتخلى عن كل فكرة في رؤية أوطاننا وأهلينا وأصدقائنا؟

- نعم يا سيدي. ولكن التخلي عن ذلك النير الثقيل الذي يسميه الناس بالحرية قد لا يكون مؤلماً كما تظن.

وعندئذ قال نيد لاند:

- أصارحك أنني لن أعدك قط وعد شرف ألا أحاول الهرب.

فقال الربان ببرود:

- إنني لم أطلب وعد شرف منك يا مستر نيد لاند.

فقلت: وقد أفلت زمام شعوري برغمي:

- سيدي إنك تستغل موقفك تجاهنا. وهذه قسوة.

- كلا يا سيدي بل هي الشفقة بعينها. أنتم أسرى حرب عندي. وإنني أبقى عليكم في حين أن في استطاعتي بكلمة واحدة أن أقذف بكم إلى أعماق المحيط. لقد هاجمتموني. لقد جئتم واكتشفتم سر وجودي كله. فهل تظنون أنني سأعيدكم إلى عالمكم مرة أخرى؟ أبدًا.

وأبانت هذه الكلمات عن تشبث الربان بما عقد العزم عليه. وإنه لا جدوى من المناقشة معه.

ولهذا قلت:

- إذن فأنت يا سيدي تخيرنا ببساطة بين الحياة والموت؟

- كما تقول.

- لا جواب عندنا على مثل هذا السؤال. ولكن ليس هناك كلمة شرف يمكن أن تربطنا بسيد هذه الغواصة.

فقال الربان:

- هو ذاك يا سيدي.

ثم استطرد يقول برقة:

- والآن اسمحوا لي أن أتم ما أريد أن أقوله لكم. إنني أعرفك يا مسيو أروناكس. فأنت -دون صاحبك- لن تجد ما تشكو منه في هذه المصادفة التي ربطت بينك وبينني. لقد قمت بأبحاثك بقدر ما سمحت به العلوم المعروفة على اليابسة. ولكنك على ظهر سفيتي ستتاح لك الفرصة لكي ترى ما لم يره إنسان من قبل. إن كرتنا الأرضية - بفضلي - ستفضي لنا بأسرارها الأخيرة.

ولست أنكر أن هذه الكلمات تركت أثرًا كبيرًا في نفسي. لقد لمس نقطة الضعف عندي حتى نسيت برهة أن تدبر هذه المسائل القدسية لا تستحق فقدان الحرية. وفضلاً عن هذا تركت للمستقبل تسوية هذه المشكلة الخطيرة، وهكذا اكتفيت بأن قلت:

- ما هو الاسم الذي نناديك به يا سيدي؟

فأجاب الربان:

- الربان نيمو. هذا كل ما يجب أن تعرفوه عني. وكذلك أنتم لن تكونوا بالنسبة لي أكثر من ركاب الغواصة نوتيليوس.

ثم استدعى الربان أحد الخدم، وأصدر إليه أوامره بلغة أجنبية لم أستطع أن أفهمها، ثم التفت إلى نيد لاند وكونسايل وقال لهما:

- إن طعامكما معد في مقصورتكما الخاصة. فأرجو أن تتبعنا هذا الرجل.

فغادر رفيقاي في البلوى الزنزانة التي اعتقلا فيها أكثر من ثلاثين ساعة، والتفت إليّ الربان قائلاً:

- والآن يا مسيو أروناكس. إن إفطارنا معد. اسمح لي أن أقدمك.

وتبعت الربان نيمو إلى ما يشبه دهلز تضيئه الكهرباء، وهو يماثل ما يوجد بالقسم الأوسط في السفينة. وبعد مسيرة نحو عشرة أمتار، فُتح أمامي باب ثان يفضي إلى غرفة الطعام مزخرفة ومؤثثة بأناقة بالغة. فعلى جانبها رأيت خزانتي من الخشب البلوط المطعم بالأبنوس، تلمع فوق أرففهما أواني الخزف والزجاج النفيس وكان فوقهما صحاف انعكس عليها الضوء المرسل من السقف، ولكن خفف من بريقه رقة الطلاء وتناسقه. وفي وسط الغرفة أعدت مائدة إعدادًا أنيقًا. وما لبث الربان نيمو أن أشار إلى مقعدي قائلاً:

- تفضل بالجلوس وتناول طعامك بشهية الرجل الذي يوشك على الموت جوعًا.

وكان طعام الإفطار مجموعة من الأطباق كل محتوياتها من نتاج

البحر. وكان بعضها غريباً في مادته وفي طريقة إعداده. ورغم طيب مذاقها فقد كانت لها نكهة غريبة لم ألبث أن ألفتها وكان يبدو أنها أكلة غنية بمادة الفسفور.

ونظر الربان نيمو إليّ - رغم أنني لم أبادره بسؤال، فقد أدرك ما يجول بذهني وقال:

- إن معظم هذه الألوان من الطعام غريبة عنك. ولكن يمكنك أن تأكل منها دون خوف. فهي صحية ومغذية، وقد استغنيت منذ أمد بعيد عن طعام البر ومع ذلك لم يصبني سوء. وكذلك بحارتي وهم جميعاً أصحاء، يتناولون هذا الطعام.

- إذن فكل هذه الألوان من إنتاج البحر؟

- نعم إن البحر يمدنا بكل حاجياتنا. إنني ألقى أحياناً شباك الصيد خلف الغواصة ثم أسحبها وهي تنوء بحمولتها. وأحياناً أخرى أهبط للصيد في هذه المناطق التي تبدو بعيدة عن متناول الإنسان فأقتنص الصيد الذي يرتع في غابات الأعماق. إن قطاعي مثل قطاع الراعي القديم نبتون. ترعى دون خوف في مروج المحيط الشاسعة. إن لي فيها مزرعة مترامية أقوم بنفسي علي فلاحتها، ويمدها خالق الكون بأسره بكل شيء.

فقلت وأنا أنظر إلى الربان نيمو في شيء من الدهشة: أستطيع أن أفهم بسهولة أن شباك صيدك يمكن أن تزود مائدتك بأسمك طيبة، وأن في مقدورك اقتناص أنواع الصيد البحري في غابات الأعماق. ولكني لا أفهم كيف يمكن أن تحصل على ذرة من اللحم الحيواني البري.

- إن ما تظنه يا بروفيسور من لحم حيوان البر، ليس فى الواقع إلا لحم السلحفاة البحرية. وأمامك أيضًا طبق من كبد الدرفيل له مذاق لحم الخنزير المطهو بالتوابل. إن طاهي الغواصة رجل بارع تفنن في إعداد مختلف منتجات البحر. تذوق كل هذه الأطباق. هذه مربى من نبات «الهولوتورا» البحري، ولو ذاقها أحد أبناء الملايو لقال إنه لا مثيل لها في العالم. وهذه كريمة مصنوعة من نبات «السيناشيا». وهذا سكر أنتاجه من طحلب «الفوقس» الموجود في بحر الشمال. وأخيرًا اسمح لي أن أقدم لك حلوى شقائق النعمان المحفوظة التي تضارع ألد أنواع الفاكهة.

وبينما جعلت أذوق ألوان الطعام هذه، بدافع الفضول لا بدافع الذواقة الخبير أخذ الربان نيمو يمتعني بأقاصيصه العجيبة قائلاً:

- والبحر لا يمدنا بالطعام فحسب، بل بالملابس أيضًا. فهذه الملابس التي نرتديها الآن منسوجة من ألياف نوع معين من الأصداف، ومصبوغة بألوان قرمزية مظلمة باللون البنفسجي، وهي مستخرجة من نبات «الأبليزيس» الموجود في البحر الأبيض المتوسط. وإن العطور التي ستجدها على منضدة الزينة في مقصورتك مستخرجة كلها من نباتات بحرية. وإن حشايا سريرك مصنوعة من أرق أنواع العشب الموجود في المحيط. وقلمك مصنوع من زعانف الحوت، ومدادك من كحول مستخرج بوسائلنا الكيميائية. كل شيء يأتينا الآن من البحر، وكل شيء سيعود يومًا إليه.

- هلي تحب البحر يا كابتن؟

- نعم إني أحبه. إن البحر لي كل شيء. إن أنفاسه نقية صحية. إنها صحراء هائلة لا يشعر فيها الإنسان قط بالوحشة، لأنه يحس بالحياة تنبض حوله في كل مكان. إن البحر ليس ملكًا للطغاة المستبدين ولا يزال من الممكن فوق سطحه أن تهضم الحقوق، وأن يتحارب الناس، وأن يلتهم بعضهم بعضًا، وأن ترتكب كل الفظائع البشرية. ولكن سيطرة هذه القوى تتوقف تمامًا على عمق ثلاثين قدمًا من السطح. وفي هذا العمق البسيط يضمحل نفوذهم. وتختفي قوتهم. نعم يا سيدي. عش بين أحضان الماء فهناك التحرر والاستقلال. هناك لا سلطان لأحد عليّ. هناك الحرية الكاملة.

وفجأة توقف الربان نيمو إبان حديثه الحماسي. فهل وجد نفسه قد اندفع في الحديث وتجاوز تحفظه المعهود؟ هل قال أكثر مما يريد؟ لقد راح يذرع الغرفة. وقد اشتد به الانفعال وأخيرًا هدأت أعصابه، واستعاد محياه سكينته المألوفة. ثم التفت إليّ وقال:

- والآن يا بروفيسور. إذا شئت أن تجوس خلال غواصتي نيتوليوس، فأنا طوع أمرك.



الفصل الحادي عشر

الغواصة نوتيليوس

ونهب الربان نيمو، وتبعته إلى باب مطوي في الناحية الخلفية من الغرفة، ودلفت منه إلى غرفة في حجم التي تركناها.

كانت المكتبة، وكانت بها خزانات الكتب العالية المصنوعة من خشب الورد، تحمل أرففها مجموعات كثيرة من الكتب المجلدة تجليداً فاخراً، وكانت ممتدة على مدار الغرفة وتنتهي في أسفلها بأرائك وثيرة مكسوة بالجلد البني، ومصنوعة بطريقة تهىء كل أسباب الراحة، وكان ثمة مكاتب خفيفة متحركة تطوي وتبسط طبقاً لرغبة القارئ؛ لكي يضع فوقها الكتب أثناء المطالعة. وفي وسط الغرفة رأيت منضدة كبيرة عليها عدة صحف قديمة.

وكان الضوء الكهربائي يغمر هذه المكتبة المتناسقة، وينساب من أربعة مصابيح مصقولة متداخلة إلى نصفها في فجوات خاصة بالسقف. ولذا أثارت هذه الغرفة البالغة الأناقة والانسجام شديد إعجابي حتى لم أكد أصدق عيني.

وقلت لمضيفي الذي ألقى بنفسه على إحدى الأرائك:

- إن لديك هنا يا كابتن نيمو مكتبة يفخر بها أي قصر من القصور العالمية. وإن عجبني ليشترد حين أذكر أن هذه المكتبة الذاهرة تتبعك إلى أعماق أعماق المحيط.

فأجاب الربان بقوله:

- حيث يمكن الاستمتاع بالمزيد من العزلة والهدوء يا بروفيسور؟ هل كانت مكتبتك في المتحف تتيح لك مثل هذا الهدوء الشامل؟

- لا. ولا بد أن أعترف أنها جد متواضعة إذا قورنت بمكتبتك. ولا شك أن مجموعتك تتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف مجلد.

- بل عشرة آلاف مجلد يا مسيو أروناكس. إن هذه المجلدات هي الصلات الوحيدة بيني وبين اليابسة، ولكن آخر عهدي بعالمكم يوم أن غطست نوتيلوس تحت سطح الماء لأول مرة وفي ذلك اليوم اشتريت آخر كتبي ومطبوعاتي وصحفي. ومنذ ذلك الحين وأنا أتمنى لو أن الناس عندكم كفوا عن التفكير أو الكتابة. إن هذه الكتب يا بروفيسور رهن إشارتك. ولك أن تقرأ منها ما تشاء.

فشكرت الربان نيمو، ويممت شطر أرفف المكتبة، فرأيتها تشتمل على مجموعة كبيرة من كتب العلوم والآداب والسلوك بجميع اللغات. ولكنني لم أجد بينها كتاباً واحداً في الاقتصاد السياسي. ويبدو أنها ممنوعة تماماً في نطاق الغواصة. وقد أثار عجبني ما لاحظته من أن الكتب صفت بغير ترتيب معين من ناحية اللغة التي كتبت بها، وقد دل هذا الاضطراب

على أن ربان السفينة يستطيع أن يقرأ بسهولة تامة أي كتاب يقع بين يديه
مصادفة.

وقال الربان نيمو:

- ليست هذه مكتبة فحسب، وإنما هي أيضًا غرفة للتدخين.

- غرفة تدخين؟ هل تدخنون هنا إذن؟

- بالتأكيد.

- إذن فإني يا سيدي مضطر للاعتقاد بأنك متصل بهافانا!

فأجاب الربان قائلاً:

- لا يا مسيو أروناكس. تقبل مني هذا السيجار. ورغم أنه لم يأت

من هافانا فإنك ستستمتع به إذا كنت عريقاً في التدخين.

تناولت السيجار الذي قدمه إليّ وكان يشبه في شكله نوع السيجار
المعروف باسم «لوندرا» ولكن بدا أنه مصنوع من أوراق الذهب.
وأشعلته من موقد صغير مثبت فوق قاعدة أنيقة من البرونز، ثم جعلت
أمتص أنفاس التبغ الأولى بمتعة المدخن الذي أمضى يومين بلا تدخين.
وقلت:

- هذا شيء عظيم. ولكنه ليس تبغاً.

فأجاب الربان:

- كلا إن هذا لم يأت من هافانا ولا من الشرق. إنه نوع من أعشاب

البحر، غني بالنيكوتين، والبحر يمدني به، ولكن بقدر. فإذا لم تكن
مشوقاً إلى سيجار اللوندرا، يا بروفيسور. فلك أن تدخن من سيجاري

هذا ما تشاء.

وفيما كان الربان نيمو يتحدث. فتح باباً آخر مواجهاً للباب الذي دخلنا منه إلى المكتبة، فدلقت إلى صالون واسع الأرجاء، ساطع الضوء. كان غرفة رحبية ذات أربعة جوانب، كسيت جدرانها بالخشب. طولها ثلاثون قدماً وعرضها ثمانية عشر، وارتفاعها يناهز الخمسة عشر وكان السقف المضيء والمحلى بالنقوش العربية يسكب فيضاً من الضوء الرقيق الواضح على كل العجائب المجمعة في هذا المتحف. فقد كانت الغرفة في الواقع متحفاً جمعت فيه يد رجل نابه سخي قدير كل كنوز الطبيعة والفن. ونثرتها في جوانبها بهذا «الاضطراب» الفني المعروف في مراسم الفنانين.

كان بها نحو ثلاثين لوحة مصورة بريشة أكابر الفنانين علقت بين ألوان المنسوجات الموشاة التي تناثرت بينها بألوانها الزاهية.

لقد رأيت لوحات فنية سبق أن أعجبت بكثير منها، في المجموعات الفنية الخاصة في أوروبا وفي معارض الرسم. والظاهر أن أمارات الذهول التي رآها ربان النوتيليوس مرتسمة على وجهي جعلته يقول:

—أرجو المعذرة يا بروفيسور عن الطريقة غير اللائقة التي استقبلتك بها وعن اضطراب هذه الغرفة.

فأجبت قائلاً:

- سيدي - هل تسمح لي - دون أن أسعى إلى معرفة شخصك أن أقول إنك فنان؟

- فنان هاوٍ فقط. وقد كنت في بادئ الأمر أهوى جمع هذه الآثار الفنية. كنت أجمعها بشراهة وبغير كلل حتى استطعت أن أظفر بأشياء ذات قيمة كبرى. وما تراه الآن هو آخر ما جمعته من عالمكم الذي أصبح فانيًا في نظري. إن فنانكم المعاصرين هم الآن في نظري قدامى، مضى عليهم في خيالي ألفان أو ثلاثة آلاف سنة، وكل أساطين الفن في رأيي ينسحب عليهم هذا العمر.

فقلت وأنا أشير إلى مجموعات من النوتات الموسيقية للويبر وروسيني وموزار وكثيرين غيرهم رأيتهما متناثرة فوق بيانو ضخم مثبت في أحد جدران الغرفة:

- وهؤلاء الموسيقيون؟

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- إن هؤلاء الموسيقيين - في رأيي - معاصرون للموسيقار الإغريقي القديم أوريغيوس. إن جميع الفوارق التاريخية تنمحي في ذاكرة الموتى، وأنا أعد نفسي ميتًا.. ميتًا كأصدقائك الذين ماتوا ودفنوا تحت الثرى.

وتوقف الربان نيمو عن الحديث، وبدا كأنما استغرق في تأملات عميقة فرحت أنظر إليه باهتمام بالغ وأنا أحلل في صمت ما كان يرسم على وجهه من تعبيرات غريبة. لقد احترمت إخلاذه إلى التأمل ورحت أستعرض التحف التي ازدان بها الصالون. وكانت مؤلفة في مجموعها من نباتات بحرية، وأصداف وغيرها من منتجات المحيط التي عثر عليها ولا شك الربان نيمو بنفسه. وقامت في وسط الصالون نافورة مياه مضاءة

بالكهرباء. يتساقط رذاذها في حوض هو عبارة عن صدفة بحرية كبيرة يبلغ محيطها سبع ياردات، وهى من هذه الناحية أكبر حجمًا من الصدفة الكبيرة البديعة التي أهدتها جمهورية البندقية إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا والتي يتكون منها الآن حوضان للماء المقدس فى كنيسة سان سوليس بباريس.

وكان يحيط بهذا الحوض خزائن زجاجية أنيقة ذات مشابك نحاسية، ضمت أنواعًا من أثمن المنتجات البحرية التي يمكن أن تقع عليها عين عالم طبيعي، صُفت مصنفة ومعرفة بأسمائها.

وللإنسان أن يتصور مبلغ سروري كأستاذ للطبيعات بما رأيت. فقد شاهدت فى الخزائن مجموعة تجل في قيمتها عن كل تقدير. وبين الأنواع التي وعثها ذاكرتي، تلك السمكة الملكية الأنيقة المعروفة باسم سمكة المطرقة الموجودة في مياه المحيط الهندي، رأيتها بنقاطها البيضاء المتألقة على أرضية حمراء وبنية. إنها سمكة رائعة، باهرة الألوان، ذات زعانف وأشواك منتصبة. وهي نوع نادر في متاحف أوروبا وقد قدرت ثمنها بثمانمائة جنيه. رأيت سمكة أخرى من هذا النوع صيدت في بحار أستراليا، وهي لا تقننى إلا بصعوبة، كما شاهدت أصدافًا هشة بيضاء يمكن أن تطيرها الأنفاس كفقاعات الصابون، وأنواعًا مختلفة من «الأسبروجيلوم» الحاوي وهو نوع من الأنابيب الجيرية الملفوفة بلفائف ورقية، لها قيمتها الكبرى عند هواة التحف.

ورأيت كذلك مجموعات كاملة من أصداف التروكي. بعضها أصفر مائل للخضرة يوجد في البحار الأمريكية وبعضها أحمر قاتم

وموطنه المياه الأسترالية، وغيرها من خليج المكسيك، وهي تمتاز بأصدافها المطرزة الشكل. وكان أندر من هذا كله أصداف نيوزلاندا الرائعة المهمازية الشكل.

وقامت بعيدًا عن كل أولئك وفي أقسام خاصة، عقود من اللؤلؤ باهرة الجمال نفذت إليها الأضواء الكهربائية كألسنه من نار وكان من بينها حبات من اللؤلؤ وردية اللون، انتزعت من أصداف البحر الأحمر. وأخرى خضراء وصفراء وزرقاء وسوداء، استخرجت من كافة المحيطات، ومنها أنواع مستخرجة من المجاري المائية في بحار الشمال. ورأيت أخيرًا أنواعًا متعددة من اللؤلؤ النادر الذي لا يقدر بثمن جمعت من أندر أنواع المحار. وكان بعض هذه اللآلئ أكبر حجمًا من بيض الحمام. وأعلى ثمنًا من لؤلؤة تبريز التي بيعت لشاه إيران بمبلغ ثلاثة ملايين فرنك. وكانت تفوق اللؤلؤة التي يقتنيها إمام مسقط، واعتقادي أنه ليس لها مثل.

وإنه لمن المستحيل تقدير قيمة هذه المجموعة. ولا بد أن الربان نيمو قد أنفق الملايين في اقتناء هذه الأنواع المختلفة. وفيما كنت أسائل نفسي من أين جاء بالأموال التي تكفي لإشباع هوايته إذا هو يقطع على أفكارى قائلاً:

- إنك تفحص يا بروفيسور مجموعات أصدافي، ومن المؤكد أنها تثير اهتمام أي أستاذ في علم الطبيعة. ولكن لها في نفسي مكانة أعظم، لأنني توليت جمعها كلها بنفسي. وليس على سطح الكرة الأرضية بحر لم أبحث في أعماقه عما أريد.

فقلت له:

- إنني أفهم يا كابتن.. أفهم متعة الحياة بين هذه الكنوز. فأنت أحد الذين يجمعون الكنوز لذاتها ولا يوجد في أوروبا متحف يضم مثل هذه المجموعات من منتجات البحار. ولكن إذا أنا قصرت كل إعجابي عليها فلن يبقني مزيد من الإعجاب أسبغه على السفينة التي تحمل الكنوز.

ولست أريد أن أنفذ إلى أسرارك، ولكن لا مفر لي من الاعتراف بأن الغواصة نوتيليوس بما فيها من قوى محركة، وبالكيفية البارة التي تدار بها، وبالآلات الدافعة التي تسيروها - كل أولئك يذكي في نفسي أشد الفضول. إنني أرى مثلاً - على جدران هذه الغرفة آلات معلقة أجهل طريقة استعمالها.

- عندما قلت لك إنك لك مطلق الحرية في غواصتي هذه، كنت أعني أن كل جزء فيها مباح لك فحصه ودراسته. إن الآلات سوف تراها في غرفتي، حيث يسعدني إطلاعك عليها. ولكن تعال معي لتلقي نظرة على مقصورتك الخاصة.

وتبعت الربان نيمو الذي غادر الصالون من أحد أبوابه الكثيرة التي تبدو وهي مغلقة كأنها ألواح في الجدار، حتى وصلنا إلى وسط الغواصة، ومن هناك قادني إلى مؤخرتها حيث وجدت أنه لم يخصص لي مجرد مقصورة، بل غرفة أنيقة ذات فراش ومنضدة للزينة، وقطع مختلفة من الأثاث، ولم أستطع إلا أن أشكر مضيفي الذي قال وهو يفتح باباً:

- إن غرفتك مجاورة لغرفتي وغرفتي تفضي إلى الصالون الذي

غادرناه الآن.

ودخلت غرفة الربان فإذا هي صارمة في بساطتها وكأنها صومعة ناسك. فلم يكن بها من الأثاث غير سرير حديدي ومكتب وبعض أدوات الزينة، وكان يغمرها جميعاً ضوء قوي. ولم يكن بها شيء من أدوات الترف وإنما ألزم الضروريات وحسب.

وأشار الربان نيمو إلي مقعد وقال:

- تفضل بالجلوس.

ولما أطعت بدأ يتحدث.



الفصل الثاني عشر

كل شيء بالكهرباء

قال الريان نيمو وهو يشير إلى الآلات المعلقة على جدران الغواصة:

- سيدي. هذه هي الآلات اللازمة لقيادة الغواصة نوتيليوس. وهنا كما هو الشأن في غرفة الصالون، أراها دائماً أمام نظري، وهي تحدد مكاني واتجاهي بدقة في أعماق المحيط. أنت تعرف بعض هذه الآلات. فأجبهته قائلاً:

- نعم إنني أفهم بعض الآلات العادية اللازمة للملاحة البحرية. ولكنني أرى آلات أخرى لا شك لازمة لتلك المطالب الفريدة في غواصتك. هذا القرص ذو المؤشر المتحرك هو مانيوميتر «مضغوط» أليس كذلك؟

- نعم واتصاله بالماء يبين لي مقدار الضغط الخارجي ويحدد مدى العمق في الوقت نفسه.

- وهذه المقاييس التي أراها من نوع جديد؟

- إنها أجهزة لقياس الحرارة في مختلف الأعماق تحت سطح الماء.

- وهذه الآلات الأخرى لا أستطيع أن أتصور حقيقتها؟

- لا بد هنا أولاً من بعض الإيضاح. إن في هذه الغواصة أداة قوية سريعة سهلة طيعة تقوم بأعمال مختلفة، ولها السيطرة الأولى هنا، كل شيء عندنا يتم عن طريقها، إنها من جهازي الآلي بمثابة الضوء والحرارة، بل بمثابة الروح. هذه الأداة هي الكهرباء.

- نعم يا كابتن. إن لديك مصدرًا عظيمًا لسرعة الحركة لا ينطبق تمامًا مع قوة الكهرباء المعروفة فإن القوة الهائلة في الكهرباء لا تزال حتى يومنا هذا محدودة لا تنتج إلا أيسر القوى.

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- يا سيدي البروفسور. إن القوى الكهربائية التي لدي غير متاحة لغيري، ومعدرة إذا أمسكت عن الإدلاء بمزيد من البيانات.

- وأنا لن ألح يا سيدي، سأقنع بإبداء دهشتي من هذه النتائج العجيبة، ولكنني سألقي عليك سؤالاً واحداً فقط لا لزوم للجواب عنه إن كان سؤالاً غير سديد. إن العناصر التي تستخدمها لإنتاج هذه القوى الكهربائية الفذة لابد أن ينضب معينها. فمادة الزنك مثلاً.. كيف تحصل على حاجتك منها وأنت على غير اتصال باليابسة؟

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- هاك الجواب عن سؤالك. ينبغي أن أبين لك بادئ ذي بدء أن في أعماق البحر مناجم زنك وحديد وفضة وذهب، لا يتعذر استخراج هذه المعادن منها. ولكنني لا أعتمد على هذه المعادن الأرضية، بل عقدت

العزم على التماس وسائط توليد الكهرباء اللازمة لي من البحر وحده.

- من البحر؟

- نعم يا بروفيسور. ولم أجد صعوبة في الاهتمام إلى هذه الوسائط. كان من الممكن الحصول على الكهرباء بإنشاء دورة للتيار الكهربائي من أسلاك غاطسة في أعماق متفاوتة، فتولد الكهرباء من فوارق درجة الحرارة التي تتعرض لها الأسلاك. ولكنني آثرت استخدام طريقة أخرى أفضل.

- وما هي؟

- أنت تعرف العناصر التي تتولد منها مياه البحر؟ أن كلوريد الصوديوم يكون نسبة ملحوظة بينها وأن هذا الصوديوم هو الذي أستخرجه من الماء وإذا مزجته بالزئبق استعضت بهذا عن الزنك في توليد الكهرباء. والزئبق لا ينفد قط، وإنما ينفد الصوديوم ومياه البحر تمدني به. وفضلا عن هذا فإن القوى الكهربائية الناتجة من مركبات الصوديوم ضعف القوى المتولدة من مركبات الزنك.

- إنني أفهم بوضوح يا كابتن ملاءمة الصوديوم في الظروف التي تكتنفك. فالبخر يشتمل عليه. هذا بديع ولكن لا يزال عليك أن تستخلصه منه فكيف تفعل هذا؟ إن في مقدورك طبعاً أن تستخلصه عن طريق جهازك الكهربائي ولكن استهلاك الصوديوم نفسه في عملية الاستخلاص الكهربائية سيجاوز ما تحصل عليه. وبهذا تستهلك أكثر مما تنتج.

- إنني لا أستخدم التيار الكهربائي في استخلاص الصوديوم من الماء وإنما أستخدم حرارة الفحم.

- الفحم؟

فقال الربان نيمو:

- سنسميه فحم البحر، إذا شئت.

- وهل في مقدورك استخراج فحم البحر من مناجمه في أعماق المحيط؟

- سوف تراني وأنا أقوم بهذه العملية يا مسيو أروناكس. وكل ما أسألك هو شيء من الصبر، وإن وقتك هنا سيتسع للصبر. إنني أحصل على كل شيء من المحيط.. إنه يولد الكهرباء، والكهرباء تزود الغواصة بالضوء، أو بكلمة واحدة بالحياة.

- ولكن ليس بالهواء الذي نستنشقه؟

- إن بوسعي إنتاج الهواء اللازم لحاجتي. ولكني لا أفعل، لأنني أصعد إلى سطح البحر كلما أردت. ولكن إذا كانت الكهرباء لا تزودني بالهواء اللازم للتنفس، فإنها تدير المضخات الكبيرة التي تختزنه في أسطوانات خاصة تتيح لي عند الضرورة أن أطيل بقائي تحت سطح الماء ما شئت.

فقلت له:

- سيدي الربان. إنني لا أستطيع إلا إبداء إعجابي. لقد اكتشفت ما سوف يتهياً للإنسان اكتشافه في يوم ما ولا شك، وأعني بهذا القوة

الجبارة الهائلة التي في الكهرباء.

فقال الربان نيمو ببرود:

- لست أدري إذا كان الجنس البشري سوف يوفق إلى هذا الكشف،
وأيًا كان الأمر فإنك تعرف الآن التطبيق الأول الذي حققته من هذه
الأداة الثمينة. إنها الكهرباء التي تمدنا بضوء يفوق ضوء الشمس نفسه
ثباتًا ودوامًا. انظر الآن إلى هذه الساعة. إنها ساعة كهربائية، وهي بدقتها
تتحدى أحسن الساعات المعروفة باسم الكرونومتر. لقد قسمتها إلى أربع
وعشرين ساعة، كما هو الشأن في الساعات الإيطالية، إذ لا يوجد بالنسبة
إليّ ليل أو نهار، ولا شمس ولا قمر... وإنما هو هذا الضوء الصناعي
الذي أهبط به إلى الأعماق. إن الساعة الآن العاشرة صباحًا.

- نعم. هذا هو الوقت بالتحديد.

- إن هذا القرص المدلى أمامنا يشير إلى سرعة الغواصة... إنه
متصل عن طريق سلك كهربائي بالرفاص. انظر. إننا الآن نسير بسرعة
متوسطة مقدارها خمسة عشر ميلًا في الساعة.

تم استطراد الربان نيمو قائلاً وهو ينهض:

- لكننا لم نفرغ بعد. إذا تبعثني فسندهب إلى القسم الخلفي في
الغواصة.

وتبعت الربان نيمو في القسم الأوسط إلى حيث رأيت ما يشبه البئر
بين حاجزين مانعين للماء. وكان ثمة سلم حديدي مشدود بمشبك من
الصلب إلى أحد الحاجزين يفضي إلى الطرف العلوي. ولما سألت

الربان عن الغرض من وجود هذا السلم، قال:

- إنه يؤدي إلى الزورق.

فقلت بدهشة:

- ماذا؟ أليدك زورق؟

- مؤكد. زورق رائع. خفيف متين. غير قابل للغرق يصلح للصيد أو للنزهة.

- إذن فكلما أردت ركوب الزورق تضطر للصعود بالغواصة إلى سطح الماء؟

- كلا مطلقاً، إن الزورق مثبت بسطح الغواصة في فجوة خاصة به. وله سطح عازل يمنع عنه تسرب الماء. وهو مشدود إلى الغواصة بأربطة من الصلب. وهذا السلم يؤدي إلى فجوة في سطح الغواصة تتصل بأبواب عازلة بفجوة مماثلة في مكان الزورق، وعن هذا الطريق أستطيع الوصول إليه. ثم أغلق أنا الباب الثاني المؤدي إلى الزورق، وذلك بالضغط اللولبي. وأخيراً أدخل الزورق، وأفك الأربطة، فيندفع صاعداً إلى سطح الماء بسرعة كبيرة، ثم أفتح الباب المؤدي إلى سطحه، ثم أنصب الشراع وأمسك بالمجدافين وأنطلق حيث أريد.

- ولكن كيف تعود؟

- إنني لا أعود إلى الغواصة. بل هي تأتي إليّ.

- بأمر منك؟

- نعم. ويتم الاتصال بيني وبينها بسلك كهربائي. وهكذا أبرق إليها بتعليماتي.

فقلت وأنا فى نشوة من هذه العجائب:

- ليس هناك ما هو أبسط من هذا حقاً.

وبعد أن تجاوزنا درجات سلم يؤدي إلى إفريز الغواصة، رأيت مقصورة طولها نحو أربعة أمتار جلس فيها نيد لاند وكونسايل يلهتمان الطعام. وكان بعدها باب يفضي إلى المطبخ طوله تسعة أقدام، يقع بين مخازن الغواصة الرحيبة، وفيه تستخدم الكهرباء في الطهي بدلاً من الغاز. فقد مدت تحت المواقد أسلاك كهربائية متصلة بشبكات من البلاتين، يتم عن طريقها توزيع الحرارة وضبطها بانتظام. كما أن هذه الأسلاك كانت تمد بحرارتها جهازاً للتقطير يهئ بعملية التبخير، مياه الشرب النقية. ومن المطبخ تفرع حمام فاخر مزود بصنابير للماء البارد والساخن. ويجاور المطبخ عنبر للنوم طوله ثمانية عشر قدماً. ولكن الباب كان مغلقاً فلم أستطع أن أرى أثاثه حتى أتبين منه عدد الرجال الذين يعملون في الغواصة. وفي الطرف الأقصى رأيت حاجزاً رابعاً يفصل بين عنبر النوم وغرفة الآلات. ثم فتح باب آخر ودخلت مع الربان نيمو غرفة صُفِّت فيها الآلات المحركة بترتيب دقيق، ولا غرابة فهو لا ريب مهندس من الطراز الأول. وكانت الغرفة جيدة الضوء لا تقل مساحتها عن خمسة وستين قدماً، كانت مقسمة إلى قسمين: القسم الأول يحتوي على المواد المولدة للكهرباء، والثاني على الأجهزة المحركة للرفاص. وقد دهشت فى أول الأمر، حين شممت رائحة غريبة فى الغرفة.

ولما رأى الربان أني فطنت لها قال:

- إنها رائحة الغاز الذي يتسرب قليل منه بسبب استعمال

الصوديوم، وهو لا يسبب مضايقة لأننا نظهر جو الغواصة صباح كل يوم بتعريضها للهواء النقي.

وفي هذه الأثناء كنت أفحص الآلات باهتمام كبير فقال الربان:

- إنني أستخدم آلات «منز» لا آلات «رومكروف» في إدارة الآلات. لأن الأولى أقوى وأكبر وأحسن إعدادًا، وقد دلت التجارب على أنها أفضل، والكهرباء المولدة تمر إلى مؤخرة الغواصة حيث توجد مغناطيسات كهربائية ضخمة مركبة على أجهزة خاصة من الروافع والتوربينات التي توصل الحركة الناتجة إلى محور الرفاص. وهذا المحور الذي يبلغ محيطه تسعة عشر قدمًا يدور بسرعة مائة وعشرين دورة تقريبًا في الثانية.

- وما هي السرعة التي تحصل عليها منه؟

- نحو خمسين ميلًا في الساعة.

وهنا شعرت أن في الأمر سرًّا، ولكنني لم ألح في استقصائه. إذ كيف تستطيع الكهرباء أن تعمل بمثل هذه القوى الهائلة، ومن أين تتولد تلك القوى التي لا يكاد يكون لها حد؟

أهي وليدة ضغط جبار لنوع جديد من الأجهزة؟ هل تتحول الكهرباء إلى هذه القوى الهائلة المحركة عن طريق أجهزة خاصة مجهولة؟ ولعله من المصادفات الغريبة أن اكتشافًا من هذا النوع قد عرف أمره وفيه تقوم مجموعة الروافع بتوليد قوة عظيمة. فهل يمكن أن يكون المخترع قد التقى بالربان نيمو؟

وأخيراً قلت:

- إنني يا كابتن نيمو أعترف بالتناجح، وأسعى إلى تفسيرها. لقد رأيت غواصتك وهي تعمل أمام السفينة إبراهيم لنكولن والتي أعرف الآن مبلغ سرعتها. ولكن لا يكفي أن يُستطاع السير دائماً وإنما ينبغي أن يعرف الإنسان وجهته. ينبغي أن تكون قادراً على توجيه نفسك إلى اليمين أو اليسار... إلى أعلى أو إلى أسفل. فكيف تصل إلى الأعماق الكبرى حيث الضغط المائي المتزايد الذي يبلغ المئات من قوة الضغط الجوي؟ كيف تصعد إلى سطح المحيط أو تظل في مستوى معين من العمق؟ هل جانب السداد بتوجيه هذه الأسئلة إليك؟

فقال الربان بعد تردد يسير:

- لا أبداً يا بروفيسور. بما أنك لن تغادر هذه الغواصة أبداً فهيا بنا إلى الصالون، وهو مكان الدرس الحقيقي، وهناك ستعرف كل ما تريد معرفته عن الغواصة نوتيليوس.



الفصل الثالث عشر

أرقام

بعد لحظة كنا جالسين على أريكة فى الصالون ندخن السيجار.
وبسط الربان أمامي خارطة بارزة تمثل أرجاء الغواصة، ثم بدأ بيانه قائلاً:
- إليك يا مسيو أرونكس مختلف أبعاد الغواصة التي أنت فيها.
إنها تشبه أسطوانة مستطيلة مخروطية الطرفين، كالسيجار. ويبلغ طولها
بالتحديد ٢٣٢ قدمًا وأقصى عرضها ٢٦ قدمًا. وهي مستطيلة الى حد
كاف، منحدره الجوانب حتى ينزلق الماء عنها بسهولة، ولا يعوق
سرعتها. وتبلغ مساحة سطحها ١٠١١ مترًا وخمسة وأربعين ستيماً
وحجمها ١٥٠٠ متر مكعب، ووزنها ١٥٠٠ طن وتحتل من الماء مساحة
قدرها ٥٠ ألف قدم.

«وعندما وضعت تصميمات هذه السفينة للعمل تحت سطح الماء،
قررت أن أجعلها في حالة توازن، أي أن يكون تسعة أعشارها غاطساً.
والعشر الباقي ظاهراً فوق الماء. وهي بهذا التقدير تحتل من الماء مساحة
تبلغ تسعة أعشار حجمها، أي نحو ١٣٥٦ مترًا مكعبًا وثمانية وأربعين
ستيماً. ولهذا لم أتجاوز في صنعها هذا الوزن، طبقاً للأبعاد المذكورة.
وهي مكونة من هيكلين، أحدهما داخل الآخر، تشدهما مشابك حديدية

قوية ولهذا السبب فإنها تقاوم الضغط الشديد وكأنها كتلة سميكة غير مفرغة من الداخل. وجوانبها لا تلين أبدًا تحت أي ضغط، لأن بناءها المحكم المتماسك يتيح لها أن تتحدى أعتى البحار.

وعندما تطفو الغواصة يكون عشرها فقط هو الظاهر فوق سطح الماء، وقد زودتها بخزانات يتناسب حجمها مع حجم هذا العشر، وتستطيع أن تستوعب من الماء ١٥٠,٧٢ طنًا. فإذا أنا ملأت هذه الخزانات بالماء، غطست الغواصة تمامًا تحت السطح. وهذه الخزانات موجودة في المناطق السفلى منها. وما عليّ إلا أن أدير الصمامات، فتمتلئ الخزانات، وتهبط الغواصة إلى ما تحت سطح الماء».

وعندئذ قلت:

- حسنا يا كابتن. إنني أستطيع أن أفهم كيف يمكنك الاحتفاظ بالغواصة على مستوى سطح المحيط. ولكن عندما تهبط إلى الأعماق، ألا تعاني أجهزة الغواصة ضغطًا مائيًا من أسفل يوازي ضغطًا جويًا كاملاً لكل ثلاثين قدمًا من الماء؟

- نعم هذا صحيح.

- إذن فأنا لا أدري كيف تهبط بالغواصة إلى الأعماق، ما لم تملأها كلها بالماء.

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- أرجو يا سيدي البروفسور ألا تخلط بين علوم التوازن وبين علوم القوى المحركة، وإلا تعرضت لأخطاء فاحشة. إن الهبوط إلى الأعماق

لا يحتاج إلا إلى جهد جد يسير؛ لأن للأجسام قابلية للهبوط... هل ترى مدلول كلامي؟

- إنني منصت إليك يا كابتن.

- عندما أردت البت في زيادة ثقل الغواصة لكي تهبط إلى الأعماق لم يكن عليّ إلا أن أعمل على تخفيف كثافة الضغط المائي كلما ازدادت هبوطاً.

- هذا واضح.

- والآن... إذا كان الماء كما نعرف غير قابل للضغط العالي، فإنه من الممكن ضغطه بدرجة يسيرة جداً.. بل أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة أنه يمكن ضغطه بنسبة ٤٣٦,٠٠٠,٠ في كل ضغط جوي، أي في كل ثلاثين قدماً من الماء تحت السطح. فإذا أردت أن أهبط إلى عمق ألف متر، وجب على أن أرفع تخفيض الكثافة تحت ضغط ثلاثين ضغطاً جويّاً. وعلى هذا يجب أن أزيد ثقل وزن الغواصة إلى ١٥١٣,٧٩ طن. بدلاً من ٢, ١٥٠٧ أي أن الزيادة اللازمة في الوزن هي فقط ٦,٧٧ طن. والغواصة مزودة بخزانات يمكن أن تحمل مائة طن من الماء. فأنا حين أريد الصعود إلى سطح الماء أفرغ الخزانات من هذه الكمية الضخمة حتى يطفو عشرها فوق السطح.

ولم أستطع الاعتراض أمام هذا الحديث المؤيّد بالأرقام.

- إنني معجب بتقديراتك يا كابتن، ومن الحماسة أن أجادلك فيها لأن التجارب أثبتت صحتها كل يوم. ولكنني أرى أن هناك مشكلة حقيقية.

- وما هي يا سيدي؟

- عندما نكون على عمق ألف ياردة، فإن جوانب الغواصة تحتمل مقدار مائة ضغط جوي، فإذا أردت عندئذ تفريغ الخزانات مما فيها من الماء لتخفيف وزن الغواصة بغية الصعود إلى السطح، فإن على مضخات التفريغ أن تغلب على هذا الضغط الشديد البالغ مائة ضغط جوي، أي الذي يساوي ضغط مائة كيلو جرام على السنتيمتر المربع. ولا شك أن مثل هذه المضخات تحتاج إلى قوى..

فأسرع الربان نيمو يقول:

- إلى قوى لا يمكن أن ينتجها غير الكهرباء. إن القوة الجبارة في آلاتي لا يكاد يكون لها حدود. وإن مضخات الغواصة لقوية أشد القوة كما رأيت بنفسك حين غمرت بعمودين من الماء سطح السفينة إبراهيم لنكولن كالسيل العرم. وفضلاً عن هذا فإني أستخدم خزانات إضافية لأهبط بالغواصة إلى عمق يتراوح بين ١٥٠٠ وألفي متر. وذلك لإنقاذ أجهزتي من الضغط العالي. فإذا تراءى لي أن أقوم بزيارة قاع المحيط على عمق فرسخين أو ثلاثة، فإني أستخدم وسائل أخرى أبعد مدى وإن كانت لا تقل دقة وإحكاماً.

- وما هي هذه الوسائل يا كابتن؟

- إن حديثي عنها يستدعي الكلام عن طريقة تسييري للغواصة.

- إنني أشد ما أكون شوقاً لسماعه.

- إنني أستعمل لقيادة غواصتي أفقيًا دفعة عادية تحركها عجلة

ذات آلات وحبال، وعندما أسيرها عمودياً فإنني أستخدم ألواح انسيابية مشدودة إلى الجوانب وإلى وسط الغواصة ذات روافع ضخمة. فإذا كانت هذه الألواح في مستوى متوازٍ مع الغواصة فإنها تسير أفقياً، وإذا مالت إلى أسفل أو إلى أعلى، فإن الغواصة بقوة رفاصها ترتفع أو تهبط حسب رغبتني وبالزاوية التي أحددها. بل وإذا بدا لي الارتفاع بسرعة مضاعفة، فإنني أستخدم الرفاص فيؤدي ضغط الماء إلى جعل الغواصة ترتفع عمودياً كالبالون في الهواء.

فهتفت قائلاً:

- مرحى يا كابتن. ولكن كيف يستطيع الموكل بالدفة أن يسلك الاتجاه الذي ترسمه له في وسط الأعماق.

- إنه يقف في مقصورة من الزجاج في أعلى الغواصة مزودة بعدسات مكبرة.

- ويمكن للزجاج مقاومة مثل ذلك الضغط؟

- نعم فإن الزجاج الذي تحطمه ضربة، له قوة احتمال كبرى، ففي خلال تجارب لصيد السمك أجريناها في عام ١٨٦٤ بالضوء الكهربائي في البحار الشمالية وجدنا ألواحاً من الزجاج في البحار الشمالية يقل سمكها عن ثلث بوصة تقاوم ضغطاً قدره ستة عشر ضغطاً جويًا. وأنا أستعمل زجاجاً لا يقل سمكه عن ثلاثين مثلاً لهذا النوع.

- فهتم الآن. ولكن أيًا كان الأمر فالظلام سائد تحت الماء. فكيف يمكن أن تتبين طريقك؟

- يوجد كشاف كهربائي قوي خلف المقصورة الزجاجية، تضيء أشعته البحر مدى نصف ميل إلى الأمام.

- آه. الآن أستطيع أن أعرف سر هذا الإشعاع الفسفوري الذي حيرنا ونحن نظن أنه منبعث من الكركدن البحرى. هل أستطيع أن أسألك الآن عما إذا كانت الإصابة التي أحدثتها في السفينة سكوتيا قد وقعت مصادفة.

- نعم كانت الغواصة تسير على عمق نحو خمسة أمتار تحت سطح الماء عندما وقع الاصطدام.. هل كانت له نتائج سيئة؟

- لا يا سيدي. ولكن ما رأيك في الصدمة التي أحدثتها في السفينة إبراهيم لنكولن؟

- أعترف أنه كان من المؤسف جدًا حدوث ما حدث لإحدى القطع الممتازة في البحرية الأمريكية ولكنها هاجمتني. وكان عليّ أن أدافع عن نفسي. وفضلاً عن هذا فقد اكتفيت بأن أجعلها عاجزة عن القدرة على الإضرار بي. ولن يصعب إصلاحها في أقرب ميناء.

وعندئذ هتفت بلهجة الاقتناع:

- الواقع يا سيدي الربان أن النوتيلوس سفينة رائعة.

فراح الربان يقول بحمية صادقة:

- نعم يا بروفيسور. وأنا أحبها وكأنها قطعة من لحمي. فإنه على رغم المخاطر التي تتعرض لها سفنكم بسبب تقلبات البحار، ورغم أن أهم ما يشغل بال ركاب البحر ويزعجهم هي أعماقه المجهولة،

فإننا نحن الموجودين في هذه الغواصة لا نخاف شيئاً، لا نخاف حدوث التواء بها، لأن هيكلها المزدوج من الحديد الصلب. وليس بها أشعة ولا حبال ينال منها تقاذف الأمواج ويطيرها الهواء. وليس بها مراحل للبخار تخشى انفجارها ولا نار تفزع من اندلاعها، لأن الجهاز مصنوع من الحديد لا الخشب. ولا فحم نخشى نفاذه، لأن الكهرباء هي أدواتنا الآلية. ولا نخاف الاصطدام لأنها السفينة الوحيدة التي تتحرك في الأعماق وليس ثمة عواصف نناجزها، لأن السكون التام يسود تحت سطح الماء بآمن قليلة. إن نوتيلوس يا سيدي هي سفينة السفن. وإذا صح أن مهندس السفينة يثق بها أكثر من منشئها، وأن منشئها يثق بها أكثر من ربانها، فإنك ستدرك مبلغ ثقتي بغواصتي هذه وأنا ربانها ومنشئها ومهندسها في وقت واحد.

وكان الربان نيمو يتحدث بطلاقة أخاذة، وكانت نظراته المتوقدة وإشارات الحارة تنم عن مدى حبه لغواصته. أجل كان يحبها حب الوالد لابنه.

وقلت له:

- ولكن كيف استطعت أن تصنع هذه الغواصة العجيبة سرّاً؟

- لقد ربت أن يصنع كل جزء منها في مكان مختلف من الكرة الأرضية، وكانت الأجزاء المختلفة تصلني بعناوين وأسماء مستعارة. فالهيكل مصنوع في مصانع كوريرز، ومحور الرفاص في شركة بن بلندن، والألواح الحديدية في مصانع لارد بليفربول، والرفاص نفسه في شركة سكوت بمدينة جلاسجو، أما خزاناتها فقد صنعت في شركة كابل بباريس،

والمحركات في شركة كروب الألمانية، ومقدمتها في مصانع موتالا بالسويد، والآلات الحاسبة في شركة إخوان هارت بنيويورك وهكذا. وقد أرسلت طلباتي إلى جميع تلك الشركات والمصانع بأسماء مختلفة.

- ولكن كيف أمكنك ترتيب جميع الأجزاء؟

- لقد أنشأت مصنعاً في جزيرة غير مأهولة بالمحيط. وهناك أخذت مع عمالي، أعني أصحابي البواسل الذين علمتهم وأرشدتهم، في تركيب أجزاء الغواصة. فلما فرغنا أشعلنا النيران في كل ما تبقى من عملنا بالجزيرة، بل ما كنت أتردد في نسفها لو استطعت.

- لا شك أنها كلفتك أموالاً طائلة.

- إن ثمن الطن الواحد في السفينة المصنوعة من الصلب ٤٥ جنيه، ويبلغ وزن غواصتي ١٥٠٠ طن، أي أن ثمنها يتراوح بين ٦٧ ألفاً وخمسمائة جنيه وثمانين ألف جنيه. ولكن هذا ثمن الهيكل فقط. أما جملة الثمن شاملة للأعمال الفنية ومجموعات التحف فيناhez مائتي ألف جنيه.

- لا بد أنك من الأغنياء.

- بل واسع الغنى... إنني أستطيع في سهولة سداد ديون إنجلترا كلها.

فجعلت أحملق في هذا الرجل الفريد وأنا أتساءل: أهو يستغل تسليمي بكلامه وتصديقي له، ويتمادى فيما يقول؟

الفصل الرابع عشر

النهر الأسود

إن المحيط الهادي يمتد من الشمال إلى الجنوب فيما بين الدائرتين القطبيتين، ومن الغرب إلى الشرق فيما بين آسيا وأمريكا، في مساحة قدرها ١٤٥ درجة من خطوط الطول. وهو أهدأ المحيطات سطحًا، فتياراته واسعة بطيئة، ومدته خفيف وأمطاره غزيرة، وذلك هو المحيط الذي شاءت الأقدار أن تدفع بي إليه في مثل هذه الظروف الضرورية.

وقال الربان نيمو:

- والآن يا بروفيسور، سنحدد مكاننا ونقطة بدء الرحلة إذا سمحت. الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعًا وسنصعد إلى السطح.

وضغط على زر كهربائي ثلاث مرات، فأخذت المضخات تدفع الماء إلى خارج المستودعات، وكان مؤشر المانوميتر يتحرك ويعين عن طريق فوارق الضغط المائي مراحل صعود الغواصة... وأخيرًا توقف.

فقال الربان:

- لقد وصلنا.

ومضينا إلى السلم الرئيسي المفضي إلى السطح. وصعدنا الدرجات الحديدية وإذا نحن على سطح الغواصة نوتيلوس.

وكان إفريز سطحها يعلو الماء بقدر ثلاثة أقدام لا أكثر، وكانت مؤخرة الغواصة ومقدمتها مخروطي الشكل مما أوحى إلى تشبيهها بالسيجار. وقد لاحظت أن ألواحها الحديدية كانت متحركة الأطراف. كالحراشيف التي تغطي أجسام الزواحف الأرضية الكبيرة. ومن ثم أدركت السبب في حسابان هذه السفينة حيوانًا مائيًا رغم المناظر القوية. ورأيت في مقدمة الغواصة ومؤخرتها مقصورة متوسطة الارتفاع، انسيابية الجوانب، صُنع جانب منها من زجاج العدسات السميك، وكان في إحداها عامل الدقة الذي يوجه الغواصة في الطريق المرسوم، وفي الأخرى مصباح كهربائي كشاف يضيء له خط السير.

وكان البحر بديعًا والسماء صافية، والغواصة لا تكاد تستقر بحركة الأمواج، وكان النسيم الرقيق الآتي من الشرق يداعب سطح الماء، والأفق خاليًا من السحب مما يعين على حسن الرؤية، ولم يكن ثمة شيء في مدى البصر: لا صخرة. ولا جزيرة، ولا السفينة إبراهيم لنكولن، ولا شيء غير المياه الخاوية.

وشرع الربان نيمو يرصد المكان عن طريق موضع الشمس من السماء. وانتظر بضع لحظات حتى بلغ قرص الشمس مستوى معينًا من الأفق. وكان يقوم بعمله دون أن يعرف وجهه أدنى اختلاف، ولو كانت الآلة في يد تمثال لما بدت أكثر ثباتًا.

وقال الربان أخيرًا:

- هذا وقت الظهيرة... وعندما تكون مستعدًا...

فألقيت نظرة على الماء الذي بدا لونه أصفر قليلاً بسبب السواحل اليابانية. ولم ألبث أن عدت إلى الصالون حيث حدد الربان موضعنا بأجهزته المختلفة، ثم قال:

- إننا يا ميسيو أروناكس في غرب خط الطول ١٥: ١٣٧ درجة.

فقلت لأستدرجه إلى الكشف عن جنسيته:

- بالنسبة إلى أي خط رئيسي؟

- إنني يا سيدي أستعمل أجهزة قياس معدة لتحديد المواضع بالنسبة لخطوط جرينتش، وباريس وواشنطن، ولكنني تكريماً لك سأستعمل الجهاز المعد للعمل على خط باريس.

لم أفد شيئاً من هذا الجواب ولكنني أحيت رأسي ، بينما استطرد وهو يقول:

- إننا الآن على خط طول ٣٧ درجة، ١٥ شرطة غربي خط باريس. وعلى خط عرض ٣٠ درجة و ٧ دقائق شمالاً. ومعنى هذا أننا نبعد الآن نحو ثلاثمائة ميل من شواطئ اليابان، وفي هذا اليوم الثامن من شهر نوفمبر، وفي ساعة الظهيرة تبدأ رحلتنا الاستكشافية في أعماق البحار.

فقلت:

- أسأل الله أن يحفظنا.

وأردف الربان قائلاً:

- سأتركك الآن يا بروفيسور لدراستك وقد أصدرت تعليماتي

بالسير في الاتجاه الشمالي الشرقي على عمق خمسين ياردة من سطح الماء. وإليك هذه الخرائط التي تبين لك اتجاه سيرنا وموضع الغواصة من الأعماق.. وإني إذ أترك الصالون تحت أمرك، أرجو أن تأذن لي بالانصراف.

وانحني الربان نيمو تحية وبقيت بمفردي مستغرقاً في أفكارٍ التي كانت تدور كلها حول ربان هذه الغواصة، ترى هل سأعرف يوماً اسم الدولة التي ينتمى إليها هذا الرجل، الذي يفخر بأنه لا جنسية له؟ وهذه الكراهية التي أضمرها للجنس البشري... هذه الكراهية التي قد تدفعه إلى ارتكاب ألوان من الانتقام الرهيب. ما سببها؟ إنني أنا الذي كانت حياتي بين يديه لم أجد منه غير استقبال فاتر، وإن لم يخل من كرم الضيافة. ولكنه أعرض عن يدي التي مدتها إليه، ولم يسط يده إليّ قط. وبقيت ساعة كاملة مستغرقاً في هذه الخواطر، أسعى للنفاذ إلى هذا الغموض الذي أثار أشد اهتمامي. ولم ألبث أن اتجه نظري إلى الخارطة الكبيرة الموضوعة فوق المنضدة.. ووضعت إصبعي على النقطة التي حددت موضعنا من خطوط الطول والعرض.

إن للبحر أنهاره الكبيرة كما هو الحال في القارات... إنها تيارات خاصة تعرف بحراراتها وألوانها وأشهرها هو المعروف باسم تيار الخليج. وقد اكتشف العلم مجاري خمسة تيارات رئيسية إحداها شمالي المحيط الأطلسي، والثاني جنوبي المحيط نفسه، والثالث شمالي المحيط الهادي والرابع جنوبه، والخامس جنوبي المحيط الهندي. ومن المحتمل أنه كان يوجد تيار سادس في شمال المحيط الهندي عندما اتصل بحر آرال وبحر

قزوين ببحيرات آسيا العظمى حيث تكونت مساحات شاسعة من الماء.
وفي المكان الذي وضعت عليه إصبعي من الخارطة، كان ثمة تيار
من هذه التيارات ينساب في مياه المحيط.. إنه التيار الأسود الياباني الذي
يعبر مضيق ملقا، بعد أن يترك خليج البنغال حيث تدفئه أشعة الشمس
الاستوائية وينطلق إلى الشاطئ الآسيوي، ثم ينعطف إلى شمالي المحيط
الهادي حتى جزائر اليوشان حاملاً جذوع أشجار الكافور وغيرها من
المنتجات المحلية مما يجعله يبدو قاتم اللون بالنسبة لأمواج المحيط
الصفية، وبعد ذلك تتلاشي أمواج المحيط الشاسع، وقد أحسست أنني
سأمضي مثله إلى نفس المصير، حين لاح لي نيد لاند وكونسايل لدي
الباب، والواقع أن رفيقيّ تسمّرا في مكانهما لمرأى العجائب التي تجلت
لأعينهما.

وقد هتف الكندي قائلاً:

- أين نحن.. أين نحن؟ في متحف مدينة كوبيك؟

وقال كونسايل:

- إذا سمح لي سيدي قلت إننا في مكان قريب الشبه بفندق دي
سوميرار.

فقلت:

- يا صديقا.. لسنا في كندا ولا في فرنسا. أنتما في الغواصة
نوتيلوس، وعلى عمق يزيد على خمسين متراً تحت سطح البحر.
فقال كونسايل:

- إننا نصدق ما يقول سيدي. ولكن هذا الصالون جدير بأن يدهش أي إنسان حتى ولو كان هولنديًا مثلي.

وفي خلال هذا سألني نيد لاند -الذي لم يكن يهتم كثيرًا بعالم الأصداف البحرية- عن مقابلتي للربان نيمو، هل استطعت أن أعرف من هو، من أين جاء وإلى أين يمضي، أو إلى أي أعماق يهبط بنا، وبالإجمال راح يمطرني بآلاف الأسئلة التي لم أجد وقتًا للإجابة عنها.

وقد ذكرت له كل ما أعرفه، أو على الأصح كل ما لم أعرفه، ثم سأله عما رأى وعما سمع من جانبه فأجاب قائلاً:

- إنني لم أسمع ولم أر شيئًا. بل إنني لم أر ملاحِي الغواصة. فهل كان هذا مصادفة، أم هي الكهرباء أيضًا؟

- الكهرباء.

فقال نيد لاند بإصرار:

- نعم. هذا ما قد يظنه كل إنسان. وأنت يا مسيو أروناكس، هل تعرف عدد الرجال في الغواصة؟ وهل تعرف إن كانوا عشرين أو خمسين أو مائة؟

- أنا لا أعرف أكثر مما تعرف يا نيد لاند. ويحسن أن نتخلى في الوقت الحاضر عن كل تفكير في الاستيلاء على الغواصة أو في الهرب منها، إنها تحفة رائعة من الصناعة الحديثة. ولو لم أرها لندمت على ضياع فرصة كهذه. إن كثيرًا من الناس يقبلون أن يحلوا محلنا لكي يعيشوا بين هذه العجائب. إن الشيء الوحيد الذي يجب أن تفعله هو أن

تلزم الهدوء. وأن ترقب ما يجري أمامك.

فهتف نيد لاند قائلاً:

- أرقب. ليس هناك ما أراقبه. إننا لا نستطيع أن نرى شيئاً في هذا السجن، إننا مستترون بعيون محجوبة.

وما كاد نيد لاند ينطق هذه الكلمات حتى ساد الظلام فجأة.

لقد انطفأ الضوء المنساب من السقف بسرعة شديدة آلمت عيني بسبب هذا التغيير، وهو ما يحدث أيضاً للعينين عند الانتقال فجأة من الظلام إلى النور الوهاج.

وقد لزمنا الصمت ولم نتحرك ونحن لا ندرى أي مفاجأة سارة أو مزعجة تنتظرنا. ولكننا سمعنا صوتاً انسياً كصوت تحريك ألواح في جوانب الغواصة.

فقال نيد لاند:

- هي النهاية.

وفجأة سطع الضوء في جانبي الصالون عن طريق فتحتين بيضاويتين. وبدت مياه البحر متألقة بضوء الكهرباء الباهر.

وكان ثمة لوحان من البللور يفصلان بيننا وبين الماء. وقد سرت في جسمي رعدة أول الأمر حين فكرت في احتمال انكسار هذا الفاصل الرقيق. ولكن المقابض النحاسية التي كانت تشده أتاحت له قوة مقاومة لا حد لها.

إن صفاء مياه البحر معروف للجميع، فهو أكثر صفاء من المياه العذبة. ذلك أن الأملاح المعدنية والمواد العضوية التي يشتمل عليها

تضاعف شفافيته. وفي بعض نواحي المحيط في جزائر الأنتيل، يمكن للإنسان أن يرى بوضوح من سطح البحر قاعه الرملية على عمق يزيد على مائة وثلاثين مترًا، والمعروف أن أشعة الشمس لا تخترق مياه البحر إلى أبعد من تسعمائة قدم. ولكن في هذا العالم المائي الذي تتحرك فيه الغواصة، كانت الكهرباء تتولد في أحضان الأمواج نفسها، فلم يكن المشهد مجرد ماء مضاء، بل كان ضوءًا سائلًا.

ونحن إذا سلمنا بوجود الضوء الفسفوري في أعماق البحار، فإن الطبيعة تدخر للأحياء البحرية مشهدًا من أشد مشاهدتها عجبًا. وقد أمكنني تأكيد هذه الحقيقة عن طريق آلاف الأشعة الصادرة من هذا الضوء الكهربائي.

وكان ثمة نافذتان من البللور على جانبي الصالون تبصر منهما هذه الأعماق المجهولة. وكان ظلام الصالون يضاعف من قوة الضوء الخارجي، حتى إنه كان في مقدورنا أن نبصره وكأنه ألواح البللور الشفاف في معرض مائي كبير.

وبدأ لنا أن الغواصة لا تتحرك. وذلك لأنه لم يكن ثمة معالم للطريق ولكننا مع هذا نرى أحيانًا خطوط المياه المضطربة الناشئة من مقدمتها، تنساب أمام أعيننا بسرعة كبيرة.

ووقفنا أمام هذه النوافذ مستسلمين للعجب، ولم يقطع أحدنا سكون الدهشة الذي خيم علينا حتى قال كونسايل:

- حسنًا أيها الصديق نيد..... لقد أردت أن ترى فيها أنت ذا ترى الآن.

فهتف نيد لاند قائلاً وقد نسي غضبه ومشروعاته للهرب بتأثير هذه
المفاتن الآسرة:

- إن هذا شيء عجيب. من ذا يرفض الحضور إلى هنا لمشاهدة هذه
العجائب؟

فهتفت قائلاً:

- الآن أستطيع أن أفهم حياة هذا الرجل. إنه صنع لنفسه عالمًا
خاصًا من العجائب والمدهشات.

فقال نيد لاند:

- ولكنني لم أر أي أسماك.

فقال كونسايل:

- وماذا يهمك من هذا يا صديقي نيد لاند ما دمت لا تعرف عنها
شيئًا؟

فصاح نيد لاند:

- أنا! صياد السمك؟!!

عندئذ قامت مناقشة بين الرجلين لأن كلا منهما كان يعرف عن
الأسماك معلومات تختلف عن معلومات الآخر.

وربما كان كونسايل يعرف عنها أكثر مما يعرف صاحبه. ولكنه وقد
أصبح صديقًا لنيد لاند، أبى أن يبدو أقل منه علمًا ومن ثم قال:

- إنك يا نيد صياد أسماك ماهر جدًا. لقد اصطدت كثيرًا من هذه

الأحياء الطريفة ولكنني أراهن أنك لا تعرف كيفية تصنيفها.

فقال صياد الحيتان:

- بل أعرف أنها مقسمة إلى نوعين. نوع صالح للأكل ونوع غير صالح.

فقال كونسايل:

- هذا تصنيف الجائع.. ولكن هل تعرف الفرق بين الأسماك العظمية والغضروفية؟

-ربما كنت أعرف يا كونسايل.

- والرتب الفرعية التي ينقسم إليها كل من هذين النوعين الكبيرين؟
فأجاب الكندي:

- يمكنني أن أقول نعم.

- إذن اسمع وتذكر.. إن الأسماك العظمية تنقسم إلى ست رتب،
الرتبة الأولى هي المعروفة باسم «الأكانثوبتريمجي» التي يكون فكها
الأعلى كامل النمو له خياشيم متحركة على هيئة المشط. وتضم هذه
الرتبة خمس عشرة أسرة، أي ثلاثة أرباع الأسماك المعروفة، مثل سمك
البرش النهري.

فقال نيد لاند في ازدراء:

- سمك المياه العذبة.

واستطرد كونسايل قائلاً:

- والرتبة الثانية هي السمك الجوفى وهي رتبة من السمك الذي تنبت زعانفه البطنية وراء الصدر دون أن تتصل بعظام الكتفين. وتضم هذه الرتبة خمس أسرات معظمها يعيش في المياه العذبة مثل السالمون والكراكي المصبوغة، والشبوط... إلخ.
فقال نيد لاند:

- وكلها أنواع لذيذة الطعم.

- والرتبة الثالثة هي أسماك السبراكانز، وهي التي تنبت زعانفها البطنية تحت الصدر وتتصل بعظام الكتفين. وتضم هذه الرتبة أربع أسرات: مثل البكلاء وسمك الترسة، والبياض وسمك موسى... إلخ.
فهتف نيد لاند وهو لا يفكر في هذه الأنواع إلا من زاوية صلاحيتها للأكل:

- عظيم جدًا.

- والرتبة الرابعة هي أسماك الزواحف «الأبود» ذات الأجسام الطويلة الخالية من الزعانف والمكسوة بجلد سميك عادة، وهذه الرتبة تضم أسرة واحدة مثل ثعبان البحر، وسمك الذئب، وسمك الحربة، والرماح... إلخ.

فقال نيد لاند:

- أنواع متوسطة.. متوسطة لا أكثر.

فاستطرد كونسايل قائلاً:

- والرتبة الخامسة هي أسماك «اللديادي» التي تتميز بامتداد عظام

الرسغ مما يكون لها نوعاً من الذراع الذي يدعم زعانف الصدر، مثل سمك الأنجلو «سمك عريض الرأس» أو سمك الضفدع.

فقال نيد لاند مشمئزاً:

- إنه نوع رديء.

- والرتبة السادسة والأخيرة هي أسماك البلكتونات التي تضم بين أنواعها الأسماك ذات العظام الفكّية دون أن يكون لها زعانف بطنية حقيقية. وهي تضم أسرتين مثل سمك الشمس.

فهتف الكندي قائلاً:

- وهو نوع تخجل منه أواني الطهي.

فقال كونسايل العالم:

- هل فهمت يا صديقي نيد؟

- أبداً يا صديقي كونسايل. ولكن استمر في حديثك. فإنه على كل حال شيق.

فاستطرد كونسايل قائلاً دون أن يتزائل:

- أما عن الأسماك الغضروفية، فإنها تنقسم إلى ثلاث رتب فقط.

فقال نيد:

- وهذا أحسن.

- الرتبة الأولى أسماك السايكلستوم، ذات الفم المستدير والخيشوم ذي الفتحات العديدة، وهي تضم أسرة واحدة، مثل سمك

الدينا أو كالانكيس .

فقال نيد لاند:

- لا بد أن تعتاد هذا النوع حتى تحب أكله.

- والرتبة الثانية هي أسماك السلاخو ولها خياشم تشبه خياشيم أسماك الرتبة الأولى ولكن فكها الأسفل متحرك. وهذه الرتبة التي تعتبر أهم أصناف السمك. تضم أسرتين مثل سمك القرش وسمك السفن.

فهتف نيد لاند قائلاً:

- ماذا؟ أتقول إن القرش والسفن من نفس الرتبة؟ إذن أنصحك يا صديقي ألا تضعهما في إناء واحد.

واستطرد كونسايل يقول:

- والرتبة الثالثة هي أسماك الاستريون ذات الخياشيم المفتوحة بشق واحد وهي تضم أربع فصائل، مثل سمك الاسترجون.

فقال نيد لاند:

- حسنًا يا صديقي كونسايل... لقد جعلت ختام هذه الأنواع خيرها وأفضلها. أهذا كل ما لديك؟

- نعم يا نيد. ولكن لا تنس أنك وأنت تعرف هذا كله فأنت لا تعرف شيئاً لأن كل أسرة من هذه الأنواع والرتب تنقسم إلى فصائل، وأقسام للفصائل، وفروع وأصناف.

فقال نيد لاند وهو يعتمد على زجاج النافذة:

- حسنا يا كونسايل. إني أرى الآن بعض الأصناف تمر أمامي.

فصاح كونسايل:

- نعم. بعض الأسماك. كأننا الآن في معرض مائي.

فقلت:

- إن المعرض المائي ليس إلا قفصًا. أما هذه الأسماك فإنها طليقة

كالطير في الهواء.

فقال نيد لاند:

- لا بأس يا كونسايل. أخبرني عن أسمائها. أخبرني بأنواعها.

فقال كونسايل:

- أنا؟ ليس هذا شأني. إن هذه مهمة سيدي البروفسور.

وفى الواقع أن تابعي وإن كان مصنفًا مجتهدًا، فإنه لم يكن بالعالم

الطبيعي. ولست أدري ما إذا كان يستطيع التفريق بين سمكة التونة

وسمكة البلطي. أما الكندي فقد كان بعكسه يعرفها بأسمائها دون تردد.

وقد توليت الإجابة قائلاً:

- هذه سمكة البالستر.

فقال نيد لاند:

- وهي بالستر من النوع الصيني أيضًا.

وغمغم كونسايل قائلاً:

- إنها فصيلة البالستر، من أسرة الاسكليردروم من رتبة البلكتونيات.

لا شك أن صاحبينا هذين جديران بأن يكون منهما عالم طبيعي ممتاز.

ولم يكن الكندي مخطئاً. فقد كان ثمة قطع من أسماك البالستر بأجسامها البدينة وجلودها المرقطة، وسلاحها الذي يشبه الحراب على زعانفها الظهرية، يمرح حول الغواصة، وقد جعلت كل منها تحرك صفوف الريش الأربعة القاتمة على جانبي الذيل. ولم يكن ثمة ما هو أبعد من ظهورها الرمادية وبطونها البيضاء، والنقط الذهبية المتألقة بين الأمواج. وقد رأيت بينها سمكة الورك الهزاز كأنها ورقة تلعب بها الريح. كما رأيت وأنا في أشد السرور سمك الورك الصيني ذا الظهر الأصفر والبطن القرمزي الفاتح والأسهم الثلاثة وراء العين. إنه لنوع نادر حقاً.

وظل جيش كامل من هذه الأحياء البحرية يرافق الغواصة مدي ساعتين، وقد عرفت بين هذه الأنواع التي بدت كأنها تتبارى في استعراض بهائها وسرعتها، أسماك الرأس الأخضر، والسرموليه المعلم بخططين مزدوجين أسودين، وسمك الجوبي بذيله المستدير وجلده المضيء بالنقط البنفسجية، وسمك «المكرونة» الياباني بجسمه الأزرق ورأسه الفضية، والأسماك المذهبة الرؤوس بخطوط سوداء تصل إلى ذيولها، وسمك الألتون بأبواقها التي تشبه المزامير، وسمك الودوكوك الذي يبلغ طول بعضه ثلاثة أقدام، ثم أسماك السلامندر الياباني وثنابين البحر التي يبلغ طولها ستة أقدام، والتي تتألق عيناها الصغيرتان وتنفرج أفواهها الكبيرة عن أسنان حادة.

وبلغ إعجابنا مداه إذ كان نيد لاند يذكر اسم السمك، وكونساييل يفصل أنواعه، وأنا مبتهج بروعتها وجمال تكوينه؛ وذلك أنه لم يسبق لي قط أن رأيت هذه الأحياء البحرية حية طليقة في مواطنها الطبيعية، ولن أذكر مختلف الأنواع التي مرت أمام أعيننا المبهورة، ولا تلك المجموعات من أسماك البحار اليابانية والصينية، فإنها أكثر عددًا وتنوعًا من طيور الجو. وقد جعلت تسبح حولنا مأخوذة ولا شك بالضوء الكهربائي.

وفجأة سطع الضوء مرة أخرى في الصالون وأغلقت الألواح الحديدية على النوافذ البللورية واختفى المنظر الباهر، ولكني بقيت بعد ذلك طويلًا وأنا في شبه حلم حتى وقعت عيناى على الأجهزة المعلقة على الجدران وكانت البوصلة لا تزال تشير إلى أننا نسير في اتجاه الشمال بشمال غرب. وكان المانوميتر يدل على أن الضغط يساوي خمسة ضغوط جوية، أي بعمق ألفي ياردة، أما مقياس السرعة فكان يدل على أننا نسير بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة.

وتوقعت قدوم الربان نيمو، ولكنه لم يظهر. وكانت الساعة تناهر الخامسة. وما لبث لاند وكونساييل أن عادا إلى مقصورتهم، وقصدت إلى غرفتي الخاصة حيث كان طعام العشاء معدًا، وكان على التحديد من أطيب أجزاء سلحفاة «الهوكسبل» ومن سمك السرموليه الذي كان كبده المطهو بذاته يكوّن طبقًا لذيذًا، هذا بالإضافة إلى قطع من الفليتو المصنوع من سمك الإمبراطور هولر كامنتوس الذي كانت نكهته تفوق نكهة السالمون الممتاز.

وأَمْضَيْتِ السَّهْرَةَ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالتَّفْكِيرِ وَأَخِيرًا غَلَبَنِي النَّوْمُ
فَتَمَدَّدْتَ عَلَى الْأَرِيكَةِ الْوُثِيرَةِ وَاسْتَغْرَقْتَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ بَيْنَمَا كَانَتْ
الْغَوَاصَةُ نُوتِيلْيُوسُ تَنْسَابُ مَسْرَعَةً فِي تَيَارِ «النَّهْرِ الْأَسْوَدِ».



الفصل الخامس عشر

دعوة مكتوبة

استيقظت في اليوم التالي - التاسع من شهر نوفمبر - بعد نوم طويل دام اثنتي عشرة ساعة. وأقبل كونسایل يسأل كعادته «كيف قضى سيدي ليلته» ولكي يقدم خدماته. وكان قد ترك صاحبه الكندي مستغرقًا في النوم كما لو كان النوم هو مدار حياته كلها.

وتركت تابعي الشجاع يثرثر بأسلوبه المعهود دون أن أعنى كثيرًا بالإجابة على كلامه. فقد كنت قلقًا لغياب الربان نيمو خلال مشاهد الليلة السابقة، وكنت أمل أن أراه مرة أخرى في هذا اليوم.

وبادرت إلى ارتداء الملابس المصنوعة من منتجات البحر. وكان تكوينها موضع تعليقات كثيرة من كونسایل. فذكرت له أنها منسوجة من خيوط حريرية لامعة تربط نوعًا من المحار الذي يكثر على سواحل البحر الأبيض المتوسط بالصخور. وقديمًا كانت بعض المنسوجات تصنع من هذه الخيوط، كالجوارب والقفازات، وهي تجمع بين نعومة

الملمس والدفع. وعلى هذا الأساس يمكن كساء بحارة الغواصة بنفقات زهيدة، دون الاحتياج إلى شجيرات القطن والأغنام ودود القز، من إمدادات اليابسة.

ولما فرغت من ارتداء ملابسني، ذهبت إلى الصالون، فوجدته خاليًا. وانصرم اليوم كله دون أن أتشرف بزيارة من الربان نيمو، ودون أن تفتح ألواح نوافذه البللورية، ولعلمهم أرادوا ألا نمل هذه المشاهدة الجميلة. وكانت الغواصة لا تزال في اتجاهها السالف وكانت سرعتها اثني عشر ميلًا في الساعة. على عمق يتراوح بين خمسين وستين ياردة.

ومر اليوم التالي على هذا النمط... نفس أعراض الجميع عنا.. ونفس العزلة.

لم أر أحدًا من رجال الغواصة. وأمضى نيد لاند وكونسايل أكثر اليوم معي، وقد اعترتهما الدهشة لغياب الربان، ترى أهذا الرجل الفريد مريض. هل ينوي أن يغير نهجه معنا؟

وأيًا كان الأمر، فقد كنا نستمتع بالحرية الكاملة. كما قال كونسايل. وكان الطعام يقدم إلينا بوفرة وبأسلوب رقيق. لقد حرص مضيفنا على تنفيذ الاتفاق الودي بيننا وبينه. فلم يكن لنا أن نشكو. ففضلاً عن موقفنا الحرج كانت له مزاياه الكبيرة إلى حد لا يدع لنا سبيلاً للشكوى أو الاتهام.

وفي هذا اليوم بدأت تدوين هذه المغامرات، مما أتاح لي تسجيلها بدقة بالغة، ومن الطريف أنني كتبتها على ورق مصنوع من أعشاب البحر.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر، أحسنا بتيارات الهواء النقي تنتشر في جوانب الغواصة مما دل على صعودنا إلى سطح الماء لتجديد زادنا من الأكسجين. وذهبت إلى السلم الرئيسي، وصعدت إلى إفريز السطح. وكانت الساعة السادسة صباحًا، والجو مكفهر والبحر معكر ولكنه هادئ لا موج فيه. وتمنيت مقابلة الربان نيمو هنا... فهل تراه يأتي؟ إنني لم أبصر سوى الرجل المكلف بعجلة القيادة في مقصورته الزجاجية. ومن ثم فقد جلست في أعلى بقعة وأخذت أنهل نسائم البحر في ابتهاج وسرور.

وأخذت السحب تنقشع رويدًا رويدًا بتأثير أشعة الشمس. وكان ظهور السحب إيدانًا بهبوب الرياح طوال ذلك اليوم. ولكن الرياح لم يكن لها أدنى تأثير بالنسبة لي. وفيما كنت أمتع بصري بمشهد شروق الشمس وبما يثيره في النفس من بهجة وانتعاش، إذ سمعت وقع أقدام تصعد إلى إفريز السطح فتأهبت لمخاطبة الربان نيمو، ولكن القادم لم يكن سوى ضابط الغواصة الأول الذي شاهدته مع الربان في زيارته الأولى لنا. وبدا أنه لم يلحظ وجودي على السطح وإنما اكتسح الأفق بمنظاره القوي المقرب، ثم اقترب من رأس السلم وتفوه ببعض كلمات أسجلها هنا بنصها، لأنها كانت تقال كل صباح وفي نفس هذه الظروف. وهذه الكلمات هي **Nantron Respec Borni Verch** "أما ما هو معنى هذه الكلمات فذلك ما لا أعرفه.

وبعد أن تفوه الضابط الأول بكلماته هبط مرة أخرى إلى داخل الغواصة. وخطر لي أنها ستستأنف طريقها تحت الماء ولهذا تبعته

وعدت إلى غرفتي.

وانقضت خمسة أيام على هذه الوتيرة دون أي تغيير في موقفنا، وفي صباح كل يوم كنت أصعد إلى السطح وكان الضابط يكرر كلماته الآتفة الذكر، أما الربان نيمو فلم يظهر لنا.

وبدأت أعتقد أنني لن أرى الربان مرة أخرى، ولكنني فوجئت في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر أثناء دخول غرفتي مع نيد لاند وكونسايل برؤية رسالة موجهة لي وموضوعة على المائدة. وفضضت الرسالة وكانت الكلمات مكتوبة بخط واضح ثابت وبحروف شبه الألمانية.

«إلى البروفسور أروناكس بالغواصة نوتيلوس».

«يدعو الربان نيمو البروفسور أروناكس إلى رحلة صيد غداً في غابة جزيرة كريسبو، ويرجو ألا يعوق البروفسور شيء عن قبول الدعوة، ويسره أن يستقبل زميليه أيضاً».

وهتف نيد لاند قائلاً:

- رحلة صيد!

وأضاف كونسايل قائلاً:

- وفي غابات جزيرة كريسبو.

وقال نيد لاند:

- إذن فإن صاحبنا هذا يرسو على البر أحياناً.

فقلت وأنا أعيد قراءة الخطاب:

- يبدو أن الأمر كما تقول.

وأجاب نيد لاند بقوله:

- حسنًا، يجب أن نقبل الدعوة. متى وصلنا إلى اليابسة كان لنا أن نقرر ما نفعله. وفضلًا عن هذا فلن آسف إذا أُتيح لي أن أكل بعض اللحم الطازج.

ونظرت إلى الخارطة لأرى موقع جزيرة كريسيو منها، فإذا هي تقع فيما بين خط عرض ٤٠, ٣٢ درجة شمالًا وخط طول ٥٠, ١٦٧ درجة غربًا. ولما كانت جزيرة صغيرة اكتشفت عام ١٨٠١ على يد الكابتن كريسيو وسجلت في بعض الخرائط الإسبانية القديمة باسم روكسادى لابلاتا، أي «الصخرة الفضية» وكنا عندئذ على مسافة ١٨٠٠ ميل من مبتدأ رحلتنا. وكانت الغواصة قد غيرت اتجاهها نحو الجنوب الشرقي. وأشرت بإصبعي لصاحبي على الصخرة الغارقة في وسط المنطقة الشمالية من المحيط الهادي وقلت:

- إذا كان الربان نيمو يرسو على اليابسة أحيانًا، فإنه يختار على الأقل الجزر المهجورة.

فهز نيد لاند كتفيه دون أن يقول شيئًا ثم ما لبث أن انصرف مع كونسایل وبعد طعام العشاء الذي قدمه الخادم الأخرس الجامد، أويت إلى فراشي يخالجني بعض القلق.

وفي اليوم التالي، أحسست حين استيقظت بالغواصة ساكنة تمامًا، فارتديت ملابسني بسرعة وقصدت إلى الصالون.

وهناك وجدت الربان نيمو جالسًا في انتظاري. فما أن رأيته حتى نهض وانحنى تحية لي، ثم سألني إذا كان من الملائم إليّ أن أرافقه:

- هل أستطيع أن أسألك يا كابتن كيف تمتلك غابات في جزيرة كريسبورغم أنك قطعت الصلة بينك وبين الأرض؟

فقال الربان:

- إن غاباتي يا بروفيسور ليست غابات أرضية، بل غابات بحرية. فهتفت قائلاً:

- بحرية؟

- نعم يا بروفيسور.

- وأنت تدعوني للذهاب معك إليها؟

- نعم. ودون أن ينالك أي بلل.

- ولكن كيف نصطاد؟ ببندقية؟

- نعم ببندقية.

وظننت أن الربان جُن، وشففت ملامح وجهي عن هذا الظن. ولكنه لم يلبث أن طلب مني أن أتبعه وكان عليّ أن أمتثل لكل شيء وقد دخلنا غرفة الطعام حيث وجدنا الإفطار معدًّا.

وقال الربان:

- هل تسمح يا مسيو أروناكس بمشاركتي طعام الإفطار دون كلفة؟

ستحدث أثناء الطعام، كما أننا لن نجد في طريقنا إلى الغابة مطعمًا نأكل

فيه ولهذا أرجو أن تفطر كرجل ربما لا يتغدى إلا في ساعة متأخرة.

وأقبلت على الطعام بشهية كبيرة. وكان مؤلفاً من أصناف مختلفة من السمك وشرائح من لحم الهوليثوريا والزوفيت الفاخر مطهوه بمختلف أعشاب البحر. وشربنا ماء صافياً، وحدثت حذو الربان فأضفت قطرات من شراب كحولي تقطر من أعشاب بحرية تعرف باسم «رودومينا بالماتا» وقد أخذ الربان نيمو في تناول طعامه دون أن يقول شيئاً أول الأمر، وأخيراً قال لي:

- عندما دعوتك للصيد في غابتي البحرية، خطر ببالك أنني مجنون. لقد تسرعت في الحكم عليّ. فأنت تعرف مثلي أن في مقدور الإنسان أن يعيش تحت سطح الماء. فحين نرتدي ملابس عازلة محكمة، ونضع على رؤوسنا خوذات معدنية، ونحصل على الهواء من أجهزة فوق السطح ترسل إلينا بالمضخات.

- إذن فهي أجهزة الغواصة؟

- نعم ولكنها أجهزة خاصة يستطيع الغواص فيها أن يتخلص من الأنبوب المطاطي المتصل بالمضخة. إنه نفس الجهاز الذي اخترعه اثنان من مواطنيك، ولكنني أدخلت عليه من التحسينات ما يجعله صالحاً لأغراض خاصة، وسوف يتيح لك المخاطرة في الهبوط إلى أعماق البحر دون حدوث أذى. إنه يتكون من مستودع من ألواح الحديد السمكية لاختران الهواء المضغوط تحت خمسين ضغطاً جويّاً. ويربط هذا المستودع على الظهر بأربطة كما يفعل الجندي بعتاده، ويتكون جزء المستودع الأعلى من صندوق يحتفظ فيه بالهواء بواسطة مفاتيح.

ولا يتسرب هذا الهواء إلا بضغطه العادي. ويخرج من هذا الصندوق أنبوتان من المطاط ويتصلان بشبه قناع يكسو الفم والأنف بإحكام، وإحدى الأنبوبتين تدفع بالهواء النقي إلى الرئتين والأخرى تطلق الهواء الفاسد خارجاً واللسان يغلق أيهما حسب الحاجة إلى التنفس. ولكنني وأنا أعاني ضغطاً شديداً في قاع البحر مضطر إلى وضع رأسي في كرة نحاسية تفتح فيها الأنبوتان..

فقلت:

- عظيم جداً يا كابتن نيمو.. ولكن الهواء الذي تحمله معك سوف يستهلك سريعاً، لأنه لن يصلح للتنفس بعد أن تصبح نسبة الأكسجين فيه ١٥٪.

- لقد ذكرت لك يا بروفيسور أن مضخات الغواصة تسمح لي باختزان الهواء تحت ضغط كبير وفي هذه الحالة يمكن لمستودع الجهاز أن يزودني بالهواء الصالح للتنفس لمدة تسع أو عشر ساعات.

فقلت:

- ليس لديّ اعتراضات أخرى، ولكنني سأسألك عن شيء واحد يا كابتن... وهو كيف تضيء طريقك في قاع المحيط؟

- بجهاز رومكورف يا مسيو أروناكس. إنه يتكون من ملف بنزن الذي أديره بالصوديوم وهناك سلك يستجمع الكهرباء المولدة ويوجهها إلى مصباح صُنع لهذا الغرض خاصة. وفي هذا المصباح زجاجة حلزونية تحتوي على كمية قليلة من غاز الكربون، وعندما يُدار الجهاز

يصبح الغاز مضيئاً ويطلق ضوءاً أبيض مستمراً وعلى هذا النحو تزود
بالهواء والضوء.

- ولكن أي نوع من البنادق تستعمل يا كابتن نيمو؟

- إنها ليست بندقية بارود. وإنما بندقية تنطلق بضغط الهواء وإلا
فكيف أستطيع أن أصنع بندقية بارود دون الحصول على الكبريت أو
الفحم الحجري أو ملح البارود.
فأضفت قائلاً:

- وعدا هذا فإن إطلاق النار تحت الماء في وسط أكثف من الهواء
بمقدار ثمانمائة وخمس وخمسين مرة، يواجه مقاومة شديدة لا بد من
التغلب عليها.

- ليس في هذا صعوبة. فهناك نوع من بنادق فلتون مزودة بأجهزة
إقفال يمكن إطلاقها في مثل هذه الظروف. ولكنني أكرر القول بأنه نظراً
لعدم وجود بارود لديّ، فإنني أستخدم الهواء المضغوط ضغطاً عالياً،
وهو ما تزودني به الغواصة.

- ولكن مثل هذا الهواء لا بد أن يستهلك عاجلاً.

- حسناً. أليس لديّ مستودعات ردايرون التي تزودني بكل
حاجياتي من هذا الهواء. وفضلاً عن هذا فسوف ترى بنفسك يا مسيو
أرونالكس أننا لن نستنفد الكثير من الهواء أو الرصاص أثناء رحلتنا
للصيد في الغابة البحرية.

- ولكن يبدو لي أن الأهداف لن تكون واضحة ولن تصيب منها

مقتلاً في محيط أكثر كثافة من الجو وأقل ضوءاً.

- سيدي إن كل طلقة من هذه البنادق تصيب مقتلاً. وإن الحيوان البحري ليسقط ميتاً حالما تلمسه القذيفة ولو مساً ضعيفاً.
- لماذا؟

- لأن القذائف ليست رصاصاً عادياً. فإن لدينا كبسولات من الزجاج المتفجر وفي الغواصة كميات كبيرة منه. هذه الكبسولات الزجاجية المكسوة بالصلب والمثقلة في القاع بالرصاص، هي زجاجات ليدين التي يحول فيها التيار الكهربائي إلى ضغط عال. وهي تنفجر لأقل صدمة، فيسقط الحيوان صريعاً مهما تكن قوته. إن هذه الكبسولات لا تزيد في حجمها على الرصاصة رقم ٤ ويمكن أن تحتوى خزانة البندقية العادية على عشر كبسولات منها.

فقلت وأنا أنهض عن المائدة:

- لن أناقش أكثر من هذا. ولم يبق أمامي إلا أن أحمل بندقيتي، إنني سأتبعك إلى حيث تذهب.

وبعد ذلك قادني الربان نيمو إلى مؤخرة الغواصة، ثم استدعيت صاحبيّ اللذين تبعاني فوراً وقصدنا حجرة صغيرة بالقرب من غرفة الآلات، حيث ارتدينا ملابس السير في الأعماق.



الفصل السادس عشر

في قاع البحر

كانت الغرفة الصغيرة بمثابة ترسانة ومخزن ملابس في الغواصة.
فقد رأيت على جدرانها عشرات من أجهزة الغوص في انتظارنا.
وما أن رأها نيد لاند حتى أبدى نفورًا بيّنًا من ارتداء إحداها. فقلت
له:

- ولكن يا عزيزي نيد لاند إن غابات جزيرة كريستو ليست إلا
غابات تحت البحر.

وهكذا خاب أمل صياد الحيتان حين رأى أحلامه بصدد اللحم
الطازج تتلاشى.
وأخيرًا قال:

- وأنت يا مسيو أروناكس. هل سترتدي واحدًا منها؟

- لا بد من هذا يا سيد نيد.

فهز صياد الحيتان كتفيه وأجاب قائلاً:

- لك يا سيدي أن تفعل ما تريد. أما أنا فلن أرتدي إحداها إلا إذا
أرغمت على ذلك.

فقال الربان نيمو:

- لن يرغمك أحد.

فقال نيد:

- وهل ينوي كونسايل أن يغامر بذلك؟

فاجاب كونسايل:

- سأتابع سيدي حيثما يذهب.

واستدعى الربان اثنين من بحارة الغواصة لمساعدتنا في ارتداء ملابس الغوص الثقيلة المصنوعة من المطاط والمصممة خصيصًا لمقاومة الضغط العالي. وكانت تبدو كحُلة مدرعة بما لها من مرونة وقوة احتمال. كانت مؤلفة من بنطلون وسترة: فأما البنطلون فكان طرفاه ينتهيان بحذاء غليظ ذي نعل من الرصاص الثقيل، وكان نسيج السترة مشدودًا بأربطة من النحاس متشابكة فوق الصدر لتحميه من ضغط الماء تاركة للريتين حرية التنفس، وكانت أكمام السترة تنتهي بقفاز لا يقيد حركات اليدين بأي حال.

وبعد قليل فرغنا من ارتداء هذه الملابس أنا وكونسايل والربان نيمو وأحد بحارته، وكان رجلًا هرقلي الجسم. ينم منظره عن القوة المفرطة. ولم يبق إلا أن يضع كلاً منا رأسه في الكرة النحاسية، ولكنني قبل أن أقوم بهذه العملية سألت الربان أن يأذن لي بفحص البنادق التي سنأخذها.

وقد سلمني أحد البحارة بندقية عادية الشكل كانت مؤخرتها المصنوعة من الصلب والمجوفة من الداخل كبيرة الحجم، فهي بمثابة مستودع للهواء المضغوط الذي كان ينطلق إلى أنبوبة معدنية عن طريق

صمام يعمل بزنبرك. وكان ثمة صندوق للقذائف صغير مثبت في فجوة خاصة بمؤخرة البندقية، يحتوي على نحو عشرين رصاصة كهربائية تدفع عن طريق الزنبرك إلى «ماسورة» البندقية وكلما انطلقت رصاصة أصبحت الثانية معدة.

وقلت:

- إن هذه البندقية يا كابتن نيمو كاملة وسهلة الاستعمال. وكل ما أرجوه الآن هو تجربتها، ولكن كيف نصل إلى قاع البحر؟

- إن الغواصة يا بروفيسور قائمة الآن على عمق ثلاثين ياردة وما علينا إلا أن نبدأ الرحلة.

- ولكن كيف سنخرج منها؟

- سترى حالاً.

وضع الربان نيمو خوذته على رأسه، وحذوت أنا وكونساييل حذوه ونحن نسمع من نيد لاند هذه العبارة التهكمية «صيد طيب» وكان طرف السترة العلوي ينتهي بياقة نحاسية شدت إليها الخوذة المعدنية. وما إن تم ارتداء الملابس حتى بدأ الجهاز الموضوع على الظهر عمله. وقد وجدت من ناحيتي أنني أستطيع التنفس بسهولة.

وبعد أن تم إعداد كل شيء وجدت أنني لا أستطيع التقدم خطوة واحدة. ولكن هذا كان متوقعاً، فقد شعرت بأني أدفع إلى مقصورة ملحقة بغرفة الملابس، وتبعني رفاقي مدفوعين بنفس الكيفية. وسمعت باباً مزوداً بمفصلات ذاتية يغلق وراءي، وإذا نحن في ظلام دامس.

وبعد لحظات سمعت صفيرًا عاليًا ثم أحست بالبرودة تسري من قدمي إلى صدري، وكان واضحًا أن الغرفة تمتلئ بماء البحر من صنوبر خاص. وفتح باب آخر في جانب الغواصة ولاح ضوء يسير وبعد لحظة كانت أقدامنا تطأ قاع البحر.

والآن كيف أستطيع أن أسجل مشاعري وأنا أسير تحت سطح البحر؟ إن الألفاظ قاصرة عن التعبير عن هذه الروائع. وإذا كانت فرشاة الرسم نفسها تعجز بالألوان عن تصوير تأثيرات هذه العناصر المائية الفريدة، فكيف يكون ذلك في طوع العلم؟

وكان الربان نيمو يسير في المقدمة ورفيقه على مسافة خطوات سيرة وبقيت مع كونسایل وكأنما كان يمكن أن نتبادل الحديث من خلال الخوذات المعدنية. ولم أعد أشعر بثقل ملابس الغوص أو الحذاء أو مستودع الهواء أو بالكرة المعدنية المجوفة التي كان رأسي يتأرجح داخلها كاللوزة في غلافها.

و أدهشني الضوء الذي أثار القاع على عمق ثلاثين قدمًا تحت سطح المحيط بقوته وسطوعه، فقد كانت أشعة الشمس تنفذ من حجاب الماء وتتحلل إلى ألوان الطيف، وكان يمكن رؤية الأشياء بوضوح على مسافة مائة وعشرين ياردة. أما فيما وراء ذلك فقد كان الضوء يتدرج في ظلال بديعة الألوان ثم يتلاشى وتسود العتمة. وكانت المياه حولي تبدو أشد كثافة من جو اليابسة، ولكنها تقاربه شفافية. أما فوقي فقد كان بوسعي أن أبصر سطح البحر الهادئ.

وكنا نسير على أرض رملية ناعمة مستوية لا أثر فيها للموجات،

كما يحدث في شاطئ رملي مسطح تنطبع فيه آثار الأمواج. وكانت هذه السجادة الرائعة تعكس أشعة الشمس بقوة مذهشة، وكنت أستطيع في هذا العمق البالغ ثلاثين قدمًا أن أبصر كما لو كنت في وضوح النهار.

ولبت ربع ساعة أسير فوق هذه الرمال البراقة المرصعة بغبار المحار الملون الأملس. وكانت مقدمة الغواصة التي لاحت لي وكأنها صخرة مستطيلة تختفي تدريجيًا، ولكن مصباحها إذ جن الليل كان كفيلاً بتسهيل عودتنا إليها. وكنت وأنا أسير أجذب أستار الماء بيدي فلا تلبث أن تنسدل ورائي، أما آثار قدمي على الرمال فكانت تتلاشى بضغط الماء. وسرعان ما وصلت إلى مجموعة من الصخور البديعة المكسوة بأضراس أعشاب البحر، ولأول وهلة داخلني انفعال خاص بهذا الجو المحيط بي.

وكانت الساعة إذ ذاك العاشرة صباحًا. وكانت الشمس ترسل أشعتها على سطح الأمواج في زاوية حادة وعند التقاء الشمس بسطح البحر كان الضوء يتحلل وكأنه ينفذ من منشور بللوري إلى ألوان الطيف السبعة التي تنعكس في رونق وبهاء على الأزهار والصخور والأعشاب والرمل والمحار. وكان المنظر في جملة يبهل العين لتشابكه، وألوانه المتباينة التي تتعاقب بين الأخضر والأزرق... وصفوة القول كانت جميع الألوان التي في جعبة رسام موهوب.

وتوقفت مع كونسايل أمام هذا المشهد الرائع. فقد كانت زهور الإيريس المبرقشة، وأكوام المرجان الصافي، ونبات الاسفنج، وشقائق النعمان المتكاثفة بإطاراتها القوية تشكل حديقة بحرية غناء مموهة بطلاء كالرخام الناشئ من قواقع البورنيتا، ومزخرفة بقرون استشعارها

السماوية اللون، كما كانت أزهار نجوم البحر ترصع الرمال، والقواقع تترك في زحفها على الرمال آثارًا كأنها الوشي الرقيق. وكم تملكني الأسى وأنا أدوس بقدمي هذه الأنواع التي لا حصر لها من النباتات والأزهار والأحياء البحرية الدقيقة والمحار والأصداف وغيرها من كنوز المحيط التي لا يحصوها عدد. ولكن كان علينا أن نتابع السير بينما كانت أنواع وأصناف أخرى من الحيوانات البحرية تسبح فوقنا بمختلف ألوانها وأشكالها وسماتها وكأنها مظلات عجيبة تحمينا من أشعة الشمس. ولو كان الوقت ليلاً لأضاء لنا سمك الباتوفيران الطريق بإشعاعه الفسفوري.

شاهدت هذه الأعاجيب كلها في مساحة ربع ميل مربع. ثم سرعان ما تبدلت طبيعة التربة: فبعد السهول الرملية، أخذنا نسير في منطقة موحلة زلقة تتكون من أجزاء متساوية الأصداف الرملية والجيرية ثم انتقلنا إلى مراص من أعشاب البحر اللينة التي تفوق أفخر أنواع السجاد التي صنعتها يد الإنسان. وفي الوقت الذي انبسطت فيه تحت أقدامنا هذه الخضرة البحرية، كانت هناك نباتات أخرى تطفو على سطح الماء. وقد لاحظت أن الخضراء منها كانت قريبة من سطح الماء، أما ذات اللون الأحمر فكانت تقع في عمق متوسط. وبقيت النباتات ذات اللون الأسود أو البني تكون حقائق النباتات وأحواض الزهور في أعماق المحيط البعيدة. وأن أسرة الأعشاب البحرية تضم أكبر وأصغر أنواع النبات في الكرة الأرضية.

وكنا قد غادرنا الغواصة منذ نحو ساعة ونصف، وكان الوقت يناهز الثانية عشرة ظهرًا، وقد عرفنا هذه الحقيقة من استقامة أشعة الشمس التي

لم تعد تتحلل إلى ألوان الطيف. وهكذا اختفت هذه الألوان الساحرة تدريجيًا وتلاشت الظلال الزمردية والياقوتية، ومضينا نسير بخطوات منتظمة كان لها فوق الأرض رنين أدهشنا وضوحه، ذلك أن أقل صوت كان يصل إلى الأذن بسرعة لم تألفها اليابسة. والواقع أن الماء أفضل من الهواء في توصيل الصوت بنسبة أربعة إلى واحد.

وبدأت الأرض تنحدر تدريجيًا وأخذ الضوء يزداد خفوتًا. لقد كنا في عمق يجاوز مائة ياردة. وتحت ضغط يوازي عشرة ضغوط جوية. ولكن ملابس الغوص كانت أصغر من أن أشعر معها بوطأة هذا الضغط، وكل ما أحسست به هو اضطراب يسير في مفاصل أصابعي، وحتى هذا لم يلبث أن تلاشى. أما التعب الذي كنت متوقعًا أن نشعر به في هذه الجولة وبهذه الملابس العجيبة فلم يكن له وجود. فقد كنت أتحرك بسهولة مدهشة والماء خير عون لي.

وكنت رغم هذا العمق البالغ ثلاثمائة قدم - لا أزال أري أشعة الشمس، ولكن في غير وضوح. فقد أعقب ضوءها الباهر، ضوء أحمر كالشفق الذي يفصل بين الليل والنهار. ومع ذلك كان هذا الضوء كافيًا لهدايتنا في الطريق؛ وهكذا لم يتحتم علينا بعد أن نستعين بمصابيحنا.

وفي تلك اللحظة توقف الربان نيمو، منتظرًا وصولي إليه، ثم أشار بإصبعه إلى كتلة عائمة بدت من بين الظلال على مسافة يسيرة، فقلت لنفسي:

- إنها جزيرة كريسبو.

ولم أكن مخطئًا.

الفصل السابع عشر

غابة في قاع المحيط

وصلنا أخيرًا إلى مشارف الغابة التي تعتبر بلا شك من أجمل ممتلكات الربان نيمو الشاسعة. كان ينظر إليها على أنها ملك يمينه، وإلا فأين الذي يستطيع أن ينازعه هذا الحق؟ وكانت هذه الغابة تتكون من أشجار كثيفة، وما أن نفذنا من عقودها الضخمة حتى أدهشني وضع أغصانها الفريد الذي لم ألاحظه من قبل.

لقد استرعى نظري أن الأعشاب التي تكسو الأرضية والأغصان والنباتات الأكبر حجمًا، كانت منحنية متدلّية أو منتشرة أفقيًا، لم يكن بينها أي نبات حتى ولا الألياف الدقيقة إلا وقد امتد رأسيًا كقضيب من الحديد. وكذلك كانت نباتات الفاسكي واللياناس تنمو في خطوط رأسية مستقيمة تسيطر عليها كثافة العناصر التي تنمّيها. وعندما أحنيت بيدي بعضها استردت وضعها الرأسي فورًا، لقد كنا في عالم النباتات الرأسية الصاعدة.

ولم ألبث أن ألفت هذه الأوضاع الغريبة كما ألفت الظلمة اليسيرة التي تشملنا. وكانت الأرض تبدو مكسوة بكتل لم يكن من السهل

اجتنابها. ولكن الغابة في جملتها بدت لي أكمل وأغنى من غابات المناطق القطبية أو الاستوائية. وقد اختلط الأمر عليّ لأول وهلة، فكنت أخطئ في التفريق بين بعض الحيوانات والنباتات. ومن ذا الذي لا يخطئ في عالم بحري يتحد فيه عنصر النبات والحيوان اتحادًا يكاد يكون كاملاً. وقد لاحظت أن كل هذه النباتات البحرية ليست لها جذور، وإنما هي عالقة فقط بالرمال أو الأصدف أو الصخور، إنها لا تستمد غذاءها وحيويتها من شيء غير الماء. وكان أكثرها ينبت بدل الأوراق نصلاً نباتية الأشكال تتعاقب ألوانها بين الوردي والأحمر الزاهي والأحمر العادي والزيتوني والبني...

وبين هذه الأشجار المختلفة التي تبلغ في أحجامها أشجار المناطق المعتدلة، وتحت ظلالها الرطبية رأيت كتلاً من أدغال الزهور الحية وأعني بها مختلف أنواع القواقع والمحار وحيوانات الإسفنج وغيرها من الأحياء البحرية الدقيقة التي تشبه النبات والزهور بألوانها وخطوطها وتفتح أوراقها. ولكي تتم الصورة العجيبة رأيت السمك الطائر، الذي كان يطير من غصن إلى غصن وكأنه أسراب من الطيور الطنانة.

وفي نحو الساعة الواحدة بعد الظهر أشار لنا الربان نيمو بالتوقف، فلم يؤسفني هذا. ولم نلبث أن تمددنا تحت دغل من نبات الألاريا التي كانت نصالها تندفع إلى أعلى كالسهام.

وبدت لي هذه الراحة القصيرة ممتعة. ولم يكن ينقصنا إلا لذة الحديث، ولكن الحديث كان مستحيلاً. كل ما استطعته هو تقريب خوذتي المعدنية الكبيرة من خوذة كونسایل، فرأيت عينيه تلمعان رضىً،

وكان يتحرك في ملابس الغوص بطريقة تثير أشد الضحك.

وقد أدهشني بعد مسيرة هذه الساعات الأربع أنني لم أشعر باشتداد الجوع. ولست أدري ما السبب، ولكنني كنت أشعر برغبة قوية في النوم كما هو شأن جميع الغواصين. لقد أغمضت عيني وراء زجاج الخوذة السميكة واستغرقت في نوم غلاب لم يحل بيني وبينه حتى ذلك الحين سوى المسير، وكان الربان نيمو وصاحبه القوي قد ضربا لنا المثل في الخضوع لسلطان النوم بعد أن رقدا على أرضية هذا العالم البللوري.

ولست أدري كم لبثت نائمًا -ولكنني حين استيقظت كانت الشمس مائلة إلى المغرب، وكان الربان نيمو قد استيقظ ونهض واقفًا بينما كنت أتمطى، ولكن مشهدًا مفاجئًا جعلني أثب واقفًا.

رأيت على بعد خطوات مني عنكبوتًا بحريًا ضخماً يبلغ ارتفاعه أكثر من ياردة يحلق إليّ بعينيه الحولالوين ويتأهب للوثوب عليّ، ورغم أن سمك ملابسني كان كافياً لحمايتي من لدغة هذا العنكبوت الوحشي فإنني لم أستطع كتمان حركة تنم عن الفزع، واستيقظ كونسایل وبحار الغواصة على صوت حركتي. وأشار الربان نيمو للبحار إلى ذلك الوحش البحري المخيف وإذا بضربة عنيفة من مؤخرة البندقية تقضي عليه.. ورأيت مخالفه البشعة وهي تتلوى بحركات تشنجية فظيعة..

وذكرتني هذه الحادثة بأن ثمة حيوانات أخطر قد تكمن في هذه الأعماق المظلمة، وأن ملابس الغوص قد لا تحميني من هجماتها، والواقع أن شيئاً كهذا لم يخطر ببالي من قبل. ولهذا قررت التزام الحذر. وكنت أظن أن هذه الراحة هي نهاية رحلتنا ولكنني تبينت خطئي؛ فإن

الربان نيمو بدلاً من العودة إلى الغواصة استأنف السير .

واستمرت الأرض في الانحدار حتى أفضت بنا إلى مزيد من الأعماق. وأعتقد أن الساعة كانت الثالثة بعد الظهر حين بلغنا وادياً ضيقاً بين هضبتين عاليتين على عمق أربعمئة قدم تحت سطح الماء، ويرجع الفضل إلى ملابس الغوص التي جعلتنا نحتمل الضغط المائي ونحن في هذا العمق، فقد كنا على عمق ٢٧٠ قدماً تحت المستوى الذي لا يستطيع الإنسان تجاوزه دون أجهزة الغوص، وقد عرفت مدى العمق الذي وصلنا إليه لأن الظلمة صارت مطبقة بحيث لم يكن في مقدورنا أن نرى إلى أبعد من عشر خطوات، وبينما كنت أسير وأنا أتحسس طريقي رأيت فجأة ضوءاً أبيض يسطع. لقد أضاء الربان نيمو مصباحه الكهربائي فاقتديت به أنا والبحار وكونسايل، وتم ذلك بإدارة لولب يصل بين قطعة سلك والزجاجة الحلزونية المضئية. وقد أضاءت هذه المصابيح الأربعة الطريق حولنا إلى مسافة خمس وعشرين ياردة.

وتابع الربان نيمو توغله في أعماق الغابة المظلمة التي أخذت أشجارها تقل تدريجياً كلما تقدمنا. وقد لاحظت أن العنصر النباتي كان يختفي أمامنا بأسرع من اختفاء العنصر الحيواني، فبينما كانت بعض المناطق خالية من النبات إذا هي في ذات الوقت زاخرة بأنواع من الأحياء البحرية المختلفة.

وخطر إليّ ونحن نسير أن مصابيحنا لا يمكن إلا أن تلفت أنظار بعض سكان هذه الأعماق المظلمة. ولكنها إذا كانت لم تقترب منا فإنها على الأقل تبعتنا من مسافة غير قصيرة، ورأيت الربان نيمو مراراً وهو

يتوقف ويصوب بندقيته ثم لا يلبث بعد تدقيق النظر أن ينهض ويستأنف السير.

وحوالي الساعة الرابعة انتهت هذه الرحلة العجيبة أخيرًا، فقد ارتفع أمامنا جدار من الصخور الشامخة إلى هضبة من الجرانيت يستحيل أن يتسلقها إنسان. تلك هي جزيرة كريسبو. وفجأة توقف الربان نيمو وتوقفنا نحن بإشارة منه. فهنا كانت آخر حدود مملكته.

وبدأنا طريق العودة.. وتقدم الربان فرقة الصغيرة كالمعتاد دون تردد ولا التواء، وبدالي أن عودتنا إلى الغواصة لم تكن من نفس الطريق الذي جئنا منه، فقد كان الطريق شديد الانحدار يشق السير فيه ولكنه أفضى بنا إلى السطح بسرعة، على أن عودتنا إلى المناطق العليا لم تكن مفاجئة على النحو الذي يسبب الأضرار المهلكة للغواصين. وسرعان ما وضع الضوء مرة أخرى وأخذ يزداد. وكانت الشمس عندئذ قد مالت إلى المغيب وصبغت المريئات بهالات طيفية.

وعلى عمق عشر ياردات أخذنا نسير بين أسراب من السمك الصغير من كل صنف أكثر كثيرًا من طيور الجو وأخف منها حركة ولكننا لم نلتق حتى ذلك الحين بحيوان بحري يستحق أن نصوب إليه بنادقنا.

وفجأة رأيت الربان نيمو يرفع بندقيته على كتفه ويقتفي أثر شيء متحرك بين الشجيرات، ولم يلبث أن أطلق البندقية فسمعت فحيحًا سيرًا ثم رأيت حيوانًا يسقط على مسيرة خطوات منا.

كان «قندسًا» أو كلب البحر بديع الصورة، وهو الحيوان الوحيد من ذوات الأربع الذي يعيش في الماء فقط. وكان طوله خمسة أقدام مما

بضعاف من قيمته المادية. وكان جلده الكستنائي اللون في أعلى، الفضّي في أسفل يجعل منه فراء نفيسًا يشتد الإقبال عليه في روسيا والصين. وأعتقد أن هذا الفراء اللامع الناعم الملمس لا يقل ثمنه عن ثمانين جنيهًا. وأخذت أتأمل بإعجاب هذا الحيوان البحري الثديي برأسه المستديرة وأذنيه القصيرتين وعينه المستديرتين وشواربه البيضاء كالقط وأقدامه ومخالبه ذات الأغشية. لقد كان صيادو السمك يجدّون في طلب صيد هذا الحيوان الثمين حتى أصبح نادرًا، وأخذ يلتجئ إلى البقاع الشمالية من المحيط الهادي حيث يحتمل أن ينقرض نوعه في زمن قريب. وما لبث تابع الربان نيمو أن حمل هذا الحيوان فوق كتفه ثم تابعنا السير.

وفي الساعة التالية كنا نسير في سهل رملي مترامي الأطراف كان يرتفع أحيانًا قرب سطح الماء بمقدار ياردتين وبضع بوصات، وكنت أرى فوقنا انعكاس صورنا وهي انعكاسات تمثلنا تمامًا وإن جعلت رؤوسنا إلى أسفل وأرجلنا إلى أعلى..

وكانت لجج الأمواج فوقنا تبدو كالسحاب فوق رؤوسنا. وهو سحاب ما يكاد أن يتجمع حتى يتلاشى سريعًا كما كنت أرى ظلال الطيور الكبيرة وهي تحلق فوق سطح الماء.

وفي هذه المناسبة أتيح لي أن أشهد انطلاق بندقية الصيد بضربة فذة تستهوي الصياد. فقد راح طائر كبير عريض الجناحين يرفرف فوقنا فرفع تابع الربان نيمو بندقيته إلى كتفه وأطلقها عندما حلق الطائر قريبًا من سطح الماء فهوى الطائر صريعًا في متناول يد الصياد البارِع الذي تلقفه. وكان كطائر القادوس.

ولكن هذه الحادثة لم تعطل سيرنا.. وقد نال مني الجهد كل منال
حتى لمحت آخر الأمر ضوءاً باهتاً على بعد نصف ميل. فقدرت أنه لن
تنقضي عشرون دقيقة حتى نصل إلى الغواصة حيث أستطيع التنفس
بسهولة. فقد بدا لي أن مستودع الهواء الخاص بي لم يعد فيه كفاية من
الأكسجين بيد أنني لم أحسب حساباً لحدث آخر وصولي إلى الغواصة.
كنت إذ ذاك خلف الربان نيمو بنحو عشرين خطوة عندما استدار
نحوي فجأة وطرحني بيده القوية أرضاً بينما فعل تابعه مثل هذا بكونساييل.
ولم أستطع أول الأمر أن أعرف كيف أواجه هذا الهجوم المفاجئ ولكني
اطمأنت حين رأيت الربان راقداً على الأرض بجواري في سكون تام.
تمددت في ظل شجيرة من نوع الأرجياء. وما كدت أرفع رأسي
حتى رأيت أجراماً ضخمة ذات إشعاعات فسفورية تمر صاحبة عن كذب
مني.

لقد شعرت بالدماء تتجمد في عروقي لدى رؤيتي كلبى بحر يهددان
حياتنا وكانا مخلوقين رهيبين ضخمي الذيل تنبعث منهما نظرات جوفاء
جامدة ذات شعاع فسفوري، كلاهما وحش مروع يمكن أن يحطم رجلاً
مكتمل النمو بين كفيه. ولم أدر هل حاول كونساييل أن يعرف نوعهما
وفصيلتهما. وإنما الذي أدريه أنني لاحظت بطونهما الفضية وأفواههما
الضخمة وأنيابهما الحادة التي كنت أنظر إليها بعين الضحية لا بعين
العالم الذي يفحصها من الناحية العلمية.

كانت هذه الحيوانات الوحشية ضعيفة النظر لحسن الحظ. وهكذا
مر كل منهما بجانبنا دون أن يرانا وإن كنا لم نسلم من احتكاك زعانفه

القوية بنا. وكذلك نجونا بمعجزة من خطر كان أشد من تعرض الإنسان
لنمر في غابة.

وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الغواصة بمساعدة ضوء المصابيح
الكهربائية وكان بابها الخارجي قد ظل مفتوحًا. وقد أغلقه الربان نيمو
بعد أن دخلنا القمرة الأولى ثم ضغط على لولب فسمعت المضخات
وهي تعمل في الداخل وشعرت بالماء يهبط من حولي. وبعد لحظات
كانت القمرة الأولى خالية من الماء تمامًا وعندئذ فتح الربان الباب
الداخلي المؤدي إلى غرفة الملابس.

وبعد أن تخففت من ملابس الغوص، عدت إلى غرفتي وأنا مكدود
لفرط حاجتي إلى الطعام والنوم ولكن العجب كان يملك عليّ نفسي لما
رأيت من غرائب هذه الرحلة تحت البحر.



الفصل الثامن عشر

أربعة آلاف فرسخ تحت المحيط الهادي

زailني التعب في صباح اليوم التالي، فصعدت إلى سطح الغواصة، في نفس الوقت الذي كان فيه الضابط الأول يقول عبارته اليومية المعهودة، وعند ذلك خطر لي أن لهذه العبارة علاقة بحالة البحر وأن معناها «ليس هناك شيء على مدى النظر».

وكان المحيط في الواقع خلواً من أي شيء، فلم يكن ثمة شراع في الأفق. واختفت جزيرة كريستو أثناء الليل وامتنص البحر ألوان الطيف الشمسي. فيما عدا الأشعة الزرقاء التي انعكست منه في كل اتجاه، زاهية بديعة. وانبعثت موجة كبيرة تتراوح على سطحه متعاقبة.

وبينما أنا أتأمل هذا المنظر الرائع للبحر، إذ أقبل الربان نيمو وبدالي أنه لم يفتن إلى وجودي؛ فقد انهمك في سلسلة من العمليات الفلكية. ولما فرغ منها يمم شطر مقصورة الكشف حيث وقف مستنداً إليها وراح يرقب سطح المحيط.

وفي خلال هذه الفترة صعد إلى سطح الغواصة نحو عشرين رجلاً من بحارة الغواصة وهم أقوىاء أشداء البنية، وقد أقبلوا لسحب شباك الصيد التي ظلت مطروحة في الماء طوال الليل. وكان جلياً أن هؤلاء البحارة ينتمون إلى جنسيات مختلفة رغم الطابع الأوروبي الذي شملهم: لقد تبينت منهم الإيرلندي والفرنسي وبعض السلافيين واليونانيين، وكانوا قليلي الكلام، يتخاطبون بلهجة غريبة لم أتمكن حتى من معرفة مصدرها من اللغات ولهذا لم أستطع تبادل الحديث معهم.

ورفعت الشباك من الماء. وكانت من نوع «الكالوت» المستعمل لصيد السمك على شاطئ نورماندي بفرنسا. وهي عبارة عن جيوب كبيرة تظل نصف مفتوحة بعوامات وسلاسل خفيفة مشدودة إلى أطرافها السفلى. وعند سحب هذه الجيوب، تكتسح الثقالات الرصاصية أرض المحيط وتجمع داخل الشباك كل ما يعترض سبيلها. وفي هذا الصباح جاءت الشباك بأنواع من حقول السمك هذه. وقد رأيت بينها أسماك اللوفيا داحر كاتها المضحكة مما جعلها تستأثر باسم «السمك المهرج». وأعتقد أن هذه الحصى لم تكن تقل عن تسعمائة وزنة من السمك. وهي حصى بديعة، ولكنها لا تدعو إلى الغرابة؛ فإنه ينبغي ألا نشعر بنقص في حاجتنا إلى الطعام.

وسرعان ما أنزلت هذه المنتجات البحرية المختلفة من الباب الخارجي المؤدي إلى مخازن المؤونة لتقدم بعضها طازجاً، ويحفظ بعضها الآخر.

وبعد أن تمت عملية الصيد وتجديد مؤونة الهواء خطر لي أن

الغواصة ستستأنف رحلتها تحت سطح الماء فتأهبت للعودة إلى غرفتي عندما استدار الربان لي قائلاً:

- أليس المحيط قد وهب حياة حقيقية يا بروفيسور؟ إنه أحياناً رقيق، وأحياناً أخرى عاصف، لقد نام في الليلة الماضية مثلنا. وها هو ذا الآن قد استيقظ بعد نوم هادئ.

ولاحظت أن الربان لم يقل لي مرة «طاب صباحك أو سعدت مساء» وكأن صاحب هذه الشخصية كان يواصل معي حديثاً بدؤه من قبل. واستطرد يقول:

- انظر... إنه يستيقظ بتأثير الشمس. وإنه لمن الطريف جداً أن ترقب تفاعله الحيوي. إن له نبضاً وعروقاً. إن له انتفاضات ودورة دموية حقيقية كدورة الدماء في الحيوانات.

وكان الواضح أن الربان نيمو لم ينتظر مني جواباً. كان يتحدث كأنما يتحدث إلى نفسه وهو يتوقف بين عبارة وأخرى. وكأن حديثه تأملات مسموعة.

وعاد يقول:

- نعم إن للمحيط دورة دموية حقيقية. وقد اكتفت الإرادة الإلهية في خلقها لهذه الدورة بمضاعفة الأملاح القلوية والخلايا الحيوانية. فالقلويات تنشئ اختلاف الكثافات التي تؤدي بدورها إلى خلق التيارات السطحية والتحتية، وأن التبخر الذي لا يحدث أبداً في المناطق الشمالية القصوى يكثر حدوثه ونشاطه في المناطق الاستوائية، يؤدي بدوره

إلى التبادل الدائم بين المياه الاستوائية والمياه القطبية. فضلاً عن هذا فإني شعرت بالتيارات الرأسية التي يتكون منها جهاز التنفس الحقيقي للمحيط. لقد رأيت ذرات مياه البحر وهي تسخن على السطح، ثم تهبط إلى الأعماق حيث تصل إلى مستواها العادي من الكثافة في درجة ٢ مئوية تحت الصفر، ثم تعود إلى الصعود بعد أن تصبح بالبرودة أخف وزناً. وأنت تعرف في القطبين نتائج هذه الظاهرة الطبيعية، وستدرك وفقاً لقانون الطبيعة، أن التجمد لا يمكن أن يحدث قط إلا على سطح الماء.

وفيما كان الربان يقول هذا، سألت نفسي:

- هل ينوي هذا الرجل الجريء أن يمضي بنا إلى هناك؟

وفي خلال ذلك توقف الربان عن الحديث وراح يتأمل هذه العناصر التي كان يدرسها بلا انقطاع. وما لبث أن استأنف حديثه قائلاً:

- إن الأملاح توجد بكميات ضخمة في البحر يا بروفيسور. ولو أنك استخرجت كل ما في مياه البحار من هذه الأملاح لحصلت على أربعة ملايين ونصف مليون ميل مربع منها، أي ما يمكن لأن يكسو سطح الكرة الأرضية بطبقة سمكها أكثر من عشر ياردات ولا تحسب أن وجود هذه الأملاح يرجع إلى بذخ من الطبيعة وإنما هو يجعل مياه البحر أقل قابلية للتبخر، كما يمنع الرياح من نقل كميات كبيرة من البخار الذي حين يتكثف قد يغرق المناطق المعتدلة. إن لهذه الأملاح دورها الكبير في توازن القوى الطبيعية للكرة الأرضية.

وأمسك الربان نيمو عن الحديث ونهض وسار بضع خطوات، ثم عاد إليّ قائلاً:

- أما مئات الملايين من الدويبات الحيوانية التي تعيش بالملايين في قطرة الماء والتي يزن الثمانمائة ألف منها مقدار ملليجرام واحد فإن لها دورًا لا يقل أهمية. إنها تمتص الأملاح البحرية، وتحلل العناصر الصلبة في الماء وبالتالي تصنع الأراضي الصخرية. إنها تكون أحجار المرجان وعروق اللؤلؤ. وعندما تفقد قطرة الماء عناصرها المعدنية، يخف وزنها فترتفع إلى السطح حيث تمتص الأملاح الباقية من عملية التبخر، فتثقل، وتهبط حاملة عناصر معدنية جديدة لكي تمتصها الدويبات الحيوانية، وهكذا دواليك. وهذا سر التيارات الرأسية المزدوجة صعودًا وهبوطًا: حركة دائمة.. وحياة متجددة.. إنها أروع حيوية من الحياة على اليابسة، وأشد غزارة، وأعظم نماءً في كل جزء من المحيط.. إن أسباب موت الإنسان في المحيط كما يقال هي أسباب الحياة لملايين الملايين من الأحياء.. ولي أيضًا.

وخيل إليّ أن الربان نيمو قد تبدل إلى شخص آخر أثناء هذا الحديث وأثار في نفسي أحاسيس عجيبة.

وأضاف قائلاً:

- هنا حياة حقّة. وبوسعي أن أتصور الأساس الذي ستقوم عليه المدن البحرية في المستقبل، وأعني بها المدن في داخل البحار، ومجمعات المنازل الغائصة التي سوف تصعد كغواصتي هذه صباح كل يوم إلى سطح الماء للتنفس: مدن متحررة مستقلة، إن وجد مثلها حقًا. ولكن.. من يدري.. فلعل بعض المستبدين الطغاة...

وختم الربان نيمو عبارته بحركة عنيفة من يده، ثم يمم شطر الفتحة

العليا واختفى في جوف السلم ولم ألبث أن تبعته وقصدت إلى الصالون وبدأ الرفاص في العمل وبدا من قياس السرعة أن الغواصة تسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة.

ومضت أسابيع قلت فيها زيارات الربان نيمولي، فلم أكن أراه إلا بين حين وآخر، وكان الضابط الأول يحدد بانتظام خط سير الغواصة على الخارطة، وهكذا تيسر لي أن أتابع سيرها بدقة.

وحدث في خلال الليلة الفاصلة بين التاسع والعاشر من شهر ديسمبر، أن شاهدنا قطعان الأحياء البحرية اللافقارية المهاجرة وهي تتجاوز الملايين. وكانت مهاجرة من المناطق المعتدلة إلى المناطق الحارة، مقتفية آثار سمك الرنجة والسردين. وجعلنا نراقبها من نوافذنا البللورية وهي تسبح في اتجاه خلفي مقتفية آثار الأسماك الأخرى، فتأكل الصغيرة ويأكلها الكبيرة، محرقة في عنف واضطراب أذرعها العشرة التي وضعتها الطبيعة فوق رؤوسها كالحيات ذات الرئة.

وقد ظلت الغواصة رغم سرعتها البالغة، مبحرة ساعات متوالية بين هذه الحشود. وظفرت شباكها بمقادير كبيرة منها، تعرفت بينها على الأنواع التسعة المعهودة في المحيط الهادي.

وكان البحر أثناء الرحلة سخياً بالمشاهد الجميلة العجيبة المذهلة التي كانت تتعاقب بلا حصر، كان البحر يغير مشاهدته وتشكيلاته إمتاعاً لنواظرننا. وقدر لنا ألا نظفر فحسب بالتأمل في آثار صنع الخالق في هذا العالم المائي بل أن ننفذ كذلك إلى أرواح أسرار المحيط.

وذات يوم كنت جالساً في الصالون أقرأ، وجلس كونسایل ونيد

لاند يتفرجان من خلال النوافذ البللورية على المياه المضاءة، وكانت الغواصة مستقرة على عمق ألف ياردة في منطقة مهجورة لا يظهر فيها سوى الأسماك الضخمة لمأما.

وما لبث كونسايل أن قطع عليّ القراءة قائلاً بصوت غريب:

- هل يسمح سيدي بالانتقال إلى هنا؟

فنهضت وذهبت إلى النافذة ونظرت من خلالها فرأيت في ضوء الكهرباء الساطع كتلة سوداء ضخمة ساكنة معلقة في وسط الماء. وتأملتُها بإمعان محاولاً أن أعرف طبيعة هذا الوحش الضخم، ولكن فكرة خطرت ببالي فجأة جعلتني أهتف قائلاً:

- سفينة.

فقال نيد لاند:

- نعم سفينة معطوبة غارقة في وضع رأسي.

وكان الرجل على حق. فقد كنا بالقرب من سفينة غارقة لا تزال أشرعتها المهلهلة معلقة بسلاسلها، وكان هيكلها يبدو سليماً مما جعلني أعتقد أنها لم تغرق إلا منذ ساعات معدودة. وكان على السفينة كما بدا لي أن تضحي بساريتها الكبرى للنجاة. وكانت السفينة مائلة على جانبها وقد امتلأت بالماء. والواقع أن هيكل هذه السفينة التي كانت من قبل عامرة بالحياة بدا مشهداً أليماً تحت الأمواج. ولكن كان أبعث منه على الألم مشهد سطحها وما عليه من جثث تعلقت بالحبال. لقد أحصيت خمساً منها. عامل الدفة وامرأة كانت بالقرب من المؤخرة حاملة طفلها

بين ذراعها . كانت في ريعان الشباب، إذ استطعت أن أتبين في الضوء المناسب من الغواصة ملامحها التي لم تكن المياه قد شوهتها بعد. ويبدو أنها رفعت ابنها إلى أعلى في محاولة أخيرة بينما التفت ذراعا الصغير حول عنقها. وكانت مناظر البحارة مروعة وقد بدا أنهم كانوا يبذلون آخر محاولة لتخليص أنفسهم من الحبال التي تشدهم إلى السفينة. وبدا عامل الدفة وحده هادئاً رصيناً قد التصق شعره الأشيب بجبينه وتشبث بعجلة الدفة وكأنما أخذ على عاتقه أن يوجه السفينة - حتى في غرقها- إلى أعماق المحيط.

يا له من مشهد! لقد انعقدت ألسنتنا، وخفقت قلوبنا بعنف وسرعة إزاء مشهد هذا الحطام الذي سجلته نواظرنا في اللحظة الأخيرة، وكنت في خلال هذا أرى أسماك البحر الكبيرة وهي تتجه إلى اللحم البشري بأعين جائعة.

ودارت الغواصة عندئذ حول حطام السفينة الغارقة فقرأت هذه الكلمات على مؤخرتها:

«فلوريدا - ساندري لاند».



الفصل التاسع عشر

فاينكورد

كان هذا المشهد المروع فاتحة سلسلة من مشاهد الكوارث البحرية التي قُدر للغواصة أن تلتقي بها في طريقها. ولما كانت تسير في بحار مطروقة فكثيراً ما كنا نشاهد هياكل السفن الغارقة وقد دب التعطن إلى حطامها في وسط المياه. وفي المناطق الأشد عمقاً كنا نرى المدافع والقذائف والمراسي الحديدية والسلاسل وغيرها من الأشياء الحديدية وقد تآكلت بفعل الصدأ.

وانقضى أسبوع لم أر فيه الربان نيمو. وفي صباح اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر دلف إلى الصالون وقد بدا وكأنه لم يفترق عنا أكثر من خمس دقائق. وكنت عندئذ أتبع خط سير الغواصة على الخارطة حين اقترب مني ووضع إصبعه على موضع منها ثم فاه بهذه الكلمة الواحدة.

- فاينكورد...

وكان لهذا الاسم أثر السحر في نفسي، فهو اسم الجزائر التي فقدت فيها سفيتتا الربان لابيروز.

ومن ثم نهضت فوراً وقلت:

- هل تمضي بنا الغواصة إلى فاينكورد؟

فأجاب الربان قائلاً:

- نعم يا بروفسور.

- وهل أستطيع أن أزور هذه الجزائر المشهورة التي فقدت فيها

السفيتتان بوّسول واسترولوب؟

- إذا شئت يا بروفسور.

- ومتى سنصل إليها؟

- لقد وصلنا فعلاً يا بروفسور.

وتقدمت الربان نيمو إلى السطح، حيث وقفت أدير النظر في لهفة إلى أنحاء الأفق.

رأيت في الجهة الشمالية الشرقية جزيرتين بركانيتين متساويتي الحجم تحيط بهما الحواجز المرجانية. وهكذا كنا أمام جزيرة فاينكورد -وهذا هو اسمها الحقيقي- وإن كان دومونت دورفيل قد أطلق عليها اسم جزيرة «دي لاريشرش». وكانت الغواصة في مواجهة ميناء فانو الصغير. وبدت الأرض مكسوة بالخضرة من الشاطئ إلى مرتفعات الوسط التي تتوجها قمة كابوجو وهي ترتفع عن سطح البحر ثلاثة آلاف قدم.

وبعد أن عبرت الغواصة حلقة الصخور الخارجية عن طريق ممر ضيق دخلت إلى منطقة حواجز المرجان حيث لا يزيد عمق الماء على ستين أو ثمانين ياردة. وقد رأيت في ظلال الخمائل المتكاثفة بعض سكان الجزيرة الهمج الذين أدهشهم اقترابنا. ولعلمهم ظنوا جسم الغواصة المستطيل الزاحف على سطح الماء وحشاً بحرياً هائلاً ينبغي حماية أنفسهم منه. وفي تلك اللحظة سألني الربان نيمو عما أعرف عن كارثة الربان لابيروز فقلت:

- هو ما يعرفه كل إنسان.

فقال بصوت ينم عن تهكم يسير:

- وهل يمكن أن تخبرني بهذا الذي يعرفه كل إنسان؟

وعندئذ ذكرت له ما ورد في آخر مؤلفات دومونت وما قيل عن هذا الموضوع إذ قال «في عام ١٧٨٥ عُهد إلى الربان لابيروز ونائبه الكابتن لانج في القيام برحلة حول العالم. ولهذا الغرض جهز السفينتين بوسول واسترولوب، وبعد ذلك لم يُعرف شيء عن السفينتين».

وفي عام ١٧٩١ أعدت الحكومة الفرنسية التي أفلقها الأمر، السفينتين لاريشرش واسبيراتس اللتين أبحرتا من ميناء برست بقيادة الربان بروني دانتر يكاستو. وقد عرف بعد شهرين أن بقايا حطام السفينتين المفقودتين شوهدت بالقرب من سواحل جورجيا الجديدة. ولكن الربان دانتر يكاستو تجاهل هذا واتجه إلى الجزائر التي قدر أنها موضع غرق سفيتي لابيروز.

ولم يصل في بحثه إلى شيء ومرت السفيتان اسبرانس ولا ريشرش
بجزيرة فاينكورد. دون أن تتوقف عندها. ولازم سوء الحظ هذه الرحلة،
فقد توفي الربان دانتر يكاستو كما مات اثنان من الضباط وعدد كبير من
البحارة.

وكان أول من عثر على الآثار الأولى لحطام السفيتين هو الربان
ديلون أحد خبراء الملاحظة القدامى في المحيط الهادي. ففي منتصف
شهر مايو عام ١٨٠٤ مرت سفينة سانت باتريك بالقرب من نيكوبيا إحدى
جزائر الهبريد الجديدة. وهناك باعه أحد ساكنها الوطنيين من «اللاسكار»
مقبض سيف فضي يعلوه نقش معين؛ وقال البائع إنه عندما كان في جزيرة
فاينكورد منذ ست سنوات شاهد فيها رجلين أوريين ينتميان إلى سفن
غرقت منذ أعوام بعيدة عند الحواجز المرجانية للجزيرة.

وأدرك ديلون أن الرجل يقصد سفيتي الربان لابيروز اللتين أثار
اختفاؤهما اهتمام العالم. وقد رغب ديلون في الوصول إلى فاينكورد
التي قال له البائع إنها تضم الكثير من بقايا حطام السفيتين، ولكن
التيارات والرياح العكسية حالت دون تحقيق هذه الرغبة. فلم يسعه إلا
العودة إلى كالكتا حيث وفق إلى إثارة اهتمام الجمعية الآسيوية وشركة
الهند الشرقية بهذا الموضوع. وسرعان ما وضعت تحت إمرته السفينة
ريشرش، وقد أبحر بها في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير عام
١٨٢٧ يرافقه مندوب فرنسي.

وفي اليوم السابع من شهر يوليو من نفس العام ألقت السفينة ريشرش
مرساها أمام جزيرة فاينكورد في نفس ميناء فانو الذي تطفو أمامه الآن

الغواصة نوتيلوس وهناك جمع الكثير من بقايا حطام السفينتين كالأواني الحديدية والمراسي والبكرات والمدافع البحرية، وقنبلة زنة ١٨ رطلاً وبقايا آلات فلكية وقطعة من شراع المقدمة، وجرساً معدنياً يحمل عبارة «صناعة بازان» وهي شعار مصنع للآلات المعدنية في برست عام ١٧٨٥. وهكذا لم يبق مجال للشك في الحقيقة.

ورغبة في أن يستكمل ديلون تحرياته، بقي في مسرح الكارثة حتى شهر أكتوبر ثم غادر فاينكورد إلى نيوزيلاند وفي السابع من شهر أبريل عام ١٨٢٨ ألقى مراسيه في كلكتا ثم عاد إلى فرنسا حيث استقبله الملك شارل العاشر بحفاوة.

وكان دومون دورفيل قد أبحر بسفينته استرولوب. ثم ألقى مراسيه أمام مدينة هوبرت بعد أن ذهب ديلون عن فاينكورد بشهرين. وهناك علم بالنتائج التي وصل إليها ديلون، كما علم أن المدعو جيمس هوبنز الضابط بالسفينة يونيون التابعة لشركة كلكتا لاحظ أن الأهالي في جزيرة هبط إليها دومونت مرة وكانت واقعة جنوب خط العرض ١٨، ٨٠ درجة وشرقي خط الطول ١٥٦، ٣٠ درجة. كانوا يستخدمون قضباناً من الحديد وأدوات أخرى حمراء وشعر بالحيرة ولم يدر إن كان يمكن الاعتماد على هذه التقارير المستقاة من صحف غير موثوق بها؟ وأخيراً قرر أن يمضي في أثر الربان ديلون.

وفي اليوم العاشر من شهر فبراير عام ١٨٢٨ أُلقت الاسترولوب مراسيها أمام جزيرة نيكوبيا واستعانت بأحد الهاربين من الخدمة البحرية ليكون لربانها دليلاً مترجماً، ثم أبحرت إلى جزيرة فاينكورد حيث رست

داخل الحاجز المرجاني أمام ميناء فانو.

وطاف عدد من ضباطها حول الجزيرة ثم عادوا حاملين بقايا حطام قليل الأهمية. أما الأهالي فقد ركنوا إلى المراوغة والإنكار إذ رفضوا إرشادهم إلى مكان الحادثة. وقد أدى هذا المسلك المريب إلى الاعتقاد بأن الأهلين أساءوا معاملة الناجين من الكارثة، ويبدو أنهم خشوا في الواقع من أن يكون حضور دومونت ورجاله للانتقام مما حدث للربان لايبروز.

ومهما يكن فإن الهدايا والاطمئنان إلى عدم وجود ما يبرر الخوف كان لها أثرها في حسم الموقف وهكذا صحبوا الضابط البحري جاكينو إلى مسرح الكارثة...

وعلى عمق ست أو ثمانى ياردات من سطح الماء وبين الحواجز المرجانية لميناء بكو وفانو استطاع جاكينو مشاهدة المراسي، والمدفع، والكتل الحديدية والرصاصية مستكنة في الطبقات المرجانية. وسرعان ما أرسل ربان الاسترولوب إلى المكان زورقاً من زوارق النجاة وآخر من قوارب صيد الحيتان، واستطاع بحارة الزورقين بعد جهد أن يرفعوا المرساة الكبيرة البالغ وزنها ثمانمائة رطل، والمدفع النحاس الذي يبلغ مثل هذا الوزن. وبعض كتل الرصاص ومدفعين نحاسيين.

وقد علم دومونت ودرفيل من تحرياتهما لدى الأهلين أن الربان لايبروز بعد أن فقد سفينتيه على حواجز الجزيرة ابتنى سفينة صغيرة لقيت نفس المصير في مكان لا يعرفه أحد. وعندئذ أمر ربان الاسترولوب بإقامة نصب تذكاري لذكرى لايبروز ورجاله في ظلال إحدى الخمائل. وكان

النصب عبارة عن هرم مربع الأضلاع فوق أساس من صخور المرجان الخالية من قطع الحديد، لكيلا يعتمد الأهالي إلى هدم النصب للحصول على هذا المعدن.

ولما سمع الربان نيمو هذه البيانات قال لي:

- إذن لا يعرف أحد أين تحطمت السفينة الثالثة التي شيدها الربان لايبروز ورجاله؟

- نعم هذا ما لا يعرفه أحد.

فلم يجب الربان نيمو وإنما أشار لي أن أتبعه إلى الصالون وهبطت الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء ثم أزيحت المصاريع عن النوافذ البللورية، فاندفعت إليها حيث شاهدت تحت طبقات المرجان المكسو بأنواع مختلفة من النباتات البحرية، وبين أسراب الأسماك، أشياء عجزت روافع المنقبين عن استخراجها. كانت مراسي ومشابك حديدية ومهاميز معدنية ومدافع ومؤخرة سفينة وكانت كلها من حطام السفينة الغارقة التي ما لبثت أن كستها بالزهور الأحياء البحرية. وبينما كنت أقلب النظر في هذه البقايا المؤلمة قال لي الربان نيمو بصوت رصين:

- لقد بدأ لايبروز رحلته بالسفيتين بوسول واسترولوب وقد ألقى مراسيه أولاً في بوتاني، وزار جزائر فرندي ونيو كاليدونيا، ثم توجه إلى سانتا كروز ومر بجزيرة جابكا إحدى جزر هابي، وأخيراً وصلت السفينتان إلى منطقة الحواجز المرجانية غير المعروفة في جزيرة فاينكورد، وقد اصطدمت السفينة بوسول أولاً بالحواجز المرجانية في

الناحية الجنوبية، وبادرت الاسترولوب إلى نجدها فلقيت نفس المصير .
وكانت السفينة الأولى قد تحطمت تمامًا ولكن الثانية صمدت عدة أيام .
وقد أحسن الأهالي استقبال البحارة الناجين الذين أقاموا بالجزيرة
وشيدوا سفينة أصغر من بقايا السفينتين الغارتين . واختار بعض البحارة
البقاء في جزيرة فاينكورد بينما أبحر الباقيون مع الربان لايبروز الذي يمم
شطر جزائر سليمان، ولكنهم جميعًا لقوا حتفهم لدى الساحل الغربي
للجزيرة الكبرى في مجموعة الجزر وهي الواقعة بين رأسي ديسبشان
وساتسفاكشان .

فقلت بدهشة :

- وكيف عرفت هذا؟ .

- إليك ما حصلت عليه في مكان الحادث .

وأطلعني على صندوق من الصفيح يعلوه الشعار الفرنسي، وآثار
المياه المالحة، ولما فتحه رأيت مجموعة من الأوراق كانت صفراء
ولكنها مقروءة . وقد تضمنت تعليمان وزير البحرية الفرنسي للربان
لايبروز، وعلى حواشيها ملاحظات بخط الملك لويس السادس عشر .

وقال الربان نيمو :

- إنها ميتة رائعة لملاح . وإن القبر المرجاني لمثوى هادئ . أدعو الله
ألا يمنحني وزملائي قبرًا غيره .

الفصل العشرون

مضايق توريز

غادرت الغواصة نوتيليوس جزيرة فاينكورد ليلاً بسرعة فائقة، وفي خلال ثلاثة أيام قطعت ٧٥٠ فرسخاً وهي المسافة الفاصلة بين مجموعة جزر لابيروز وجنوب شرقي جزيرة مابو. وفي ساعة مبكرة من صباح أول يناير عام ١٨٦٣، جاءني كونساييل على سطح الغواصة وقال لي:

- هل يسمح لي سيدي أن أرجو له عامًا جديدًا سعيدًا؟

- عجبًا يا كونساييل. قد يظن الإنسان وهو يسمع كلامك أنني الآن في حديقة النباتات بباريس. أشكر لك حسن تمنياتك، وإن كنت أحب أن أسألك ماذا تعني بعبارة «العام الجديد السعيد» في ظروفنا الحاضرة؟ هل سيكون هذا العام إيذانًا بانتهاء أسرنا، أم سيشهد استمرارنا في هذه الرحلة العجيبة؟

فأجاب كونساييل قائلاً:

- لا أدري على وجه التحديد، ماذا أقول لسيدي، فليس من ريب في أننا نرى العجائب، ولم نشعر بالملل يوماً خلال الشهرين الأخيرين، وأن

آخر أعجوبة نراها تكون دائماً أبعث على الدهشة من سابقتها، وإذا استمر الحال على هذا المنوال العجيب، فلست أدري كيف ينتهي بنا الأمر. وفي رأيي أننا لن نظفر بمثل هذه الغواصة مرة أخرى.

- بتاتاً يا كونسایل.

- وفضلاً عن هذا فإن السيد نيمو -الذي تطابق تصرفاته اسمه اللاتيني- لا يقلقنا في شيء وكأنه غير موجود. ولهذا أرى أن العام السعيد، هو العام الذي يتيح لنا الفرصة لرؤية كل شيء.

- رؤية كل شيء يا كونسایل. إن هذا يستغرق زمناً طويلاً. ولكن ما رأي نيد لاند في هذا الأمر؟

فأجاب كونسایل:

- إن تفكير نيد لاند يتعارض مع تفكيري على طول الخط. إن له عقلاً إيجابياً ومعدة قاهرة. إنه لا يرضى بالنظر دائماً إلى السمك ولا باقتصار الطعام عليه. إن الحرمان من الخمر والخبز واللحم لا يرضي بأي حال صاحبنا السكسوني الذي اعتاد أكل لحم البقر، والإسراف في الشراب كلما سنحت له الفرصة.

- إن هذا يا كونسایل ليس هو مصدر عذابي وإني لأروض نفسي على قبول كل ما يقدم إلينا من طعام هنا.

فقال كونسایل:

- هذا ما أفعله أيضاً... وبقدر ما أفكر أنا في البقاء، يفكر لاند في الهرب. ولهذا، فإذا لم يكن هذا العام الجديد عام خير لي، فسوف يكون

عام خير له، والعكس صحيح. وهذا يعني أن واحدًا منا سيكون راضيًا وإنّي في النهاية أتمنى لسيدي كل ما يرضيه.

- شكرًا يا كونسايل. وكل ما أرجوه أن تتجاوز عن موضوع هدية رأس السنة، وأن تكتفي بمصافحتي لك في الوقت الحاضر، فهذا كل ما في وسعي أن أقدمه.

- إن هذا كرم عظيم من سيدي لم يسبق أن تمتعت به.
وانصرف التابع الوفي عند هذا الحد.

وفي اليوم الرابع من شهر يناير لاحت لنا شواطئ جزيرة بابو. وفي هذه المناسبة أخبرني الربان نيمو أنه قرر الوصول إلى المحيط الهندي عن طريق مضائق توريز حيث تنتهي مواصلاته، وقد اغتبط نيد لاند حين رأى أن هذا الطريق سيقربه من البحار الأوروبية.

ولم تكن مضائق توريز أقل خطرًا بسبب الصخور المرجانية المتشعبة أو بسبب السكان المتوحشين الذين يترددون على الشواطئ. وهي تفصل نيو هولاند عن جزيرة بابو الكبيرة التي أطلق عليه أيضًا اسم غينيا الجديدة.

ودخلت الغواصة أخيرًا مضائق معروفة على وجه الكرة الأرضية، إنها المضائق التي لا يجسر أشجع الملاحين على اجتيازها إلا في القليل النادر والتي اكتشفها لويز بازدي توريز أثناء عودته من البحار الجنوبية، وفيها كادت سفن الربان دومونت ودر فيل تغرق عام ١٨٤٠. ولكن مهما يكن من أمر هذا كله فإن الغواصة نوتيليوس التي تسمو على كافة مخاطر

البحر، توشك أن تتعرف على حواجزها المرجانية.

ويبلغ عرض مضائق توزيز نحو أربعة وثلاثين فرسخًا، ولكن يعترض مياهها عدد لا يحصى من الجزر والصخور والحواجز المرجانية مما يجعل الملاحة فيها شبه مستحيلة. ولهذا كان الربان نيمو يلتزم كل حيلة وحذر أثناء عبور هذه المضيق. وأخذت الغواصة وهي في مستوى سطح الماء تتحرك ببطء بينما كان رفاصها يضرب الأمواج كذيل وحش بحري كبير.

وانتهزت مع زميلي هذه الفرصة واتخذنا أماكننا على سطح الغواصة المقفر في كل وقت، وكانت مقصورة رجل الدفة قائمة أمامنا، وأكبر ظني أن الربان نيمو كان يتولى بنفسه قيادة الغواصة في تلك المنطقة الخطرة. وكان البحر من حولنا عنيفًا مهتاجًا، وتيارات الأمواج المنطلقة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بسرعة ميلين ونصف تتحطم على الحواجز المرجانية التي كانت تبرز هنا وهناك.

وقال لي نيد لاند:

- بحر ثائر.

فأجبت قائلاً:

- مروع حقًا، وهو لا يلائم غواصة مثل نوتيلوس.

فقال الكندي:

- لا شك أن هذا الربان اللعين واثق من خط سيره، لأنني أرى حواجز مرجانية متشعبة إذا لمستها الغواصة مجرد اللمس لتحطمت عن آخرها.

وبينما كنت أتساءل عما إذا كان الربان نيمو بتهوره الأبله سيشق طريقه بالغواصة في هذا الممر الذي ترددت فيه سفيتا الربان دومونت دورفيل، إذا هو يغير اتجاهه ويقصد إلى جزيرة جلبوا، وكانت الساعة إذ ذاك الثالثة مساء حيث ابتداء انحسار المد منذ قليل وأخذت الغواصة تقترب من الجزيرة التي كنت أرى أشجار الأناناس تحت شواطئها.

وعلى مسافة ميلين تقريباً من الشاطئ إذا بصدمة عنيفة تسقطني، لقد مست الغواصة إحدى الشعب المرجانية وتوقفت حركتها وجنحت على جانبها الأيمن.

ولما نهضت واقفاً رأيت الربان نيمو وضابطه الثاني على السطح يفحصان موقف الغواصة ويتبادلان الحديث بلهجتهم المجهولة.

وكانت جزيرة جلبوا تقع على بعد ميلين، وكان شاطئها يدور من الشمال إلى الغرب كأنه ذراع ضخمة تشير إلى الجنوب الشرقي. وكانت ثمة رؤوس صخرية مرجانية بارزة بعد انحسار المد عنها. وكانت الغواصة قد ارتطمت بالقاع في موضع قليل المد. وهي حالة يؤسف لها في تاريخ نوتيلوس. ولكنها مع ذلك لم تصب بسوء وبقي هيكلها سالمًا متماسكًا. لكن إذا كانت بمنجاة من الغرق أو التحطم فإنها لا تستطيع أن تتجنب خطر الالتصاق بهذه الشعب المرجانية إلى الأبد، وعند ذلك يقضى على الغواصة قضاء مبرماً.

كنت أفكر في هذا عندما أقبل الربان في سكون وثبات ودون أن يعتريه شيء من الاضطراب أو التأثير.

فقلت له:

- أهو حادث؟

- لا. بل عارض يسير.

فقلت له:

- ولكنه عارض قد يضطرك لأن تكون من سكان هذه الأرض التي تحاول الهرب منها.

فنظر إليّ نيمو الربان نظرة غريبة، ثم هز رأسه نفيًا وكأنما يقول لي إنه ما من شيء يمكن أن يضطره لوضع قدمه على اليابسة مرة أخرى، ثم قال:

- إن الغواصة لم تضع، إنها سوف تحملك دائمًا بين عجائب المحيطات. إن رحلتنا لم تبدأ سوى الآن، ولست أود أن أُحرم من شرف صحبتك بهذه السرعة.

فأجبت قائلاً دون أن أُلقي بالآ إلى عبارته التهكمية:

- ولكن الغواصة يا كابتن نيمو تحتاج إلى مد عال قوي لكي تعود. والمد في المحيط الهادي ضعيف فإذا لم تعمل على تخفيف حمولتها فلست أدري كيف نتمكن من تعويمها.

- إن المد في هذا المحيط ليس قويًا، حقًا يا بروفيسور. ولكن يوجد في مضائق توريز فارق بين المد العالي وبين المد المنخفض يبلغ مقداره خمسة أيام. ونحن في اليوم الرابع من شهر يناير، وسيبلغ القمر تمامه بعد خمسة أيام، وستكون دهشتي بالغة إذ لم يؤد اكتمال القمر إلى رفع مياه المد وإسدائي صنيعًا أود أن يكون الفضل فيه للقمر وحده.

قال الربان نيمو هذا وهبط مرة أخرى داخل الغواصة التي ظلت جامدة في مكانها وكأن الحيوانات المرجانية قد أطبقت عليها ولا فكاك منها.

وقال نيد لاند الذي أقبل نحوي بعد انصراف الربان:

- حسنًا يا سيدي؟

- حسنًا يا صديقي نيد. ولابد أن ننتظر في صبر ارتفاع المد في اليوم التاسع من الشهر. فإنه يبدو أن القمر سيتعطف علينا ويساعد الغواصة على أن تطفو من جديد.

- ألم يحاول هذا الربان أن يرفع المراسي، أو يدير المحركات، أو يفعل شيئًا لتعويم الغواصة؟

فأجاب كونسایل ببساطة:

- ولماذا يفعل ما دام المد يكفي؟

فنظر نيد لاند إليه ثم هز كتفيه ثم قال بلسان البحار الذي يكمن في نفسه:

- أعتقد يا سيدي أن هذه الكتلة الحديدية لن تصلح للملاحة مرة أخرى سواء على سطح الماء أو في جوفه. إنها لم تعد تصلح للبيع كحديد مفكك وقد آن الأوان للافتراق عن الربان نيمو.

فقلت:

- إنني لا أياس مثلك يا نيد من هذه الغواصة العظيمة، وفي خلال أربعة أيام سنعرف ماذا ينبغي أن نقرر، وفضلاً عن هذا فإن فكرة الهرب

قد تبدو وجيهة لو كنا على مرأى من شواطئ إنجلترا أو فرنسا، ولكن الأمر مختلف في منطقة بابوا هذه. وسيتسع أماننا الوقت للالتجاء إلى هذا الحل إذا لم تنجح الغواصة في استئناف جولاتها، وهو تطور ساعده من الأمور الخطيرة.

فقال نيد لاند:

- ومع هذا قد يجوز لنا أن نستمع باليابسة، فهناك جزيرة، وفي الجزيرة أشجار. وتحت الأشجار حيوانات. ولهذه الحيوانات لحم طيب المذاق. آه لو استطعت أن أتذوقه!

فقال كونساييل:

- إن الصديق نيد لاند على صواب في هذا. وأنا أؤيده. ألا يستطيع سيدي البروفسور أن يستأذن صديقه الربان نيمو في السماح لنا بالانتقال إلى البر، وإن لم يكن لشيء فلكيلا ننسى عادة السير على الأجزاء الصلبة من كوكبنا هذا؟

فقلت:

- بوسعي سؤاله ولكنه سيرفض.

فقال كونساييل:

- ليُجازف سيدي. عندئذ سنعرف لطف الربان.

ولشد ما كانت دهشتي حين أذن لنا الربان نيمو بما نريد. وقد أبدى مجاملة كبيرة في هذا المقام ودون أن يضغط علينا لكي نتعهد بالعودة إلى الغواصة، ولكن الهرب عبر أراضي غينيا الجديدة كان محفوفاً بالخطر

الشديد وما كان ينبغي لي أن أشجع نيد لاند عليه. فإنه من الأفضل أن يكون الإنسان أسيرًا في الغواصة على أن يقع بين أيدي سكان الجزيرة.

وفي صباح اليوم التالي وضع الزورق الكبير تحت تصرفنا ولم أحاول أن أعرف إن كان الربان نيمو سيرافقنا. بل كنت أعلم أنه لن يسمح لنا باصطحاب أحد بحارة الغواصة، وأن نيد لاند سيقع عليه عبء توجيه الزورق، وفضلًا عن هذا فإن الأرض لم تكن بعيدة عنا بأكثر من ميلين، وأن التوجه إليها لا يعدو أن يكون نزهة بالنسبة إلى نيد لاند وهو يقود زورقًا خفيًا كهذا بين الشعاب المرجانية التي تعتبر شديدة الخطر على السفن الكبيرة.

وفي اليوم التالي رفع الزورق من مكانه وأنزل إلى الماء من فوق سطح الغواصة، وقد تولى هذه العملية اثنان من رجال الغواصة، وكانت المجاديف بالزورق. ولم يكن علينا إلا أن نتخذ أماكننا فيه.

وفي الثامنة صباحًا، تسلمنا البنادق والبلط وهبطنا من جوانب الغواصة وكان البحر هادئًا والرياح الخفيفة تهب من اليابسة، أخذت أنا وكونسايل في التجديف بقوة بينما أمسك نيد لاند بالدفة وراح يوجه الزورق بين مسارب الصخور.

ولم يستطع نيد لاند أن يخفي بهجته. كان كسجين أفلت من السجن وليس في نيته العودة إليه. وكان يكرر القول:

- اللحم. سنأكل اللحم. وأي لحم! اللحم الحقيقي، وإن لم يكن معه خبز. وليس معنى هذا أن السمك طعام غير طيب ولكن لك أن تأكل منه ما تشاء، مع قطعة فخذ مشوية على نار الفحم، إن طعامًا كهذا سيكون

تغيراً محبباً في طعامنا المعتاد.

وقال كونسايل:

- يا له من أكل! إنه يجعل فمي يتحلب اشتهاً للحم المشوي.

فقلت:

- إننا لا نعرف بعد ما إذا كان ثمة حيوانات تصاد في هذه الغابات أم
أن الصيد فيها سيصطاد الصياد.

فقال نيد لاند الذي كانت أسنانه حادة كنصل بلطة:

- حسنًا يا مسيو أروناكس. أنا في حالة أكل معها لحم نمر. فخذة
من لحم النمر، إذا لم يكن ثمة حيوان غيره في هذه الجزيرة.

فقال كونسايل:

- إن الصديق نيد رجل خطر.

فأجاب نيد لاند:

- أيًا كان نوع هذا الحيوان، وسواء كان من ذوات الأربع ولا ريش
له، أو برجلين فقط أو ريش، فإني سأحييه بأول رصاصة في بندقيتي..

فأجبه قائلاً:

- حسنًا ولكنني أراك تتسرع.

فقال الكندي:

- لا تخف يا مسيو أروناكس. اضربا الماء بالمجاديف، ولا أطلب
إلا مهلة ثلث ساعة لأقدم إليكما طبقاً من صنع يدي.

وفي الثامنة والنصف صباحًا كان الزورق ينساب في رفق إلى الشاطئ
الرملي بعد أن تخلصنا لحسن الحظ من شعاب المرجان المحيطة بجزيرة
جلبوا.



الفصل الحادي والعشرون

بعض أيام في البر

كان لملامسة البر أثر عميق في نفسي. وقد ضرب نيد لاند الأرض بقدمه وكأنما يريد أن يستولي عليها. ومع هذا فلم نكن من ركاب الغواصة إلا لمدة شهرين كما قال الربان نيمو، أي أننا لم نقض في أسر الربان سوى شهرين فقط.

وكان تكوين التربة يكاد يكون كله مرجانيًا، ولكن بعض المجاري الجافة للأنهار التي تناثرت منها بقايا الصخور الجرانيتية دلت على أن هذه الجزيرة سابقة في تكوينها للعهد المرجاني. وكان الأفق كله محجوبًا بستار من الغابات الرائعة، وكانت الأشجار الضخمة -التي يبلغ ارتفاع بعضها ٢٠٠ قدم- والتي تتكاثر عليها النباتات المتسلقة وتشعب بين أغصانها، تصلح لأن تكون أراجيح طبيعية للنوم، يهزها أرق النسيم. وكانت الغابات تتكون من أشجار السنت والصبّار، والساج والنخيل، اختلط بعضها ببعض في غير نظام، ونمت في ظلالها زهور الأركيد، والنباتات البقلية، والسرخس.

ولكن صاحبنا الكندي لم يحفل بهذه الأنواع البديعة من النباتات في منطقة بابوا على أساس أن الصالح المفيد أهم في نظره من اللطيف الجميل. حتى إذا لمح شجرة جوز هند أسقط بعض ثمارها وكسر قشرتها فشربنا عصيرها اللبني، وأكلنا لبابها في لذة أين منها طعام الغواصة المعتاد؟!

ولم يتمالك نيد أن قال:

- مدهش.

فرد عليه كونسایل قائلاً:

- رائع.

- لا أظن أن ربانك نيمو هذا يعترض على عودتنا إلى غواصته بحمل من ثمار جوز الهند.

فقلت:

- لا أظن أنه يعترض. ولكنه لن يذوقها.

فقال كونسایل:

- في هذه الحالة سيكون هو الخاسر.

فقال نيد لاند:

- ونحن الفائزون. فستبقى الكمية لنا.

فقلت لصياد الحيتان الذي كان ينهب ثمار شجرة أخرى:

- كلمة واحدة يا نيد لاند. إن جوز الهند طعام لذيذ. ولكن من

الحكمة قبل أن نملاً الزورق به أن نرى هل تنتج الجزيرة مواد لا تقل فائدة عنه؟ أعتقد أن الخضر الطازجة ستلقى ترحيباً طيباً في مطبخ الغواصة.

فقال كونسايل:

- إن سيدي على حق. وأنا أقترح أن نجعل في الزورق ثلاثة أقسام: قسم للفواكه، وآخر للخضر، والثالث للحوم التي لم أر بعد أي عينة منها.

فرد الكندي بقوله:

- لا ينبغي أن نياس من شيء يا كونسايل.

فقلت:

- لتتابع رحلتنا مع التزام الحذر. فرغم أن الجزيرة تبدو مأهولة، فقد يكون سكانها أسلس قياداً من حيوانها.

فلما أرسل نيد لاند ضحكة عالية، قال له له كونسايل:

- ماذا يضحكك يا نيد؟

فأجاب الكندي قائلاً:

- لقد بدأت أدرك ما في اللحوم البشرية من لذائذ.

فقال له كونسايل:

- ماذا تقول يا نيد إذا كنت من أكلة لحوم البشر فلن آمن على نفسي معك في غرفة واحدة. هل أستيقظ ذات يوم لأجد أنك التهمت نصفني؟

- إنني أحبك كثيراً يا صديقي كونسايل إلى الحد الذي لا يغريني بأكلك إلا اضطراراً.

فقال كونسايل:

- لا ثقة لي بهذا الكلام. لا بأس. هلموا نبحث عن صيد لإرضاء هذا الوحش الآدمي، وإلا فإن سيدي البروفسور قد يستيقظ في صباح يوم جميل فلا يجد إلا بقايا خادمه.

وبمثل هذه الأحاديث أخذنا نتوغل في مجاهل الجزيرة الخضراء، وانقضت ساعتان ونحن نرتاد أنحاءها.

وحالفنا الحظ في بحثنا عن الطعام. فقد عثرنا على أفضل نباتات المنطقة الاستوائية لتزويدنا بغذاء مفيد لا أثر له في الغواصة نوتيليوس، وأعني به ثمار شجرة الخبز التي كانت موفورة في الجزيرة، فمن بين أغصانها المتكاثفة كانت الثمار الكروية التي يبلغ قطرها نحو بوصتين ونصف تتدلى بقشرتها الخشنة في زخرفة سداسية الشكل. إنه نبات مفيد جادت به الطبيعة على المناطق المحرومة من القمح. وشجرة الخبز تنتج ثمارها طوال ثمانية أشهر في العام دون حاجة إلى جهد أو فلاحه. وكان لاند يعرف ثمار هذه الشجرة تمام المعرفة، وقد أكلها من قبل، فكانت له دراية بإعداد الطعام منها، ولا عجب أن أثار منظرها شهيته، فلم يستطع أن يتمالك نفسه وإذا هو يهتف قائلاً لي:

- سيدي. أكبر ظني أنني سأموت إذا لم أذق ثمار شجرة الخبز هذه.

- كل يا صديقي نيد. كل منها ما شئت. إننا هنا لإجراء التجارب على أنواع المأكولات. فإلى العمل.

فقال الكندي:

- إن إعداد هذه الثمار للأكل يستغرق وقتاً طويلاً.

واستعان بعدسة مقعرة في إيقاد نار من حطب جاف، وسرعان ما انبعث الضرام متصلاً.

وفي هذه الأثناء كنت وكونساييل نتخير أفضل الثمار. وكان بعضها لم ينضج بعد. فكانت قشرته السميكة مكسوة بلباب أبيض ليفي القوام نوعاً، ولكن أكثرها كان أصفر اللون هلامياً معدداً للتنظيف، ولما لم يكن لهذه الثمار بذور؛ فإن نيد لاند تناول الكمية التي جمعها كونساييل وقطعها شرائح ووضعها على النار المشبوبة وهو يقول:

- ستري يا سيدي أن هذا الخبز طيب المذاق إلى حد كبير.

- ولا سيما إذا حُرِم الإنسان طويلاً منه يا كونساييل.

فأردف الكندي قائلاً:

- إنه أطيب مذاقاً من الخبز العادي. إنه كالفطير الرقيق. ألم يسبق يا سيدي أن تذوقته؟

- لا يا نيد.

- حسناً. استعد إذن لشيء لذيذ. وإذا لم يعجبك فلن أكون ملك صيادي الحيتان.

وسرعان ما اسودَّ الجانب المعرض للنار ولكن الجزء الداخلي بقي كالعجينة البيضاء ذات اللباب الرقيق، وكان في مذاقه أقرب إلى الخرشف.

ولكنني أعترف أنه كان خبزاً ممتازاً وقد أكلت منه بلذة عظيمة.

ثم قلت:

- إن هذه الفطائر لسوء الحظ لا تبقى طازجة، ويبدو أن لا فائدة من اختزانها في الغواصة.

فهتف نيد لاند قائلاً:

- ولماذا يا سيدي؟ إنك تتحدث بلسان العالم الطبيعي، ولكنني سأصرف كالخباز. اجمع كمية من هذه الثمار يا كونسايل فسنحملها معنا إلى الغواصة.

فقلت:

- وكيف تعدها؟

- بأن أصنع من لبابها عجائن محمرة تظل محفوظة أي وقت نشاء. فإذا شئت إعداد بعضها، سهل إنضاجها في مطبخ الغواصة. وستجدها طيبة المذاق رغم ما قد يشوبها من طعم حمضي خفيف.

- إذن فلن ينقصنا شيء بعد هذا الخبز يا نيد.

فقال الكندي:

- تنقصنا الفاكهة على الأقل.

- هلموا إذن نبحث عن الخضر والفاكهة.

وبعد أن جمعنا كثيرًا من ثمار شجرة الخبز أخذنا نستكمل حاجتنا من طعام اليابسة ولم يذهب بحثنا سدى، فما أن حل وقت الظهيرة حتى جمعنا مؤونة طيبة من ثمار الموز، والمانجو اللذيذة، والخوخ الكبير الحجم. وقد استغرقنا في هذا وقتًا طويلاً لم نندم عليه.

وكان كونساييل لا يكف عن مراقبة نيد لاند الذي تقدمنا في الغابة
وأخذ بيد الخبير ينتقي أطيب الفواكه والخضر لاستكمال مؤونته.

وقلت له:

- هل بعد هذا من مزيد يا نيد؟

فغمغم بكلمة مبهمة، فقلت له:

- عجبًا. أهنأك ما تشكو منه؟

- إن كل هذه الخضر لا تغني عن وجبة واحدة، إنها بمثابة الحلوى
فقط. إنما ينقصنا الحساء واللحم المشوي.

فقلت:

- نعم.. لقد وعدنا نيد بشرائح اللحم، وهو ما اعتبره مشكلة عويصة.

فرد الكندي قائلاً:

- سيدي إن رحلتي للصيد لم تنته، بل هي لم تبدأ بعد. صبرًا ستتم
رحلتنا بلقاء طير أو حيوان وإذا لم يكن هناك ففي مكان آخر.

وأضاف كونساييل قائلاً:

- وإذا لم يكن اليوم فغداً، إذ يجب ألا نبتعد أكثر من هذا، وإني
أقترح أن نعود الآن إلى الغواصة.

فصاح نيد لاند:

- ماذا؟ الآن؟

فقلت:

- نعم. يجب أن نعود قبل الليل.

فقال الكندي:

- كم الساعة الآن؟

فأجاب كونسایل:

- الثانية على الأقل.

وهتف نيد لاند وهو يتنهد آسفًا:

- ما أسرع مرور الوقت فوق اليابسة.

واجتزنّا الغابة في طريق العودة، وقد استكملنا زادنا بكميات من سباطات البلح، وكان علينا أن نتسلق النخيل من أجلها، كما ظفرنا ببعض الحبوب البقلية الصغيرة التي يعدها سكان الملايو طعامًا طيبًا. هذا عدا بعض ثمار تشبه البطاطا. ووصلنا إلى القارب ونحن ننوء بأحمالنا، ومع ذلك كان نيد لاند يعد مؤونته غير كافية ولكن الحظ لم يلبث أن حالفه فقبل صعودنا إلى الغواصة رأى أشجارًا يتراوح ارتفاعها بين ٢٥ و ٣٠ قدمًا من فصيلة النخيل وهي تعتبر بحق من أجود نباتات الملايو. إنها أشجار السانمو الذي ينتج النشا الهندي. وهي تنمو طبيعيًا دون جهد أو فلاحه كأشجار التوت البري. وكان نيد لاند يعرف كيف يعالج هذا النوع من الأشجار، فقد تناول بلطة وراح يضرب الجذع بقوة حتى أسقط شجرتين أو ثلاثة، وكان نضج ثمارها يعرف بوجود مسحوق أبيض منشور على أغصانها.

وأخذت أراقبه كعالم طبيعي أكثر مني كإنسان جائع. وقد رأيته

ينزع اللحاء عن جذع الشجرة الذي يبلغ سمكه نحو بوصة والذي كان مكسواً بشبكة من الألياف الطويلة التي تكوّن عقدًا ممتلئة بنوع من الدقيق الصمغي. وهذا الدقيق هو المادة الأساسية في طعام أهل الملايو. وقد اكتفى نيد لاند في الوقت الحاضر بتقطيع الجذوع إلى قطع صغيرة، كقطع الخشب المعدة للوقود، بقصد استخراج الدقيق فيما بعد. وذلك بتصفيته من نسيج خفيف لفصله عن الألياف الكاسية وتركه في الشمس حتى يجف ويصبح قوالب متماسكة.

وغادرنا شواطئ الجزيرة أخيرًا في نحو الخامسة مساءً محملين بكنوزنا فوصلنا الغواصة بعد ساعة. ولم نجد من يستقبلنا على سطحها. لقد بدا هيكلها الضخم مهجورًا. حتى إذا نقلنا المؤونة إليها، قصدت إلى غرفتي حيث وجدت طعام العشاء معدًا فتناولته وأويت إلى فراشي.

وفي اليوم التالي لم يجد في الغواصة جديد. إلا جلبة في داخلها، وعلامة حياة. وكان الزورق باقياً حيث تركناه بالأمس فقررنا العودة إلى الجزيرة وقد داعب الأمل نيد لاند في أن يكون أسعد حظاً في مجال الصيد عن المرة الأولى، وقد رغبت في زيارة منطقة أخرى في الغابة.

وبدأنا الرحلة عند شروق الشمس، ووصل بنا الزورق الذي حملته الأمواج المتجهة شطر الجزيرة إلى الشاطئ بعد دقائق. وبعد أن وصلنا إلى البر قررت أنا وكونسايل أن أترك الأمر لغريزة نيد لاند فتبعناه ونحن نخشى أن يسبقنا لطول ساقيه. وأخذ الكندي يتجه غرباً، وبعد عبورنا بعض الجداول الصغيرة وصلنا إلى سهل مرتفع تحيط به الغابات الرائعة. وقد رأيت بعض الطيور آكلة السمك على ضفاف جدول ولكنها لم تدع

لنا فرصة أن نقرب منها. وقد دل مسلكها هذا على أنها تعرف ماذا يتوقع من أمثالنا، ومن هذا استخلصت أن الجزيرة إذا لم تكن مأهولة، فهي على الأقل مطروقة من بعض المخلوقات البشرية، وبعد أن عبرنا بقعة موفرة العشب، بلغنا حدود غابة صغيرة امتلأ جوها بأغاريد وصفق أجنحة طيور كثيرة.

فقال كونسایل:

- لا يوجد حتى الآن سوى طيور.

فأجاب صياد الحيتان قائلاً:

- ولكن بعضها صالح للأكل.

فرد كونسایل قائلاً:

- لا يا صديقي نيد، إنني لا أرى في هذه الطيور سوى الببغاوات العادية.

فقال نيد لاند برصانة:

- يا صديقي كونسایل. إن الببغاء صديق أولئك الذين لا يجدون ما يأكلون غيره.

وقلت أنا:

- وأضيف إلى هذا أن الببغاء إذا أحسن إعداده طاب أكله.

وكان ثمة عالم بأكمله من الببغاوات في ظلال الغابة الكثيفة تطير من غصن إلى غصن في انتظار الفرصة لتتعلم لغة الإنسان. أما في الوقت الحالي فقد كانت تتصايح وقد اختلطت أنواعها المتباينة الألوان، منها

بيغاء الككتوه الوقور الذي يبدو كالمأمل في مشكلة فلسفية، وبيغاء اللورة الأحمر الفاتح الذي كان لصفق أجنحته صوت مسموع، والبامبو الملون بظلال سماوية بديعة، وغير هذا وذاك من أنواع البيغاوات، ولكنها مع ذلك لا تؤكل.

ولكن هذه المجموعة كان ينقصها طائر غريب لم يكن في طيرانه يتجاوز حدود جزائر آرو، ومجموعة جزر بابوا. بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى حالفني الحظ وأتيح لي أن أراه وأعجب به.

وبعد أن تجاوزنا دغلاً متوسط الكثافة، خرجنا مرة أخرى إلى سهل تتناثر فيه الخمائل والشجيرات وفيه رأيت طيوراً بديعة تحلق في الجو في اتجاه مضاد للرياح بسبب ذيولها الطويلة التي ترغمها على هذا الاتجاه. وكان أسلوبها في الطيران، ورشاقة انعطافاتها في الجو، وتموج ألوانها مما يسترعي النظر ويبهج العين، ولم أجد صعوبة في التعرف عليها، فهتفت قائلاً:

- طيور الجنة.

وقال كونسايل:

- من رتبة الخطاطيف قسم الكليستورنور.

وأضاف نيد لاند قائلاً:

- ومن أسرة القطا.

فقلت:

- لا أظن هذا يا نيد، وعلى كل حال فأنا أعتمد على براعتك في صيد

واحد من هذا التاج الجميل ذي الطابع الاستوائي.

- سأحاول يا سيدي البروفسور. وإن كنت أكثر اعتيادًا للحراب مني للبنادق.

إن سكان الملايو الذين يعتمدون في أكثر تجارتهم مع الصين لهم وسائل كثيرة لصيدها لا نستطيع نحن أن نستخدمها. فهم أحيانًا ينشرون الشباك على رؤوس الأشجار التي تؤثر طيور الجنة استيطانها، وأحيانًا أخرى يصيدونها بالفخاخ القوية التي تشل حركتها. بل إنهم في مناسبات أخرى يسممون منابع المياه التي تردها تلك الطيور عادة. أما نحن فقد اضطررنا إلى إطلاق النار عليها وهي طائرة مما يجعل احتمال إصابتها ضعيفًا. وقد استنفدنا في الواقع كثيرًا من ذخيرتنا دون جدوى.

وفي الحادية عشر صباحًا كنا قد عبرنا أولى سلسلة الجبال التي يتكون منها وسط الجزيرة دون أن نصيد شيئًا. ولكن الجوع اضطرنا إلى متابعة السير. إن الصيادين قد اعتمدوا على حصيلة الصيد، ولكنهم أخطأوا الحساب. ولم يلبث كونسايل أن حالفه الحظ، فصاد وهو في أشد الدهشة طائرين بطلقة واحدة مما كفل لنا طعام الإفطار. وكان الطائران حمامتي غاب بيضاوين سرعان ما نزعنا ريشهما وشويناهما فوق النار. وفي خلال ذلك انهمك نيد في إعداد فطائر من شجرة الخبز ثم أقبلنا على الحمامتين نلتهمهما حتى العظام، فقد كان لهما طعم سائغ نظرًا لأن جوزة الطيب التي تلتقطها تلك الطيور تجعل للحومها نكهة طيبة.

وقال كونسايل:

- إن هذا الحمام يشبه الطيور التي تأكل السمسم.

فقال الكندي:

- والآن ماذا ينقصنا؟

فأجاب نيد لاند قائلاً:

- بعض الحيوان من ذوات الأربع. فإن هذا الحمام يعتبر طعاماً ثانوياً لا يشبع، ولن أستريح حتى أظفر بحيوان موفور اللحم.
- ولن أستريح أنا أيضاً يا نيد حتى أظفر بطائر من عصافير الجنة.
وقال كونساييل:

- لتتابع رحلتنا للصيد، ولكن في اتجاه البحر، فقد بلغنا أولى منحدرات الجبال، والأفضل أن نعود إلى منطقة الغابات.

وكانت نصيحة معقولة وقد عملنا بها. وبعد مسيرة ساعة بلغنا غابة من أشجار السانمو حيث رأينا بعض الأفاعي السامة تفر عند وقع أقدامنا، وكذلك هربت عصافير الجنة عند اقترابنا، فخامرني اليأس من اصطيد أحدها ولكنني فوجئت برؤية كونساييل الذي كان يسير في المقدمة وهو ينحني ثم يرسل صيحة الانتصار ويهرع إليّ حاملاً عصفوراً رائع المنظر. فهتفت قائلاً:

- مرحى يا كونساييل.

- هذا تطف من سيدي.

- لا يا بني إنها ضربة برعة، لا لأنك ظفرت بطائر من هذه الطيور حياً، وإنما لاقتناصه بيديك فقط.

- إذا فحص سيدي هذا الطائر بعناية لرأى أنني غير جدير بكل هذا الثناء.

- لماذا يا كونسایل؟

- لأن هذا الطائر نشوان كطائر السلوى.

- نشوان؟

- نعم بجوزة الطيب التي كان يلتهمها تحت شجرة من هذا النوع حيث وجدته. انظر يا صديقي نيد. انظر إلى النتيجة المؤلمة لتعاطي المخدرات.

فقال نيد:

- لا داعي للتعرض بي وأنا لم أذق الخمر منذ مدة.

وكنيت في خلال هذا أفحص الطائر العجيب. فتبينت أن كونسایل لم يجانبه الصواب. ذلك أن عصفور الجنة خدره عصير جوزة الطيب المسكر. فغدا بلا حول ولا قوة، فهو لا يستطيع طيراناً، ولا يكاد يقوى حتى على السير. ولكن هذا لم يقلقني، وتريثت حتى يفوق من تأثير المخدر.

إن هذا الطائر من أسرة أنواع الطيور الثمانية البديعة التي تعيش في مجموعة جزر بابوا وما يجاورها. إنه بمثابة الزمردة الكبيرة، لندرته بين أنواع الطيور. وهو يناهز في طوله خمسة وعشرين سنتيمتراً. صغير الرأس نسبياً، وعينه القريبتان من منقاريه تماثلان الرأس في الصغر. ولكن ألوانه رائعة؛ فمنقاره أصفر وساقاه ومخالبه كستائيتا اللون، وجناحاه في لون البندق ويحف بهما شريط قرمزي، ورأسه أصفر فاقع وكذلك مؤخرة عنقه، أما الجزء الأمامي من العنق فهو أخضر كالزمرد. وصدره رمادي.

وكان ثمة تتوءان من مادة قرنية مكسوة بالزغب يرتفعان عند الذيل الذي استطالت فيه ريشتان من أرق وألطف أنواع الريش؛ فلا عجب أن أطلق عليه الأهالي اسم «طائر الشمس».

وشد ما تمنيت لو تهيأت لي العودة إلى باريس بهذا النوع النادر من الطيور لأضمه إلى جنة نباتاتي التي ليس بها طائر حي.

وقال نيد لاند بصوت الصياد الذي لا يحفل كثيرًا بهذا النوع:

- أهذا الطائر نادرًا جدًا إذن؟

نعم يا صديقي الباسل، ومن العسير أن تظفر به حيًا. بل إن هذه الطيور وهي ميتة تعتبر موردًا تجاريًا مهمًا ولهذا السبب يعتمد الأهالي إلى صنع طيور مقلدة منه كما يصنع الماس واللؤلؤ المقلد.

فهتف كونسايل قائلاً:

- ماذا؟ أهنأك تقليد في طيور الجنة؟

- نعم يا كونسايل.

- وهل يعرف سيدي كيف يتوصل الأهالي إلى هذا؟

- نعم فإن هذه الطيور تفقد خلال الرياح الموسمية الشرقية ريشها الفاخر المحيط بالذيل الذي يسميه علماء الطبيعة «الريش المتبدل». ويجمع المزيّفون هذا الريش المتساقط ويشدون به براءة إلى نوع هزيل من الببغاوات بعد نزع ريشها سلفًا ثم يصبغون مكان الاتصال ويصقلون الطائر ويرسلونه إلى المتاحف والهواة في أوروبا.

فقال نيد لاند:

- بديع.. ما دامت المتاحف لا تظفر بالطائر نفسه فهي تظفر على الأقل بريشه. وما داموا لا يطلبونه للأكل، فلست أجد ضررًا فيما يقوم به هؤلاء المزيّفون.

لكن إذا كانت أمانيّ قد تحققت باقتناء «طائر الجنة»، فإن أمانيّ الكندي لم تتحقق بعد. على أنه لحسن الحظ استطاع في الساعة الثانية بعد الظهر أن يصرع خنزيرًا يطلق عليه سكان المنطقة «باري -أوتاج» وقد جاء هذا الحيوان في الوقت المناسب لتزويدنا باللحم الذي طالما اشتهيناه؛ وقد استقبلناه بحفاوة- وكان نيد لاند جد فخور بطلقته النارية، فقد سقط الخنزير صريعًا إثر إصابته بالرصاصة المكهربة.

وسرعان ما انهمك الكندي في سلخه وإعداده للطعام بعد أن حجز منه شرائح لوجبة العشاء. وبعد الطعام استأنفنا رحلة الصيد التي اضطلع فيها نيد وكونساييل بالنصيب الأكبر.

واستطاع الصديقان بتوغلهما بين الشجيرات أن يثيرا قطيعًا من حيوانات القنغر التي انطلقت هاربة متواثبة بقوة مخالباها المطاطة؛ ولكن سرعتها لم تمنع الرصاص المكهرب من إصابتها.

وصاح نيد لاند منفعلًا بلذّة الصيد:

- آه يا سيدي البروفسور، ما أبدع حيوانات الصيد هذه خصيصًا بعد حفظ لحومها للغواصة نوتيليوس، اثنان... ثلاثة... خمسة... وإني حين أفكر في كل هذا اللحم الذي سنأكله، وفي أن بحارة الغواصة البلهاء لن يشاركوننا مضغّة منه...

وأعتقد أنه لو لم يكثر من الحديث في غمرة طربه لاستطاع أن يصيد القطيع كله. ولكنه اكتفى بصيد اثني عشر من هذه الحيوانات التي أخبرنا كونسايل أنها تكون أول مرتبة في الحيوانات الشديدة النباتية.

وكانت هذه الحيوانات صغيرة من نوع القنغر المعروف باسم «الأرنب» وهي تعيش عادة في فجوات بجذوع الشجر وتنطلق بسرعة بالغة - ولكنها كانت رغم حجمها المتوسط تزودنا على الأقل بلحم ممتاز.

وامتلأت نفوسنا رضى من رحلة الصيد هذه، ولذلك اقترح نيد لاند وهو في نشوته أن نعود في اليوم التالي إلى هذه الجزيرة الساحرة التي أراد أن يستنفد كل ما فيها من حيوان يؤكل. ولكنه لم يحسب للظروف الطارئة حساباً.

وعدنا إلى الشاطئ في السادسة مساء. وكان زورقنا ساكناً في موضعه والغواصة تبدو كصخرة مستطيلة بين الأمواج على مسافة ميلين من الجزيرة. وشرع نيد لاند دون مزيد من التأخير في إعداد طعام العشاء. وكان خبيراً في الطهي، وسرعان ما انتشرت في الجو رائحة الشواء الذكية المتصاعدة من ضلوع لحم الخنزير وهي تنضج على النار.

ولكن بدا أنني أصبحت مثل نيد لاند في ابتهاجه باللحم المشوي. فهل يمكن أن يلتمس لي العذر كما التمسته للكندي لنفس السبب؟ لقد كان الطعام ممتازاً. ومما زاد في بهجته زوج الحمام السمين المشوي وفطيرة من ثمار السانمو. وأخرى من شجرة الخبز. وكمية من المانجو والخوخ وبعض الشراب المخمر من عصير جوز الهند. ولهذا السبب

أعتقد أن تفكير صاحبي لم يكن على ما ينبغي من سلامة وصفاء حين
قال كونسایل:

- ماذا لو أننا لم نعد الليلة إلى الغواصة؟

فقال نيد لاند:

- وماذا لو أننا لم نعد إليها أبداً؟

وفي تلك اللحظة سقط حجر عند أقدامنا، فوضع حداً لاقتراح صياد
الحيتان.



الفصل الثاني والعشرون

صواعق الربان نيمو

اتجهت أنظارنا إلى الغابة دون أن ننهض وتوقفت يدي في الهواء قبل أن تبلغ فمي، ولكن يد نيد لاند أدت مهمتها، بينما قال كونساييل:

- إن الحجر لا يسقط من السماء إلا إذا كان قطعة من نيزك أو شهاب.

وعندما سقط حجر ثانٍ مستدير على يد كونساييل وأطار منها قطعة لحم شهية مؤكدًا بذلك المعنى الذي أشار إليه لم نتمالك أن نهضنا ثلاثتنا فورًا ورفعنا بنادقنا إلى أكتافنا استعدادًا لصد أي هجوم.

وقال نيد لاند:

- هل يمكن أن يكون هذا من فعل القروود؟

فقال كونساييل:

- شيء من هذا القبيل. وإن سكان هذه المنطقة من الهمج.

فقلت وأنا اتجه إلى البحر:

- هلموا إلى الزورق.

والواقع أنه لم يكن أمامنا بد من الانسحاب فقد رأينا نحو عشرين من الأهالي المسلحين بالأتراس والمقاليع يظهرون عند نهاية الأحراش التي تحجب الأفق على مسافة مائة خطوة.

وكان زورقنا راسياً على بعد ستين قدماً من مكاننا.

وأخذ المتوحشون يقتربون منا، دون جري، وهم يحركون أذرعهم بشدة، وقد انهالت علينا الحجارة والسهام.

ولم يشأ نيد أن يتخلى عن الزاد رغم الخطر المحدق بنا، وهكذا راح يركض حاملاً الخنزير في جانب وحيوانات القنغر في جانب آخر.

وصلنا إلى الشاطئ في دقيقتين، واستطعنا في لحظات أن نضع مؤونتنا وبنادقنا في الزورق وأن ندفع به إلى البحر ونمسك بالمجدافين؛ ولكن ما كدنا نبتعد نحو عشرين قدماً حتى رأينا مائة من المتوحشين المزمجرين الملوحين بأذرعهم يهبطون إلى الماء حتى خصورهم. فجعلت أنظر مؤملاً أن يلفت ظهورهم أنظار بحارة الغواصة نوتيليوس.. ولكن لا. لقد ظلت الغواصة الضخمة ساكنة في موضعها وكأنها مهجورة تماماً، وبعد عشرين دقيقة كنا نتسلق جوانبها. وكانت المنافذ المؤدية إلى داخلها مفتوحة. فدلفنا إلى الداخل بعد أن شددنا الزورق في موضعه.

وذهبت إلى الصالون حيث سمعت بعض نغمات الأرغن، ثم رأيت الربان منحنياً على العزف وهو في نشوة موسيقية.

فقلت له:

- كابتن نيمو.

ولما لم يسمعي كررت النداء وأنا ألمس يده.

فانتفض واستدار نحوي قائلاً:

- آه. أهذا أنت يا بروفسور. حسناً هل استمتعتم برحلة الصيد، هل

وجدت من أنواع النبات والحيوان ما أرضى نزعتك العلمية؟

- نعم يا كابتن ولكننا لسوء الحظ جلبنا ورائنا شردمة من «ذوي

الساقين» الذين يعتبر الاقتراب منهم خطراً.

- ماذا تعني بذوي الساقين؟

- متوحشون.

فقال الربان متهكماً:

- متوحشون! وهل يدهشك يا بروفسور أن تجد متوحشين في

هذه البقعة من اليابسة التي وطأتها قدماك؟ وأي مكان في الدنيا يخلو

من المتوحشين؟ ثم هؤلاء الذين تسميهم متوحشين، هل هم أسوأ من

غيرهم؟

- ولكن يا كابتن؟

- إنني من ناحيتي يا سيدي قد التقيت بأمثال هؤلاء في كل مكان.

فقلت له:

- حسناً. إذا كنت لا تحب أن تستقبل بعضهم في الغواصة، فيحسن

أن نتخذ بعض الاحتياطات.

- اطمئن يا بروفسور. فليس ثمة ما يدعو إلى القلق.

- ولكن أولئك الأهالي كثيرون.

- كم أحصيت منهم؟

- مائة على الأقل.

فقال الربان نيمو وقد وضع أصابعه على أوتار الأرغن مرة أخرى:

- يا مسيو أروناكس. لو أن جميع الأهلين في بابوا اجتمعوا على الشاطئ فليس للغواصة أن تخشى شيئاً من هجماتهم.

وانطلقت أصابع الربان تجري على أوتار الأرغن، وقد لاحظت أنه يجربها على الأوتار السوداء فقط مما أضفى على ألحانه الطابع الأسكتلندي، وسرعان ما نسي وجودي واستغرق في تأملات لم أحاول قطعها عليه.

وصعدت إلى سطح الغواصة مرة أخرى. فإذا الليل قد أرخى أستاره، وذلك لأن الشمس في تلك المنطقة الاستوائية تغرب بسرعة دون أن يعقبها شفق.

ولم أعد أرى الجزيرة بوضوح. ولكن النيران الكثيرة الموقدة على الشاطئ أبانت لي أن الأهالي لا يفكرون في الانصراف.

وبقيت هكذا وحدي بضع ساعات وأنا أفكر أحياناً في الأهالي، ولكن دون شعور بالقلق من ناحيتهم بعد أن سرت إلى نفسي ثقة الربان بقوته، وأحياناً أخرى أنساهم لفرط إعجابي بجمال الليل في ذلك الإقليم الاستوائي. وطارت أفكارني إلى فرنسا مع النجوم التي لن تلبث بعد ساعات قليلة أن تبرز هناك. وكان القمر يسطع وضاحاً. وإذ ذاك خطر لي

أن هذا التابع الأمين للأرض سيبزغ غداً في نفس المكان ليرفع الأمواج
ويتنزع الغواصة من مرقدها المرجاني. وأوشك الليل أن ينتصف. ولما
رأيت السكون الشامل يخيم على الأمواج المظلمة، وعلى كل شيء
تحت أشجار الشاطئ، لم ألبث أن عدت إلى غرفتي حيث استسلمت
لالنوم في هدوء.

ومرت الليلة دون أحداث. ولا شك أن أهالي بابوا قد أفرغهم مشهد
هذا «الوحش البحري» الرابض في الخليج. إذ كان في مقدورهم أن
يقتحموا الغواصة عن طريق المنافذ المفتوحة.

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن من شهر يناير صعدت
إلى السطح والنهار تبدو طلائعه. ولم يطل الوقت حتى لاحت الجزيرة
من ثنايا الضباب المنقشع.

ورأيت الأهليين ما برحوا حيث كانوا. بل رأيتهم أكثر عدداً مما
كانوا في اليوم السابق، خمسمائة أو ستمائة من الرجال الأشداء، وكان
بعضهم قد انتهز فرصة الجزر، فتقدموا فوق الرؤوس المرجانية على
مسافة عشرين ياردة من الغواصة. وقد سهل عليّ معرفة جنسهم. فهم من
سكان منطقة بابوا الأصليين، ذوي الأجسام الفارهة، والأعراق الطيبة.
جباههم عالية كبيرة ولكنها ليست عريضة، وأنوفهم مفرطحة وأسنانهم
بيضاء، وكان شعرهم الصوفي المصبوغ باللون الأحمر، والمحلوق عن
أجسامهم، يكشف عن بشرتهم السوداء اللامعة كبشرة النوبيين. وتدلّت
من شحمات آذانهم المفتوحة المستطيلة أقرط من العظام. وكان أغلب
هؤلاء الهمج عرايا. وقد رأيت بينهم نساء كاسيات من الردف إلى الركبة

بجدائل من العشب المشدودة إلى الخصر بحزام نباتي. وكان بعض رؤسائهم يزينون أعناقهم بعقود وأطواق من الخرز الأبيض والأحمر. وكان أكثرهم مسلّحين بالآقواس والسهام والدروع ويحملون على أكتافهم شبّاكًا بها الحجارة المستديرة التي يقذفونها من مقاليعهم ببراعة فائقة.

وكان أحد هؤلاء الرؤساء قريبًا من الغواصة وقد راح يتفحصها باهتمام ويبدو أنه من ذوي المراتب العالية، لأنه كان متشّحًا بجلباب من صفائر أوراق الموز المطرزة الحوافي، المصبوغة بألوان بهيجة. وكنت أستطيع بسهولة أن أصيب هذا الزعيم الواقف على مرمى بندقيتي. ولكن أثرت أن أنتظر بوادرنم عن عداء سافر، فإذا كان الأمر بين الأوروبيين والهمج، فمن الخير أن يبدأ هؤلاء بالهجوم.

وظل الأهالي يحومون حول الغواصة طوال فترة الجزر ولكن في غير ضجيج. وقد سمعتهم يرددون كلمة «آساي» وأدركت من إشارتهم أنهم يدعونني إلى البر، ولكنني أثرت أن أرفض هذه الدعوة.

وهكذا لم نستطع مغادرة الغواصة بالزورق في يومنا هذا، وهو ما أثار شديد استياء نيد لاند لحرمانه من استكمال مؤونته. ولكن هذا الكندي البارع استغل وقته في إعداد وحفظ اللحوم والمواد الغذائية الأخرى التي جلبها من جزيرة جلبوا، أما الأهالي فقد عادوا إلى الجزيرة في نحو الساعة الحادية عشر صباحًا عقب اختفاء رؤوس الشعب المرجانية تحت مياه المد المتزايدة؛ ولكنني رأيت جموعهم تتزايد بكثرة على الشاطئ ويبدو أنهم جاءوا من المناطق المجاورة أو من بابوا نفسها، وأيًا كان الأمر فإني

لم أر زورقًا واحدًا لهم.

ولما لم يكن لديّ ما أفعله فقد فكرت في الخوض تحت هذه المياه الراكدة الممتلئة بألوان من المحار والأصداف والنباتات البحرية المختلفة. يضاف إلى ذلك أن هذا اليوم كان آخر أيام الغواصة في هذه البحار إذا تم تعويمها في اليوم التالي، كما وعد الربان نيمو.

وهكذا استدعيت تابعي كونساييل الذي جاءني بمصفاة صغيرة خفيفة كالتي يستعملها صيادو المحار وقد سألني قائلاً:

- ما رأيك في هؤلاء المتوحشين؟ إنهم لا يبدوون قساة غلاظ القلوب.

- إنهم على أي حال من أكلة اللحوم البشرية يا بني.

فقال كونساييل:

- من الممكن أن يكون أكل اللحم البشري رجلاً قويمًا في آن واحد كما كان أن يكون الإنسان أكولاً وقويمًا في نفس الوقت. إن إحدى الصفتين لا تنفي الأخرى.

- حسنًا يا كونساييل، سأسلم بوجود أكلة لحوم بشر قويمي الخلق وأنهم يلتهمون ضحاياهم بشرف وأمانة. ولكن ما دمت أود ألا يأكلني أحد حتى بأمانة وشرف، فسوف ألتزم الحذر فيما ينبغي أن أفعل ما دام الربان نيمو لا يتخذ أي احتياطات وقائية، والآن إلى العمل.

وظللنا نتح الماء بنشاط مدى ساعتين دون أن نظفر بشيء نادر، وكانت المصفاة تخرج بألوان مختلفة من نباتات وأعشاب البحر وبعض

الأحياء المائية مع مجموعة من أجود أنواع سمك «المطرقة» ومحار اللؤلؤ ونحو عشر سلاحف صغيرة احتفظنا بها لمطبخ الغواصة.

ولكنني لم ألبث أن فوجئت في اللحظة الأخيرة بإحدى العجائب وهي من أعاجيب الشذوذ في الطبيعة مما يندر أن يصادفه الإنسان، فقد رفع كونسایل المصفاة زاحرة بالمحار العادي، ولما دسست يدي فيها وتناولت قوقعة منها سرعان ما بدت مني صيحة نفاذة قل أن يصدر مثلها من حلق آدمي.

فسألني كونسایل في دهشة بالغة:

- آه ما ذا دهى سيدي؟ هل لدغه شيء؟

- لا يا بني ولكنني مع هذا كنت مستعداً في سبيل هذا الكشف للتضحية بإصبعي.

- أي كشف؟

وقلت وأنا أريه الكشف الذي عددته نصراً:

- هذه القوقعة.

فراح كونسایل يذكر لي اسمها ونوعها ورتبتها وفصيلتها والأسرة التي تنتمي عليها حتى قاطعته قائلاً:

- نعم يا كونسایل ولكن الاتجاه الحلزوني لهذه القوقعة هو من اليسار إلى اليمين وليس من اليمين إلى اليسار كما هو الحال مع جميع أنواع القواقع.

فصاح كونسایل:

- أهذا ممكن؟

- نعم يا بني، إنها قوقعة ممسوخة.

فكر كونساييل عبارتي بقلب يخفق انفعالاً:

- قوقعة ممسوخة!

- انظر إلى غلافها الحلزوني.

فقال كونساييل وهو يتناول القوقعة النادرة بيد مرتعشة:

- آه. أرجو أن يصدقني سيدي إذا قلت إنني لم أشعر في حياتي من

قبل بمثل هذا الانفعال.

وكان له العذر في انفعاله، فالمعروف تمامًا مما قرره علماء الطبيعة أن الاتجاه اليميني هو قانون في الطبيعة... فالنجوم في مجاريها الفلكية تتحرك من اليمين إلى اليسار. والإنسان بصفة غالبية يستخدم يده اليميني أكثر مما يستخدم اليسرى، وعلى هذا الأساس صمم وصنع الأجهزة، والآلات، والصلالم والأقفال وزنبركات الساعات وغيرها لتستخدم من اليمين إلى اليسار. وقد التزمت الطبيعة هذا القانون نفسه في تكوين الغلاف الحلزوني للقواقع، فهي جميعاً يمينية الاتجاه فيما عدا النادر الشاذ، فإذا حدث ووقعت إحدى هذه القواقع في يد أحد الهواة فهو يدفع ثمناً لها مثل وزنها ذهباً.

وبينما كنت مستغرقاً مع كونساييل في تأمل هذا الكنز معللاً نفسي بضمه إلى المتحف كقنية عظيمة إذا بحجر ألقاه أحد الأهالي يسقط ويحطم القوقعة في يد كونساييل.

وسرعان ما بدت مني صيحة يأس وأمسك كونساييل ببندقيتي
وصوبها إلى واحد من الأهالي كان يطوح بمقلعه على بعد عشر ياردات
من مكانه فأردت منعه ولكنه أطلق البندقية وحطم سوار التمايم المحيط
بذراع الرجل.

وصحت به:

- كونساييل. كونساييل.

- ألم ير سيدي أن هذا الوحش كان البادئ بالهجوم؟

فقلت له:

- إن الغواصة لا تساوي حياة رجل.

فهتف كونساييل:

- يا له من وغد. ليت حطم ذراعي بدلاً من هذه القوقعة النادرة.

وكان كونساييل مخلصاً فيما قال ولكني لم أشاطره رأيه. ومهما يكن
فإن الموقف كان قد تغير خلال الدقائق الأخيرة دون أن ندري فقد أحاط
بالغواصة عشرون قارباً. وهذه القوارب المصنوعة من جذوع الشجر
المجوفة طويلة، ضيقة تمتاز بالسرعة، وتحفظ توازنها مجموعة من غاب
البامبو تشد إليها وتطفو معها على سطح الماء، وكان ركابها من الوطنيين
أنصاف العراة، يجذفون ببراعة مما أثار قلقي وهم يقتربون، وكان جلياً
أن أهل بابوا على صلة بالأوروبيين، وأنهم يعرفون سفنهم، ولكن ما
هو رأيهم في هذا الحرم الحديدي الأسطواني الشكل المستطيل الذي
لا يعلوه شراع ولا مدخنة، لا شك أنه ليس بالرأس المطمئن، ولكنهم

حرصوا أول الأمر على البقاء بعيداً عنا مسافة طيبة، حتى إذا رأوا أن هذا الجرم لا يتحرك استعادوا رباطة جأشهم شيئاً فشيئاً وحاولوا أن يألّفوا مشهدها. فكان علينا إذن أن نحول دون استقرار هذه الألفة في نفوسهم. إن أسلحتنا التي لا تحدث ضوضاء، لا تترك سوى أثر يسير في نفوس هؤلاء الأهالي الذين لا يهابون سوى الأسلحة المفرقة. إن مثلهم لا يفرغ من صاعقة لا يصحبها قصف الرعد وإن كان الخطر كامناً في البرق لا في الصوت القاصف.

وفي تلك اللحظة ازدادت القوارب دنوّاً من الغواصة وإذا مطر من السهام ينهمر على جوانبها مما جعل كونساييل يهتف قائلاً:

- ما هذا؟ إنه وابل من السهام. وقد تكون سهاماً مسممة.

فقلت وأنا أهبط داخل الغواصة:

- يجب إبلاغ الربان نيمو.

وهبطت إلى الصالون فلم أجد أحداً، فتجاسرت وطرقت باب غرفة الربان، فرد عليّ قائلاً:

- ادخل.

ولما دخلت وجدته منهمكاً في عمليات حسابية كانت فيها العلامات الجبرية هي الغالبة.

فقلت له:

- أخشى أن أكون أزعجتك.

- نعم يا مسيو أروناكس. ولكنني أعتقد أن لديك أسباباً خطيرة

تدفعك إلى مقابلي.

- جد خطيرة. إننا محاصرون بقوارب الأهالي وفي دقائق معدودة سيهاجمنا بضع مئات من هؤلاء المتوحشين.

فقال الربان نيمو بهدوء:

- آه. إذا فقد جاءوا في زوارقهم؟

- نعم.

- حسنًا ما علينا إلا أن نغلق منافذ الغواصة.

- تمامًا. وهذا ما جئت لأجله.

فقال الربان نيمو:

- ليس ثمة ما هو أيسر من هذا.

وضغط على جرس كهربائي نقل أوامره إلى قسم البحارة ثم قال لي
بعد بضع دقائق:

- لقد تم كل شيء، الغواصة في مكانها، ومنافذها مغلقة. ولا أظنك
تخشى أن أصحابنا هؤلاء يستطيعون اقتحام جدران غواصة عجزت
قنابل سفيتكم من مسها بشيء.

- هذا صحيح يا كابتن. ولكن ثمة خطر آخر.

- وما هو يا سيدي؟

- إنك ستضطر صباح الغد في مثل الوقت إلى فتح المنافذ لتجديد
هواء الغواصة.

- مؤكّد يا سيدي. فإنّ غواصتي تتنفس كما يتنفس الحوت الضخم.
- لو حدث في تلك اللحظة أن الأهالي يحتلون سطحها فلست
أدري كيف تمنعهم من الدخول.

- فأنت إذن تعتقد أنهم سيصعدون إلى سطحها؟

- أنا واثق من هذا.

- حسنًا. دعهم يفعلوا فإنني لا أجد سببًا يدعوني لمنعهم؛ إن أهالي
بابوا مساكين ولن أجعل زيارتي إلى جزيرة جلبوا سببًا في هلاك أحدهم.
قلت هذا وهممت بالانسحاب، ولكن الربان نيمو استبقاني ودعاني
للجلوس بجانبه، وسألني باهتمام عن رحلتنا في الجزيرة وعن الصيد،
وبدا لي أنه لم يدرك معنى لهفة نيد لاند إلى اللحوم. ثم تناول الحديث
موضوعات شتى أظهر الربان نيمو خلالها تلعّفًا دون ميل إلى التبسط.

كان من بين الموضوعات التي طرقتها، موقف الغواصة نوتيلوس
الجانحة في نفس المضايق التي كاد الربان دومونت دورفيل أن يلقي
حتفه فيها. وقد قال الربان في هذا الصدد:

- كان واحدًا من ربانكم العظام. نعم إن دورفيل هذا كان أحد عباقرة
الملاحين. إنه «كابتن كوك» الفرنسي، ويا له من عالم سيئ الحظ. فبعد
أن غامر بحياته على شواطئ الجليد الجنوبية وعلى الشعب المرجانية
في أوشيانا وبين متوحشي المحيط الهادي من أكلة لحوم البشر، إذا هو
يموت ميتة بائسة في حادث سكة حديدية. ولو أتيح لهذا الرجل الباسل
أن يفكر في لحظاته الأخيرة، فماذا تعتقد أن يكون قد دار بذهنه وقتئذٍ؟

وكان التأثير يبدو على الربان نيمو وهو يقول هذا. وإني أسجل هذا الشعور بين مناقبه.

وشرعنا نرسم على الخريطة أعمال ذلك الملاح الفرنسي الكبير. رحلاته ومغامراته البحرية ومحاولاته المتكررة للوصول إلى القطب الجنوبي، هذه المحاولات التي أدت إلى اكتشافه لأراضي آديل ولويس فيليب ثم أبحاثه وتخطيطاته للمجاري المائية في منطقة جزائر أوشينيان الرئيسية.

وقال الربان نيمو:

- إن ما قام به دورفيل على سطح الماء قمت أنا به داخل المحيط وبكيفية أيسر وأتم مما قام به، فإن السفينتين استرولوب وزيليه اللتين كانت الأمواج تتقاذفهما باستمرار، لم تكونا في صلاحية الغواصة نوتيلوس التي تتيسر فيها الدراسة الهادئة والإقامة الدائمة بين أطواء المياه.

فقلت له:

- مهما يكن يا كابتن فهناك عنصر مشابهة بين سفيتي دورفيل وبين غواصتك.

- وما هو يا سيدي؟

- إن غواصتك قد جنحت مثلهما.

فقال الربان نيمو ببرود:

- إن غواصتي لم تجنح. لقد صممت لتستقر في قيعان البحار. وأنا

لن أحتاج للقيام بالعمليات الشاقة والمناورات التي اضطر دورفيل إلى القيام بها لتعويم سفينته بعد جنوحها. إن استرولوب وزيليه أشرفتا على الغرق ولكن نوتيلوس لا تتعرض لمثل هذه المخاطر. إن المد سيرفعها غداً في الموعد المحدد، وسوف تستأنف نشاطها الملاحي في البحار.

فقلت:

– أنا لا أشك في هذا يا كابتن.

فأردف الربان قائلاً وهو ينهض:

– غدا.. غداً في الثانية والدقيقة الأربعين بعد الظهر ستطفو الغواصة مرة أخرى، وسأبرح بها مضايق توريز دون خطر.

فاه الربان نيمو بهذه الكلمات في اقتضاب شديد وهو ينحني قليلاً. فكان معنى هذا أن أنصرف. وهكذا عبرت إلى غرفتي حيث وجدت كونسايل الذي رغب في أن يعرف نتيجة مقابلي للربان. فقلت له:

– عندما بدا لي يا بني أن الغواصة مهددة من ناحية أهالي بابوا كان الربان يرد عليّ متهمكاً فليس لديّ إذن ما أقوله سوى أن تضع ثقتك فيه، وأن تمضي للنوم آمناً.

– هل سيحتاج سيدي إلى شيء من خدماتي؟

– لا يا صاحبي. ماذا يفعل نيد لاند؟

– إنه يطهو ألواناً فاخرة من لحم القنغر.

وبعد انصراف كونسايل أويت إلى فراشي، ولكن نومي كان مضطرباً؛ فقد كنت أسمع وقع أقدام المتوحشين على سطح الغواصة، وكان لها

دوي يصم الأذان. وانصرمت الليلة هكذا دون أن يخرج بحارة الغواصة عن سكونهم المعتاد. لم يكونوا قلقين من وجود هؤلاء المتوحشين حولهم إلا كما يقلق حراس قلعة مكسوة بالدروع أمام جماعة من النمل تزحف على دروعهم.

واستيقظت في السادسة صباحًا، وكانت المنافذ لم تفتح بعد، وهكذا لم يتم تجديد الهواء في الداخل ولكن مستودع الهواء الاحتياطي الممتلئ لمثل هذه الظروف الطارئة، أرسل في جو الغواصة المفتقرة إلى الهواء النقي بضع ياردات مكعبة من الأكسجين.

وبقيت مشغولًا في غرفتي حتى الظهر دون أن أرى الربان ولو لحظة واحدة. ولم تبد دلالة على الاستعداد للرحيل داخل الغواصة.

وانتظرت فترة أخرى من الوقت، ثم قصدت إلى الصالون، وكانت الساعة قد بلغت النصف بعد الثانية، أي أن المد سيبلغ ذروته بعد عشر دقائق ولن تلبث الغواصة أن تتحرر من مكانها إذا لم يكن الربان نيمو قد وعد ما وعده مفاخرة ومباهاة. فإن لم يتم هذا فسوف تنصرم أشهر طوال قبل أن تغادر هذه الشعاب المرجانية المستقرة فيها.

وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين أقبل الربان إلى الصالون وقال لي:

– إننا سنبدأ الرحيل.

فلما غمغمت بكلمة استحسان، أردف قائلاً:

– لقد أمرت بفتح المنافذ.

- وماذا عن أهالي بابوا؟
- فقال الربان وهو يرفع كتفيه قليلاً:
- أهالي بابوا؟
- ألن يقتحموا الغواصة؟
- كيف يمكنهم هذا؟
- عن طريق المنافذ التي أمرت بفتحها.
- فقال الربان بهدوء:
- لن يستطيعوا دخول الغواصة عن طريق المنافذ يا ميسيو أروناكس، حتى ولو كانت مفتوحة.
- فلما تطلعت إليه قال لي:
- ألم تدرك ما أعني؟
- لا مطلقاً.
- حسناً تعال وسترى بعينيك.
- وانتقلت معه إلى السلم المركزي، وهناك رأيت كونسایل ونيد لاند ينظران في حيرة بالغة إلى بحارة الغواصة الذين كانوا يفتحون المنافذ بينما كانت صيحات الغضب والخوف تتردد في الخارج.
- فعندما رفعت أغطية المنافذ لاح منها نحو سبعين من السطح المخفية، ولكن ما كان طليعتهم يمد يده إليها للوصول إلى السلم حتى سقط على ظهره بقوة خفية جعلته يفر وهو يعوي ويلوح بذراعيه في فزع ورعب.

وتبعه عشرة من زملائه. وإذا هم يلقون نفس المصير. وقد ابتهج كونساييل بما رأى. أما نيد لاند فقد دفعه الحماس المعروف عنه إلى ارتقاء السلم ولكنه ما كاد يمسك السياج العلوي بين يديه حتى سقط بدوره على ظهره وهو يهتف قائلاً:

- يا للشيطان، لقد صعقت.

وكان في هذه الكلمة تفسير كل شيء، فقد أدركت أن السياج سُحن بالتيار الكهربائي حتى أصبح كمجموعة أسلاك كهربائية عارية تحدث صدمة عنيفة في جسم من يلمسها. وكان من الممكن أن تكون هذه الصدمة قاتلة لو أن الربان نيمو سلط على السياج كل ما في الغواصة من قوة كهربائية. ويمكن القول بحق إنه جعل بينه وبين المهاجمين حاجزاً كهربائياً لا يجروء أحد على اجتيازه سالماً.

وفي خلال ذلك لجأ أهالي بابوا إلى الفرار، وقد أطار الفزع صوابهم؛ أما نحن فقد أخذنا ونحن نغالب الضحك في مواساة نيد لاند المنكود وفي تدليكه، وهو يسب ويلعن كمن به مس.

وكانت الغواصة عندئذ قد ارتفعت وطففت مع آخر موجات المد، فغادرت مرقدها المرجاني في الدقيقة الأربعين التي حددها الربان. وأخذ رفاصها يضرب الموج في ائتاد وجلال، ثم ازدادت سرعتها تدريجياً، وأنشأت تشق عباب المحيط بعد أن اجتازت بسلام دروب مضايق توريخ الخطرة.

الفصل الثالث والعشرون

سجن.. وتخدير.. ونوم

وفي اليوم التالي استأنفت الغواصة رحلتها تحت سطح الماء بسرعة كبيرة لم تكن تقل في تقديري عن خمسة وثلاثين ميلاً في الساعة. أما سرعة دوران رفاصها فقد بلغت حدًا لم أستطع معه أن أقدر اتجاهه أو عدد دوراته.

وحين بدا لي أن هذه القوى الكهربائية التي زودت بها الغواصة نوتيليوس لا تمدها بالحركة والحرارة والضوء فحسب، بل تصونها كذلك من كل عدوان خارجي، وتجعلها كمحراب مقدس لا يمسه غير مرغوب فيه إلا وصعق، فاق إعجابي كل حد وتسامى الإعجاب من الغواصة ذاتها إلى المهندس العبقرى الذي صنعها.

وفي اليوم الثالث عشر من شهر يناير، بلغنا بحر تيمور، ورأيت الجزيرة المسماة بهذا الاسم عبر خط الطول ١٢٢ درجة. وكانت هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها «١٦٢٥٥ فرسخًا مربعًا أي ٤٨٧٦٥ ميلاً مربعًا» خاضعة لحكم الراجات «أمراء الهند» وكانوا ينعتون أنفسهم «بأبناء التماسيح» ومقصودهم من هذا أنهم ينحدرون من أرفع أصول

يمكن أن يتناول إليها إنسان. وكانت أسلافهم التماسيح تملأ أنهار الجزيرة وتحظى بكل احترام وتقديس. كانت تتمتع بالحماية والتدليل والعبادة كما كان يقدم لها الطعام والنفائات الصغيرات قرباناً وتقديساً، والويل للأجنبي الذي يضع يده على هذه الزواحف المقدسة.

ولكن الغواصة لم يكن لها شأن بهذه المخلوقات الدميمة. فإن جزيرة تيمور لم تبد لنا إلا برهة في وقت الظهيرة عندما كان الضابط الأول يحدد اتجاهنا. وكذلك لم أشهد إلا لمحة من جزيرة كيتي التي كانت واحدة من جزر المجموعة التي تشتهر نساؤها بالجمال في الأسواق الملاوية.

ومن هذا الموضع تحولت الغواصة إلى الجنوب الغربي من خطوط الطول. لقد أديرت إلى المحيط الهندي. ترى إلى أين تمضي بنا نزوات الربان نيمو؟ هل يمضي بنا إلى الشواطئ الآسيوية، أو يقترب من سواحل أوروبا! إن كلا الاحتمالين بعيد مع رجل صمم على الهرب من القارات المأهولة. هل تراه إذن يتجه إلى الجنوب؟ هل يعبر رأس الرجاء الصالح ثم رأس هورن ثم يشق طريقه إلى منطقة القطب الجنوبي؟ ثم هل يعود بعد ذلك إلى المحيط الهادي حيث يتيسر للغواصة ملاحه سهلة هادئة؟ إن المستقبل وحده كفيل بالجواب.

وبعد أن اجتازت الغواصة الشعب المرجانية لجزائر كاريتير، وسير نجاباتام وهبرينا، وسكوت، وهي أقصى كفاح اليابسة ضد الخضم المائي، أصبحنا في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير وراء حدود اليابسة. وقد خفت الغواصة الكثير من سرعتها، وغدت متقلبة في حركاتها، فهي أحياناً تمضي في وسط الماء وأحياناً أخرى تنطلق على سطحه.

وكان الربان نيمو خلال هذه الفترة من الرحلة يجري تجارب طريفة على مختلف درجات الحرارة في مختلف درجات العمق البحري. وكانت هذه التجارب في الظروف العادية تجري بأجهزة شديدة التعقيد، وكانت نتائجها في الغالب غير مكفولة سواء ما تم منها بأجهزة القياس الترمومترية التي كان زجاجها يتحطم تحت ضغط الماء في حالات كثيرة، أو بأجهزة تركز على أساس اختلاف مقاومة المعادن للتيار الكهربائي، وفي هذه الحالة يصعب ضبط النتائج بدرجة كافية. ولكن الربان نيمو كان على النقيض من ذلك، كان يهبط بالغواصة إلى مختلف الأعماق ليظفر بنفسه بدرجات الحرارة المتفاوتة، وذلك بأن يضع مقياس الحرارة في الماء على مختلف درجات العمق. فيظفر بالحرارة بطريقة مباشرة وبكل دقة. وكان الهبوط يتم عن طريق ملء المستودعات بالماء أو بهبوط الغواصة رأسًا بألواحها الانسيابية - مما هيأ لها أن تبلغ المحاق في مسافات تراوحت بين ثلاثة آلاف متر. وقد تبين من النتائج النهائية لهذه التجارب أن للبحر درجة حرارة ثابتة قدرها أربع درجات ونصف على عمق ألف متر في جميع خطوط العرض.

وكنت أتبع هذه التجارب بأحرّ الاهتمام، وكان الربان نيمو يدرسها بأشد الشغف. وطالما تساءلت عن الهدف من هذه الأبحاث، وهل يقوم بها لصالح إخوانه في البشرية؟ إن هذا غير محتمل، فبومًا ما ستطوى أبحاثه معه في مكان مجهول من البحار وذلك ما لم يعهد إليّ بهذه النتائج، ولكن معنى هذا أن رحلتي الغريبة ستكون لها نهاية. وهو ما لم ألمح بوادره حتى الآن.

وفي اليوم السادس عشر من شهر يناير بدت الغواصة وكأنها راقدة على عمق ياردات قليلة تحت سطح الأمواج. فقد توقف جهازها الكهربائي وتركها الرفاص الدائب الحركة تتأرجح تحت رحمة التيار، وقد خطر لي أن بحارتها مشغولين في الداخل بإجراء الإصلاحات اللازمة التي تحتاجها المحركات بعد كل رحلة طويلة عنيفة.

أما أنا وصاحبائي فقد تهيأ لنا أن نبصر مشهداً عجيباً. فقد رفعت الألواح عن الفتحات البللورية في الصالون ولم يكن الكشف الكهربائي الخارجي مضاء، وكانت الظلال الغامضة تخيم في قلب الماء والسماء المكفهرة الملبدة بالسحب لا ترسل إلى أطواء المحيط السطحية سوى ضوء يسير.

وبينما كنت أنظر إلى البحر في مثل هذا الجو الذي كانت فيه أكبر الأسماك تبدو كظلال غير مكتملة المعالم إذا بالضوء الكهربائي يغمر الغواصة كلها. وقد خطر لي أول الأمر أن الكشف الكهربائي قد أضيء وأخذ يرسل إشعاعه الباهر في الخضم المائي. ولكني كنت مخطئاً، وقد تجلّى خطئي إثر ملاحظة سريعة.

كانت الغواصة طافية في طبقة مائية فسفورية تبدو في مثل هذه العتمة باهرة الضوء. وكان هذا الضوء الفسفوري يتولد عن ملايين الدويبات الحيوانية المشعة التي يتضاعف إشعاعها بانعكاسه على هيكل الغواصة المعدني. ولم ألبث أن رأيت وميضاً متألّقاً بين هذه الطبقات المائية المشعة، كوميض الرصاص المذاب في الأفران، أو كالكتل المعدنية المتوهجة من فرط صهرها. وكان ذلك يحدث بطريقة تبدو

فيها بعض العناصر الضوئية وكأنها ظلال في صميم هذا الوضع الذي ينبغي أن يتقدم في كافة الظلال. أجل. لم يكن هذا مجرد ضوء عادي مما نعهده بل كان فيه قوة غير مألوفة وكان فيه حركة، حتى أحسنا كأنه ضوء ينبض بالحياة.

والواقع أن هذا الضوء ناشئ من تكتيل الدويبات المائية بالملايين، وهي دويبات فقاعية شفافة الشكل، جلاتينية القوام ذات قرون استشعار دقيقة، وقد أمكن إحصاء ٢٥ ألف دويبة منها في كمية من الماء لا تزيد على ثلاثين سنتيمتراً مكعباً، وأن ضوءها ليتضاعف بإشعاع أصناف أخرى عديدة من هذه الدويبات المائية الفسفورية.

وظلت الغواصة طافية بضع ساعات بين هذه الطبقات المائية المضئية، وقد اشتد إعجابنا بمنظر الأحياء البحرية الكبيرة وهي ترتع في أجوائها كعرائس الماء الأسطورية. ورأيت بين وميض هذه النيران غير المحرقة حيوانات الدرفيل الرشيقة السريعة، وهي لا تكل من حركتها البهلوانية. كما رأيت الأسماك الاستيتوتور التي يبلغ طولها ثلاث ياردات، والتي تحسن التنبؤ بالأعاصير، وهي ذات زعانف شبيهة بالسيوف، كانت تضرب بها زجاج نوافذ الصالون، ثم تتابع من بعدها أنواع من السمك الأصغر حجماً بدت وهي متباعدة كالذيل في أثر هذا الوسط الضوئي.

كان هذا المشهد الباهر رائع الجمال وقد خيل إليّ أن ثمة ظروفاً جوية تضاعف من قوة هذه الظاهرة. ولعل عاصفة كانت تجتاح سطح البحر دون أن تحس الغواصة بفورتها وهي على عمق بضع ياردات حيث كانت تطفو آمنة بين المياه الهادئة.

وهكذا تابعنا طريقنا مبهورين دائماً بألوان جديدة من كل عجيب طريف، وكان كونسايل يلاحظ ويصنف أنواع ما يرى من أصداف ومحار وقواقع وأسماك، وتعاقت الأيام سراعاً حتى لم أعد أحصيها. وكان نيد لاند كعادته يحاول أن يغير من أصناف الطعام في الغواصة، ولكننا كنا كالقواقع، قد اعتدنا الحياة داخل الصدف، وقد تبين لي أنه من السهل على الإنسان أن يعيش تمامًا كأنه قوقع. ذلك أن حياتنا داخل الغواصة لم تلبث أن بدت لنا طبيعية ميسورة، فلم نعد نفكر في الحياة المختلفة القائمة على سطح اليابسة، ظل ذلك شأننا حتى وقع حادث ذكرنا بغرابة موقفنا.

كانت الغواصة في اليوم الثامن عشر من شهر يناير في خط الطول ١٠٥ درجة وخط العرض ١٥ درجة جنوباً، وكان الجو ينذر بالعاصفة والبحر مهتاجاً، والرياح تهب عاصفة من ناحية الشرق. وكان مؤشر الباروميتر الذي ظل يهبط خلال الأيام السابقة، ينذر بقرب ثوران عناصر الطبيعة.

وكنت قد صعدت إلى الغواصة وقت أن كان الضابط الأول يحدد الاتجاهات العامة. وتوقعت أن أسمع كالمعتاد تلك العبارة التي يرددها يومياً. ولكنه فاه هذا اليوم بعبارة أخرى لا تقل غموضاً. وعلى الأثر أقبل الربان نيمو وأخذ يكتسح الأفق بمنظاره المقرب.

ظل الربان دقائق ساكناً دون أن يرفع نظره عن النقطة التي ركز فيها اهتمامه. وما لبث أن أنزل المنظار عن عينيه وتبادل بضع كلمات مع الضابط الأول الذي بدا أنه صار فريسة لانفعال كان يجاهد عبثاً لكتمانها.

أما الربان نيمو فكان أكثر سيطرة على نفسه، ولذلك ظل على هدوئه. وفوق هذا كان يبدو أنه يعترض على شيء وكان الضابط يجيب بعبارات روتينية، أو كان هذا على الأقل ما فهمته من اختلاف لهجتهما وإشارتهما.

وكان الربان نيمو في خلال هذا يذرع السطح جيئة وذهاباً دون أن يلتفت إليّ، ولعله لم يكن يراني، وكانت خطواته تنم عن الثبات، وإن كان ينقصها طابع النظام المعهود. وكان يتوقف أحياناً ويعقد ذراعيه على صدره وينظر إلى البحر. تُرى ما الذي كان يلتمسه في هذا الفضاء المائي العريض؟ أما الغواصة فكانت عندئذ على مسافة بضع مئات الأميال من اليابسة.

وتناول الضابط الأول منظاره المقرب مرة أخرى وأخذ يستشف الأفق بإصرار وهو يروح ويغدو ويضرب السطح بقدمه. وكان في انفعاله على النقيض من رئيسه الهادئ.

وكان لا بد لهذا الغموض أن ينجلي لأن سرعة الغواصة لم تلبث أن ازدادت بأمر من الربان نيمو وأخذ الرفاص يضرب الأمواج بعنف في حركته الدائرية المتزايدة.

وفي تلك اللحظة، لفت الضابط نظر الربان مرة ثانية فتوقف عن السير، ووجه منظاره المقرب إلى الموضع المشار إليه، وظل يراقبه فترة طويلة، ولما اشتد بي الفضول، هبطت إلى الصالون واستحضرت منظاراً قوياً كنت أستخدمه عادة، ثم أسندته على مقصورة الكشف الكهربائي القائمة على مقدمة السطح، وتأهبت للنظر إلى الأفق، ولكنني ما كدت

أضع عيني عليه حتى انتزع المنظار من يدي.

فاستدرت، ورأيت الربان نيمو واقفًا أمامي، ولكنني كدت أنكره لما بدا عليه من تغيير رهيب. كانت عيناه تقدحان شررًا تحت حاجبيه المقطبين، وأسنانه تلمع بين شفثيه المنفرجتين، وكان جسمه المتصلب، ويداه المقبوضتان، ورأسه الثابت بقوة بين كتفيه، تنم كلها عن الحقد الشديد الذي تمتلئ به نفسه، وينم عليه مظهره، ولم يتحرك، وإنما سقط منظاري من يده، وتدحرج عند قدميه.

تري، هل أثرت دون قصد غضبه؟! هل خطر لهذه الشخصية الغامضة أنني وقفت على بعض الأسرار التي لا يجوز أن يعرفها الغرباء عن الغواصة!

وما لبت الربان نيمو أن استرد أخيرًا رباطة جأشه، واستعاد وجهه المربد هدوءه المعتاد وتحدث إلى ضابطه بلغة غير مفهومة، ثم استدار نحوي مرة أخرى قائلاً بصوت ينم عن الاستعلاء:

- يا مسيو أروناكس. إنني أطلبك بتنفيذ أحد التعهدات التي تربطني بك.

- وما هو يا كابتن؟

- أن تسجن نفسك مع صاحبيك حتى يحين الوقت الذي أراه مناسبًا لإطلاق سراحكم مرة أخرى.

فقلت وأنا أنظر إليه بثبات:

- أنت هنا صاحب الأمر. ولكن أيمكن أن ألقى عليك سؤالًا واحدًا؟

- لا يا سيدي ولا سؤال واحد!

فهبطت إلى الغرفة المخصصة لنيد لاند وكونساييل، وأخبرتتهما بقرار الربان، وإني أترك للقارئ أن يتصور وقع هذا الكلام على نيد لاند. ومع ذلك لم يكن لديّ أي وقت للشرح والتفسير. فقد كان أربعة من البحارة في انتظارنا بالبواب، وقد صحبونا إلى الزنزانة الحديدية التي أمضينا فيها ليلتنا الأولى بالغواصة.

وحاول نيد لاند أن يحتج على هذا المسلك، فكان الجواب أن أغلق عليه الباب.

وقال لي كونساييل:

- هل يبين لي سيدي ما معنى هذا؟

فذكرت لهما ما حدث، فكانا مثلي في دهشة، ولم يصل علمهما إلى أكثر مما وصل إليه علمي. وأمضيت وقتاً في التأمل ووجه الربان نيمو الغريب لا يغيب عن خيالي، وقد عجزت عن الاهتداء إلى رأي منطقي. واستسلمت لطائفة من الفروض العميقة سيطرت على تفكيري حتى أفقت على صوت نيد لاند وهو يقول:

- عجباً. لقد أعدوا لنا هنا طعام الإفطار.

وكانت المائدة معدة حقاً، ويبدو أن الربان أصدر أمره بهذا الشأن عندما أمر بزيادة سرعة الغواصة. وقال كونساييل:

- هل يأذن لي سيدي أن أشير بشيء؟

- نعم يا بني.

- إني أنصح سيدي بأن يتناول طعام الإفطار. فإن هذا من الحكمة،
لأننا لا نعرف ما قد يحدث.

- أنت على حق يا كونسایل.

وقال له كونسایل:

- ما رأيك يا صديقي نيد إذا أنت لم تفطر البتة؟

فوضعت هذه الملاحظة حدًا لتذمر نيد لاند.

وجلسنا إلى المائدة وتناولنا الطعام صامتين. وقد أكلت لمامًا.
وأكل كونسایل مكرهًا بعقل وحكمة. أما نيد لاند فلم يقصر في طعامه.
وبعد أن فرغنا جلس كل منا في ركن يلتمس الراحة والهدوء.

وفي تلك اللحظة انطفأ المصباح الكهربائي الذي كان يضيء
الزنزانة، وتركنا في ظلام دامس، وسرعان ما استغرق نيد لاند في النوم،
وشد ما كانت دهشتي إذ وجدت كونسایل قد استغرق مثله في نوم
عميق. وفيما كنت أسائل نفسي عن سر هذا النوم القاهر إذ شعرت بخدر
ثقيل يشيع في ذهني وإذا عيناوي تغمضان برغمي، وانتابني هذيان أليم.
وبدا بوضوح أن ثمة مادة مخدرة مزجت بطعامنا وأن السجن وحده لم
يكن كافيًا لإخفاء مقاصد الربان نيمو عنا فلم يكن بد من أن يعززه بالنوم
الثقيل أيضًا.

وسمعت المنافذ تغلق، وتوقف تأرجح الغواصة على الأمواج. فهل
غادرت سطح المحيط؟ هل غاصت مرة أخرى إلى الأعماق الساكنة؟

وحاولت مغالبة النوم ولكن دون جدوى، وسرعان ما ضعفت حركة
أنفاسي، وأحسست ببرودة كبرودة الموت تشل أعضائي، وبأجفاني
تنسدل وكأنها محملة بشيء ثقيل فلم أستطع فتحهما. وأخيراً طغى عليّ
نوم مليء بالهذيان، ثم تلاشت الرؤية.



الفصل الرابع والعشرون

مملكة المرجان

واستيقظت في اليوم التالي وأنا أشعر بصفاء عجيب في ذهني، وشد ما كانت دهشتي إذ ألفتني في غرفتي. ولم يكن ثمة شك أن صاحبي قد نقلًا أيضًا إلى غرفتهما دون أن يشعرا مثلي بما حدث. وكذلك لم يعرفا مثلي ما حدث في الليلة السابقة. وهكذا اعتمدت على المستقبل وحده في كشف هذا السر.

وفكرت عندئذ في مغادرة الغرفة. أتراني مطلق السراح كما كنت، أم ما زلت سجينًا؟ لقد ألفتني أنعم بالحرية كاملة. فقد فتحت الباب، ومضيت إلى وسط الغواصة، وارتقيت درجات السلم المركزي، ووجدت المنافذ التي أغلقت في الليلة السابقة مفتوحة، فخرجت إلى السطح.

ووجدت نيد لاند وكونسايل في انتظاري هناك. وقد قررا لي حين سألتهما أنهما لا يعرفان مما حدث شيئًا. فقد استغرقا في نوم بلا أحلام، وكم كانت دهشتهما حين استيقظا فوجدا نفسيهما في مقصورتهما.

أما الغواصة نفسها فقد بدت لنا ساكنة غامضة كمألوف أمرها. كانت تطفو إلى سطح الأمواج بسرعة معتدلة. ولم يبد على سطحها تغير ملحوظ.

وجعل نيد لاند يرقب الأفق بنظراته النفاذة، فلم يجد على مدى البصر شيئاً كشرع أو يابسة. وكان ثمة نسيم جاف يهب من الغرب، والغواصة تتمايل فوق الأمواج العالية التي أثارتها الرياح.

وكانت الغواصة بعد أن تتم تهويتها، تبقى تحت سطح الماء في عمق خمس عشرة ياردة لكي تطفو بسرعة عند الضرورة. وقد تكررت هذه العملية بضع مرات خلال اليوم التاسع عشر من شهر يناير خلافاً للمعتاد. وصعد الضابط الثاني إلى السطح وردد العبارة الغامضة لمن في داخل الغواصة.

ولم يظهر الربان نيمو بل لم أر أحداً من رجال الغواصة سوى الخادم الجامد الملامح الذي كان يقوم على خدمتي أثناء الطعام بصمته ودقته المألوفين.

وفي نحو الثامنة بعد الظهر، كنت في الصالون عاكفاً على تصنيف مذكراتي، عندما فُتح الباب وأقبل الربان فانحنيت أمامه فرد على تحيتي بسكون دون أن يلفظ بكلمة. فعدت إلى استئناف عملي وأنا أود أن يفسر لي بعض الأحداث الغامضة التي وقعت في الليلة السابقة. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا.

ولما نظرت إليه وجدت أمارات التعب مرتسمة على وجهه، وكانت أجفانه الحمراء تدل على أنه لم ينعم بالنوم. وكانت سماته تنم عن أشد

الحزن؛ وأخذ يسير في الغرفة، ثم يجلس ثم ينهض، ثم يتناول كتابًا ما ولا يلبث أن يدعه ثم ينظر في أجهزته ومقاييسه دون أن يدون ملاحظاته كالمعتاد، وبدا عاجزًا عن البقاء لحظة واحدة في سكينته وهدوء.

وأخيرًا أقبل عليّ قائلاً:

- هل أنت طبيب يا مسيو أروناكس؟

فقلت:

- نعم إنني طبيب وجراح، وقد تدرّبت على مهنتي سنوات عديدة قبل الانضمام إلى المتحف.

- هذا أمر طيب.

وبدا لي واضحًا أن إجابتي أرضت الربان نيمو، ولكني وأنا لا أعرف ماذا يريد - انتظرت المزيد من الأسئلة وفي نيتي أن أجيب عنها طبقًا للظروف.

وقال الربان:

- هل تتكلم يا مسيو أروناكس بفحص رجل مريض؟

- هل يوجد مريض بالغواصة؟

- نعم.

- وأنا على استعداد للذهاب معك إليه.

- هيا بنا.

وينبغي أن أعترف أنني قد شعرت بقلبي يخفق في عنف، ولست

أدري لماذا رأيت ثمة وشيعة بين مرض أحد بحارة الغواصة، وبين أحداث الليلة الماضية، وقد شغلني هذا السر على الأقل بقدر ما شغلني أمر الرجل المريض.

وصحبني الربان نيمو إلى مؤخرة الغواصة نوتيليوس، وأدخلني مقصورة تقع في جناح البحارة.

وهناك رأيت رجلًا في نحو الأربعين من عمره راقدًا في فراش، وقد نم وجهه الأنجلوساكسوني الأصيل عن القوة والنشاط.

وانحنيت فوقه، فرأيت أنه لم يكن مريضًا فحسب، بل كان جريحًا أيضًا. وكان رأسه الملفوف بالضمادات مستقرًا على وسادتين. ولما رفعت الضمادات ظل يحرق بعينه الكبيرتين دون أن تند آهة واحدة.

وكان الجرح مروعا. فعظام الرأس المحطمة بالة تكشف عن المخ. وقد بدا لي أن المادة المخية أصيبت بتهتك شديد، كما تشكل الدم المتجمد في الجرح على هيئة رواسب الخمر. وكان ثمة ارتجاج في المخ أيضًا، ونزيف من بعض شرايينه، أما تنفس الرجل المريض فكان بطيئًا، كما كانت حركات عضلاته المتشنجة تشيع الاضطراب في وجهه. وكان يبدو عليه الأعراض الكاملة للالتهاب بالمخ، مما سبب شللًا في الحركة وفي الإحساس.

وبقياس النبض وجدته متقطعًا وكانت الأطراف تميل إلى البرودة تدريجيًا، وهكذا كان الموت يقترب منه حثيثًا دون أن يكون ثمة احتمال لإمكان التغلب عليه. ولكنني لم أتوان عن تنظيف الجرح وإعادة تضميده، ثم استدرت إلى الربان نيمو قائلاً:

- كيف وقعت هذه الإصابة؟

فأجاب الربان نيمو مراوغةً:

- وماذا يهم؟ لقد أسقط اهتزاز الغواصة العنيف رافعة على رأسه.

ولكن ما رأيك في حالته؟

فترددت برهة قبل أن أجيب، فقال الربان:

- يمكنك أن تتحدث بصراحة، فإن هذا الرجل لا يعرف الفرنسية.

وأرسلت نظرة أخيرة على وجه الرجل الجريح ثم قلت:

- سيموت خلال ساعتين.

- ألا من سبيل إلى إنقاذه؟

- لا..

فأطبق الربان نيمو قبضته، ورأيت عينيه تمتلئان بالدموع وكنت أحسبهما لا تعرفان البكاء.

وبقيت فترة من الوقت أرقب الرجل المحتضر والحياة تنحسر عنه تدريجيًا. وقد بدا أشد شحوبًا تحت الضوء الكهربائي الذي كان يغمر فراش الموت. وجعلت أنظر إلى جبينه الذي ينم عن الذكاء والذي ارتسمت عليه تجاعيد مبكرة خطها سوء الحظ، وربما البؤس. وكنت أحاول أن أعرف بعض أسرار حياته من الكلمات الأخيرة التي تفلت من شفتيه، ولكن الربان قال لي:

- يمكنك أن تنصرف الآن يا مسيو أروناكس.

فتركت الربان في غرفة المحتضر، وعدت إلى غرفتي وقد اشتد تأثيري بما رأيته. وسلخت سحابة النهار تنتابني مخاوف شنيعة. ونمت في تلك الليلة نومًا مضطربًا. وخيل إليَّ أثناء أحلامي المتقطعة أنني أسمع تنهيدات بعيدة وأصوات كترانيم الجنائز. فهل كانت صلاة تردد على روح الميت بتلك اللغة التي لا أعرفها؟

وفي صباح اليوم التالي صعدت إلى سطح الغواصة حيث وجدت الربان قد سبقني إليه. وما كاد أن يلمحني حتى أقبل إليَّ قائلاً:

- هل تحب يا بروفيسور أن تقوم برحلة إلى الأعماق اليوم؟
فقلت:

- مع صاحبي؟

- إذا أرادا.

- إنني رهن أمرك يا كابتن.

- إذن أرجو أن ترتدوا ملابس الغوص.

ولم يرد أي ذكر للرجل المحتضر أو الميت. فقصدت إلى نيد لاند وكونسايل ونقلتهما اقتراح الربان، فوافق كونسايل فوراً وبدا الكندي هذه المرة على استعداد للذهاب معنا.

وكانت الساعة الثامنة صباحاً.. وبعد نصف ساعة. كنا قد ارتدينا ملابس الغوص وتزودنا بأجهزة التنفس والإضاءة، وفتح لنا الباب المزدوج وصحبنا الربان نيمو الذي كان يتبعه اثنا عشر من بحّارته. وانتقلنا إلى الأرض الصلبة التي استقرت عليها الغواصة على عمق عشر ياردات.

وانتهى بنا انحدار خفيف إلى امتداد من الأرض المتموجة على عمق ثلاثين ياردة، وكانت هذه الأرض تختلف تمامًا عن كل أرض رأيته في الرحلة الأولى تحت سطح المحيط الهادي. فلم يكن هناك رمال ناعمة، ولا مراعي بحرية، ولا غابات تحت سطح البحر. وقد تعرفت فورًا على طبيعة هذه الأرض التي يقول الربان نيمو إنها مملكة المرجان.

إن المرجان هو تراكم جسيمات حيوانية تتجمع على شعب من خلايا بحرية حية ذات طبيعة صخرية هشة، ولهذه الشعب قوى إنتاجية فريدة تسبب تكوينها عن طريق الانقسام والتكاثر، وتتمتع في الوقت نفسه بخاصة التكون الذاتي التي يتيح لها المشاركة في الحياة العامة. وهي من هذه الناحية لون من الاشتراكية الطبيعية. وأنا أعرف النتائج النهائية الناشئة عن هذا التحجر الغريب الذي يتحد في الوقت نفسه مع الأملاح المعدنية مكونًا شعبًا متحجرة على هيئة أشجار ونباتات كما لاحظ بحق علماء الطبيعة. وهكذا لم يكن هناك ما هو أمتع من زيارتي لإحدى الغابات المتحجرة التي غرستها الطبيعة في أعماق البحر.

وأدركنا جهاز رومكوف للإضاءة، وسرنا في حذاء ضفة مرجانية في مستهل تكوينها، ولكنها بمرور الزمن ستتصل يومًا بهذا الجانب المرجاني من المحيط الهندي. وكان الطريق محفوفًا بأدغال متشابكة مكونة من شجيرات تكسوها زهور نجمية بيضاء. وكانت هذه النباتات تنمو في بعض الأماكن الصخرية من أعلى إلى أسفل بعكس نباتات اليابسة.

وكان الضوء يكشف لنا عن آلاف الانعكاسات الفاتنة وهي تتماوج

بين الأغصان الزاهية الألوان؛ وكان يبدو لي أن النباتات الغشائية الأنبوبية ترتعش تحت الأمواج المتأرجحة. فساورتني رغبة في جمع أوراقها الفضية المزينة بأطراف دقيقة بعضها قد تفتح وبعضها في طور التفتح، وكانت الأسماك الخفيفة السريعة تلمسها برفق وهي تمر بجانبها كأنها أسراب من الطير. ولكن ما كادت يدي تقترب من هذه الأزهار الحية، هذه النباتات الحساسة ذات الحيوية، حتى انتفضت المستعمرة النباتية كلها على أهبة الحذر، وإذا الوريقات البيضاء تدخل في أغلفتها الحمراء، والزهور تخفي عن نظري والشجيرات كلها تتحرك إلى كتل من العقد الصخرية.

ولكن الأدغال لم تلبث أن أخذت في التناقص أثناء مسيرنا، وكثرت النباتات البحرية، ثم تفتحت أمام أقدامنا الطرق إلى أحراش حقيقية متحجرة وعقود على أشكال هندسية بديعة، ودخل الربان نيمو إلى ما يشبه البهو المظلم. وكانت أضواء مصابيحنا تحدث انعكاسات سحرية وهي تنسكب كسهام من نار على العقود والتكوينات الطبيعية المدلاة كالأشجار، وقد رأيت بين أدغال المرجان أنواعاً أخرى من الشعب لا تقل غرابة وإثارة للعجب، فهي مكونة من نباتات البلسا وزهور الأقحوان المتحجرة على هيئة شعب رائعة المنظر، كما رأيت حواجز مرجانية بعضها أخضر وبعضها أحمر، وكأنما رصع تكوينها الجيري بأعشاب البحر. وقد قرر علماء الطبيعة بعد مداولات شتى تسجيلها في جدول المملكة النباتية، ولكن أحد المفكرين قال عن هذه المملكة المرجانية: «إنها قد تكون اليقظة الحقيقية التي تنبت منها الحياة بعد نموها الحجري»

ودون أن تنسلخ نهائياً عن نقطة البدء الجافية».

وبعد مسير ساعتين وصلنا أخيراً إلى عمق ٣٠٠ ياردة، أي إلى أقصى الحدود التي يمكن عندها أن تتكون الشعب المرجانية. وفي هذا العمق لم يكن ثمة شجيرات متفرقة، أو أحراش من شجر صغير قصير بل غابات ضخمة من نباتات بحرية عظيمة، وأشجار متحجرة هائلة متصلة بعقود وأكاليل من النباتات المتسلقة والأعشاب البحرية وهي مزدانة بألوان وظلال. ومررنا بسهولة تحت أغصانها العالية الضائعة في أعماق المياه فوقها، بينما كانت الزهور النجمية والسرخس والزنابق الدرنية وغيرها من أزهار البحار تنسج تحت أقدامنا بساطاً رائعاً من الزهور مرصعاً بالبراعم المتألقة.

كان مشهداً يجعل عن الوصف. آه. كيف لم يكن في مقدورنا أن نتبادل التعبير عن مشاعرنا؟ لماذا كنا مسجونين تحت هذه الأقنعة من المعدن والزجاج؟ لماذا حُرم علينا الحديث؟ لماذا لا نعيش على الأقل كما تعيش الأسماك التي تسكن عالم الماء؟ أو كالأحياء البرمائية التي تستطيع إذا شاءت أن تعيش في الماء وفي اليابسة؟

وفي هذه الأثناء توقف نيمو، فاقتديت به مع صاحبي، ولما استدرت رأيت رجاله قد التفوا حوله ولما دققت النظر لاحظت أن أربعة منهم يحملون شيئاً مستطيلاً على أكتافهم.

وكنا عندئذ في وسط رحبة واسعة مكشوفة تحيط بها نباتات عالية متحجرة من غابات الأعماق. وكانت مصابيحنا تضيء المكان بما يشبه ضوء الشفق الذي يطيل الظلال على الأرض. أما عند حدود الرحبة

الواسعة فقد كان الظلام كثيفاً تشقه الومضات الخفيفة التي يعكسها الضوء على التلوءات المرجانية.

وكان نيد لاند وكونساييل بالقرب مني، فوقفنا ننظر وقد بدا لي أنني سأشهد شيئاً غريباً؛ وبينما كنت أنظر إلى الأرض لاحظت ارتفاعها في مواضع معينة وأن بها تلوءات تعلوها رواسب جيرية، كما كانت ممهدة بعناية وانتظام مما يدل على أنها من صنع الإنسان.

وفي منتصف الرحبة الواسعة، وفوق قاعدة من الصخور رأيت صليباً من المرجان الأحمر، مبسوط الذراعين، يحسب الرائي أنه مصنوع من الدماء المتحجرة.

وتقدم أحد الرجال إثر إشارة من الربان نيمو وأخذ يحفر حفرة على مسافة بضعة أقدام من الصليب بمعول كان يحمله في حزامه.

عندئذ فهتم الموقف كله، فهذه الرحبة مدافن، وهذه الحفرة قبر، وذلك الشيء المستطيل هو جثمان الرجل الذي مات أثناء الليل. وقد جاء الربان نيمو ورجاله إلى هذا المكان لمواراة زميلهم الثرى تحت أعماق من المحيط لم يصل إليها بشر غيرنا.

ولم يسبق أن أحسست بمثل هذا الانفعال الذهني، ولم يحدث أن تواردت على فكري مثل هذه الخواطر المثيرة حتى كدت لا أبصر ما تقع عليه عيناى.

وفي خلال هذا استمرت عملية حفر القبر ببطء. وكانت الأسماك تفر هنا وهناك كلما قطعت عليها السبل. وكنت أسمع رنين المعول

الحديدي فوق الأرض الجيرية، وأرى بعض الشرر يتطاير كلما اصطدم بقطعة من المعادن الملقاة في أعماق المحيط، وازداد اتساع الحفرة، حتى أن بلغت من العمق ما يكفي لموارد البثّة.

وأخيراً اقترب حاملو الجثمان الذي كان ملفوفاً في نسيج أبيض من ألياف نباتية مائية ووضعوه في القبر البحري، وركع الربان نيمو وهو عاقد ذراعيه على صدره مع أصدقاء الرجل ومحبيه تأهباً للصلاة فانحنيت مع صاحبي في خشوع.

ثم أهيلت على القبر المواد التي أخرجت منه، فتكوّن مرتفع بسيط من الأرض، قبر جديد في الرحبة.

وبعد الفراغ من هذه العملية نهض الربان مع رجاله ثم التفوا حول القبر وركعوا مرة أخرى وقد بسطوا أذرعهم يودعون الراحل الوداع الأخير.

وعلى إثر هذا سار الموكب الجنائزي عائداً إلى الغواصة، مجتازاً مرة أخرى ممرات الغابة ومناطق الأدغال على جانب الشعب المرجانية، مُصعداً في منحدر الأكمة المتحجرة.

ولاحت أخيراً أضواء الغواصة عن بعد فاسترشدنا بها في المرحلة الأخيرة من الطريق.

وكانت عودتنا إليها في الساعة الواحدة من الظهر.

وما إن فرغت من استبدال ملابس الغوص، حتى صعدت إلى السطح وأنا لا أكاد أغالب انفعالاتي العنيفة المتضاربة، فيممت شطر

مقصورة الكشف الكهربائي حيث جلست بجانبها هناك إلى أن انضم
إليّ الربان نيمو فنهضت قائلاً:

- إذن فقد مات هذا الرجل ليلاً كما تنبأت؟

فأجاب الربان قائلاً:

- نعم يا مسيو أروناكس.

- وهو الآن يرقد في سلام بجوار زملائه في المدافن المرجانية.

- نعم.. منسياً من الجميع إلا منا: إننا نحفر القبر، وتتولى الجسيمات
المرجانية إغلاقه وختمه إلى الأبد.

وأخفى الربان نيمو وجهه بحركة مفاجئة، وعبثاً حاول أن يكتسب شهقة
بدرت منه برغمه، ثم أردف قائلاً:

- هذه مدافنتنا الآمنة.. على عمق مئات الأقدام تحت سطح الأمواج.

- إن موتاك يا كابتن يرقدون في أمان على الأقل بعيداً عن أنياب
نمور البحر.

فقال الربان نيمو برصانة:

- نعم يا سيدي بعيداً عن هؤلاء، وعن نمور البشر.



الفصل الخامس والعشرون

المحيط الهندي

على هذه الصورة إذن كان الربان نيمو ينفق كل حياته كلها في خفايا المحيط. بل إنه أعد قبره في أعماق لا سبيل إلى النفوذ إليها وحيث لا يستطيع وحش بحري أن يقلق الرقدة الأخيرة لسكان الغواصة نوتيليوس، أولئك الذين ارتبطوا معاً في الحياة وفي الموت، والذين لا يستطيع حتى الإنسان إزعاجهم، كما قال الربان نيمو. ففي أعماقه دائماً يكمن ذلك التحدي العنيف الوحشي لكل مظاهر المجتمع البشري.

إنني لم أكن مقتنعاً بالنظرية التي انتهى إليها كونساييل. لقد أصر صاحبنا على اعتبار الربان واحداً من العلماء الذين لم يظفروا بالتقدير في حياتهم ومن ثم آثر أن يواجه إعراض البشرية عنه بالتراجع والازدراء. نعم. ما برح يرى أنه عبقرى لا يفهمه أحد، فلما ضاق ذرعاً بنفاق العالم، لجأ إلى هذا الوسط السحيق حتى يستطيع إطلاق العنان لغرائزه العلمية. ولكن هذه النظرية - في رأيي - لم تكن غير جانب واحد من حقيقة الربان نيمو.

والواقع أن الغموض الذي اكتنف ليلتنا السابقة، عندما أدخلنا في السجن وخذرت حواسنا والحذر البالغ الذي دفع بالربان لاختطاف المنظار المقرب من يدي بعنف وأنا أحاول النظر إلي الأفق البعيد، والجرح القاتل الذي أصيب به الرجل والذي عُزى إلى صدمة عنيفة في الغواصة، كل هذا انحاز بي إلى اتجاه في التقسيم جديد.

كلا.. إن الربان نيمو لا يعتمد إلى الهرب من الجنس البشري... إن غواصته الهائلة هذه ليست مجرد وسيلة لإرضاء غرائزه نحو الحرية ولكنها أيضاً أداة للانتقام الرهيب.

ولم يكن في مقدوري عندئذ أن أتبين الحقيقة بجلاء، وما كنت أراه لم يكن سوى ومضات في الظلام. ولهذا لم يكن أمامي إلا الكتابة في هذه الحدود، والتحدث وفقاً لمجرى الحوادث.

وفي الواقع لم يكن ثمة ما يربطنا بالربان نيمو. إنه يعرف أن الهرب من غواصته مستحيل ونحن لم نكن حتى أسرى حرب، بل سجناء تحت اسم ضيوف بحكم مظاهر المجاملة. ولكن نيد لاند مع هذا لم يفقد الأمل في استرداد حريته. وكان من المؤكد أنه سيتنهد أول فرصة سانحة للاستفادة منها، ولم يكن ثمة شك في أنني سأحمل معي من أسرارها ما سمح كرم الربان بإطلاعي عليه. ومهما يكن من شيء هل يستحق هذا الرجل الإعجاب أو الكراهية أم هو ضحية أم جلداء، وأقولها في صراحة إنني أحب قبل أن أكوّن رأيي عنه نهائياً أن أتم رحلة الغواصة حول العالم بعد أن رأيت مدى ما في أولها من روعة وجمال. أحب لو استطعت أن أرى السلسلة الكاملة للعجائب والغرائب المتكاثرة تحت بحار هذه

الكرة الأرضية. أحب لو أني رأيت ما لم يره إنسان من قبل، ولو دفعت حياتي ثمنًا لرغبتني العارمة في المعرفة والعلم. وماذا اكتشفت حتى الآن؟ لا شيء... ولا شيء تقريبًا، لأننا لم نقطع من المحيط الهادي أكثر من ستة آلاف فرسخ.

وأيًا كان الأمر، فأنا أعرف أن الغواصة تقترب من الأرض المأهولة، وأنه إذا سنحت لنا فرصة للنجاة، فإنه من القسوة أن أضحي بزملائي في سبيل شغفي بالمجهول، يجب أن أسير معهم بل ربما وجب أن أقودهم. ولكن. هل ستتاح لنا مثل هذه الغواصة يومًا ما؟ إن من حرم من حريته عنوة يهفو إليها. أما العالم الدارس فإنه يفر منها.

وفي ذلك اليوم، الواحد والعشرين من شهر يناير وفي ساعة الظهيرة صعد الضابط الأول ليحدد ارتفاع الشمس، فصعدت إلى السطح أيضًا وأشعلت سيجاري، وجعلت أراقب الضابط وهو يقوم بعمله وكان من الجلي أنه لا يعرف الفرنسية لأسباب عديدة. ولكني جعلت أردد أفكاره بصوت مسموع كان من الممكن أن يثير بعض انتباهه برغمه لو أنه فهم ما أقول. ولكنه ظل جامد الوجه أبكم.

وبينما كان الضابط يقوم بعمله، أقبل أحد بحارة الغواصة، وهو نفس الرجل القوي الذي صحبنا في رحلتنا الأولى إلى جزيرة كريسبو. وأخذ ينظف زجاج الكشاف الكهربائي، وعندئذ فحصت تركيبات هذا الجهاز الذي كانت قوته تتضاعف مائة مرة بعدساته الدائرية كعدسات كشاف المنار والتي كانت تحتفظ بالضوء في المستوى المناسب. وكانت أسلاك المصباح الكهربائي مجمعة لإطلاق كل قوتها الضوئية، وكان

الضوء في الواقع يتولد في أنبوبة مفرغة للمحافظة على تركيزه وانتظامه في آن واحد. وتوفر هذه الأنبوبة أيضًا من استهلاك الأطراف الجرانيتية التي تقوي الإشعاع الضوئي، وهي عملية اقتصادية بارعة لجأ إليها الربان نيمو الذي قد لا يستطيع تجديدها بسهولة.

ولما تأهبت الغواصة لاستئناف رحلتها تحت سطح الماء، نزلت إلى الصالون حيث رأيت نوافذه البللورية مغلقة. ولكنني عرفت أن الغواصة أخذت تتجه غربًا.

وأنشأت الغواصة تمخرع باب المحيط الهندي، وهو سهل مائي شاسع يبلغ امتداده نحو ألف ومائتي مليون فدان. وكانت مياهه من الصفاء بحيث يشعر الناظر إلى الأعماق بالدوار. وكانت الغواصة تمضي عادة على عمق يتراوح بين مائتين وأربعمائة ياردة. وعلى هذه الصورة تابعنا رحلتنا أيامًا عديدة. ولو كان شخص غيري، أنا الذي أهتم بالبحر، لبدت له الساعات طويلة مملة. ولكن مسيري كل يوم على السطح، للتزود بقوة جديدة من هواء البحر المنعش ومشهد هذه المياه الموفورة الثراء التي كنت أراها من نوافذ الصالون البللورية، وعكوفي على القراءة وتدوين مذكراتي - كل أولئك كان يشغل وقتي، ولا يدع لي لحظة أشعر فيها بالفراغ والملل.

وكان جميع من في الغواصة يتمتعون بصحة جيدة. وكان الطعام ملائمًا لنا تمامًا. وكان بوسعي ألا أحفل كثيرًا بمسألة تنوع الطعام التي اتخذ منها نيد لاند سببًا للشكوى والاحتجاج، كما أنه لم يكن في مثل هذا الجو ذي الحرارة الثابتة خوف من الإصابة بالبرد. يضاف إلى هذا أن الغواصة كان بها كمية كافية من «عرق اللؤلؤ» المعروف في إقليم

بروفانس باسم «شمرة البحر» وهو دواء ناجح للسعال.

وفي كثير من الأيام كنا نشاهد أسرابًا كبيرة من طيور القرفصاء، ومراعي البحار، وطيور النورس والطيور العوامة. وقد أمكن اصطياد بعضها ببراعة وإعدادها للطعام بطريقة خاصة، والواقع أنها كانت صيدًا طيبًا. ولاحظت بين الطيور الكبيرة، التي تبعد كثيرًا عن اليابسة وتستريح أحيانًا على سطح الماء أنواعًا بديعة من طيور القادوس التي كانت لها صرخات مزعجة كنهيق الحمير. أما أسرة طيور «التوتبلاميت» فكانت ماثلة في خطاطيف البحر البارعة في التقاط ما يظهر على سطح الماء من أسماك. وفي مجموعات كبيرة من طيور «الفراشات» ذات الخطوط الحمراء، التي تقارب الحمام حجمًا والتي يخفف ريشها الأبيض المظلل باللون الأحمر من قنام أجنتها السوداء.

وجاءتنا شباك الغواصة بأنواع مختلفة من السلاحف البحرية ذات الظهور المحدبة والأصداف الغالية إلى حد كبير. هذه الزواحف المائية التي تغوص بسهولة، تستطيع أن تبقى تحت سطح الماء فترات طويلة. بعد إغلاق صماماتها اللحمية القائمة في نهاية القصبة الهوائية. وقد اصطدنا بعضها وهي لا تزال نائمة، مستكنة في درعها العظمي الذي يحميها من وحوش البحر. أما لحمها فلم يكن طيب المذاق، ولكن بيضها كان يزودنا بأطباق من الطعام الشهوي.

وفي اليوم الواحد والعشرين إلى اليوم الثالث والعشرين، استمرت الغواصة تسير بسرعة ٢٥٠ فرسخًا في اليوم أي ٢٢ ميلًا في الساعة. وكانت أنواع كثيرة مختلفة من الأسماك التي جذبتها الأنوار الكهربائية

تحاول مرافقتنا، ولكن أغلبها تخلف بعد أن سبقت الغواصة، وإن استطاع بعضها أن يحتفظ بسرعه في نطاق مياه الغواصة فترة من الوقت ...

وفي صباح اليوم الرابع والعشرين رأينا من بعيد جزيرة كيلنج، وهي مرجانية التربة، وتمتاز بأشجار الكاكاو البديعة، وسارت الغواصة على امتداد شواطئ هذه الجزيرة المهجورة مسافة يسيرة. وقد جاءتنا الشباك بأنواع مختلفة من الأصناف والمحار وبعض العينات النادرة التي أضيفت إلى كنوز الربان نيمو.

ولم تلبث جزيرة كيلنج أن اختفت وراء الأفق، بينما اتجهت الغواصة إلى الشمال الغربي، شطر شبه الجزيرة الهندية.

وفي ذلك اليوم قال لي نيد لاند:

- هذه بلاد متحضرة. أفضل كثيرًا من مجموعة جزر بابوا التي رأينا فيها أكلة لحوم البشر أكثر مما رأينا من اللحوم الصالحة للأكل. أما في هذه الأراضي الهندية يا سيدي البروفسور، فسوف نجد طرقًا وسككًا حديدية. وفرنسيين وإنجليز ومدنًا هندية. إن الإنسان لا يسير فيها أكثر من خمسة أميال دون أن يلتقي بواحد من مواطنيه. لا بأس! أليست هذه اللحظة المناسبة لوداع الربان نيمو على الطريقة الفرنسية؟

فقلت في صوت كله الحزم والتصميم:

- لا - لا يا نيد لاند دعنا نرى كل ما في جعبة الربان. إن الغواصة تزداد قربًا من القارات المأهولة. إنها في طريق العودة إلى القارة الأوروبية، فدعها تقصد بنا إليها. ومتى أصبحنا في مياهها الإقليمية، فسترى كيف

نتصرف وفقاً لما تقضي به الحكمة، وفضلاً عن هذا فلا أظن أن الربان نيمو سيسمح لنا بالصيد على شاطئ مالابار أو كورماندل كما فعل في غابات غينيا الجديدة.

- حسنًا يا سيدي. ألا يمكن أن نحاول الهرب بغير إذنه؟

فلم أرد على الكندي، زهدًا في المجادلة. فقد كنت أود في أعماق نفسي أن أستنفذ الفرص التي هيأتها الأقدار التي دفعت بي إلى الغواصة. وبعد جزيرة كيلنج، تناقصت سرعة الغواصة وأخذت تسلك طرقًا مختلفة، وكثيرًا ما كانت تهبط إلى أعماق بعيدة. ورغم استخدامنا لألواح الغوص المنحدرة، فقد قطعنا ميلين دون أن نبلغ إلى أغوار المحيط الهندي العميقة. بل إن حبال الأعماق لم تستطع الوصول إلى قاعه رغم أن طولها كان يبلغ سبعة آلاف ياردة. أما درجة الحرارة في أعماق بقعة وصلنا إليها فكانت حوالي أربع درجات فوق الصفر. وقد لاحظت أن برودة الطبقات العليا من البحر أكبر منها في الطبقات السفلى.

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير، أمضت الغواصة اليوم كله فوق سطح الماء الذي كان خاليًا تمامًا من السفن، وكانت تضرب الأمواج برفاصها القوي، فتزيدها ارتفاعًا واهتياجًا. وكانت الغواصة تبدو في مثل هذه الظروف كوحش بحري هائل. وقضيت ثلاثة أرباع اليوم فوق سطحها. وكنت أنظر إلى المحيط فلا أرى شيئًا في الأفق. فلما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، شاهدت سفينة تجارية متجهة نحو الغرب. ولم أر منها في الواقع غير صواريها برهة وجيزة قبل أن تغيب عن ناظري. ولكن من فيها لم يروا الغواصة إذ كانت تطفو بانخفاض شديد على سطح المحيط.

وفي الساعة الخامسة مساءً، أي قبل اختفاء هذا الشفق القصير الذي يربط النهار بالليل في المناطق الاستوائية، فوجئت أنا وكونسايل بمشهد غريب، فهناك حيوان بحري جميل كان القدماء يتفاءلون بلقائه. وقد درس أرسطو وأقينوس وأوبيان عاداته وطباعه واستنفدوا في دراسته كل التعبيرات العلمية في اليونان وإيطاليا. وكانوا يسمونه نوتيلوس أو بومبيلوس، ولكن العلم الحديث لم يعترف بهذه التسمية وأطلق على هذا النوع من الحيوانات الرخوة اللاقارية اسم «أرجونوت».

وكان ثمة قطع من هذه الحيوانات البحرية يسبح إذ ذاك على سطح المحيط، وكان في مقدورنا أن نحصي بضع مئات منه، وكان من نوع الأرجونوت القريب من المحيط الهندي. كانت هذه الحيوانات الرشيقة تسبح إلى الوراء على سطح الماء بوساطة أنبوبة تدفع منها الماء الذي سبق أن امتصته. وبين أذرعها الثمانية، سنة طويلة رفيعة تطفو على سطح الماء بينما يرتفع الذراعان الآخران في الهواء كأنهما أشرعة خفيفة. وكنت أستطيع بسهولة أن أرى أصدافها الحلزونية الجوفاء التي قارنها العالم كافير بزورق رشيق. ذلك أن هذه الأصداف كانت تحمل الحيوانات التي صنعتها دون أن تلتصق بها.

وقلت لكونسايل:

- إن هذه الحيوانات البحرية حرة في ترك أصدافها. ولكنها لم تحاول يوماً أن تستفيد من هذه الحرية.

فرد قائلاً:

- إنها في هذه الحالة تشبه الربان نيمو. وكان خيرًا لو سمي غواصته أرجونوت.

وظلت الغواصة تطفو بين هذا القطيع من اللافقاريات نحو ساعة.

ولا أدري كيف استبد بها الخوف فجأة وكأنما صدر إليها إشارة واحدة، فإذا كل شراع منها يهبط، وكل ذراع تطوى، وإذا أجسامها تتكور، وإذا مركز الجاذبية فيها يتغير مع انقلاب الأصداف إلى أسفل، وإذا القطيع كله يختفي تحت سطح الماء، ثم كل هذا في سرعة خاطفة، وما أظن أي أسطول بحري يمكن أن يقوم بمناورة كهذه بمثل هذا النظام الرائع.

وفي هذه اللحظة، أسدل الليل أستاره فجأة، وانسابت نسائمه هادئة، فهي لا تكاد تحرك الأمواج حول الغواصة الساكنة.

وفي اليوم التالي، اجتزنا خط الاستواء وهكذا دخلنا نصف الكرة الأرضية الشمالي.

وفي هذا اليوم رافقتنا قطعان ضخمة من نمور البحر، وهي وحوش بحرية رهيبة تكثر في هذه البحار وتزيد من أخطارها.

وكانت هذه النمر البحرية من نوع «كستراشيوفيلبي» وهي رمادية الظهر، بيضاء البطن، مسلحة بأحد عشر صنفًا من الأسنان، وكانت أعناقها منقطة ببقع سوداء كبيرة تحيط بها دوائر بيضاء فتبدو كمقلة العين. وكانت هذه الوحوش الضاربة تندفع بأجسامها على نوافذ الصالون البللورية في قوة عارمة لم نتمالك معها من الارتعاد. ولم يستطع نيد لاند إذ ذاك أن يسيطر على نفسه. كان يتلهف على الصعود إلى سطح الغواصة واصطياد هذه الوحوش بالحرب، ولا سيما ذلك النوع منها الذي تبدو أسنانه كالسيفساء أو النوع الوحشي الكبير الذي يبلغ طوله نحو ست ياردات والذي كان يثير غضبه. ولكن الغواصة لم تلبث أن زادت من سرعتها،

وما هي غير فترة وجيزة حتى خلفت وراءها أسرع هذه الوحوش سباحة.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر يناير وفي مدخل خليج البنغال الفسيح كنا نلتقي بين حين وآخر بمشهد مروع: أجساد موتى طافية على سطح الماء. كانت أجساد المتوفين في القرى الهندية حملها نهر الجونج إلى عرض البحر قبل أن تتمكن الجوارح من التهامها، وكانت تقوم مقام اللحادين ولكن نمور البحر لم تكن تتردد في مساعدتها على أداء هذه المهمة البشعة.

وفي الساعة السابعة مساءً، كانت الغواصة تسير وهي نصف طافية في مياه بيضاء كاللبن. فقد كان المحيط يبدو على امتداد البصر كأنما تحول إلى لبن. فهل كان هذا تأثير ضوء القمر، كلا فقد كان القمر بعد يومين ما زال محجوباً خلف الأفق بسبب أشعة الشمس الغاربة التي كانت تبدو سوداء بالقياس إلى بياض الماء.

ولم يستطع كونسایل أن يصدق عينيه فسألني عن تعليل هذه الظاهرة الطبيعية الفريدة. ولحسن الحظ كان في مقدوري أن أجيب. فقلت:

- هذه المساحات الشاسعة من الأمواج البيضاء التي كثيراً ما تشاهد على ساحل «أمبونا» وفي هذه المناطق، تسمى بحر اللبن.

فقال كونسایل:

- ولكن.. ما سبب هذه الظاهرة؟ فلا أظن أن الماء استحال إلى لبن حقاً.

- لا. لا. بالتأكيد.. إن هذا البياض الذي يدهشك كثيراً يرجع إلى وجود تجمعات من ديدان «الأنفاسوريا» وهي ديدان صغيرة إشعاعية

لا لون لها، هلامية القوام لا يزيد سمكها على الشعرة ولا طولها على ٠,٠٠٧ من البوصة! هذه الديدان يتصل بعضها ببعض على امتداد عدة فراسخ...

فهتف كونسایل قائلاً:

- عدة فراسخ؟

- نعم يا بني. ولا تحاول أن تحصي عددها.. فلن تستطيع ذلك لأن بعض الملاحين إذا لم تخني الذاكرة ساروا بسفنهم في هذا الخضم اللبني أكثر من أربعين ميلاً.

ولا أدري إذا كان كونسایل قد اهتم بنصيحتي، ولكني رأيته مستغرقاً في التفكير، ولعله كان يحسب كم تحتوي أربعون ميلاً على ما مقداره ٠,٠٠٧ من البوصة. أما أنا فقد استأنفت ملاحظة هذه الظاهرة.

وقد ظلت الغواصة ساعات عديدة تشق غمار هذا البحر اللبني. ولاحظت أنها تنساب بغير صوت على هذه المياه الصابونية، وكأنما هي طافية فوق دوامات الزبد التي تتولد من التيارات البحرية والتيارات العكسية في بعض الخليجان.

وحوالي منتصف الليل استردت المياه لونها العادي فجأة. ولكن السماء كانت تبدو خلفنا حتى حوافي الأفق وهي تعكس بياض الماء مدة طويلة كأنها مشربة بذلك الضوء الخفيف المنساب من الشفق الشمالي.

الفصل السادس والعشرون

اقتراح جديد للربان نيمو

عندما عادت الغواصة إلى سطح الماء شمالي خط العرض ٩٠, ٤ درجة في ظهيرة اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير، كان في مقدورنا أن نشاهد اليابسة على مسافة ثمانية أميال غربًا. وكان أول ما رأيته سلسلة من الجبال على ارتفاع ألفي قدم بدت غريبة التكوين، وقد علمت بعد تحديد موقفنا أننا بالقرب من جزيرة سيلان، أي اللؤلؤة المعلقة في أذن شبه الجزيرة الهندية.

وعدت إلى المكتبة طلبًا لكتاب عن هذه الجزيرة التي تعتبر من أخصب بقاع العالم. وفي تلك اللحظة أقبل الربان نيمو والضابط الأول وقد ألقى أولهما نظرة على الخارطة ثم استدار نحوي قائلاً:

- إن جزيرة سيلان ذات شهرة كبيرة في صيد اللؤلؤ. فهل تحب أن ترى إحدى عمليات الصيد يا مسيو أروناكس؟

- هذا ما أتوق إليه يا كابتن.

- حسنًا. هذا أمر سهل. وإذا كنا سنرى مصايد اللؤلؤ فلن نرى الصيادين لأن موسم الصيد السنوي لم يبدأ بعد. ولكن هذا لا يهم. سأمر بالاتجاه إلى خليج مانار حيث نصل إليه أثناء الليل.

وفاه الربان بكلمات قليلة إلى الضابط الأول الذي انصرف على الأثر وسرعان ما عادت الغواصة إلى جوف الماء، ودل مؤشر الغوص أننا أمسينا على عمق ثلاثين قدمًا.

وقال الربان نيمو:

- إن مصايد اللؤلؤ يا بروفيسور موجودة في خليج البنغال وفي المحيط الهندي وفي بحار الصين واليابان وفي خليجان بناما وكاليفورنيا ولكن ليس بين هذه المصايد كلها ما يماثل سيلان في إنتاجها. سنصل إليها قبل الموسم بقليل، لأن الغواصين لا يجتمعون في خليج مانار إلا في شهر مارس، وهناك ينهمكون في عمليات الصيد الممتدة مدة ثلاثين يومًا؛ وعندهم أسطول من زوارق الصيد تبلغ ثلاثمائة زورق لكل منها عشرة مجدّفين وعشرة غوّاصين. وينقسم هؤلاء إلى مجموعتين تتناوبان الغوص في البحر إلى عمق ثلاث عشرة ياردة تقريبًا بواسطة أحجار ثقيلة يمسون بها بين أقدامهم وبحبال غليظة تشدهم إلى الزورق.

فقلت:

- إذن فوسائل الصيد البدائية لا تزال سائدة هنا.

- نعم. وذلك رغم أن هذه المصايد تمتلكها إنجلترا التي تعتبر من أوائل الدول صناعةً.

- ولكن يبدو لي على كل حال أن ملابس الغوص التي تستعملها هنا أعظم نفعاً في مثل هذه العمليات.

- نعم. لأن الغواصين المساكين لا يستطيعون البقاء طويلاً تحت سطح الماء. وقد ذكر الرحالة الإنجليزي بيرستيال أنه رأى في رحلته إلى سيلان أحد سكانها من قبيلة كافري استطاع البقاء تحت سطح الماء مدة خمس دقائق. ولكني لا أكاد أصدق هذا. فأنا أعرف أن هناك غواصين يستطيعون البقاء تحت سطح الماء مدة ٥٧ ثانية وقد يستطيع بعضهم البقاء ٨٧ ثانية، ولكن هذه كلها حالات نادرة، كما أن هؤلاء الغواصين المساكين تنزف الدماء من آذانهم وأنوفهم عند عودتهم إلى الزوارق. واعتقادي أن الفترة العادية لبقاء الغواص تحت الماء هي نصف دقيقة يسرع أثناءها في ملء كيسه الصغير بمحار اللؤلؤ. ولا يحيا هؤلاء الغواصون حتى سن متأخرة، كما أنهم يصابون بضعف البصر، وتتقرح عيونهم، وتتفتح جلودهم بالقرح الصديدية، وكثيراً ما يصابون في الأعماق بالصرع.

فقلت:

- آه. إنها مهنة البؤس إذن. ولا فائدة منها إلا إرضاء نزعات الزهو والكبرياء في بعض النفوس. ولكن أخبرني يا كابتن ما هي كمية المحار التي يظفر بها الزورق الواحد في اليوم؟

- من أربعين إلى خمسين ألف محارة. وقد قيل إن الحكومة الإنجليزية استطاعت بواسطة غواصيها في عام ١٨١٤، عندما كانت تقوم بعمليات صيد اللؤلؤ لحسابها أن تحصل على ستة وسبعين مليون محارة.

- ولكن لا بد أن هؤلاء الغواصين يكافأون بسخاء.

- قلما يحدث هذا يا بروفيسور، إن أجر الغواص في بناما دولار واحد في الأسبوع. والغواص عادة يظفر بمنحة إضافية مقدارها قرش عن كل محارة توجد بداخلها حبة لؤلؤة. وأكثر المحار الذي يصيدونه يخلو من اللؤلؤ.

- قرش واحد للغواص المسكين الذي يجلب الثراء لسيده؟ هذا شنيع!

- هكذا سترى يا بروفيسور مع صاحبك شاطئ المحار في مانار. وإذا تصادف ووجدنا هناك بعض الغواصين المبكرين فسوف تراهم أثناء العمل.

- موافق يا كابتن.

- ولكن ألا تخاف نمور البحر يا مسيو أروناكس؟

- أعترف يا كابتن أنني لم آلف بعد هذا النوع من الوحوش البحرية.
- لقد اعتدنا رؤيتها، وستعتاد أنت أيضًا عليها بمرور الزمن، وأيًا كان الأمر فسنكون مسلحين وربما قمنا أثناء الطريق بصيد هذه النمور البحرية والآن... إلى اللقاء مبكرًا صباح الغد.

وانصرف الربان نيمو بعد أن فاه بكلماته تلك في غير مبالاة.

والآن.. إذا أنت دعيت للاشتراك في صيد الدببة بجبال سويسرا، فإنك تقول حسنًا سنذهب لصيد الدببة غدًا، وإذا دعيت لصيد الأسود في جبال الأطلس أو النمور في غابات الهند قلت: «.. يبدو أننا سنذهب

لصيد الأسود والنمور» ولكن إذا دعيت لصيد نمور البحر في مواطنها فإنك على الأرجح ستطلب مهلة للتفكير قبل قبول الدعوة.

أما عن نفسي. فقد مسحت بيدي على جبیني الذي تفصد بقطرات من العرق البارد وقلت لنفسي:

- ينبغي أن أفكر على مهل. إن صيد القناوس «كلاب الماء» في غابات الأعماق كما فعلنا في غابة كريسبو المائية شيء.. ولكن السير في قاع البحر وأنت واثق من ملاقة نموره شيء آخر. أنا أعرف أنه في بعض المناطق ولا سيما في جزائر اندامان لا يتردد الزنوج في مهاجمة هذه النمور بالخنجر والأنشودة. ولكنني أعرف أيضًا أن الكثيرين ممن التقوا بهذا الوحش لم يرجعوا أحياء. وفضلًا عن هذا فأنا لست زنجيًا بأسلًا. وحتى لو كنته فلن يستغرب مني بعض التردد.

وبدأت أحلم بنمور البحر متخيلاً الأشدق الهائلة المسلحة بصنفوف متراكبة من الأسنان القادرة على قصم الرجل نصفين. ولقد شعرت لمجرد الخيال بألم في ظهري. وعندئذ لم أستطع أن أهضم لهجة الربان الهادئة وهو يوجه إليّ تلك الدعوة وكأنما يدعوني لمطاردة ثعلب مسالم.

- حسنًا. إن كونسایل لن يقبل هذه الدعوة قط وهذه حجة أذرع بها للتخلص من مصاحبة الربان في هذه الرحلة.

أما عن نيد لاند فينبغي أن أعترف بأنني لم أكن واثقًا من حرصه وحذره. فإن للمخاطر مهما عظمت إغراء شديدًا لطبيعته المحاربة.

واستأنفت مطالعة الكتاب الموضوع عن سيلان ولكنني كنت أقلب صفحاته بطريقة آلية، فقد كنت أرى أشدًا هائلة مفتوحة بين سطوره. وعندئذ أقبل كونسایل ونيد لاند في هدوء بل في مرح كأنهما لا يعرفان ماذا ينتظرهما.

وقال نيد لاند:

- مرحى يا بروفيسور.. لقد عرض علينا الربان - قاتله الله - اقتراحًا لطيفًا.

فقلت:

- آه.. إذن فقد عرفت..

فقاطعني كونسایل قائلاً:

- نعم لقد دعانا الربان غدًا مع سيدي البروفيسور لزيارة مصادد اللؤلؤ في سيلان. وكان رقيقًا في دعوته كأى سيد مهذب.

- ألم يذكر لكما شيئًا آخر؟

فقال نيد لاند:

- لا يا سيدي. ولكنه ذكر أنه تحدث معك عن هذه الرحلة.

- نعم. حدثني، إذن لم يذكر لكما شيئًا عن...

- لم يذكر شيئًا يا سيدي العالم الطبيعي. أنت ذاهب معنا.. أليس كذلك؟....

- أنا. آه.. طبعًا.. أعتقد أن هذه الدعوة مناسبة لك يا نيد.

- نعم ستكون رحلة غريبة جدًا.

فقلت بلهجة معنوية:

- وربما شديدة الخطر أيضًا.

فقال نيد لاند:

- شديدة الخطر. أ تكون رحلة بسيطة إلى شاطئ المحار شديدة
الخطر.

وكان واضحًا أن الربان نيمو لم يستصوب أن يشير لدى صاحبي فكرة
نمور البحر. فنظرت إليهما في قلق وكأني أرى بعض أطرافهما مفقودة
فعلاً. فهل يجب أن أحذرهما. نعم بالتأكيد... ولكنني لم أدر كيف
أفاتحهما في هذا الأمر. وقال كونسایل لي:

- هل يتكرم سيدي ويذكر لنا بعض التفاصيل عن مصايد اللؤلؤ؟

- أحدثكما عن طريقة الصيد. أم عن الأحداث التي...؟

فقال نيد لاند:

- عن طريقة الصيد. إذ يحسن قبل أن ننتقل إلى اليابسة أن نعرف
شيئًا عن الموضوع عامة.

- حسن جدًا. اجلسا سأحدثكما عما قرأت الآن.

قال نيد لاند:

- سيدي. ما هي اللؤلؤة؟

- إن اللؤلؤة يا صديقي نيد هي في نظر الشاعر قطرة من دموع

المحيط. وفي نظر الشرقيين قطرة متحجرة من الندي. وفي نظر السيدات حلية بيضاوية الشكل لها بريق الزجاج مصنوعة من مادة «عرق اللؤلؤ». وهي تزين أصابعهن وأعناقهن وآذانهن. وهي في نظر الكيميائي مزيج من فوسفات وكربون الجير مع قليل من الهلام. وأخيرًا هي في نظر العالم الطبيعي مجرد عصارة عضوية فاسدة تنتج عرق اللؤلؤ في أصداف معينة. وبعد أن ذكر كونسايل كعادته الفرع والرتبة التي تنتمي إليها الأحياء البحرية المكونة للؤلؤ استطردتُ أقول:

– كل هذه الأحياء البحرية الدقيقة التي تفرز تلك العصارة، أو تلك المادة البيضاء أو الزرقاء أو المائلة للزرقة أو البنفسجية التي تبطن جدران المحار قادرة على إنتاج حبات اللؤلؤ.

– حتى «الماصل أيضًا».

– نعم. حتى «الماصل» الموجود في بعض أنهار اسكتلندا أو ويلز، وإيرلندا، وساكونيا، وبوهيميا وفرنسا.

فقال الكندي:

– حسنًا. سأهتم بهذا الأمر في المستقبل.

فاسترسلت في بياناتي قائلاً:

– ولكن النوع الخاص من الحيوانات البحرية اللاقارية التي ترسب اللؤلؤ هي محار اللؤلؤ المعروف باسم ميلياجرينا مارجوتيفيرا أي البنادين الثمين. وما حبة اللؤلؤ إلا مجرد عرق لؤلؤي ترسب في شكل بيضاوي، وتلتصق اللؤلؤة بداخل الصدفة وهي لينة القوام ولكنها تختلط

دائمًا في داخلها بمادة صلبة «بيوضة عقيم» أو بحبة من الرمل لتكون بمثابة النواة التي تترسب حولها عامًا بعد عام في طبقات رقيقة كروية.

فقال كونسایل:

- هل يمكن أن يوجد عدد من اللؤلؤ في محارة واحدة؟

- نعم. وقد قيل إنه وجد في إحدى المحارات مائة وخمسون نمرًا بحريًا وإن كنت لا أصدق هذا.

فصاح نيد لاند:

- نمرًا بحريًا!..

فهتفت قائلاً بسرعة:

- هل قلت نمرًا بحريًا؟ أعني مائة وخمسين حبة لؤلؤ. أما النمرور البحرية فكلام فارغ.

وقال كونسایل:

- نعم. ولكن هل يذكر لنا سيدي الآن كيف يستخرجون اللؤلؤ؟

- إنهم يفعلون هذا بوسائل مختلفة.. وفي أحيان كثيرة ينتزع الغواصون اللؤلؤ الملتصق بالمحار بواسطة الملاقط. ولكن الطريقة المتبعة عادة هي فرش المحار فوق حصير من العشب النامي على الشاطئ وبهذه الطريقة تموت المحارات في الهواء الطلق. وبعد عشرة أيام تكون قد تحللت بما فيه الكفاية فتوضع في مستودعات من مياه البحر. ثم تفتح وتغسل. وعندئذ يبدأ دور الفرازين المزدوج. فهم أولاً يفصلون مراقد اللؤلؤ المعروفة في الأسواق التجارية باسم الفضة

الصفافية «الصدف الأبيض والصدف الأسود» ثم يأخذون قلب المحارة ويغلوونها ويغربلونها لاستخلاص أصغر حبات اللؤلؤ.

فقال كونسايل:

- وهل تختلف أسعار اللؤلؤ باختلاف أحجامه..؟

- ليس باختلاف أحجامه فقط. بل كذلك باختلاف أشكاله وألوانه وتلألؤه. أعني ذلك التباين اللوني الذي يجعله خالبًا للنظر. وإن أجمل أنواع اللؤلؤ هو المعروف باسم «اللالئ العذراء» فهي الوحيدة المكونة من نسيج اللافقاريات. وهي بيضاء، وأحيانًا غير شفافة. ولكنها في أحيان أخرى تكون لها شفافية جواهر عين القط «أحجار متعددة الألوان» وشكلها عادة كروي أو بيضاوي، فإذا كانت كروية صيغت منها الأساور. وإذا كانت بيضاوية فهي أقراط وعقود. وهي بسبب ارتفاع ثمنها تباع بالحبة الواحدة. أما اللالئ التي تلتصق بجدران الأصداف، فهي أكثر الأنواع شذوذًا أو عدم انتظام في الشكل، وتباع بالوزن. ومن بين أردأ الأصناف النوع المعروف باسم بذور اللؤلؤ، وتباع بالمكيال، وتستخدم في وشي أستار الكنائس.

وقال نيد لاند:

- ولكن عملية فرز اللؤلؤ بالنسبة لحجمه عملية لا شك طويلة شاقة.

- لا. إنها تتم بواسطة سبعة غرابيل ذات عيون متفاوتة العدد...

فاللالئ التي تبقى في الغرابيل التي تكون عيونها من عشرين إلى مائة عين هي لالئ الدرجة الأولى واللالئ التي لا تسقط من غرابيل عيونها من

مائة إلى ثمانمائة عين لآلئ الدرجة الثانية. والآلئ التي تستخدم لفرزها غرابيل عيونها من ثمانمائة إلى ألف عين هي بذور الآلئ.

فقال كونسايل:

- هذه طريقة بارعة. وقد فهمت الآن أن فرز وتقسيم اللؤلؤ يتم بطريقة آلية. والآن هل يستطيع سيدي أن يخبرنا عن مقدار إنتاج شاطئ اللؤلؤ؟

- إذا كان علينا أن نصدق ما جاء في هذا الكتاب الذي كنت أقرأه الآن. فإن إنتاج مصائد اللؤلؤ في سيلان يبلغ ثلاثة ملايين «نمر بحري».

فقال كونسايل مصححًا:

- يقصد سيدي فرنك فرنسي.

- نعم. نعم. ثلاثة ملايين فرنك. ولكنني أعتقد أن إنتاج هذه المصائد قد هبط عما كان من قبل. وكذلك الحال في المصائد الأمريكية التي كان إنتاجها في عهد تشارلس الخامس يساوي أربعة ملايين فرنك في العام. ولكن هبط الآن إلى الثلثين. ويمكننا إجمالاً تقدير إنتاج مصائد اللؤلؤ في العالم بنحو تسعة ملايين فرنك سنوياً.

ولكن. ألم نسمع عن بعض الآلئ المشهورة التي قيل إنها بيعت بأثمان ضخمة.

- نعم يا بني. يقال إن قيصر أهدى سيرفيليا لؤلؤة تساوي أربعة آلاف وثمانمائة جنيه.

وقال نيد لاند:

- لقد سمعت أن سيدة في العصور القديمة كانت تشرب اللؤلؤ مع الخمرة.

فتساءل كونسايل:

- أهي كليوباترا؟

فقال نيد لاند:

- لا شك أنه شيء كريه.

فقال كونسايل:

- لكنه كان كاسًا يساوي ستين ألف جنيه.

فقال نيد لاند وهو يحرك ذراعيه بطريقة تعوزها الثقة في النفس:

- إنني آسف لأنني لم أتزوج تلك السيدة.

فهتف كونسايل:

- نيد لاند... زوج كليوباترا..

فأجاب نيد لاند بلهجة جادة:

- لقد كنت يومًا على وشك الزواج يا كونسايل. ولم أكن أنا السبب

في فشل مشروع الزواج بل إنني اشتريت عقدًا من اللؤلؤ لفتاتي كيت

تندر، ولكنها رغم ذلك تزوجت شخصًا آخر. لا بأس أن ذلك العقد لم

يكلفني على كل حال أكثر من دولار ونصف. مع هذا أرجو أن تصدقني

يا بروفيسور إذا قلت إن حبات هذا العقد ما كانت لتنفذ من غربال ذي

عشرين عينًا.

فقلت ضاحكًا:

- هذه حبات من اللؤلؤ الصناعي يا نيد... إنها مجرد حبات زجاجية
مطلية من الداخل بمادة زيتية شرقية.

فقال الكندي:

- لا شك أن هذه المادة غالية الثمن.

- بل زهيدة. إنها المادة الفضية المستخرجة من قشور السمك
البياض بعد نزعها في الماء وحفظها في محلول النشادر. إنها زهيدة
القيمة جدًا.

فقال نيد لاند متفلسفًا:

- لعل هذا إذن سبب زواج كيت تندر بشخص غيري.

فقلت:

- إذا عدنا إلى الحديث عن اللآلئ الثمينة. فلا أعتقد أن هناك ملكًا
لديه لؤلؤة كالتی يملكها الربان نيمو.

فأشار كونسايل إلى جوهرة فاخرة في خزانها الزجاجية وقال:

- أتعني هذه...؟

- بالتأكيد. لست مغاليًا إذا قلت إنها تساوي مليوني...

فأسرع كونسايل يقول:

- فرنك.

فقلت:

- نعم. مليوني فرنك.. وأعتقد أنها لم تكلف الربان أكثر من عملية التقاطها.

فهتف نيد لاند قائلاً:

- آه.. من يدري أننا لن نلتقي غدًا بأخت لها أثناء رحلتنا.

فلما أبدى كونسایل شكه قال نيد لاند:

- ولم لا؟

- لأنه ما قيمة الملايين لنا ونحن في الغواصة!

فقال نيد لاند:

- في الغواصة؟ لا بل في مكان آخر.

فقال كونسایل هازًا رأسه:

- في مكان آخر!

فقلت:

- إن نيد لاند مصيب في الواقع، فإذا أتيح لنا أن نأخذ معنا إلى أوروبا

أو أمريكا لؤلؤة تساوي الملايين فإنها على الأقل تضيف طابع الصدق

على مغامرتنا هذه وتسبغ عليها قيمة أخرى.

فقال نيد لاند:

- وهذا هو رأيي أيضًا.

فقال كونسایل الذي يميل دائمًا إلى الجانب الثقافي:

- وهل ينطوي الغوص وطلب اللآلئ على الخطر؟

فقلت:

- لا . لا سيما إذا اتخذت احتياطات معينة.

فقال نيد لاند:

- ما هو الخطر المحتمل؟ إنه لا يعدو أن يكون ابتلاع حفنة من الماء
المالح.

فقلت وأنا أقلد الربان نيمو في صوته المستهتر:

- أنت على حق يا نيد لاند... وبهذه المناسبة.. هل تخاف نمور
البحر يا نيد؟

فقال الكندي:

- أنا. أنا الذي أحترف صيد الحيتان؛ إن مهنتي هي السخرية منها.
- ولكن.. لن يكون الصيد هذه المرة بالحرايب أو أخذها إلى سطح
السفينة لتقطيع ذيولها بالشواطير وفتح بطونها وانتزاع قلوبها ثم إلقاء
بقاياها إلى البحر.

- هل تعني إذن....

- نعم. تمامًا.

- في الماء؟

- نعم في الماء.

- يا للسماء.. إنك تعرف يا سيدي أن لهذه الوحوش تصرفات غريبة
وأحاييل خادعة.. ولا بد لها أن تنقلب على بطنها لكي تقضمك.

والواقع أن الكندي فاه بكلمة القضم هذه بلهجة جعلت الدماء
تجمد في عروقي. ثم قلت:

- حسنًا... وأنت يا كونسایل ما رأيك في نمور البحر؟

- أنا سأكلم سيدي بصراحة.

فقلت لنفسي: «إذن هناك أمل في عدم اشتراكي في هذه الرحلة».

وأردف كونسایل قائلاً:

- إذا كان سيدي ينوي مهاجمة هذا الوحش فأنا لا أرى سبباً يمنع

خادمه من مواجهتها معه.



الفصل السابع والعشرون

لؤلؤة تساوي عشرة ملايين

ولما أسدل الليل أستاره. أويت إلى فراشي واستغرقت في نوم غير مريح. فقد لعبت نمور البحر في أحلامي دوراً رئيسياً ولا سيما أن عبارتي «نمور البحر» و«صلاة الجناز» كان اشتقاقها في اللغة الفرنسية من أصل واحد.

وفي اليوم التالي أيقظني الخادم الذي خصصه لي الربان نيمو في الساعة الرابعة صباحاً. فنهضت مسرعاً. وارتديت ملابسني. وذهبت إلى الصالون حيث وجدت الربان نيمو في انتظاري وقد قال لي:

- هل أنت على استعداد يا ميسيو أروناكس؟

- نعم.

- تفضل إذن واتبعني.

- وصاحبائي يا كابتن.

- إنهما في انتظارنا.

- هل سنرتدي ملابس الغوص؟

- ليس الآن. إنني لم آمر بعد باقتراب الغواصة من الشاطئ، وما زالت هناك مسافة بيننا وبين شاطئ مانار. ولكنني أمرت بأن يكون قارب الغواصة على استعداد. وسيمضي بنا إلى المكان المحدد لهبوطنا وبذلك نوفر مسافة طويلة وستكون ملابس الغوص معدة على سطحه لكي نرتديها بمجرد البدء في رحلتنا تحت سطح الماء.

وصحبني الربان نيمو إلى السلم المركزي المؤدي إلى سطح الغواصة. وهناك رأيت نيد لاند وكونسايل مبتهجين للرحلة المنتظرة التي يعدون لها العدة. وكان خمسة من بحارة الغواصة ينتظروننا في القارب الذي كان مشدودًا إلى جانب الغواصة. وقد أمسكوا بالمجاديف.

وكان الليل لم يزل مظلمًا. والسحب الملبدة تغطي وجه السماء فلا يكاد يبدو نجم واحد. ونظرت شطر اليابسة، فلم أبصر غير خط مبهم يضم ثلاثة أرباع الأفق من الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي. وكانت الغواصة قد اجتازت أثناء الليل الشاطئ الغربي لجزيرة سيلان وأصبحت الآن غربي الخليج المكون من الأرض ومن جزيرة مانار.

وهناك.. تحت المياه القاتمة، يمتد شاطئ المحار.. وهو حقل من اللؤلؤ لا ينضب له معين يزيد طوله على عشرين ميلًا.

واتخذنا «الربان نيمو وكونسايل ونيد لاند وأنا» أماكننا في القارب الذي لم يلبث أن تحرك بنا واتجهنا جنوبًا. وكان البحارة يجدفون في غير تعجل. فقد لاحظت أن ضرباتهم القوية كانت تتوالى كل عشر ثوان طبقًا للمتبّع في البحرية وخيّم الصمت علينا. ترى فيم كان الربان نيمو يفكر؟ لعله كان يفكر في اليابسة التي كنا نقرب منها، والتي وجدها جد قريبة.

بعكس نيد لاند الذي كان يراها أبعد ما تكون.

وفي الساعة السادسة وضح فجأة نور الصباح بتلك السرعة التي تتميز بها المناطق الاستوائية. وهي المناطق التي لا تعرف فجرًا ولا شفقًا. ورأيت اليابسة بوضوح وقد تناثرت فيه الأشجار هنا وهناك. حتى إذا دنا القارب من جزيرة مانار نهض الريان وراح يرقب سطح البحر.

وبإشارة منه ألقيت المرساة. ولم تهبط سوى مسافة يسيرة لأن القاع لم يكن ببعيد عن السطح بأكثر من ياردة. وكنا في أكثر المواضع ارتفاعًا في شاطئ المحار، وقال الريان نيمو:

- ها نحن الآن هنا أخيرًا يا مسيو أروناكس وفي خلال شهر ستكثر الزوارق في هذا المكان. وهذه المياه التي يقتحم الغواصون مجاهلها ببسالة. وموضع هذا الخليج ملائم كل الملاءمة لأغراض الصيد؛ فهو محجوب عن الرياح الهوج والبحر قلما يثور فيه. مما يجعله أصلح ما يكون لعمليات الصيد. والآن سنرتدي ملابس الغوص ثم نبدأ مهمتنا.

وشرعت في ارتداء ملابس الغوص الثقيلة بمعاونة البحارة. وكذلك فعل الريان نيمو وصاحباي. ولكن كان مقررًا ألا يصحبنا أحد من بحارة الغواصة.

وسرعان ما غدونا سجناء حتى الرقاب داخل الملابس المطاطية. ثم شدت أجهزة التنفس على ظهورنا ولم تكن بحاجة إلى أجهزة رومكروف للإضاءة. وقد سألت الريان نيمو عنها قبل أن أدخل رأسي في الخوذة النحاسية فقال:

- لن نكون بحاجة إليها. لأننا لن نغوص إلى أعماق بعيدة. وسوف تزودنا أشعة الشمس بما يكفي من الضوء. ثم إنه ليس من الحكمة أن نستخدم المصابيح الكهربائية داخل هذه المياه لأن ضوءها الساطع قد يجتذب بعض سكان هذه المنطقة الخطرين.

وفيما كان الربان نيمو ينطق بهذه الكلمات. التفت أنا إلى كونساييل ونيد لاند، فإذا هما قد أدخلتا رأسيهما في الخوذتين النحاسية. فلم يعد أحدهما يستطيع أن يسمع أو يجيب.

وكان ثمة سؤال أخير في جعبتي للربان نيمو فقلت:

- أين أسلحتنا؟ أين بنادقنا؟

- بنادقنا؟ لماذا؟ ألا يهاجم هواة الصيد في الجبال الدبية بالخناجر؟ أليس السلاح الصلب أضمن من الرصاص. هذا نصل قوي ضعه في حزامك. وسنبداً الآن.

ونظرت إلى صاحبي فوجدتهما مسلحين مثلنا بل رأيت نيد لاند يشحذ حربة كبيرة قد وضعها في القارب قبل أن يتعد عن الغواصة.

وحذوت حذو الربان. فتركت البحارة يضعون على رأسي الخوذة المعدنية الثقيلة وسرعان ما بدا مستودع الهواء في العمل. وعلى أثر ذلك هبطنا إلى عمق خمسة أقدام من الماء على أرض رملية صلبة. وأشار لنا الربان نيمو بيده فتبعناه سائرين على أرض منحدرية حتى اختفينا تحت الأمواج.

وعندئذ زالت عني الخواطر التي سبق أن أثارت القلق في نفسي،

وأحسست بهدوء عجيب وضاعفت سهولة حركتي من ثقتي في نفسي،
واستأثرت بلبي غرابة المناظر حولي.

وكانت الشمس حينئذ ترسل ضوءًا كافيًا تحت سطح الماء ومن ثم
كانت أقل الأشياء تبدو بوضوح؛ وبعد مسيرة عشر دقائق أصبحنا على
عمق ستة عشر قدمًا تحت سطح الماء. وفوق أرض مستوية تقريبًا.

وفي نحو الساعة السابعة وصلنا أخيرًا إلى شاطئ «النادين» حيث
يتوالد محار اللؤلؤ بالملايين. فإن هذه اللافقاريات الثمينة تلتصق
بالصخور حيث تشدها إليها بقوة أنسجة بنية اللون تمنعها من الحركة.
ومحارة هذا النوع تعتبر أدنى في ميزان الطبيعة من محارات «الماصل»
التي لم تحرمها الطبيعة من حرية الحركة.

أما «البنادين» المعروف باسم ميلياجرنيا. أو عرق اللؤلؤ. أو المحارة
ذات الغلافين المتساويين فهي صدفة مستديرة سميكة ذات سطح خشن.
وبعض هذه المحارات تكون مورقة ومميزة بشرائط خضراء تتألق في
أعلاها. وهذا النوع هو المحار الصغير. أما النوع الآخر الأسود ذو
السطح الخشن، فإنه يبلغ من العمر عشر سنوات أو أكثر ويبلغ طول
الواحدة منه نحو خمس بوصات.

وأشار الربان نيمو إلى هذا الموطن الغني بمحار اللؤلؤ فأدركت أنه
منجم لا ينضب له معين حقًا. ذلك لأن قوى الطبيعة الخلاقة أعظم من
غرائز الإنسان الهدامة. وقد أسرع نيد لاند وهو من أوفى الناس لغرائزه،
إلى ملء الشبكة التي كان يحملها إلى جانبه بأجود أنواع المحار.

ولم يكن في مقدورنا أن نتوقف - إذ كان علينا أن نتابع الربان الذي

بدا أنه يختار ممرات معروفة لديه. وبدأت الأرض ترتفع قليلاً وكنت أحياناً أرفع يدي فتخرج من سطح الماء. ثم عادت الأرض إلى الانحدار في غير انتظام، وكنا أحياناً ندور حول مجموعة من الصخور العالية على هيئة الأهرامات وفي بعض المناطق المظلمة كنا نرى السلاحف البحرية الكبيرة تتراجع على قوائمها الخلفية كأنها آلات حربية وتحقق إلينا بنظرات ثابتة. أما تحت أقدامنا فكانت تزحف الديدان البحرية وغيرها من عجائب الأحياء المائية.

وفي تلك اللحظة تفتّح أمامنا ما يشبه الكهف الواسع. وكان محفوراً بين أكوام من الصخور على صورة بديعة ومكسّوّاً بأعشاب البحر، وقد بدا لي هذا الكهف الواسع مظلماً في أول الأمر. وكانت أشعة الشمس تتلشى فيه تدريجياً حتى أصبح ضوءها الواضح غائماً.

ودخل الربان نيمو أولاً ثم تبعناه ولم ألبث أن اعتادت عيناى الرؤية في هذا الظلام النسبي، فرأيت أن أسقف هذا الكهف الضخم شديدة التعرج والالتواء. قامت على أعمدة طبيعية ترتكز على قواعد من الجرانيت كأعمدة فن المعمار التوسكاني. تُرى لماذا يقودنا الربان الغامض إلى أعماق هذا السرداب المائي. لا شك أنني سأعرف السبب وشيكاً.

وبعد أن هبطنا في منحدر شديد، وصلنا إلى قاع بئر مستديرة. وهناك توقف الربان نيمو وأشار إلى شيء لم نلاحظه من قبل.

كانت محارة ذات حجم هائل. وصدفة مغلقة ضخمة ثلاثية الشكل. أو حوض تعميد مقفل يحتوي على بحيرة من الماء المقدس. أو وعاء يزيد عرضه على ياردينين، وهو بذلك أكبر من الصدفة الموجودة في

صالون الغواصة.

واقتربت من هذه المحارة التي لا مثل لها. كانت ملتصقة بأنسجتها إلى صخرة جرانيتية. هنا كانت تنمو في عزلة داخل مياه هذا القبو الهادئ وقدرت وزن هذه المحارة الضخمة بنحو ٦٠٠ رطل، وهي في هذه الحالة تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثين رطلاً من اللحم. ولا تستطيع معدة وحش بحري هائل أن تهضم جزءاً منها.

وكان واضحاً أن الربان نيمو يعلم بوجود هذه المحارة الضخمة، وأن هذه لم تكن زيارته الأولى لها، وخطر لي أنه لم يصحبنا إلى هذا المكان إلا ليطلعنا على إحدى عجائب الطبيعة. ولكنني كنت مخطئاً فقد تبينت أن الربان نيمو لم يكن يهتم بالكهف المائي قدر اهتمامه بالمحارة الكبيرة.

كان غلافا المحارة نصف مفتوحين، فذهب الربان نيمو إليها ودس بينهما خنجره ليمنعها من الانطباق ثم رفع بيده كساءها الغشائي المحيط بها والذي يكون دثاراً كاملاً للمحارة.

ورأيت بين طبقاتها الداخلية لؤلؤة تبلغ في حجمها جوزة الهند. وكانت بشكلها البيضوي وتماص صفائها، وروعة لآلئها درة لا تقدر بثمن. ودفعني الفضول إلى مد يدي لكي أتناولها وأزنها وأتحسسها، ولكن الربان منعني بإشارة من يده، ثم جذب الخنجر بحركة سريعة جعلت الغلافين ينطبقان.

وأدركت عندئذ هدف الربان نيمو. فإنه يترك هذه المحارة اللؤلؤية في كسائها الطبيعي لكي تنمو في هدوء. ففي كل عام يزيد الإفراز ويضيف

طبقة جديدة عليها. ولا يعرف غير الربان نيمو سر هذا الكهف المائي وثمرته الطبيعية النادرة التي تنضج بهدوء. وهو وحده الذي يرعاها - إن صح هذا التعبير - لكي ينقلها يومًا إلى متحفه الفاخر. بل لعله يحذو حذو الهنود والصينيين، فيحدد حجم هذه المحارة بوضع قطع من الزجاج أو المعدن لكي تغلف بطبقات المادة اللؤلؤية تدريجيًا. وعلى أي حال فإنني إذا قارنت هذه اللؤلؤة بما أعرفه من طرازها وبما شاهدته متألفًا في مجموعة الربان نيمو، كان ثمنها لا يقل عن عشرة ملايين فرنك. فالواقع أنها إحدى عجائب الطبيعة الرائعة وليست مجرد جوهرة فاخرة للزينة. لأنني لا أعرف أذنًا نسائية يمكن أن تحتمل هذه اللؤلؤة.

وبعد أن فرغنا من زيارة هذه الأعجوبة الثمينة، غادر الربان نيمو الكهف البحري. وعدنا إلى شاطئ اللؤلؤ مرة أخرى حيث كانت المياه صافية لم تتعكر بعد بأعمال الغواصين والصيادين.

وسرنا فرادى.. نتوقف أو نسير حسبما يحلو لكل منا. وقد نسيت من ناحيتي كل المخاطر التي كان خيالي يجسمها بلاهة مني. وذلك عندما بدأ قاع البحر يقترب من السطح. ثم لم ألبث أن ارتفع رأسي فوق مستوى الماء. وانضم كونساييل إليّ. ثم وضع قناعه الزجاجي أمام قناعي وحياني بعينه. ولكن تلك الهضبة المرتفعة لم تزد على بضع ياردات طولًا. إذ سرعان ما عدنا إلى جوف الماء أو إلى موطننا المائي وفي ظني أنني محق في هذه التسمية.

وبعد عشر دقائق، توقف الربان نيمو فجأة. وخطر لي أنه يتوقف للراحة قبل البدء في طريق العودة. ولكنني أخطأت التقدير، كما أن

وقوفنا هذه المرة لم يكن له علاقة بوحش بحري بل بإنسان حي.. بهندي أسود.. غواص.. بائس.. جاء ولا شك لجني بعض المحصول قبل الموسم. ولمحت قاع زورقه راسياً على مسافة بضعة أقدام فوق رأسه. ورأيت يغوص ثم يطفو مرة بعد مرة وكان ثمة حجر منحوت على شكل «قمع السكر» بين قدميه مشدود إلى الزورق بحبل. وكان الحجر يعينه على الغوص بسهولة وكانت هذه كل أدواته للغوص. ورأيت حين وصل إلى القاع على عمق ست ياردات يركع على ركبتيه ويملاً الكيس بالمحار اللؤلؤي كيفما يكون. ثم يطفو ويفرغ الكيس في الزورق ويعيد وضع الحجر بين قدميه، ثم يكرر هذه العملية التي لا تكاد تستغرق نصف دقيقة.

ولم يبصرنا الغواص لأن ظل الصخرة حجبنا عنه، وفوق هذا كيف يتسنى لهندي مسكين أن يتصور وجود رجال أمثاله تحت سطح الماء يراقبون حركاته، ولا يغفلون عن شيء من عمله.

وصعد الرجل ثم غاص مرات عديدة ولم يكن يحصل في كل غطسة على أكثر من عشر محارات إذ كان مضطراً إلى انتزاعها من الشاطئ الذي شدت إليه بأنسجتها القوية. ترى كم واحدة من هذه المحارات التي يقامر من أجلها بحياته تحتوي على اللؤلؤ.

وجعلت أراقبه بانتباه شديد. فرأيت يقوم بالعمل في انتظام آلي. ولم يبد ثمة خطر يتهدهده مدى نصف ساعة حتى استهواني هذا المشهد الممتع لصيد اللؤلؤ. ولكنني لم ألبث أن فوجئت أثناء ركوع الصياد لجمع المحار برؤيته وهو يأتي بحركة تنم عن الفزع وما لبث أن نهض

ووثب للوصول إلى سطح الماء.

وأدركت سر خوفه حين رأيت ظلًا ضخماً يبدو فوق الغواص التعس. كان ظل نمر بحري هائل «قرش» يقترب متحفزاً بعينين كالنار، وبفكين مفتوحين، ووقفت لا أريم وقد انعقد لساني من فرط الرعب.

كان الوحش الرهيب يندفع بضربة من زعنفته نحو الهندي الذي ارتمى على جانبه متحاشياً أسنان النمر ولكن لم يستطع النجاة من ذيله الذي طرحه بضربة فوق صدره على الأرض.

لم يستغرق هذا المشهد سوى ثوان معدودات استدار النمر بعدها إلى تكرار الهجوم. ثم انقلب على ظهره استعداداً لقصم الغواص شطرين وإذ ذاك شعرت بالربان نيمو وكان قريباً مني ينهض فجأة والخنجر بيده ويتقدم رأساً إلى الوحش للالتحام معه وجهًا لوجه.

وفي اللحظة التي أوشك النمر فيها أن يقصم الغواص المسكين لمح ذلك الغريم الجديد فاسترد وضعه الطبيعي، واتجه نحوه سريعاً.

وما زلت حتى اليوم أذكر صورة الربان نيمو في تلك اللحظة الحاسمة.. كان واقفاً في شموخ وبرود ينتظر النمر المهاجم. فلما اندفع إليه راغ الربان بخفة رائعة متفادياً الصدمة. ثم طعن بطن الوحش بخنجره. ولم تكن هذه هي النهاية لأن معركة مروعة دارت على الأثر. لقد اضطرم النمر غضباً إن صح هذا التعبير وتدفقت الدماء كالينابيع من جراحه فصبغت البحر باللون الأحمر. ولم أستطع في ذلك السائل المعتم أن أرى شيئاً حتى صفا لونه قليلاً. وعندئذ أبصرت الربان الباسل ممسكاً بإحدى زعانف النمر البحري وهو يصصره بقوة ويمزق جسمه

بطعنات من خنجره. دون أن يستطيع الوصول إلى قلبه حيث تكون الطعنات قاتلة. وكان الوحش في صراعه قد أثار دوامات من الماء حتى لقد خشيت أن تلقي بي على الأرض.

وأردت أن أخف لنجاة الربان. ولكنني وجدت نفسي مسمراً في مكاني لفرط الفزع.

وأخذت أراقب المشهد بنظرات زائغة. ولم ألبث أن رأيت وجه المعركة يتغير عندما وقع الربان على الأرض بسبب عنف حركات الوحش الضخم النائر. ثم إذا الأشداق الرهيبة تفتح وخُيِّل إليّ أن الربان قد انتهى لولا سرعة بديهة نيد لاند الذي اندفع إلى الوحش والحربة في يده. قطعنه بسنه الفتاك وسرعان ما اصطبغت الأمواج بالدماء، واصطخبت تحت ضربات الوحش الذي كان يلطمها في هياج يجل عن الوصف. ولم يخطئ نيد لاند إصابة الهدف فكانت ضربته هي القاضية، ذلك أن الإصابة جاءت هذه المرة في القلب وجعلت حركات الوحش أقرب إلى تقلصات الموت. ومع ذلك فقد أَلْقَتْ حركة منها بكونسايل على الأرض.

هكذا أنقذ نيد لاند الربان الذي نهض سالمًا وأسرع إلى الغواص الهندي فقطع بسرعة بالغة الحبال التي تربطه بالحجر وحمله بين ذراعيه واندفع إلى سطح الماء ونحن الثلاثة في إثره بعد أن نجونا بمعجزة، ثم وصلنا إلى زورق الغواص.

وركز الربان نيمو عنايته أولاً لإعادة الغواص البائس إلى الحياة. ولم أستطع أن أعرف هل سينجح في محاولته، ولكنني كنت أرجو هذا، لأن

الرجل لم يمكث تحت سطح الماء فترة طويلة. ولكن كان يحتمل أن تكون الضربة التي أصابته من ذيل الوحش قد قضت عليه - ومن حسن الحظ أنني رأيت الغريق يسترد وعيه بفضل تدليك الربان وكونسايل له بقوة. ففتح عينيه. وشد ما كان عجبه بل فزعه وهو يرى هذه الرؤوس النحاسية الأربعة منحنية فوقه. ولا شك أن إحساسه هذا قد تضاعف عندما تناول الربان نيمو من جيبه كيسًا من اللآلئ ووضعها في يد الرجل. وقُبِلَتْ هذه الهدية الرائعة المقدمة من ملك البحر لرجل فقير من سكان سيلان بيد مرتعدة. وكانت نظراته الخائفة تدل على أنه لا يعرف إلى أي نوع من الكائنات البشرية السامية هو مدين بحياته وثرائه.

وعدنا بإشارة من الربان إلى شاطئ اللؤلؤ. ومنه سرنا في نفس الطريق عائدين إلى قاربنا فوصلنا إليه في نصف ساعة.

وما إن صعدنا إليه حتى ساعدنا بحارة الغواصة الخمسة على خلع ملابس الغوص. وكانت أول كلمات الربان نيمو موجهة إلى نيد لاند. إذ قال له:

- شكرًا يا لاند...

- هذه هي طريقي في الاعتراف بالجميل وكنت مدينًا لك يا كابتن.

فارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الربان. ولم يزد عن قوله:

- إلى الغواصة.

وطار الزورق على سطح الماء. وبعد دقائق صادفنا جثة نمر البحر طافية فوق الماء.

وعرفت من اللون الأسود الذي يبدو في أطراف زعانفه أنه من نوع
نمور البحر الوحشية المعروفة في البحار الهندية باسم «ميلانوتر» ويبلغ
طول هذا النوع أكثر من خمسة وعشرين قدمًا. ويحتل فمه الضخم نحو
ثلث جسمه. وكان هذا النمر بالغًا. يدل على ذلك صفوف أسنانه الستة
الناتبة في شدقه الأعلى على هيئة مثلث متساوي الأضلاع.

وفيما أنا أتأمل هذه الكتلة الجامدة إذا بنحو عشرة من زملائه تظهر
فجأة حول الزورق ولكنها لم تحفل بنا. وإنما انقضت على جثة زميلها
وأخذت تتسابق في نهشها.

وعدنا إلى الغواصة في الساعة الثامنة والنصف صباحًا.

وهناك جعلت أفكر في أحداث رحلتنا هذه إلى شاطئ مانار. وكان
طبيعياً أن ينتهي تفكيري إلى ملاحظتين. الأولى بسالة الربان نيمو الفائقة
والثانية مخاطرته بحياته لإنقاذ حياة رجل آخر.. رجل يمثل الجنس
البشري الذي يهرب الربان منه في أعماق البحار. ومهما يكن دفاعه عن
نفسه فإنه لم يستطع أن يقتل قلبه تمامًا.

ولما عبرت له عن رأيي هذا أجابني في صوت لم يخل من تأثر يسير:

- إن هذا الهندي يا بروفيسور أحد سكان بلاد مضطهدة وقد كنت
وسأظل حتى آخر لحظة من حياتي واحدًا من هؤلاء المضطهدين.



الفصل الثامن والعشرون

البحر الأحمر

اختفت جزيرة سيلان وراء الأفق خلال هذا اليوم. وظلت الغواصة نوتيليوس تنساب بسرعة عشرين ميلاً في الساعة بين شبكة القنوات التي تفصل بين جزائر مالديث وجزائر لاكسادفيد.

وعندما صعدت الغواصة إلى سطح المحيط في اليوم التالي، وكان يوافق الثلاثين من شهر يناير، لم يكن ثمة أثر لليابسة على مدى البصر. وكانت وجهتها شطر الشمال الغربي إلى بحر عمان الواقع بين بلاد العرب وشبه الجزيرة الهندية وفيه ينساب تيار الخليج الفارسي.

وكان واضحاً أن هذا البحر بلا مخرج من الناحية الأخرى. فإلى أين يمضي بنا الربان نيمو؟ لم أستطع أن أعرف. وغلب الفضول على نيد لاند فسألني في ذلك اليوم عن وجهتنا فقلت له:

- إننا نمضي إلى حيث يشاء الربان يا نيد.

- لن نذهب بعيداً. فليس للخليج الفارسي مخرج من الناحية الأخرى إذا دخلنا فلن نلبث أن نعود منه..

- حسنًا. لا بد من هذا يا نيد لاند. وإذا أراد الربان بعد زيارتنا للخليج الفارسي، أن نطرق البحر الأحمر، فهناك مضائق باب المندب نجتازها إليه.

فقال نيد لاند:

- لست بحاجة إلى القول يا سيدي أن البحر الأحمر مغلق كالخليج. لأن قناة السويس لم يتم حفرها بعد وحتى لو تم ذلك فإن غواصة عجيبة كهذه لا تستطيع أن تغامر في هذه الممرات المائية الممتلئة بالسدود؛ وإذن فإن البحر الأحمر ليس حتى اليوم هو الطريق إلى أوروبا.

- لم أقل إننا نقصد أوروبا.

- إذن ما هو رأيك؟

- رأيي أن الغواصة بعد زيارتها لشواطئ مصر وبلاد العرب ستعود مرة أخرى إلى المحيط الهندي إما عن طريق قناة موزمبيق أو عن طريق جزائر كومورومكي حيث تصل إلى رأس الرجاء الصالح.

فقال نيد لاند في إصرار عجيب:

- وماذا بعد رأس الرجاء الصالح؟

- حسنًا. سنمضي بعدئذ إلى المحيط الأطلنطي الذي لم نتعرف عليه بعد. عجبًا لك يا نيد. هل سئمت هذه الرحلة تحت الماء؟ هل ضقت بكثرة ما رأيت من عجائب الأعماق؟ أنا شخصيًا سيكون أسفي لا حد له إذا انتهت هذه الرحلة التي لم يستمتع بمثلها إلا القليل.

- ولكن.. هل تعرف يا مسيو أروناكس أننا ستم قريبًا ثلاثة أشهر

ونحن سجناء في هذه الغواصة!

- لا يا نيد. لا أعرف. ولا أريد أن أعرف. أنا لا أحصي الأيام أو الساعات.

- ولكن.. كيف ستنتهي هذه الرحلة؟

- ستأتي النهاية في وقتها المناسب. وفوق هذا فليس في مقدورنا أن نفعل شيئاً. وإذن فلا جدوى من هذا الجدل، ولو أنك جئتني وقلت لي: «هناك فرصة للهرب» لتشاورت معك في الأمر. ولكن هذا لم يحدث وإن شئت الحقيقة، فلست أعتقد أن الربان نيمو سيغامر يوماً بدخول البحار الأوروبية.

وتبين من هذا الحوار القصير أنني أصبحت شديد التعلق بالغواصة مثل صاحبها الربان نيمو.

أما نيد فقد اختتم المحادثة بهذه الكلمات التي فاه بها كأنما يحدث نفسه:

- كل هذا حسن جداً. ولكنني أرى أنه حيث تبدأ المتاعب تنتهي المباهج...

وظلت الغواصة أربعة أيام. حتى الثالث من شهر فبراير وهي تمضي في خليج عمان في أعماق مختلفة وبسرعة متفاوتة. وكان يبدو أنها تمضي على غير هدى وكأنما هي تتردد في اختيار الطريق الذي تسلكه ولكنها لم تتجاوز أبداً مدار السرطان.

وعند مغادرتنا لبحر عمان، رأينا في لمحة سريعة مدينة مسقط،

وهي أهم المدن في إمارة عمان، وقد أعجبت بوضعها القريب بين الجبال الصخرية السوداء أو المحيطة بها والتي تزيد من مضاعفة بياض منازلها وقلاعها. ولمحت القباب المستديرة لمساجدها والمآذن الرشيقة والهضاب الخضراء النظرة ولكنها كانت لمحة عابرة غاصت بعدها نوتيلوس تحت مياه شواطئها الهادئة.

ودارت الغواصة على مسافة ستة أميال حول الشواطئ العربية حيث رأينا سلطنة حضرموت بسلسلة جبالها المتعرجة وأبنيتها الأثرية. وفي اليوم الخامس من فبراير دخلنا أخيراً خليج عدن وهو كنق مستقيم في عنق زجاجة باب المندب تتدفق منه مياه المحيط الهندي إلى البحر الأحمر.

وفي اليوم السادس من شهر فبراير كانت الغواصة تسير على مرمى البصر من مدينة عدن التي تربض على مرتفع مثل جبل طارق. وكان الإنجليز قد أعادوا تحصينها بعد استيلائهم عليها عام ١٨٣٩. وقد استطعت أن ألح المآذن العظيمة المثلثة الزوايا في هذه المدينة التي كانت من قبل أوفر المدن التجارية ثراء على هذا الشاطئ طبقاً لما أورده الإدريسي المؤرخ.

وكان قد دار بذهني أن الربان نيمو حين يصل إلى هذه النقطة سيقفل عائداً ولكنني أخطأت الظن فإنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل؛ مما أثار دهشتي.

وفي اليوم التالي السابع من شهر فبراير دخلنا مضيق باب المندب ومعناه «بوابة الدموع» باللغة العربية. ويبلغ اتساع المضيق عشرين ميلاً.

وطوله ثلاثين ميلاً فقط أي أن الغواصة تستطيع بأقصى سرعتها أن تقطعه في ساعة واحدة. ولكنني لم أتمكن من رؤية اليابسة ولا جزيرة بريم أيضاً التي استغلتها الحكومة الإنجليزية في تحصين موقع عدن. فقد كانت السفن الإنجليزية والفرنسية التي تبحر بين السويس وكلكتا وبومباي وملبورن وبوربون ومورميوس، تشق طريقها بكثرة في هذه المضائق وهكذا لم تجسر الغواصة على الظهور فوق سطح الماء بل آثرت جانب الحكمة وبقيت على عمق مناسب وأخيراً كنا نمخر عباب البحر الأحمر ظهراً.

إنه البحر الأحمر أو البحيرة المشهورة في الأقاليم الدينية، الذي قلما تهطل عليه الأمطار أو يرويه نهر كبير بل يتعرض لعوامل التبخر المائي بلا انقطاع. بحث يفقد في كل عام طبقة مائية قدرها نحو ياردة ونصف ياردة. إنه خليج فريد من نوعه لو أغلقت منافذه لأصبح بحيرة لا يلبث ماؤها أن يجف على مر السنين، وهو من هذه الناحية أقل من الخلجان القريبة منه التي يتوازن نسبة تبخيرها مع نسبة المياه التي تصب فيها مثل بحر قزوين.

ويبلغ طول البحر الأحمر ستمائة كيلو متر فقط وعرضه ٢٤٠ كيلو متر. وقد كان في عهد البطالسة وأباطرة الرومان من أعظم شرايين التجارة في العالم وسيعيد إليه حفر قناة السويس مجده القديم وإن لم أحاول معرفة السبب الذي حدا بالربان نيمو لاجتياز هذا البحر. ولكنني كنت في قرارة نفسي راضياً عن دخول الغواصة فيه. وكانت تناسب بسرعة معتدلة، أحياناً فوق السطح، وأحياناً في الأعماق لاجتناب السفن،

وهكذا أتيح لي رؤية هذا البحر باطنًا وظاهرًا.

وفي فجر اليوم الثاني من شهر فبراير، لاحت مدينة «مُخا» وهي الآن خرائب أثرية تتهاوى جدرانها حتى بتأثير دوي الدافع، ولكن أشجار النخيل كانت تبدو هنا وهناك بين خرائبها وكانت من قبل مدينة مهمة، بها ستة أسواق عامة، و ٢٦ مسجدًا، و ١٤ قلعة كانت جدرانها تكوّن حزامًا بديعًا طوله ثلاثة كيلومترات.

واقتربت الغواصة عندئذ من الشاطئ الأفريقي الذي يزداد في عمق البحر، وأتيح لنا في هذه المياه التي تبدو في صفاء البللور، أن نتأمل من النوافذ الزجاجية الغابات المرجانية اللاألاء والصخور الضخمة المكسوة بفراء فاخر من الطحالب وأعشاب البحر.

يا لتلك المشاهد التي تجل عن الوصف، ويا لتنوع المعالم والجزائر البركانية والحواجز المرجانية في هذه الشواطئ الأفريقية، ولكن أبهى أنواع المتحجرات المائية كانت تبدو على الشواطئ الشرقية، وأعني بها شواطئ تهامة حيث تزدهر الأعشاب البحرية وتبدو كالشرفات الواسعة تحت سطح الماء، وكالضفاف الجميلة الفاتنة التي ترتفع فوق السطح بنحو عشرين ياردة، وهي وإن كانت بديعة إلا أنها ليست في بهاء الألوان التي تحفظ المياه رونقها ونضارتها تحت السطح.

إنها لساعات رائعة تلك التي أمضيته أمام النوافذ البللورية في الصالون. وإنها لأنواع جديدة عجيبة من الحيوانات والنباتات المائية تلك التي بهرت أنظاري في ضوء مصباحنا الكهربائي المتألق، وقد رأيت بينها ألوانًا من الفطريات والطحالب والقواقع التي تشبه المزامير،

وكانما هي في انتظار أنفاس الآلهة لترنم، ولا فقاريات غريبة عن هذا البحر تستقر في تجاويف محاريه، تتحول قواعدها مع الزمن إلى أشكال حلزونية، وأخيرًا آلاف الأنواع من الشعبيات المائية التي لم أر مثلها من قبل وأعني بها: الإسفنج العادي.

إن مرتبة الإسفنجيات، وهي المجموعة الأولى من الشعبيات تتكون على وجه التحديد من هذا النتاج العجيب الذي لا جدال في منافعه، وأعني به الإسفنج، ليس من فصيلة النبات كما لا يزال يعتقد بعض العلماء وإنما هو حيوان من أدنى المراتب.. أقل مرتبة من الدويبات التي تتكون منها الشعب المرجانية، وليس هناك شك في حيوانيته، ويمكننا أن نعترف برأي القدماء الذين كانوا ينظرون إليه على أن مرتبته بين النبات والحيوان. ويجدر بي على كل حال - أن أقول إن علماء الطبيعة لم يتفقا بعد على طبيعة تكوين الإسفنج، فهو في نظر البعض من الشعبيات، وفي نظر البعض الآخر كالعالم «ميلين أواردز» حيوان مفرد فريد في طبيعته.

وتحتوي مرتبة الإسفنجيات على ثلاثمائة نوع، موزعة على مختلف البحار وبعض الأنهار التي تسمى فيها باسم «سليات»، ولكن المياه التي تفصلها عن غيرها هي مياه البحر الأبيض المتوسط وأرخبيل اليونان وسواحل سوريا ومياه البحر الأحمر. وتنتج هذه المناطق الإسفنج الناعم الرقيق الذي يساوي الرطل منه أحيانًا خمسة جنيهات، والإسفنج الأشقر السوري والإسفنج الصلب الخشن.. ولما لم يكن في مقدوري أن أدرس هذه الإسفنجيات في سواحل البحر الأبيض التي يفصلنا عنها برزخ السويس، فقد قنعت بملاحظاتها في البحر الأحمر.

ومن ثم فقد استدعيت كونسایل حين كانت الغواصة تسير في بطن تجاه الساحل الشرقي ذي الصخور الجميلة على عمق يناهز عشر ياردات.

هنا رأيت الإسفنج نامياً في مختلف الأشكال.. فهو حيناً في شكل الحشرات أو الزهور وحيناً في أشكال كروية أو أصبعية. ومن ثم تنطبق عليها هذه الأسماء، السلة، الكأس، المغزل، قرن الوعل، مخلب السبع، ذيل الطاووس، قفاز نبتون، وهذه الأسماء يطلقها الغواصون الأكثر شاعرية من العلماء. وكانت تنساب في غير انقطاع من بين أنسجتها الليفية المكسوة بمادة نصف هلامية، خيوط مائية هي التي تحمل الغذاء والحياة إلى كل خلية، ثم تترد إلى الخارج بفعل الحركات الانقباضية في الإسفنج.

وتختفي المادة الداخلية بعد موت الدويبات المكونة للإسفنج، وذلك بعد أن تتعفن وتتحول إلى أملاح النوشادر. ولا يتبقى بعد هذا إلا الأنسجة الليفية الهلامية المركبة من الإسفنج العادي الذي يصبح مائلاً للاحمرار، والذي يستخدم في مختلف الأغراض طبقاً لدرجة مرونته، وطرأوته أو مقاومته للتعفن.

هذه الشعبيات الدقيقة تلتصق بالصخور أو بمحار اللافقاريات بل وفي سيقان النباتات المائية، وهي تنمو بأقل كمية من الغذاء، وبعضها يتشعب وينتشر وبعضها ينمو في وضع أفقي وبعضها الآخر يتدلى كالزوائد المرجانية. وقد أخبرت كونسایل أن هذه الإسفنجيات تؤخذ بطريقتين: إما بالخطاطيف أو بالأيدي وأفضلهما الطريقة الثانية التي

تستلزم استخدام الغواصين لأنها تتيح للغواص حرية اختيار أنضج وأنقى أنواع الإسفنج.

أما الشعبيات والدوبيات الأخرى التي تتكاثر حول الإسفنج فتكون على الأرجح من لافقاريات تمتاز بالمرونة ومن زواحف مائية كان بعضها يزودنا بصحاف من الطعام الشهي.

أما عن الأسماك فهي كثيرة، وبعضها ممتاز جدًا. وكانت الأسماك التي جاءتنا بها شباك الغواصة يتكون أكثرها من نوع السفن ذي اللون الطوبي والشكل البيضاوي والجسم المرقط بالنقط الزرقاء، والتي تعرف بأسنانها الشائكة المزدوجة. ومن أسماك الكارناك ذات الأظھر النصفية والباستنك ذات الذیول المرقطة والبوكات التي يبلغ طولها ياردتان، والأیوون الخالية تمامًا من الأسنان وهي ذات قوام غضروفي مثل سمك كلب البحر، وسمك الهجين الصدفي الذي ينتهي سنامه بانحناءة طولها قدم ونصف قدم، وطحابين الماء على أنواع مختلفة، منها الفضی الذیل، والأزرق الظهر، والبنی الصدر بأطراف رمادية. وأسماك الفراتول وهي من أنواع لاستروماتیا المقلمة بخطوط ذهبية ضيقة. والمزينة بألوان العلم الفرنسي الثلاث الأبيض والأحمر والأسود. وأسماك الكرانكس الفاخرة المحلاة كل منها بسبع شرائط زرقاء قاتمة مستعرضة وزعانف ذهبية وزرقاء وقشور في لون الفضة أو الذهب، والبربوني ذي الرأس الأصفر وآلاف غيرها من أنواع السمك المعروفة في البحار التي سبق أن خضناها.

وفي اليوم التاسع من شهر فبراير كانت الغواصة تبحر في المنطقة

الواسعة من البحر الأحمر الواقعة بين سواكن على الساحل الغربي وجيئونفوده على الساحل الشرقي وهي منطقة يبلغ اتساعها مائة وتسعين ميلاً.

وفي ظهر ذلك اليوم وبعد تحديد موقع الغواصة، صعد الربان إلى السطح حيث تصادف وجودي، وقد آليت على نفسي ألا أدعه يهبط دون أن أحاول معرفة أهدافه المقبلة على الأقل. وما إن أبصرني حتى تقدم نحوي، وقدم لي سيجارة وهو يقول:

- حسناً يا بروفيسور. هل أعجبك البحر الأحمر؟ هل دقت النظر إلى ما يحتويه من عجائب أسماكه وقواقعه، ومرافد الإسفنج فيه، وغاباته المرجانية وهل رأيت مدنه الساحلية؟

- نعم يا كابتن. وقد ساعدتني الغواصة كثيراً في دراستي. آه... إنها سفينة علمية..

- أجل.. سفينة علمية.. عاقلة.. بأسلة.. لا تهاب عواصف البحر الأحمر المخيفة، ولا تياراته العنيفة ولا حواجزه المرجانية.

- الواقع أن هذا البحر من أسوأ البحار في تقلباته، كانت له على مدار التاريخ إذا لم أكن مخطئاً شهرة بغیضة.

- بغیضة يا مسيو أرونالكس؟ إن المؤرخين الإغريق لم يختصوه بالثناء حقاً، وقد قال عنه سترابور إنه بحر عنيف خصوصاً الرياح الموسمية والأمطار الغزيرة. ويذكر لنا الإدريسي المؤرخ العربي الذي أطلق عليه اسم بحر القلزم، أن السفن كانت تهلك زرافات على شواطئه

الرملية، وأن أحداً لم يكن يجروء على الإبحار فيه ليلاً. ويقول أيضاً إنه بحر معرض للعواصف الرهيبة ومفعم بالجزر الخطرة، وإن هذا كله يجعله بلا خير في أعماقه أو على سطحه. وتلك هي أيضاً آراء المؤرخين إريانوس وأجاتاركيدس وأرتميدراس.

فقلت:

- ولكن هؤلاء المؤرخين لم يشاهدوا هذا البحر من غواصة كهذه.

فقال الربان وهو يتبسم:

- نعم.. وفي هذا الشأن يتساوى المؤرخون العصريون مع القدماء. فقد مرت قرون عديدة قبل أن تكتشف الطاقة الآلية في البخار. فمن يدري أن مائة عام أخرى قد تمضي قبل أن يعرف العالم غواصة أخرى كهذه. إن تقدم العلم بطيء يا مسيو أروناكس.

- نعم. هذه هي حقيقة. فإن غواصتنا تسبق عصرها بقرن، وربما بعدة قرون. وإنه لمن أسوأ الأمور أن يموت سرها مع مخترعها.

فلم يجب الربان نيمو. ولكنه قال بعد فترة:

- أكنت تتحدث عن آراء قدامى المؤرخين بصدد مخاطر الملاحة

في البحر الأحمر؟

- نعم ولكن يا مسيو أروناكس. إن الخطر الذي لا يهدد الآن سفينة عصرية كاملة الإعداد قوية البناء متحكمة في الاتجاه بفضل طواعية البخار، كان يهدد السفن القديمة بألوان من المخاطر المهلكة. ويجدر بنا أن نتخيل الملاحين القدامى وهم يغامرون بسفائنهم المصنوعة من

ألواح خشبية مشدود بعضها إلى بعض بألياف النخيل، ومثبتة بالصمغ أو الراتنج، ومشحمة بدهن كلاب البحر. إنهم لم يكونوا مزودين حتى بالآلات الضرورية لتحديد أماكنهم كما كانوا يسرون مع التيارات التي لم يكونوا يعرفون عنها سوى القليل. وفي مثل ظروف كهذه لا بد أن تكثر حوادث غرق السفن. أما في وقتنا الحالي فإن السفن البخارية التي تبحر فيما بين السويس والبحار الجنوبية لا تخشى شيئاً من مخاطر هذا البحر رغم الرياح الموسمية العكسية، وربابنتها وركابها لا يستعدون للسفر عليها بتقديم القرايين كما كان الحال في الماضي ولم يعودوا بعد رجوعهم يتزينون بالأكاليل والأساور الذهبية وهم يقدمون صلاة الشكر في معابد الآلهة القريبة.

- أترف أن الآلة البخارية قتلت في قلوب الملاحين عاطفة عرفان الجميل. ولكن يمكنك يا كابتن - وقد درست هذا البحر كما يبدو لي - أن تخبرني بمنشأ هذه التسمية؟

- هناك عدة تفسيرات يا مسيو أروناكس. فهل تحب أن تعرف رأي أحد مؤرخي القرن الرابع عشر في هذا الصدد؟

- نعم.

- زعم ذلك المؤرخ الخيالي أن هذا الاسم أطلق على البحر الأحمر بعد هرب بني إسرائيل وغرق فرعون بين أمواجه.

ثم ردد الربان أربع شطرات شعرية تدعيماً لأقواله.

فقلت:

- هذا تفسير شاعري يا كابتن، ولن أقنع بهذا، ولا بد أن أطلب رأيك الشخصي.

- رأيي يا مسيو أروناكس أن البحر الأحمر ترجمة للكلمة العبرية «أدرم» وأن القدماء أطلقوا عليه هذا الاسم بسبب لون مائه الغريب.

- ولكني لا أرى الآن غير أمواج هادئة بلا ظلال لونية خاصة!

- بلا ريب، ولكن حين تتجه نحو الأعماق ستلاحظ ظاهرة غريبة. وأذكر مرة أنني رأيت خليج الطور قانيًا كالدماء.

- وهل ترجع السبب في هذا اللون إلى وجود جسيمات الألجيا الميكروسكوبية؟

- نعم... إنها مادة حمراء هلامية تنتج من جسيمات نباتية وثيقة معروفة باسم «تريكوديسمز» وأربعون ألفاً منها لا تشغل أكثر من ٣٩٣٧, ٠ جزء من البوصة المربعة وربما نلتقي ببعضها عند وصولنا إلى الطور.

- إذن فليست هذه أول مرة تجتاز فيها البحر الأحمر في الغواصة نوتيلوس؟

- كلا يا سيدي؟

- ما دمت قد تحدثت الآن من عبور الإسرائيليين للبحر وغرق فرعون وجيشه، فهل يمكن أن أعرف إن كنت وجدت آثاراً لهذا الحدث التاريخي تحت الماء؟

- لا يا بروفيسور، وذلك لسبب وجيه.

- أي سبب؟

- لأن الموضع الذي اجتازه النبي موسى بقومه ممتلئ الآن بالرمال بحيث لا يرتفع الماء إلى مستوى مواطئ أقدام الجمال، ومعنى هذا أن الغواصة لا تجد فيه كفايتها من الماء هناك.

- وأين هذا الموضع؟

- إنه يقع بعد السويس بقليل.. في ذلك الذراع الذي كان يكون هذا الخور العميق عندما كان البحر الأحمر متصلاً بالبحر الميت. وأياً كان الأمر فقد تم عبور بني إسرائيل فعلاً وهلاك جيش فرعون في نفس المكان، وأعتقد أنه لو تمت عمليات الحفر والتنقيب في ذلك الموضع لأمكن العثور على آلات وأسلحة من أصل مصري قديم.

فقلت:

- هذا محتمل. والمأمول لفائدة علماء الآثار أن تتم هذه الحفريات عاجلاً أو آجلاً عندما تقام المدن الجديدة على برزخ السويس بعد حفر قناته.. وهي قناة لن تكون ذات نفع للغواصة.

فراح الربان نيمو يقول:

- نعم. ولكنها ستكون عظمة النفع للعالم كله. وكان الناس في العهود القديمة قد فطنوا إلى الفوائد التي تعود على تجارتهم من وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض، ولكن لم يحلموا بإمكان حفر قناة مستقيمة بينهما وإنما اتخذوا نهر النيل واسطة لربطهما معاً، ويحتمل جداً أن تكون القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر قد بدأت عند مدينة سيزستريس. والمؤكد أن الملك نفوس تولى في عام ٦١٥ قبل الميلاد إنشاء قناة

تغذيها مياه النيل عبر الوادي المصري المواجه لبلاد العرب. وكان اجتياز القناة يتم في أربعة أيام وكان عرضها يكفي لمرور سفيتين كبيرتين جنباً إلى جنب. وقد استمر إنشاء القناة في عهد الملك داريوس وربما أتمها بطليموس الثاني، وقد رآها المؤرخ سترابو وهي تؤدي مهمتها في خدمة الملاحة البحرية، ولكن ضعف انحدارها من نقطة البدء بالقرب من مدينة بوباست إلى البحر الأحمر جعلها صالحة للملاحة بضعة شهور في العام فقط. وظلت هذه القناة بضعة قرون مستغلة لخدمة التجارة، ثم أهملت وامتألت بالرمال، ثم أعيد إنشاؤها بأمر الخليفة عمر، ثم تم ردمها عام ٧٦١ و ٧٦٢ بأمر الخليفة المنصور الذي أراد منع وصول المدد إلى محمد بن عبد الله الذي أعلن الثورة عليه. وقد عثر على آثار هذه القناة في صحراء السويس أثناء الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت الذي كاد يغرق ومن معه عندما فاجأه المد قبل وصوله بساعات قليلة إلى مدينة حضر موت. أي نفس المكان الذي عسكر فيه النبي موسى قبل ٣٣٠٠ عام.

- حسنًا يا كابتن. إن ما لم يجرؤ عليه القدماء من ربط البحرين واختصار المسافة آلاف الأميال بين قاوش وجزر الهند الشرقية - قد اضطلع به المحدثون ولن يمضي زمن طويل حتى تصبح القارة الأفريقية جزيرة هائلة.

ثم استطرد الربان نيمو قائلاً:

- من سوء الحظ أنني لن أستطيع أن أمضي بك خلال القناة.. ولكنك ستري أرضة ميناء بور سعيد عندما نصل إلى البحر الأبيض المتوسط.

فهتفت قائلاً:

- البحر الأبيض المتوسط؟

- نعم يا بروفيسور. أيد هشك هذا؟

- إن ما يد هشني هو أن تكون هناك بعد غدٍ.

- أحقاً؟

- نعم يا كابتن. وإن كان عليّ أن أعتاد البعد عن كل دهشة ما دمت في هذه الغواصة.

- لكن فيم دهشتك الآن؟

- للسرعة الرهيبة التي ينبغي أن تبهر بها الغواصة إذا أرادت الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط بعد غد، بعد أن تدور حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

- ومن قال يا بروفيسور إن الغواصة ستدور حول أفريقيا أو أنها ستأخذ طريق الرجاء الصالح؟

- إلا إذا كنت ستسير على الأرض وتجتاز برزخ السويس..

- أو تمرق من تحته يا سيد أروناكس.

- من تحته؟!

فقال الربان بهدوء:

- بالتأكيد. لقد مضت أحقاب طويلة منذ أن أتمت الطبيعة مهمتها تحت هذا اللسان الأرضي الذي يحاول الإنسان أن يحفره فوق السطح...

- ماذا؟! أوجد ممر مائي تحت البرزخ؟!!
- نعم.. ممر مائي تحت الأرض أطلقت عليه اسم «نفق إبراهيم» إنه يبدأ من السويس وينتهي عند خليج المنزلة.
- ولكن البرزخ ليس إلا رمالاً متحركة.
- إلى عمق معين فقط.. ولكن هناك طبقة صخرية على عمق خمسين ياردة.
- فقلت وقد تزايدت دهشتي:
- وهل اكتشفت هذا النفق المائي بطريق المصادفة؟
- بالمصادفة والتفكير المنطقي يا بروفيسور.. بل لعل التفكير أغلب من المصادفة.
- إنني أسمعك يا كابتن ولكن أذني تأبيان ما تسمعان.
- آه يا سيدي. هذه طبيعة الإنسان الذي يأبى أن يصدق إلا ما ترى عيناه. إن هذا النفق ليس موجوداً فحسب بل إنني مررت فيه بضع مرات ولولا هذا لما جرؤت اليوم على دخول البحر الأحمر.
- وهل أتجاوز الحدود إن سألتك كيف اكتشفت هذا النفق؟
- سيدي. ليس هناك سر بين أناس لن يفترق أحدهم عن الآخر مدى الحياة..
- ولم أحفل بدلالة هذا المعنى، وانتظرت إجابة الربان الذي جعل يقول:

- إن التفكير المنطقي للعالم الطبيعي هو ما هداني إلى اكتشاف هذا النفق الذي لا يعرف سواي شيئاً عنه. فقد لاحظت في البحر الأحمر وفي البحر الأبيض المتوسط وجود أسماك معينة من نوع واحد، كالثعابين والنياتول والجبريل والأكسوسيتي أو «الطيّار» ولما تأكّدت من هذه الحقيقة سألت نفسي هل يوجد اتصال بين البحرين؟ فإن وجد، فإن التيارات التحتية لابد أن تتدفق من البحر الأحمر إلى البحر الأبيض لاختلافات المستوى بينهما، ولهذا جمعت عدداً كبيراً من الأسماك بالقرب من السويس ووضعت في ذيولها حلقات نحاسية وأعدتها إلى البحر وبعد أشهر قليلة وكنت بالقرب من سواحل سوريا وقعت في يدي أسماك من ذوات الحلقات النحاسية الآنفة الذكر. وهكذا تأكّدت تماماً من وجود وصلة بين البحرين. ولما بحثت عنها بالغواصة اكتشفتها وغامرت بالمرور فيها. ولن يمضي وقت طويل يا بروفيسور حتى تمر أنت أيضاً في هذا النفق العربي..



الفصل التاسع والعشرون

النفق العربي

في ذلك اليوم أعدت على مسامع كونساييل ونيد لاند ما يهمهما من هذا الحديث. ولما ذكرت لهما أننا سنكون بعد يومين في مياه البحر الأبيض صفق كونساييل طويلاً، ولكن نيد لاند هز كتفيه، وهتف قائلاً:

- نفق مائي يصل بين البحرين؟ من سمع بمثل هذا من قبل؟

فأجابه كونساييل قائلاً:

- يا صديقي نيد. هل سبق في حياتك أن سمعت عن شيء كالغواصة نوتيلوس؟ لا. ومع ذلك فإنها موجودة ولهذا لا تهز كتفيك ببساطة ولا تسخر من الأشياء لأنك لم تسمع بها من قبل.

فهز نيد لاند رأسه وقال:

- سوف نرى على كل حال. أريد أن أومن بوجود نفق هذا الربان، وأسأل الله أن يؤدي بنا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وفي غروب هذا اليوم انسابت الغواصة على سطح البحر شمالي خط العرض ٣٠, ٢١٠ درجة، حتى اقتربت من شواطئ بلاد العرب

حيث لاحت لنا مدينة جدة، وهي إحدى المدن التجارية المهمة لمصر وسوريا وتركيا والهند، واستطعت أن أتبين مبانيها بوضوح، والسفن الراسية بمينائها، وسفنًا أخرى اضطرت للرسو على بعد سير من الميناء، وكانت الشمس الغاربة عند الأفق ترسل أشعتها على منازل المدينة فتكشف بياضها.. وفي خارجها شاهدت أكواخًا من الخشب والغاب التي يقيم فيها أعراب البادية.

وسرعان ما اختفت جدة في ظلال المساء، وبدأت الغواصة في الهبوط إلى الماء المتلألئ بلون فسفوري خفيف.

وفي اليوم التالي، العاشر من شهر فبراير، رأينا عدة سفن مبحرة في اتجاه الرياح، واستمرت الغواصة في سيرها تحت الماء حتى الظهيرة، ثم صعدت إلى السطح بعد تحديد الاتجاهات، وبعد الاطمئنان إلى خلو البحر من السفن مضيت مع كونساييل ونيد لاند إلى السطح حيث جلسنا، ولاحت لنا السواحل الشرقية يكسوها ضباب رطب.

وبينما كنا نتبادل الحديث في مختلف الشئون ونحن مطلون من جانب الغواصة، إذ أشار نيد لاند إلى نقطة في البحر وقال:

- هل ترى شيئًا هناك يا بروفيسور؟

- لا يا نيد. ولكن عيني ليستا عينيك كما تعرف.

- انظر جيدًا. ألا ترى عند الخط المائي خلف الغواصة، على مستوى

الكشاف الكهربائي، كتلة تتحرك؟

فقلت بعد أن دقت النظر:

- نعم. أرى جسمًا طويلًا أسود على سطح الماء.

فقال كونسایل:

- أهى غواصة أخرى!

فأجاب نيد لاند:

- لا. وإذا لم يكن هذا نوعًا من الحيوانات البحرية، كنت مسرفًا في الخطأ.

فسأله كونسایل:

- أتكثر الحيتان في البحر الأحمر؟

فأجبهه قائلاً:

- نعم يا بني. إن هذا البحر لا يخلو من الحيتان.

فقال نيد لاند الذي لم يرفع بصره عن ذلك الجسم:

- إنه ليس حوتًا. فأنا والحيتان أصدقاء من قديم، ومن ثم لا يمكن أن أخطئ في تمييزها.

فقال كونسایل:

- انتظر. إن الغواصة ذاهبة إليه. وسنعرف حقيقة الأمر بعد وقت

غير بعيد.

وسرعان ما صار الجسم الطويل الأسود على مسافة تقل عن ميل منا. وقد بدا لنا كأنه صخرة كبيرة قائمة في عرض البحر. ترى ما كُنه هذا الجسم؟ ذلك ما لم أستطع أن أتأكد منه.

وصاح نيد لاند قائلاً:

- آه.. إنه يتحرك، ويغطس، أي حيوان يمكن أن يكون؟ إنه حتى بلا ذيل ذي شعبتين كالحيطان وزعانفه تبدو كالجدوع..

وقبل أن أعلق على حديثه، استطرد يقول:

- آه.. إنه على ظهره الآن.. إنه يرفع ثدييه في الهواء..

فصاح كونساييل قائلاً:

- إنها حورية... حورية بحر حقيقية!

وأثار اسم «حورية» اهتمامي، فقد كنت أعرف أن هذا الحيوان ينتمي إلى مرتبة الحيوانات البحرية التي تزعم الأساطير القديمة أنه نصف امرأة ونصف سمكة. وأخيراً قلت لكونساييل:

- لا.. إنها ليست حورية. وإنما هي حيوان عجيب لم يبق منه في العالم إلا أنواع قليلة في البحر الأحمر، إنها بقرة الماء.

فأخذ كونساييل في سرد مرتبتها ونوعها وفصيلتها والمجموعة التي تنتمي إليها بحيث لم يترك قولاً لقائل.

وفي هذه الأثناء كان نيد لاند يدمن النظر بعينين تلمعان اشتهاً إلى هذه البقرة المائية. وبدأ لي أن يده تتأهب لضربها بالحربة. ومن يحسبه يراه في انتظار اللحظة المناسبة للإلقاء نفسه في الماء ومهاجمة هذا الحيوان في عقر داره. وأخيراً قال بصوت يتهدج تأثراً:

- آه. إنني يا سيدي لم أقتل حيواناً كهذا!

والحق أن هذه العبارة كانت تصور الصياد أبليغ تصوير.

وفي تلك اللحظة ظهر الربان على سطح الغواصة، ولمح بقرة الماء
وأدرك إحساس نيد لاند، فقال له:

- إذا أمسكت حربة يا مستر لاند ألا تتحرق يدك إلى الصيد؟
- هو ذاك.

- ألا تأسف إذا عدت إلى مهنتك القديمة مرة أخرى وأضفت هذا
الحيوان إلى قائمة صيدك؟
- لا. لن أسف.

- إذن. يمكنك أن تحاول.

فقال نيد لاند بعينين تضطربان:

- شكرًا يا سيدي.

فاستطرد الربان قائلاً:

- ولكن أنصحك ألا تخطئ إصابة هذا الحيوان.

فقلت رغم أن نيد لاند هز كتفيه احتقارًا:

- هل ثمة خطر في مهاجمة بقرة الماء؟

فأجاب الربان قائلاً:

- نعم. أحيانًا. فإن هذا الحيوان يكر على مهاجميه ويحطم زورقهم،
ولكن ليس ثمة ما يخشاه نيد لاند من هذه الناحية. فإن بصره حديد، ويده
ثابتة، وإذا كنت أوصيه ألا يخطئ الهدف فذلك لأن بقرة البحر صيد
طيب وأنا أعرف أن نيد لاند يحب اللحم الطيب.

فقال نيد لاند:

- آه. إذن فإن هذا الحيوان يسمح لنفسه برفاهية تكوين لحم طيب المذاق؟

- نعم يا مستر لاند. إن لجسمه لحمًا طيبًا يحبه سكان الساحل الملاسي ويخصصونه لموائد الأمراء، وبلغ من الإقبال على صيد هذا الحيوان أنه أصبح وشيك الانقراض.

فقال كونسايل في اهتمام:

- إذا كان هذا الحيوان يا سيدي الربان آخر واحد من نوعه ألا يجدر بنا أن نبقى عليه لفائدة العلم؟

فقال نيد لاند:

- ربما ولكن لفائدة بطوننا يحسن أن نصيده.

فقال الربان نيمو:

- لك ما تريد يا مستر نيد لاند..

وعندئذ أقبل إلى سطح الغواصة سبعة من البحّارة في صمت وسكون كعادتهم وقد حمل أحدهم حربة صيد مشدودة إلى حبل من النوع المستخدم في صيد الحيتان. ورُفِع القارب الملحق بالغواصة من فجوته، وأُنزل إلى الماء... واتخذ ستة من الرجال أماكنهم فيه، وجلس عامل الدفة في موضعه وجلست مع كونسايل في المؤخرة. وقد قلت للربان:

- ألا ترافقنا يا كابتن؟

- لا يا سيدي.. ولكني أرجو لكم كل توفيق.

وانطلق الزورق سريعاً بقوة المجاديف نحو بقرة الماء التي كانت تسبح على مسافة ميلين من الغواصة. حتى إذا أصبحنا على بعد بضع عشرة ياردات منها، خففنا سرعة الزورق، وراحت المجاديف تشق الماء الهادئ في رفق. وانتقل نيد لاند في المقدمة ويده الحربة، والمعروف أن حربة صيد الحيتان تكون مشدودة بحبل طويل ينبسط مع الحيوان الجريح وقد شد طرفه الآخر إلى برميل صغير يطفو على سطح الماء لتحديد مكان البقرة من الأعماق.

ولم ألبث أن نهضت أقرب غريم نيد لاند فإذا هو بقرة مائية يضاوية الجسم، ذات ذيل طويل تنتهي زعانفها الجانبية بما يشبه المخالب ويتسلح فكها الأعلى بصفيين من الأسنان الحادة التي تكون خطي دفاع على الجانبين.

وكانت البقرة المائية التي يهم نيد لاند بصيدها من الحجم الكبير، لا يقل طولها عن ثمانين ياردات ولم تكن تتحرك، وكأنها نائمة على سطح الماء في حالة تجعل صيدها سهلاً.

واقترب الزورق في حذر حتى غدا على مسافة ثلاثين ياردة منها وتوقفت حركة المجاديف وأمسك نيد لاند حربه بيد الصياد البار وقد شمخ بقامته مائلاً إلى الخلف متحفزاً.

وفجأة سمعنا صوتاً كالضحك، وإذا بقرة الماء تختفي في اللحظة التي قذف فيها نيد لاند بالحربة فخيّل إليّ أنها لم تضرب غير الماء، بينما صاح نيد لاند مهتاجاً:

- يا للشيطان! لقد أخطأت الهدف.

فقلت:

- لا. إنها جُرحت. وهذه دماؤها على الماء. ولكن الحربة لم تعلق بجسمها.

فصاح نيد لاند:

- حربي! حربي!

واستأنف البحارة التجديف بقوة، ووجه عامل الدفة الزورق شطر البرميل العائم، حتى إذا استرد نيد لاند حربيته، عدنا إلى مطاردة البقرة. وكانت تصعد إلى سطح الماء بين حين وآخر للتنفس. وبدا لنا أن الجرح لم يؤثر على قوتها إذ إنها كانت تبتعد بسرعة كبيرة. وجدَّ الزورق خلفها بفضل سواعد الملاحين القوية. واقتربنا منها مرارًا، وكلما هم نيد لاند بقذف الحربة، كانت تروغ منه غائصة تحت سطح الماء بحيث يستحيل الوصول إليها.

ولك أن تتصور مدى غضب نيد لاند، وعنف العبارات التي انهال بها على البقرة.

واستمرت هذه المطاردة ساعة حتى بدأت أعتقد أننا لن نستطيع صيد البقرة، وفجأة بدا أن نزعة الانتقام تملك هذا الحيوان لسوء حظه، فقد استدار نحو الزورق لمهاجمته بدوره.

ولم يغفل نيد لاند عن هذه المناورة إذ قال:

- انتبهوا.

فاه عامل الدفة يبضع كلمات بتلك اللغة المجهولة كان المراد منها ولا شك أن يأخذ رجاله حذرهم.

وتوقفت بقرة الماء على مسافة عشرين قدمًا من الزورق لملء رئيها بالهواء عن طريق منخاريها القائمين في أعلى حيزومها. ولم تلبث أن وثبت مندفعة نحونا.

ولم يستطع الزورق اجتناب الصدمة فكاد ينقلب، وغمره الماء كثيرًا حتى اضطررنا إلى نزحه. ولكنه ما لبث أن اعتدل بفضل براعة عامل الدفة. أما نيد لاند فقد تشبث بمؤخرة الزورق وظل يطعن البقرة طعنات متوالية. وكانت قد غرست أسنانها في حافة الزورق ورفعته إلى أعلى كما يرفع الأسد ظبيًا صغيرًا بين أنيابه حتى سقطنا بعضنا فوق بعض، ولا أدري على أي صورة كانت تنتهي مغامرتنا لو لم يستطع نيد لاند الذي استبد به الغضب أن يطعنها في صميم القلب. ولم ألبث أن سمعت صرير أسنانها على حافة الزورق الحديدية، وإذا هي تغوص في الماء آخذة الحربة معها، ولكن البرميل لم يلبث أن طفا ثانية على السطح، وبعد لحظات أخرى طفا جسم البقرة مقلوبًا على الظهر فاقترب الزورق منها وشدت إليه بحبل ثم عدنا إلى الغواصة.

واضطر الربان إلى استخدام رافعة قوية لرفع البقرة المائية إلى سطح الغواصة، إذ كان وزنها عشرة آلاف رطل. وتولوا تقطيعها أمام نيد لاند الذي أراد أن تتم العملية تحت إشرافه. وفي نفس اليوم قدم الخادم إليَّ في وجبة العشاء شرائح أعدها طاهي الغواصة ببراعة، فكانت تفوق في طيب مذاقها لحم العجول، إن لم يكن لحم البقر.

وفي اليوم التالي، الحادي عشر من فبراير، أضيف إلى مخزن الغواصة مزيد من لحوم الصيد الشهية، فقد حط عليها سرب من طيور خطاف البحر، وهي من نوع الطيور النيلية المعروفة في مصر بمناقيرها السوداء ورؤوسها الرمادية المرقطة، وعيونها المستديرة المحاطة بنقط بيضاء، وأجنحتها السوداء، وذيلها الرمادية، وبطنها وصدورها البيضاء، وسيقانها الحمراء. كما أمكننا صيد عشرات من البط النيلي، وهو طير بري شهى المذاق يتميز بعنق وظهر لونهما أبيض مرقط بنقط سوداء.

وكانت الغواصة تتقدم إذ ذاك بسرعة معتدلة، وقد لاحظت أن ملوحة مياه البحر الأحمر تقل تدريجياً كلما اقتربنا من السويس.

وفي نحو الساعة الخامسة مساءً، لمحنا رأس محمد وهو الرأس الجغرافي الذي تنتهي عنده حدود بلاد العرب ويقع بين خليج السويس وخليج العقبة. ثم دخلت الغواصة إلى مضيق جوبال المؤدي إلى خليج السويس. ورأيت بوضوح جبلاً مرتفعاً بين الخليجين، وهو جبل حورب في سيناء الذي كلم الله موسى عنده والذي يتخيله العقل وهو متوج دائماً بأضواء البرق.

وفي الساعة السادسة مساءً اجتازت الغواصة وهي حيناً طافية وحيناً غائصة، جبل الطور الواقع على خليج تبدو مياهه حمراء اللون كما قال الربان نيمو. وأسدل الليل أستاره في جو يخيم عليه الصمت العميق الذي لم يكن يقطعه سوى صياح طائر البليكان وغيره من طيور الليل، أو هدير الأمواج وهي تنكسر على الصخور، أو أنفاس سفينة بعيدة وهي تضرب

الماء في الخليج برفاصاتها الصاخبة.

وظلت الغواصة من الساعة الثامنة إلى التاسعة، وهي تحت السطح على عمق بضع ياردات. وكنا عندئذ طبقاً لتقديراتي بالقرب من السويس. وكنت أرى من نوافذ الصالون البللورية الصخور تضيئها أنوارنا الكهربائية، وكان يبدو لي أن الخليج يزداد ضيقاً بالتدريج.

وفي الساعة التاسعة والربع، صعدت الغواصة إلى السطح، فخرجت إلى ظهرها وأنا مشوق للمرور داخل النفق المائي الذي حدثنا الربان عنه، وبقيت على السطح لا أكاد أستقر على حال وأنا أملأ صدري بهواء الليل النقي.

وفجأة رأيت في الظلام ضوءاً شاحباً يشوبه الضباب على بعد ميل تقريباً وسمعت بجانبني صوتاً يقول:

- منارة.

فاستدرت ورأيت الربان نيمو بالقرب مني يتابع كلامه قائلاً:

- منارة السويس. ولن يطول بنا الوقت حتى نصل إلى مدخل النفق.

- إن دخول هذا النفق لن يكون سهلاً.

- نعم. ولذلك اعتدت توجيه عجلة قيادة الغواصة بنفسي. والآن

لعلك تهبط إلى الداخل يا مسيو أروناكس فسنغوص الآن، ولن نصعد إلى سطح الماء حتى نجتاز النفق العربي.

وتبعت الربان نيمو إلى داخل الغواصة، وأغلقت منافذها العليا بإحكام، وامتلات مستودعاتها بالماء فهبطت إلى عمق ثلاثين قدماً

وبينما كنت أهم بدخول غرفتي استوقفني الربان قائلاً:

- أتحب يا بروفيسور أن تصحبني إلى مقصورة القيادة الزجاجية؟

فقلت:

- نعم. ولكنني لم أجرو أن أطلب منك هذا.

- هيا بنا إذن. سوف ترى كل ما يمكن رؤيته في رحلة بحرية تحت الأرض وتحت الماء في وقت واحد.

وصحبني الربان نيمو إلى السلم الرئيسي ففتح باباً في منتصفه وسار معي في النصف الأعلى من الغواصة حتى وصلنا إلى مقصورة القيادة البللورية، وهو كما يذكر القراء في أحد طرفي الغواصة.

وكانت مساحة المقصورة ستة أقدام مربعة، تشبه أبراج القيادة الصغيرة في السفن البخارية التي تسير في خليج هدسون أو نهر المسيسيبي، وتتوسطها عجلة رأسية متصلة بالدفة التي تجري بطول الغواصة وكانت ثمة أربع نوافذ من البللور مثبتة في جوانب المقصورة تهىء لقائد الدفة الرؤية في كل اتجاه.

وكانت المقصورة نفسها مظلمة، ولكن سرعان ما ألفت النظر في ظلامها، فرأيت المرشد البحري، وكان رجلاً ضخماً الجسم متكئاً بيديه على قضبان عجلة القيادة. أما البحر فكان يبدو في الخارج متلاًئلاً بالضوء المناسب من الكشاف القائم في المقصورة الخلفية.

وقال الربان:

- ينبغي الآن أن نتحسس طريقنا في الممر.

وكان ثمة أسلاك تصل بين مقصورة القيادة وغرفة المحركات ولهذا كان في مقدور الربان أن يسيطر على حركة الغواصة واتجاهها في وقت واحد. ولم يلبث أن ضغط على مقبض معدني فقلت سرعة الغواصة في الحال.

وفي صمت أخذت أرقب الجدار المرتفع الذي كنا نتحرك بمحاذاته إذ ذاك ولم يكن سوى امتداد الرمل على الشاطئ.

وقد تقدمنا هكذا نحو ساعة ونحن لا نبعد عنه أكثر من بضع ياردات ولم يكن الربان نيمو يرفع عينيه عن البوصلة البحرية المعلقة بحلقتين في وسط المقصورة. وبإشارة منه كان قائد الدفة يوجه الغواصة الوجهة المطلوبة بكل دقة تامة.

وجلست أنظر من إحدى النوافذ البللورية، فرأيت تكوينات رائعة من شعب المرجان والقشريات التي كانت تنشر مخالبا الضخمة من شقوقها الغائرة في الصخور.

وفي الساعة العاشرة والرابع مساءً، أمسك الربان نيمو بعجلة القيادة ولاح لنا كهف واسع مظلم عميق، دخلته الغواصة دون تردد. وسمعنا هديرًا غير مألوف لدى الجانبين، ولم يكن سوى هدير مياه البحر الأحمر التي كانت تندفع باطراد داخل النفق المائل في اتجاه البحر الأبيض المتوسط. وهكذا اندفعت الغواصة مع السيل الجارف بسرعة السهم رغم أن محركاتها ذهبت تضرب الأمواج عكسيًا، كمحاولة لمقاومة الاندفاع.

ولم أكن أرى شيئًا على جدران النفق الضيق سوى الخطوط المضيئة

وتجاعيد الصخور التي كانت تبدو كالوهج الخاطف في ضوء كشاف
الغواصة المندفعة كالسهم. وكان قلبي يخفق بعنف شديد جعلني أضغط
بيدي فوقه تخفيفاً لخفقانه.

وترك الربان نيمو عجلة القيادة في الساعة العاشرة وخمس وثلاثين
دقيقة ثم استدار إليَّ قائلاً:

- البحر الأبيض المتوسط!

وهكذا اجتازت الغواصة برزخ السويس في أقل من عشرين دقيقة،
مندفعة مع التيار الجارف.



الفصل الثلاثون

أرخييل اليونان

في مستهل اليوم التالي، الثاني عشر من شهر فبراير، صعدت الغواصة إلى سطح البحر فأسرعت إلى سطحها حيث رأيت على مسافة ثلاثة أميال نحو الجنوب حدود بحيرة المنزلة. حقاً لقد حملنا التيار العنيف من بحر إلى بحر، ولكن النفق الذي هبطنا منه بسهولة، كان الصعود فيه من المستحيلات.

وحوالي الساعة السابعة انضم إليّ كونسایل ونيد لاند، وكان هذان الصاحبان الملازمان قد ناما هائئين دون أن يلقياً بالاً إلى ما حققته الغواصة. وقد قال نيد لاند بصوت لا يخلو من تهكم يسير:

- حسناً يا سيدي العالم الطبيعي. ماذا عن البحر الأبيض المتوسط؟

- إننا الآن فوق سطحه يا صديقي نيد لاند.

فهتف كونسایل قائلاً:

- ماذا؟ في الليلة الماضية؟

- نعم. في الليلة الماضية.. وفي دقائق معدودة، اجتزنا البرزخ الذي

لم يتم حفره.

فقال نيد لاند:

- إنني لا أصدق هذا..

فاستطردتُ قائلاً:

- أنت مخطئ يا نيد لاند. إن هذا الشاطئ المنخفض شبه الدائري الذي تراه في الجنوب، هو الشاطئ المصري.

فقال الكندي بعناد:

- إنني مع ذلك أرفض أن أصدق.

فقال كونسايل:

- ولكن لا بد أن يكون هذا هو الحقيقة، وإلا لما أخبرنا به سيدي.

فقلت:

- وفوق هذا يا نيد فإن الربان نيمو اضطلع بتحقيق هذا العمل، وكنت بجانبه في مقصورة القيادة وهو يقود الغواصة بنفسه في ذلك النفق المائي الضيق.

فقال كونسايل:

- هل تسمع يا نيد؟

وأضفت قائلاً:

- وأنت يا نيد يا من تتمتع بقوة النظر، بوسعك أن ترى أرصفة ميناء بور سعيد ممتدة في البحر.

فحدق نيد لاند في ذلك الاتجاه ثم قال:

- نعم أنت على حق يا بروفيسور، وربانك رجل بارع. إننا حقًا في البحر الأبيض المتوسط، لا بأس. عظيم. هلموا الآن نتبادل الحديث في شئوننا الخاصة بحيث لا يسمعننا أحد.

وأدركت جيدًا مقصد نيد لاند. ومهما يكن فقد استصوبت أن نتبادل الحديث كما يريد. فيمنا شطر مقصورة الكشف الكهربائي وجلسنا عن كذب منها، وهناك كنا أقل تعرضًا لاستراق السمع.

وبدأت الحديث بقولي:

- والآن يا نيد، نحن على استعداد لسماعك، ماذا تريد أن تقول؟

فأجاب الكندي قائلاً:

- إن ما أريد أن أقوله بسيط جدًا. فنحن الآن في أوروبا، وقبل أن تجرنا أهواء الربان نيمو إلى أعماق البحار القطبية أو يعود بنا إلى الأقيانوس أريد أن أهجر الغواصة.

ولا بد من الاعتراف بأن الخوض مع نيد لاند في هذا الموضوع كان دائمًا مثار حرجي. فأنا لا أريد أن أنال من حرية صاحبي بأي حال، ومع ذلك فلم أكن أحب مفارقة الربان نيمو. فبفضل غواصته وأجهزته كنت كل يوم أستكمل أبحاثي تحت سطح الماء، وكنت أعيد تدوين كتابي عن البحار في نفس موطنها. فهل يمكن أن تتاح لي مثل هذه الغواصة مرة أخرى لدراسة عجائب المحيطات؟ كلا بالتأكيد. ولهذا لم أستطع أن أروض نفسي على التفكير في مفارقة الغواصة قبل استكمال حلقة

أبحاثي. وإذن فقد قلت:

- حدثني بصراحة يا صديقي نيد. هل تشعر بالملل هنا؟ أتأسف لأن
الأقدار ألقت بك بين يدي الربان نيمو؟

فلزم لاند الصمت بضع دقائق، ثم عقد ذراعيه على صدره وقال:

- أقول صراحة إنني لست نادماً على هذه الرحلة تحت سطح
البحار، بل إنني سعيد لقيامي بها، ولكنني أرى بعد أن قمت بها، أنه لا بد
من نهاية لها.

- ستكون لها نهاية يا نيد.

- متى وأين؟

- إنني لا أعرف أين، ولا أستطيع أن أقول متى، ولكن يمكنني القول
إنها ستنتهي عندما تكف هذه البحار عن تزويدنا بالمزيد من العلم. إن
كل ما له بداية في هذا العالم، لا بد له من نهاية.

فقال كونسايل:

- إنني أُنْفِق في الرأي مع سيدي. ويحتمل جداً أن نجوب بحار
الكرة الأرضية قبل أن يطلق الربان سراحنا.

فصاح نيد لاند:

- يطلق سراحنا؟ لعلك تعني أنه يطلق يديه للعدوان علينا؟

فاستطردت أقول:

- لا داعي للتهويل يا نيد لاند. فليس هناك ما تخشاه من الربان،

ولكنني لا أوافق كونسايل أيضًا. إننا الآن نعرف سر هذه الغواصة ولا أمل عندي في أن يرتضي صاحبها بإطلاق سراحنا حتى لا نذيع هذا السر في أنحاء العالم.

فقال نيد لاند:

- إذن ما هو أملك؟

- هو أن تسنح في الستة شهور القادمة ظروف يمكن بل يتعين أن نستفيد منها، كما نستفيد الآن.

فقال الكندي:

- ها! وأين ستكون بالله خلال ستة أشهر يا سيدي العالم؟

- ربما هنا وربما في الصين. فأنت تعرف أن الغواصة سفينة سريعة. إنها تعبر المحيطات كالطيور في الجو أو كالقطار السريع فوق اليابسة. وهي لا تخشى البحار المأهولة بالسفن. وما يدرينا أنها لن تزور سواحل فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا حيث نحاول انتهاز الفرصة، كما نريد أن نفعل الآن؟

فأجاب نيد لاند:

- إن حديثك يا ميسيو أروناكس لا منطق فيه. فأنت تتحدث عن المستقبل فتقول إننا سنكون هنا أو سنكون هناك، ولكنني أتحدث عن الحاضر فأقول: «نحن هنا الآن، وينبغي أن نستغل هذه الظروف».

وشعرت أن نيد لاند قد ضيق الخناق عليّ بمنطقه حتى غلبت على أمري ولم أدر ماذا أقول. أما هو فقد استطرد قائلاً:

- لنفرض جدلاً يا سيدي أن الربان نيمو منحك الحرية اليوم فهل تقبلها؟

- لا أدري.

- وإذا أضاف إلى هذا أن ما يعرضه اليوم لن يكرره فيما بعد. فهل تقبل؟

لم أجب.

فقال نيد لاند:

- وما رأيك أنت يا صديقي كونساييل؟

- ليس لديّ ما أقوله وأنا غير مهتم بهذا الموضوع إطلاقاً. أنت يا نيد غير متزوج. وأنا أيضاً لا زوجة لي ولا أقارب ولا أبناء ينتظرون عودتي. أنا في خدمة سيدي أفكر بتفكيره وأقول ما يقوله. وإذن فلا تعتمد عليّ في الحصول على أغلبية. إن الموضوع متعلق باثنين فقط. أنت في جانب وسيدي في الجانب الآخر، وما عليّ إلا أن أسمع وأن أطيع القرار النهائي الذي ستتفقان عليه.

ولم يسعني إلا الابتسام بعد أن رأيت كونساييل يلغي شخصيته إلى هذا الحد. ولا شك أن نيد لاند ابتهج حين ألفاه لم يقف ضده، ومن ثم قال:

- ما دام كونساييل لا وجود له فليتحدث أحدنا مع الآخر، وأنا قد تحدثت وأنت قد سمعته. فما هو جوابك؟

كان جلياً أنه لا بد من أن أجاهر برأيي. ثم إنني أنفر بطبيعتي من المراوغة.

وهكذا قلت:

- هذا هو جوابي يا صديقي نيد: أنت مصيب، وأنا مخطئ. يجدر بنا ألا نعتمد على حسن نية الربان نيمو. إن أبسط أسباب الفطنة تمنعه من إطلاق سراحنا. ومن ناحية أخرى فإن العقل يحتم علينا انتهاز أول فرصة سانحة لمفارقة الغواصة.

- حسن جدًا يا مسيو أروناكس.. هذا كلام سيدي.

- ولكن لي ملاحظة واحدة فقط، هي أنه يجب أن نأخذ الأمور مأخذ الجد. لا بد أن تنجح أول محاولة لنا. لأننا إذا فشلنا، فلن تتاح لنا فرصة أخرى لإعادة الكرّة كما أن الربان نيمو لن يصفح عنا.

- هذا أمر لا شك فيه. ولكن ملاحظتك تنطبق على كل محاولة للهرب سواء كانت بعد عامين أو بعد يومين ولهذا يبقى الوضع كما هو: إذا سنحت فرصة الهرب فيجب أن تتشبث بها.

- اتفقنا! والآن.. هل تخبرني يا صديقي نيد ما معنى الفرصة السانحة في نظرك؟

- كأن تكون الغواصة بالقرب من أحد الشواطئ الأوروبية في ليلة حالكة الظلام.

- عندئذ. هل تحاول الهرب سباحة؟

- نعم إذا كنا قرب الشاطئ بدرجة كافية، وكانت الغواصة على سطح الماء. إما إذا كنا بعيدين والغواصة في الأعماق..

- وماذا يكون العمل في هذه الحالة؟

- في هذه الحالة أحاول الاستيلاء عليها، فأنا أعرف كيف يسيرونها،
وبإمكاننا أن نفتح المنافذ ونصعد إلى مقصورة القيادة قبل أن يحس بنا
قائد الدفة.

- حسنًا يا نيد. انتظر سنوح الفرص ولا تنس أن الفشل فيه القضاء
علينا.

- لن أنسى هذا يا سيدي.

- والآن يا نيد هل تحب أن تعرف رأيي في مشروعك؟

- أجل يا مسيو أروناكس.

- حسنًا. وأعتقد - ولا أقول أرجو - أن مثل هذه الفرصة المواتية
لن تسنح لك.

- لماذا؟

- لأن الربان نيمو مدرك أننا لم نفقد الأمل في استرداد حريتنا ولهذا
سيضاعف رقابته علينا في البحار الأوروبية.

فقال نيد لاند وهو يهز رأسه في إصرار:

- سوف نرى.

- والآن ينبغي أن نترك الأمر عند هذا الحد يا نيد لاند. لن نتبادل عنه
كلمة واحدة بعد اليوم. وعندما يتم استعدادك أخبرنا، فتبعك. وسأترك
لك إعداد كل شيء.

وهكذا انتهت هذه المحادثة التي شاء القدر أن تكون لها فيما بعد
عواقب وخيمة. وينبغي أن أقول الآن إن الحقائق أثبتت بعد نظري فيما

يبدو، وهو ما أثار أشد اليأس عند نيد لاند: ترى أكان الربان يرتاب بنا ونحن في هذه البحار المطروقة، أم أراد فقط إبعادنا عن أنظار السفن الكثيرة التابعة لمختلف الدول وهي تشق عباب البحر الأبيض المتوسط؟ لا أدري، ولكنه حرص عمومًا على البقاء بالغواصة تحت السطح وبعيدًا عن الشاطئ. وإذا صعدت إلى السطح لم يكن يبين منها سوى مقصورة القيادة ثم لا تلبث أن تلبث أن تعود إلى الأعماق، لأن عمق البحر بين أرخبيل اليونان وشواطئ آسيا الصغرى كان يزيد على ألفي ياردة.

وقد عرفت نقطة جزيرة كارباتوس - وهي إحدى جزر سيوريد- عن طريق شطرة من شعر فيرجيل، كان الربان نيمو يتمثل بها وهو يضع إصبعه على مكانها من الخارطة.

«هنا.. في كاربانيو كان الإله نبتون يخمر الأعناب».

وكيوليوس بروفوس....

وكانت الجزيرة في الواقع المقر القديم لبروفوس -الراعي العجوز لقطعان نبتون- فأصبحت الآن جزيرة سكاربتو، وهي كائنة بين جزيرتي رودس وكريت.

وفي اليوم التالي، الرابع عشر من شهر فبراير، قررت تمضية بضع ساعات في دراسة أسماك هذا الأرخبيل، ولكن النوافذ البللورية ظلت مغلقة لسبب ما. وقد قدرت من اتجاه الغواصة أنها في طريقها إلى جزيرة كريت. وكانت هذه الجزيرة عندما ركبت السفينة إبراهيم لנקولن لمطاردة الغواصة قد ثارت على الحكم التركي الغشوم، ومنذ ذلك الحين لم أدر ماذا تم في هذا الأمر، ولم يستطع الربان نيمو أن يخبرني

بشيء وهو الذي قطع كل علاقة له بالعالم الخارجي. ولهذا السبب لم أعرض لهذا الحادث عندما جلست معه على انفراد تلك الليلة في صالون الغواصة. وفوق هذا فقد بدا لي صموتًا مشغول الفكر، ثم لم يلبث أن أمر بفتح النوافذ البللورية على غير عادته، وأخذ يتنقل من نافذة إلى أخرى وهو يرقب عباب الماء لغرض لم أتبينه. أما أنا فقد عكفت على دراسة الأسماك التي كانت تمر أمام عيني.

ومن بين الأنواع الكثيرة التي رأيته النوع المعروف باسم سمك التوبيون «جوبي آفيز» الذي تحدث عنه الفيلسوف اليوناني أرسطو وهو يشاهد كثيرًا في المياه المالحة بالغرب من دلتا النيل، والقرب منها رأيت أسماك الأبراميس نصف الفسفورية. وكان قدماء المصريين يضعون هذا النوع في عداد الحيوانات المقدسة. إذ كانوا يعتبرون وصوله إلى مياه النيل بشير بفيضان خصيب، ومن ثم كانوا يقيمون الاحتفالات الدينية لمقدمه. ورأيت الأسماك السلحفاوية التي يبلغ طول كل منها تسع بوصات. وهي أسماك عظمية ذات قشور شفافة يمتزج لونها المحتقن بالنقط الحمراء. ويعيش هذا النوع على النباتات البحرية مما يضيف على لحومها نكهة طيبة.

وكان هواة الطعام في روما القديمة يتلهفون على هذا النوع حيث كانوا يطهون أمعاهم بالأغشية الرقيقة لأسماك المرينة مع أمخاخ الطاووس وألسنة طيور الدراج ويصنعون من هذا كله طبقًا شهياً يتحلب له اللعاب.

واسترعى انتباهي كذلك بين سكان هذا البحر، كما أثار في ذهني

ذكريات تاريخية- ذلك النوع من السمك المعروف باسم «الرامور» الذي يجوب البحار متعلقاً ببطون نمور البحر. ويروى في الأساطير القديمة أن في مقدور هذا السمك الصغير إذا تعلق بقيعان السفن أن يوقف حركتها، وأن واحدة منها بإعاقتها سفينة مارك أنطونيوس ساعدت غريمه القائد أغسطس على الفوز في موقعة أكتيوم البحرية.

ألا ما أوهى الخيوط التي تتعلق بها مصائر الأمم، طبقاً لهذه الأساطير، وقد لاحظت كذلك سمك الأنثا الذي ينتمي إلى فصيلة اللونجان، وهو سمك كان الإغريق القدامى يقدسونه ويعززون إليه القدرة على طرد الوحوش البحرية من المناطق التي يقيم بها. واسم هذا السمك يعني الزهرة وينطبق عليها بسبب تعدد ألوانه. فهو يشتمل على جميع درجات اللون الأحمر ابتداء من الوردي الخفيف إلى الياقوتي القاتم. هذا عدا الأصباغ الخفيفة التي تغشى زعانفها الوردية. ولم يكن في مقدوري أن أرفع نظري عن عجائب هذا البحر، عندما فوجئت بمشهد لم أكن أتوقعه... فقد رأيت في الماء رجلاً يغوص متمنطقاً بحزام علق به كيساً، وكان يسبح بقوة وهو يصعد بين فينة وأخرى إلى السطح للتنفس، ثم لا يلبث أن يغوص من جديد. عند ذلك استدرت إلى الربان وقلت له بصوت مضطرب:

- هنا رجل، رجل ناج من سفينة غارقة... يجب إنقاذه بأي ثمن.

فلم يجب الربان، بل جاء إلى النافذة واستند إليها، أما الرجل فقد اقترب من الغواصة وأدنى وجهه من زجاج النافذة وراح ينظر إلينا.

وشد ما كانت دهشتي حين رأيت الربان يشير إليه بيده، ثم أسرع

الغواص بالارتفاع إلى سطح الماء ولم يظهر مرة أخرى.

وقال الربان:

- لا تنزعج. إنه يقول من أهالي رأس ماتابان التي تعرف بالباسك، وهو مشهور في كل هذه النواحي... غواص جريء.. والماء موطنه.. لأنه يعيش في البحر أكثر مما يعيش على البر، لتنقله من جزيرة إلى أخرى، بل إنه يتعد حتى جزيرة كريت.

- هل تعرفه يا كابتن؟

- لا يا مسيو أروناكس.

قال هذا ومضى إلى قطعة أثاث قريبة من النافذة اليسرى للصالون، رأيت بجانبها خزانة حديدية يعلوها مقبض نحاسي نقش عليه شعار الغواصة.

وتقدم الربان دون أن يعيرني أقل التفات إلى قطعة الأثاث ففتحها وإذا هي تحتوي على عدد كبير من السبائك. وكانت سبائك من الذهب. ترى من أين جاء هذا المعدن الثمين الذي يساوي ثروة ضخمة، وأين عثر الربان على هذا الذهب وماذا ينوي أن يفعل به؟

ولم ألفظ بكلمة. وجعلت أنظر إليه وهو يحمل السبائك واحدة بعد الأخرى ويرتبها في الخزانة حتى امتلأت بها. وقد قدرت ما فيها من الذهب عندئذ بنحو ألفي رطل، أي ما يساوي مائتي ألف جنيه.

وأحكم الربان إغلاق الخزانة، ثم كتب على غطاؤها عنواناً بأحرف بدا لي أنها من اللغة اليونانية الحديثة.

ولما فرغ من هذا ضغط على زر متصل بمقاصير البحّارة، وسرعان ما أقبل أربعة منهم راحوا يدفعون الخزانة إلى خارج الصالون في شيء من الجهد، ثم سمعتهم يرفعونها فوق السلم الرئيسي «بالكرات».

وأخيرًا استدار الربان نحوي قائلاً:

- هل قلت شيئًا يا بروفسور؟

- لا يا كابتن.

- حسنًا. إذا سمحت لي فإنني أرجو لك ليلة طيبة.

وغادر الصالون على الأثر...

وعدت إلى غرفتي وأنا بطبيعة الحال أشد ما أكون فضولًا، وعبثًا حاولت النوم فقد كنت أحاول أن أعرف العلاقة التي يمكن أن تكون بين الغواص وخزانة الذهب. ولم ألبث أن شعرت من تأرجح الغواصة واهتزازها أنها صعدت إلى السطح.

ولما سمعت وقع أقدام على ظهرها أدركت أنهم يرفعون الزورق من فوخته وينزلونه إلى البحر. وقد سمعته يصطدم بجوانب الغواصة، ثم تلاشى الصوت.

وبعد ساعتين تكررت الحركة، وتكرر الصوت نفسه. وكان واضحًا أن الزورق يُعاد إلى فجوته. ولم تلبث الغواصة أن عادت للهبوط تحت سطح الماء.

وهكذا أدركت أن الذهب نُقل إلى العنوان المبين على الخزانة. ترى إلى أي مكان في القارة كان إرساله؟ ومن هو عميل الربان نيمو؟

وفي اليوم التالي ذكرت لكونساييل ونيد لاند ما حدث في الليلة السابقة مما أثار الفضول في نفسي ولم يكن صاحباي أقل دهشة مني. وقد سألني نيد لاند قائلاً:

- ولكن أين عثر على كل هذا الذهب؟

ولم يكن ثمة جواب معقول على هذا السؤال. وبعد الإفطار ذهبت إلى الصالون وشرعت في العمل ولبثت في كتابة مذكراتي حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، وعندئذ شعرت باشتداد الحر دون سبب واضح، فنضوت عني ردائي المصنوع من ألياف نباتية. ولم أستطع أن أدري سر هذه الحرارة لأننا لم نكن في المنطقة الاستوائية فضلاً عن أن الحرارة لا ترتفع داخل الغواصة وهي تحت سطح الماء. ونظرت إلى مقياس الأعماق فرأيت أننا على عمق ستين قدماً وهو عمق لا يتأثر بحرارة الجو فوق سطح الماء.

واستأنفت الكتابة ولكن الحرارة أصبحت لا تطاق فقلت لنفسي:

- ترى هل شَبَّت النار في الغواصة؟

وبينما كنت أهم بمغادرة الصالون أقبل الربان ونظر في مقياس الحرارة والضغط ثم قال:

- اثنتان وأربعون درجة مئوية.

- إنني أشعر بها يا كابتن. ولن نستطيع احتمال الحرارة إن زادت على هذا الحد.

- إن الحرارة لن تزيد إلا إذا أردنا.

- إذن ففي مقدورك أن تخففها.

- كلا. ولكنني أستطيع الابتعاد عن البؤرة التي تولدها.

- إذن فهي حرارة آتية من الخارج؟

- نعم. فإننا نسير في ماء يغلي.

- أهذا ممكن؟

- انظر...

ورفعت الألواح عن النوافذ البللورية، فشاهدت مياه البحر البيضاء حول الغواصة وكان ثمة دخان كبيرتي ينعقد بين الأمواج التي كانت تغلي كماء في وعاء نحاسي على موقد. ولما وضعت يدي على زجاج النافذة وجدت الحرارة شديدة بحيث اضطرت إلى سحبها بسرعة. وأخيراً قلت:

- أين نحن؟

- بالقرب من جزيرة سانتورين، أو على التحديد في الممر المائي الذي يفصل جزيرة نياركاميني عن جزيرة بالياركاميني. وقد أردت أن أريك مشهداً غريباً من مشاهد الاضطرابات البركانية تحت الماء.

- كنت أظن أن عملية تكوين هذه الجزر الجديدة قد انتهت.

- لا يمكن أن ينتهي شيء في المناطق البركانية. فإن الأرض تظل متفاعلة بسبب النيران المتأججة في جوفها. وفي العام التاسع عشر بعد الميلاد تكونت جزيرة جديدة، على ما أورده بليني وكاسيودور، وهي جزيرة فاي الجزيرة الإلهية، وقد قامت في نفس المكان الذي ظهرت فيه

مجموعة من الجزر الصغيرة. ولكنها غاصت تحت سطح الماء، ثم عادت للظهور عام ٦٩، ثم غاصت مرة أخرى. ومنذ تلك الحقبة إلى عصرنا هذا لم يجد شيء، فلما كان اليوم الثالث من شهر فبراير عام ١٨٦٦ برزت من بين الأبخرة الكبرى جزيرة جديدة بالقرب من جزيرة نياركاميني، سُميت جزيرة جورج والتحمت بها في اليوم السادس من نفس الشهر، وبعد سبعة أيام، أي في اليوم الثالث عشر من فبراير ظهرت أفروسا تاركة بينها وبين نياركاميني ممرًا مائيًا عرضه عشر ياردات. وقد كنت في هذه المنطقة عندما حدثت هذه الظاهرة الطبيعية مما هيا لي أن أشهد مراحلها العديدة. وبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ثلاثين قدمًا، وتتكون من الحمم السوداء الممتزجة ببقايا الفلزات. ثم ظهرت أخيرًا في اليوم العاشر من شهر مارس جزيرة صغيرة تسمى ريكابا بالقرب من نياركاميني أيضًا، ومنذ ذلك الحين التحمت هذه الجزر الثلاث وصارت جزيرة واحدة.

- إذن في أي ممر مائي نحن؟

فقال الربان وهو يشير بإصبعه على خارطة الأرخيبل اليوناني:

- نحن هنا الآن حيث وضعت الجزر الجديدة كما ترى على الخارطة.

- ولكن هذا الممر قد ينسد يومًا؟

- هذا جد محتمل يا مسيو أرونالكس. فمنذ عام ١٨٦٦ برزت ثماني جزر صغيرة أمام ميناء سانت نيقولا بجزيرة بالياركاميني، ومن هذا يتضح أن جزيرتي نياركاميني، وبلياركاميني ستلتحمان في وقت قريب. وإذا كانت التقعيات -أي الدوبيات المائية- هي التي تكون القارات المرجانية في المحيط الهادي، فإن الاضطرابات البركانية هي

التي تكونها هنا. انظر يا سيدي إلى ما يحدث تحت هذه الأمواج.

وعدت إلى النافذة البللورية فألفيت الغواصة لا تتحرك. واشتدت الحرارة حتى أصبحت لا تطاق واستحال لون الماء الأبيض إلى الأحمر، كان يرجع هذا التلون إلى وجود أملاح الحديد. ورغم إغلاق الصالون بإحكام فقد اشممت فيه رائحة كبريتية لا تحتمل، كما رأيت السنة من اللهب الأحمر الذي كسف عندما شاع ضوء الغواصة الكهربائي.

وقلت للربان وأنا غارق في العرق مخنتق الأنفاس أكاد أغلي:

- لا يمكن أن نبقى أكثر من هذا في هذه المياه التي تغلي.

فقال الربان بهدوئه المعتاد:

- نعم ليس من الحكمة أن نبقى.

وصدر الأمر وتحركت الغواصة. ولم تلبث أن خرجت من هذا الفرن الذي لا يمكن أن تتحده دون أن تتعرض للصخور. وبعد ساعة كنا نستنشق الهواء النقي على ظهرها.

وبدا لي إذ ذاك أنه لو اختار نيد لاند هذه المنطقة لتنفيذ خطة الهرب، لما خرجنا من المحاولة أحياء.

وفي اليوم التالي السادس عشر من شهر فبراير، غادرنا الحوض المائي الذي يقع بين الإسكندرية وجزيرة رودس، والذي يزيد عمقه على تسعة آلاف قدم، وما لبثت الغواصة وهي تمضي على مرمى البصر من جزيرة سيريجو أن خلفت وراءها أرخبيل اليونان بعد دورانها حول رأس ماتابان.

الفصل الحادي والثلاثون

اجتياز البحر الأبيض في ثمان وأربعين ساعة

إن البحر الأبيض ذا الزرقة الصافية في نظر الفرنسيين، وبحر الإغريق، و«بحرنا» في زعم الرومانيين، بحر واسع الأرجاء، تحف به أشجار البرتقال، ونبات الصبار وأعواد الند وأشجار الحور البحرية التي يفوح منها عبير «الأس»، كما تحيط به سلاسل الجبال التي يترقق حولها الهواء النقي الشفاف بينما يتأجج باطنها بالنيران.. هذا البحر ميدان مثالي للمعارك التي لا تزال دائرة الرحي بين نيتون وبلو للسيطرة على العالم، فيما تقول الأساطير.

وعلى مياهه وفوق شطآنه ما زالت البشرية تتجدد - كما يقول ميكليت - في منطقة تعد من أبداع مناطق العالم جواً. ولكني رغم كل هذا الجمال، لم أستطع إلا أن ألقى نظرة سريعة على حوضه الذي يغطي مساحة مقدارها مليونان من الكيلومترات المربعة. وحتى علم الربان نيمو الواسع قد حرّمته، إذ إن هذا الشخص الغامض لم يظهر لنا أثناء اجتيازنا هذا البحر مسرعين. وقد قدرت المسافة التي ستقطعها الغواصة تحت سطح الماء بستمئة فرسخ «أي ١٨٠٠ ميل» وقد قطعها في ثمان

وأربعين ساعة إذ بدأنا الرحيل من المياه اليونانية في صباح اليوم السادس عشر من شهر فبراير واجتازنا مضيق طارق مع شروق الشمس في اليوم الثامن عشر.

وقد تبين لي بوضوح أن الربان نيمو كان شديد النفور من هذا البحر وما يحيط به من بلاد، ويبدو أن أمواجه ونسائمه أثارت الكثير من ذكرياته، إن لم يكن الكثير من أشجانه، فهو هنا لم يكن يستمتع بحرية الحركة والقيادة التي تهيأت له في المحيط الواسع. وكانت غواصته أسيرة بين الشواطئ الأوروبية والإفريقية.

وكانت سرعتنا عندئذ خمسة وعشرين ميلاً في الساعة، ولست بحاجة إلى القول إن نيد لاند اضطر مُكرهاً لنبد فكرة الهرب. فلم يكن في مقدوره استخدام قارب كان يندفع مع الغواصة بسرعة ثلاث عشرة ياردة في الثانية.

وكان الهرب من الغواصة عندئذ كالقفز من قطار ينطلق بنفس السرعة، وهي محاولة أبعد ما تكون عن الحكمة. يضاف إلى هذا أن الغواصة كانت تصعد إلى السطح للتهوية في الليل فقط، وكان كل الاعتماد في قيادتها على البوصلة ومسجل السرعة.

ولهذا لم أر من البحر الأبيض إلا ما يراه راكب القطار السريع من المشاهد الخاطفة أمام عينيه، أو بمعنى آخر، الأفق البعيد، لا المشاهد القريبة التي كانت تتعاقب في سرعة البرق. ومهما يكن فقد استطعت أنا وكونسايل أن نلاحظ في هذا البحر بعض أنواع السمك التي كانت قوة زعائفها تتيح لها الصمود لحظات أمام اندفاع الغواصة، وكنا نرقب هذه

الأسماك خلف نوافذ الصالون البللورية، كما أن مذكراتنا عنها تهىء لي تدوين بضعة أسطر عن علم الأسماك في هذا البحر.

لقد رأيت بعض هذه الأسماك المختلفة، ولمحت بعضها الآخر، ولا أستطيع الحديث عن غيرها من الأنواع التي لم تتح لي سرعة الغواصة رؤيتها إطلاقاً. وقد أتيح لي تصنيف هذه الأنواع السمكية طبقاً لهذه الظروف التي لم تسمح لي إلا بالملاحظة العابرة.

كانت تنساب في اللبج المائية المضاءة بالنور الكهربائي، بعض أسماك المورينة أو الجلكاء، وطول كل منها نحو ياردة، وهي من الأنواع الشائعة في كل الأجواء تقريباً، وبعض أسماك الأكسيرينيش، وهو نوع يبلغ عرضه خمسة أقدام، أبيض البطن تعلو ظهره نقط رمادية وهو يسبح في مجموعات كبيرة يحملها التيار. ومرت بنا أنواع أخرى من هذا السمك بسرعة بالغة بحيث تعذر أن أثبتين إن كانت تستحق اسم «النسور» كما يسميها اليونانيون، أو الفيران أو الضفادع أو الخفافيش كما يسميها الصيادون المعاصرون.

وكنت أرى قليلاً من نمور البحر «الميلاندر» التي يبلغ طول أحدها اثني عشر قدماً، والتي يفزع منها الغواصون على الأخص، كانت تتسابق مع أسراب الأكسيرينيش. أما سمك ثعالب البحر الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام ويتمتع بحاسة شم قوية، فكان يظهر كظلال كبيرة زرقاء. وكانت أسماك الدوريد المذهبة الرأس التي طول إحداها تسع وثلاثين بوصة تقريباً، تبدو في إهابها الأزرق أو الفضي الموشى بخطوط لطيفة تتألق أمام ألوان زعانفها القائمة. وثمة أسماك قيل إن إلهة الجمال فينوس

كانت مولعة بها إلى حد التقديس، وهي ذات عيون ذهبية المحاجر، كما أنها نوع ثمين يعيش في المياه العذبة والمالحة وفي الأنهار والبحيرات والمحيطات، وفي كل أنواع الأجواء محتملة كافة التقلبات الجوية، وهي سلالة تنحدر من أصل يمتد إلى العصور الجغرافية الأولى للكرة الأرضية، وهكذا استطاعت أن تحتفظ بكل جمالها الطبيعي الأصيل. وكان سمك الحفش الفاخر الذي يبلغ طوله من عشر إلى اثنتي عشرة ياردة، والذي يمتاز بالسرعة الفائقة، يضرب زجاج النوافذ البللورية بذيوله القوية، ويكشف عن ظهور مائلة للزرقة ذات نقط بنية. ويشبه هذا السمك نمور البحر ولكن لا يدانيه في القوة. وهو موجود في جميع البحار، وفي الربيع ينتقل إلى الأنهار الكبيرة حيث يكافح تيارات الفولجا والدانوب والبو والرون واللوار والأودر، ويقتات بأسماء الرنجة والسالمون والبيكالاه. ورغم أنه من الفصيلة الغضروفية فله طيب المذاق وهو يؤكل طازجاً، ومجففاً، ومملحاً، وكانت تزهبه مائدة الإمبراطور لوسيلوس. ولكن الأسماك التي استطعت ملاحظتها بتفصيل واف من بين مختلف أسماك البحر الأبيض كانت نوعاً من السمك ينتمي إلى الفصيلة الثالثة والستين في ترتيب الأسماك العظمية. وذلك هو سمك التونة القاتم اللون، والأزرق الظهر المموه البطن باللون الفضي. الذي تشع زعانفه الصدرية وميضاً كالذهب. والمشهور عن هذه الأسماك أنها تتبع السفن التماساً لظلالها في الأجواء الاستوائية. وقد رافقت الغواصة في مسيرها كما سبق أن رافقت سفن لايروز. لقد جاهدت ساعات طويلاً أن تتابع الغواصة في سيرها، والواقع أنني لم أشبع من الإعجاب بهذه الأسماك

التي خلق جسمها خاصة لسرعة السباحة، فرووسها صغيرة وأجسامها مرنة مستديرة يبلغ طول بعضها ثلاث ياردات وتمتاز زعانفها الظهرية بقوة كبيرة وذيلها مفروقة. وكانت تسبح في تشكيلات مثلثة كبعض أسراب الطيور التي تتساوى معها في السرعة مما جعل القدماء يقولون إنها على علم بالهندسة والتخطيط. ومع ذلك فإنها لا تنجو من شباك سكان الأقاليم المجاورة الذين يولعون بها مثال أهالي إيطاليا. كما تموت الآلاف من هذه الأسماك الثمينة وهي عمياء مترنحة في شباك الصيادين بمارسيلييا.

وإني أسجل هنا ما وعته الذاكرة من أسماك البحر الأبيض التي لمحتها أنا وكونساييل بنظرات عابرة منها سمك «البياض العريان» الذي يمر كأنه الأبخرة، وثعابين القنجر أو الأنكليس البحري. والأفاعي المائية التي يتراوح طولها بين ثلاث أو أربع ياردات، وهي مزخرفة بالألوان الخضراء والزرقاء والصفراء. وأسماك البكالاه التي يبلغ طولها ثلاثة أقدام وتصنع من أكبادها أطباق شهية. وسمك الكويول - تيانبا الذي يبدو في البحر كالأعشاب المائية الجميلة. وسمك التريجل الذي يسميه الشعراء سمك القيثار ويسميه البحارة السمك «الصفار» وأفواهه محلاة بمثلثين من أسنان كالنصال على هيئة معزف هوميروس القديم. وثمة فصيلة أخرى من هذا النوع اسمها سمك التريجل العصفوري لأنها تسبح بسرعة الطيور، وسمك الألوز المزين بنقط سوداء ورمادية وبنية وزرقاء وصفراء وخضراء وهو يستجيب عادة إلى رنين الأجراس، وسمك التريوت الفاخر المعروف باسم دجاج البحر، وهو نوع قلبي

الشكل له زعانف صفراء مرقطة باللون البني، ثم أسراب من البوري الأحمر المعروف باسم عصافير جنة المحيط، وكان الرومان يشترونه بأثمان باهظة لكي يشاهدوه على المائدة وهو يتحول من لون الحياة الأحمر القاني إلى لون الموت الأبيض الشاحب.

وإذ كنت لم أستطع مشاهدة أسماك أخرى كالبوري والبالستر وفرس البحر «الهوكان» والجوان وسمك البوق، والبليني، والبوري الأحمر، والراس، والحساس، والبوري البياح أو الذهبي، والأنشوجة والباغوري، والبوجي، وأبو النقار أو أي أنواع رئيسية من التي تمثل رتبة الأسماك ذات الرؤوس المفرطحة كسمك الداب «يشبه سمك موسى» والفلز، والسطحيات، وأنواع من سمك موسى، وكلها من مرتبة الأسماك المستوطنة للبحر الأبيض والبحر الأدرياتي وإنما يرجع هذا إلى سرعة الغواصة وهي تجتاز البحر من أقصاه إلى أقصاه.

أما عن الثدييات البحرية فأظنني رأيت في مدخل البحر الأدرياتي اثنين أو ثلاثة من القشطلوت «القياطس» «حوت العنبر» المزود بزعانف صدرية، وبعض درافيل البحر ذات الرؤوس والظهور المقلمة بخطوط رفيعة واضحة وعشرات من الصيالات «سباع البحر» ببطون بيضاء وشعور سوداء، وهي تعرف باسم «الرهبان» لأنها في الواقع تشبه الرهبان الدومينكان رغم أن طول الواحدة منها ثلاث ياردات.

أما كونسايل فقد تصور أنه شاهد سلحفاة بحرية طولها ستة أقدام مزينة بخطوط من العظام البارزة طولية الاتجاه. وقد أسفت لعدم رؤيتي هذه السلحفاة، إذ يبدو أنها من نوع نادر ولكني شخصياً لم أشهد سوى

عدد يسير من سلاحف الكاكدان ذات الذبول العظمية الطويلة.

أما عن الزوفيت أو الحيوانات الشبيهة بالنبات. فقد أعجبت ببعضها وهي من الشعبيات التي رأيته عالقة بالألواح الجانبية للغواصة. وكانت خويطات رقيقة طويلة مطردة التشعب، وتنتهي بالطف ألوان مما لا يأتي بمثله الفنانون. ولم يك في مقدوري لسوء الحظ الحصول على بعض من هذه الأنواع البديعة وكان حتمًا ألا أشهد أنواعًا أخرى من الزوفيت في البحر الأبيض المتوسط لو لم تخفف الغواصة من سرعتها في ليلة السابع عشر من شهر فبراير بسبب المناسبة الآتية:

كنا عندئذ نمر بين جزيرة صقلية وشاطئ تونس، أي في الممر المائي الضيق بين رأسي بون ومضايق ميسينا، وفي هذه المنطقة يرتفع قاع البحر ارتفاعًا يكاد يكون رأسياً بحيث يتكون في هذا الممر شبه حاجز تعلوه المياه بارتفاع ست عشرة ياردة فقط، أما عن الجانبين فكان العمق يبلغ نحو مائة وثمانين ياردة، ومن ثم كان على قائد الغواصة أن يمضي بها في حذر لئلا تصطدم بالحاجز.

ولما أطلعت كونساييل على موضع الحاجز على خارطة البحر الأبيض المتوسط قال:

- إنه شبه برزخ حقيقي يصل بين أفريقيا وأوروبا.
 - نعم يا بني لقد أثبتت أبحاث العالم الجغرافي سميث أن القارتين كانتا فيما مضى عند رأس بوكود ورأس نورينا.
- فقال كونساييل:

- هذا ما أعتقدهُ أيضًا.

- ويمكنني أن أضيف إلى هذا أن هناك حاجزًا مماثلًا في مضيق جبل طارق كان فيما مضى يفلق البحر الأبيض المتوسط كله.
- ماذا لو أن بركانًا ثار ذات يوم ورفع هذه الحواجز إلى ما فوق الماء؟

- هذا احتمال بعيد يا كونسایل.

- ولكن إذا وقعت مثل هذه الظاهرة فإنها ستكون من سوء حظ من يحاول حفر قناة السويس.

- نعم.. هذا محتمل.. ولكنني أكرر القول يا كونسایل إن هذا لن يحدث، فإن الثورات البركانية آخذة في التناقص، والبراكين التي كانت متكاثرة في عصور التاريخ الأولى تخدم الآن تدريجيًا لأن الحرارة في باطن الأرض تخف على مر العصور، ودرجتها تهبط إلى حد كبير عصرًا بعد عصر، وفي هذا أشد الضرر لكرتنا الأرضية التي تتوقف حياتها على هذه الحرارة الجوفية.

- ولكن الشمس...؟

- إن حرارة الشمس وحدها لا تكفي يا كونسایل.. هل يمكن الشمس أن تحيي بالحرارة جثة هامدة؟
- لا أعتقد..

- حسنًا يا كونسایل. سوف تصبح الأرض ذات يوم كالجثة الهامدة الباردة، وإذا ذاك لن تكون صالحة للحياة ولن تكون مأهولة كالقمر الذي

فقد حرارته الجوفية منذ أمد بعيد.

- في كم من القرون يحدث هذا؟

- في بضعة آلاف من السنين.

- إذن سيكون لدينا الوقت الكافي لإتمام رحلتنا إذ لم يتدخل نيد

لاند في الأمر.

وبعد أن اطمأن كونسایل على هذه الصورة عاد إلى دراسة القاع
البحري المرتفع الذي كانت الغواصة تمر بجانبه في سرعة معتدلة.

وهناك على أرض القاع الرملية الصخرية كانت تعيش النباتات الحية
من الإسفنجيات والنقعيات والهلاميات المزخرفة بأصباغ مائلة للحمرة
تبعث منها أحياناً أضواء فسفورية والبيروز المعروف باسم خيار البحر
والأحياء القنابية التي تسبح في أطراف من ضوء الشمس ويبلغ طولها
نحو ياردة، وتنساب منها أصباغ قرمزية تضيء حمرة على الماء والأحياء
المتشجرة ذات الجمال الرائع، والأسماك القزحية ذات الزعانف الكبيرة،
وأنواع مختلفة من قنابد الماء الصالحة للأكل، وشقائق البحر ذات
الأنياب الرمادية والأقراص البنية المختفية بين مجاستها الزيتونية اللون.

وقد أكثر كونسایل من اهتمامه باللافقاريات والمفصليات «ذوات
المفاصل» ورغم امتلاء جعبته بالأسماء العلمية الجافة، فإنني لن أهضم
حقه بإغفال ملاحظاته الخاصة.

ففي شعبة اللافقاريات نراه يسرد عددًا كبيرًا من أنواعها: الشطاني،
والأسقلوب، وحوافر الجحش التي يتراكم بعضها على بعض والدوناس

المثلث، والهياليا الثلاثية ذات الزعانف الصفراء والأصداف الشفافة والشعبيات البللورية المحفوفة باللون الأحمر، والبويضات المرقطة باللون الأخضر، والإيليزبا المعروفة باسم أرانب البحر، والدولابيا، والاسيروز اللحمية، والأمبرليا الخاصة بالبحر الأبيض، وزوائد البحر الذي ينتج محارها أحسن أنواع عروق اللؤلؤ. ومحار الأنوم الذي يقال إن أهالي جنوب فرسا يفضلونه على كل أنواع المحار. ومحار الكلوفر الشهي لدى أهالي مرسيليا، والبراييري المزوج، والذي يكثر بيعه في نيويورك، وأمشاط السمك الصمامي ذات الألوان المتدرجة والمرجانيات المطمورة في أجحارها التي استعذب مذاقها الحريف وغير هذا كثير. أما المفصليات، فقد قسمها كونسایل في مذكراته إلى ستة أقسام ينتمي ثلاثة منها إلى البحریات وهي القشريات، والليفيات، والحلقيات.

وتنقسم القشريات إلى تسع مراتب، وتحتوى المرتبة الأولى منها على القنصيات أي الحيوانات التي تتصل رؤوسها عادة بصدورها مباشرة، والتي يتكون جهازها الشدق من عدة أعضاء، كما أن لها أربعة أو خمسة أو ستة أزواج من مخالب الحركة.

وقبل أن يدون كونسایل في مفكرته بقية الأقسام والرتب كانت الغواصة قد اجتازت المياه الليبية وابتعدت عن الحاجز القاعي، واستأنفت سرعتها في مياه بعيدة العمق، ومنذ ذلك الحين لم نشهد شيئاً من اللافقاريات أو المفصليات أو الشعبيات، بل قليل من الأسماك الكبيرة التي كانت تمر كالظلال.

وفي ليلة السابع عشر من الشهر دخلنا الحوض الثاني من البحر

الذي يبلغ أعمق مكان في قاعه ثلاثة آلاف ياردة. وقد راحت الغواصة تنساب بقوة محرركاتها في هذه الأغوار العميقة.

وهناك رأيت بدلاً من العجائب الطبيعية - مشاهد بالغة التأثير. كنا في الواقع نعبر ذلك الجزء من البحر الأبيض الذي كثرت فيه الكوارث والأحداث. فكم من سفن غرقت بين شواطئ الجزائر وبين الشواطئ الأوروبية لهذه المنطقة. إن البحر الأبيض لا يعدو أن يكون بحيرة بالقياس إلى المحيط الهادئ الفسيح. ولكنه بحيرة متقلبة الأهواء، متغيرة المزاج، فهي اليوم رقيقة حانية على السفن الشراعية الصغيرة المتنقلة بين السواحل المحلية التي تبدو كأنها سابحة في جو هادئ من الماء والسماء، وهي غداً عاصفة نائرة الرياح تحطم أقوى السفن بضربات أمواجها الساحلية الضيقة.

ما أكثر حطام السفن التي رأيتها في القاع أثناء مرور الغواصة السريع! كان بعضها قد غلفته الشعب المرجانية بطبقة من الصدا، ناهيك بالمراسي الحديدية والمدافع والقذائف، وقضبان الحديد والرفاصات وقطع الآلات، والقزانات المحطمة وبعض أجسام عائمة في وسط الماء من سفن غارقة، وبعضها أفقي وبعضها مقلوب.

ومن هذه الكوارث ما كان وليد اصطدام سفينة بأخرى ومنها ما كان نتيجة اصطدام السفن ببعض الصخور الجرانيتية، وقد رأيت سفناً غاصت إلى القاع رأسياً وصواريها لا تزال مرفوعة، فبدت وكأنها راسية في مكان رحب لا تنتظر إلا ساعة الرحيل. وحين مرت الغواصة بالقرب منها مرسلتها ضوءها الكهربائي عليها، بدت هذه السفن ذات الأشرعة

وكانها تهم بتحيتنا. ولكن كلا... لم يكن ثمة إلا سكون الموت مخيمًا فوق ساحة الكوارث.

ولاحظت أن نسبة حطام السفن كانت تزداد في قاع البحر الأبيض كلما اقتربت الغواصة من مضيق جبل طارق، حيث كانت الشواطئ الأوروبية والأفريقية تزداد اقترابًا فتزداد نسبة الاصطدامات. وهكذا رأيت عددًا كبيرًا من هياكل السفن وحطام البواخر، بعضها منقلب على جانبه وبعضها منتصب كحيوانات ضخمة، وقد رأيت واحدة منها مفتوحة الجوانب مائلة المدخنة فصلت عجلة قيادتها من المقدمة وإن بقيت معلقة بسلسلة حديدية؛ أما المقدمة المتأكلة من الصدأ فكان لها مشهد رهيب. ترى كم من النفوس البشرية لقيت حتفها في هذه الكوارث! وكم من الضحايا ابتلعها هذه الأمواج!

هل عاش واحد من البحارة ليرى ما حدث في هذه الكوارث الرهيبة، أم أبقت الأمواج على أسرارها المشؤومة! ولست أدري ما الذي أوحى إليّ أن هذه السفينة لا بد أن تكون السفينة «أطلس» التي اختفت منذ عشرين عامًا ولم يسمع عنها شيء منذ ذلك الحين، أه يا له من تاريخ مستطير ترويه أعماق البحر الأبيض!.. هذا المدفن الكبير الذي كم ضاعت فيه ثروات وكم التقى من عديد الضحايا مع الموت!

وفي خلال ذلك كانت الغواصة تنطلق بين هذه الأطلال مسرعة لا تأبه لشيء؛ حتى إذا كان اليوم الثامن عشر من فبراير أشرفت على مدخل جبل طارق في نحو الساعة الثالثة صباحًا.

وفي هذا المضيق كان يجري تياران بحريان: التيار العلوي المعروف

منذ أمد بعيد يحمل مياه المحيط إلى حوض البحر الأبيض المتوسط،
والتيار السفلي المضاد، الذي ثبت وجوده بالتفكير والمنطق السليم.
ذلك أن كمية مياه البحر الأبيض التي تضطرد زيادتها من مياه المحيط
والأنهار التي تصب فيه لا بد أن ترفع مستواه كل عام، ولما كانت عوامل
التبخّر لا تكفي لإرجاعه إلى مستواه المنخفض فيتحتم إذن وجود تيار
سفلي يدفع الماء الزائد إلى المحيط عبر مضيق جبل طارق.

وقد أثبتنا نحن هذه الحقيقة إذ استفادت الغواصة من وجود التيار
المضاد، واندفعت بسرعة خلال الممر الضيق، وأتيح لي أن ألمح بنظرة
عابرة أطلال معبد هرقل الغارق مع الجزيرة التي شيد فوقها معبداً بليني
وأفينوس - وما هي إلا لحظات حتى كنا نطفو على سطح المحيط
الأطلنطي.



الفصل الثاني والثلاثون

خليج فيجو

المحيط الأطلنطي . هذا المنبسط المائي الشاسع الذي يغطي مساحة تقدر بملايين الأميال، فإن طوله تسعة ملايين ميل، وعرضه محدود لا يزيد على ألفين وسبعمائة ميل . إنه محيط كبير الأهمية رغم أن القدماء لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً إلا سكان قرطاجة . أولئك الملاحون القدامى الذين كانوا يتتبعون في رحلاتهم التجارية الشواطئ الغربية لأوروبا أو أفريقيا . إنه محيط تحتضن شواطئه المتوازية الملتوية حوضاً هائلاً تصب فيه أكبر أنهار العالم . سانت لورنس، والميسيسيبي، والأمازون، ولاباتا، وأدينوكو، والنيجر، والسنغال، والألب، واللوار، والراين، وهي أنهار تجلب المياه من أرقى الأمم حضارة كما تجلبها من أشدها تخلفاً . إنه سهل رائع تشقه السفن من كل الأمم بلا انقطاع، تظللها أعلام كافة الدول، وينتهي في موضعين مخيفين يجزع منهما كل ملاح، رأس هورن، ورأس تمبست .

وكانت الغواصة تضرب الماء بمقدمتها المدببة بعد أن قطعت نحو عشرة آلاف فرسخ في ثلاثة أشهر ونصف شهر، وهي مسافة أكبر من

مدار الكرة الأرضية. ترى إلى أين نحن الآن ذاهبون؟ وماذا يخبئ لنا المستقبل؟

لقد صعدت الغواصة إلى السطح عقب خروجها من مضيق جبل طارق، وهكذا عدنا إلى نزهتنا اليومية فوق ظهرها.

لقد بادرت بالصعود إلى سطحها مع كونسايل ونيد لاند حيث رأينا رأس فنسنت يبدو عائماً على مسافة اثني عشر ميلاً، وهو يكون الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة الإسبانية. وكانت الرياح تهب في عنف يقرب من العاصفة، والبحر مهتاجاً مما جعل الغواصة تتأرجح بقوة، حتى كاد يستحيل البقاء على سطحها الذي كانت الأمواج تكتسحه بين حين وآخر، فلم يسعنا إلا العودة إلى داخلها بعد أن ظفرنا بقدر من الهواء النقي.

وعدت إلى غرفتي، ومضى كونسايل إلى قمرته، ولكن نيد لاند تبعني وهو يبدو مشغول البال إذ كان اجتيازنا السريع في البحر الأبيض قد حال دون تنفيذ مشروعه للهرب، ولم يحاول كتمان استيائه لهذا السبب.

ولما أغلقت باب غرفتي جلس ينظر إليّ في صمت. فقلت له:

- يا صديقي نيد لاند، إنني أعرف ما يدور بنفسك، ولكن ليس هناك ما تُلام عليه. فقد كان من الجنون أن يحاول الإنسان الهرب من الغواصة وهي تنطلق بمثل هذه السرعة.

فلم يجب نيد لاند بشيء، ولكن نمت شفتاه المطبقتان وجبينه المقطب عن مبلغ سيطرة هذه الفكرة على نفسه. وعدت أقول له:

- حسنًا ليس ثمة موجب لليأس بعد، إننا نسير الآن تجاه شاطئ البرتغال وإن فرنسا وإنجلترا على مسافة بعيدة حيث يمكننا أن نلتمس الملاذ. ولو أن الغواصة مضت بعد خروجها من جبل طارق إلى تلك المناطق البعيدة عن اليابسة لشاطرتك الإحساس بالقلق. ولكننا نعرف الآن أن الربان نيمو لا يتجنب المناطق المتحضرة، وإذن ففي مقدورنا بعد أيام قليلة أن ننفذ مشروعنا في شيء من الأمان.

وحقق نيد لاند إليّ برهة، وأخيرًا انفرجت شفته قائلاً:

- سيكون التنفيذ الليلة.

انتفضت في مكاني، وأعترف أنني لم أكن مستعدًا لهذا النبأ، وقد أردت أن أجيب ولكن الألفاظ أبت أن تخرج من شفتي. فعاد يقول:

- لقد اتفقنا على انتظار الفرصة السانحة. وها هي الفرصة قد سنحت، فستكون الليلة على بعد أميال قليلة من الشاطئ الإسباني. وسيكون الظلام كثيفًا. وإني معتمد عليك يا مسيو أروناكس بعد أن وعدتني.

ولما بقيت صامتًا، نهض واقترب مني قائلاً:

- في الساعة التاسعة من هذه الليلة. لقد أخبرت كونسايل بالأمر. وفي هذا هذا الوقت سيكون الربان نيمو في غرفته، وربما في سريره. ولن يستطيع المهندسون أو البحارة أن يشاهدونا. وسأذهب مع كونسايل إلى السلم الرئيسي، وستبقى أنت يا مسيو أروناكس في غرفة المكتبة، وهي غير بعيدة، حيث تنتظر إشارتنا. وزورق الغواصة مزود بالمجاديف

والصاري والشرع، بل إنني استطعت تهريب بعض الزاد إليه وقد حصلت على «مفتاح إنجليزي» لنزع الروابط الحديدية التي تشده إلى الغواصة. وهكذا تم إعداد كل شيء لهذه الليلة.

- ولكن البحر مضطرب.

- أنا مسلم بهذا، ولكن لا بد من المخاطرة، إن الحرية جديرة بأن يضحي الإنسان من أجلها. وفوق هذا فإن القارب متين، والإبحار بضعة أميال مع ريح مواتية ليس بالأمر العسير، فمن يدرينا أننا لن نكون غداً على مسافة ثلاثمائة ميل من الشاطئ إذا بقينا هنا، أما إذا ساعدتنا الظروف، فسنبلغ اليابسة أحياء أو أمواتاً فيما بين العاشرة والحادية عشرة صباح غد، فليكن موعدنا الليلة على بركة الله.

ثم انسحب نيد لاند على الأثر وتركني مشدوهاً، فقد كنت أتصور أنني أستطيع عندما أتحين الفرصة أن أناقش خطة الهرب. ولكن صاحبي العنيد لم يسمح لي بهذه الفرصة. وعلى أي حال ماذا كان يمكن أن أقول له. إن نيد لاند على حق. فهي فرصة سانحة، وقد استغلها. فهل كنت أستطيع أن أسترده كلمتي وأزعم - لمصلحتي الخاصة - أنني أعمل لمستقبل صاحبي؟ وقد لا يبعد أن يمضي الربان نيمو بنا غداً إلى جهات نائية عن اليابسة.

وفي تلك اللحظة سمعت صوت فحيح قوي أدركت منه أن مستودعات الماء تمتلئ، وما لبثت الغواصة أن هبطت إلى جوف المحيط الأطلنطي.

وبقيت في غرفتي. وتمنيت أن أتجنب الربان حتى أخفي عن نظراته

الانفعالات التي تضطرم في نفسي. وإنه ليوم حزين هذا الذي أمضيته بين الرغبة في استرداد حريتي وبين الأسف على مغادرتي لهذه الغواصة الرائعة والتخلي عن أبحاثي البحرية قبل استكمالها. كيف أترك محيطي الأطلنطي هذا كما أحب أن أسميه، قبل أن أدرس أعماقه أو أعرف منه تلك الأسرار التي عرفتھا في بحار الهند والمحيط الهادي. لقد ضاعت قصة المغامرة من يدي وأنا لا زلت في أول مجلداتها.. لقد انقطع جبل أحلامي في أبهى موضع منه. إنها ساعات تاعسة أمضيته هكذا وأنا أري نفسي حيناً في أمان بالزورق مع صاحبي وحيناً آخر أتمنى لو أن ظروفًا مفاجئة طرأت وحالت دون تنفيذ خطة نيد لاند.

وذهبت إلى الصالون مرتين لأنظر إلى البوصلة وأرى هل تقترب الغواصة من الشاطئ أو تبتعد عنه. فتبينت أنها لا تزال تسير في المياه البرتغالية متجهة شمالاً بحذاء شواطئ المحيط.

ولم يسعني إذن إلا أن أحزم رأيي وأتأهب للهرب. ولم تكن حقيقتي ثقيلة إذ لم يكن بها سوى مذكراتي. ورحت أتساءل عما سيشعر به الربان نيمو بعد فرارنا وعن القلق الذي سيسببه له هذا الفرار أو الضرر الذي قد يصيبه، وما قد يفعله إذا اكتشفت الخطة قبل أن يكتب لها النجاح. والواقع أنني لم أجد أي مأخذ على الربان بل على العكس لم يسبغ أحد من الكرم مثلاً أسبغ علينا ولكن لا يمكن أن أتهم بالجحود إذا أنا تركته لأننا لم نرتبط معه بقسم، وكان يعتمد على قوة الظروف وحدها في استبقائنا معه إلى الأبد، لا على وعد أكيد منا. بل إن ما صارحنا به من نية الإبقاء علينا أسرى إلى الأبد في غواصته يبرر قيامنا بهذه المحاولة.

ولم أكن رأيت الربان منذ زيارتنا لجزيرة سانتورين. فهل يقدر لي لقاءه قبل الرحيل. لقد تمنيت هذا وخفته في آن واحد. وأرهفت سمعي عسى أن أسمعه يتمشى في الغرفة المجاورة فلم يصل إلى أذني صوت وأدركت أنه لا يمكن أن يكون بالغرفة أحد.

ثم جعلت أتساءل عما إذا كان هذا الرجل العجيب موجودًا في الغواصة على الإطلاق!

كانت أحواله قد تغيرت قليلاً منذ ذهب زورق الغواصة في تلك المهمة الغامضة. كما أدركت رغم كل أقواله أنه لا بد على نوع من الاتصال باليابسة. أم تراه لا يغادر الغواصة قط. لقد انصرفت أسابيع كاملة دون أن أراه. فماذا كان يفعل طوال هذه المدة؟ ألا يحتمل وأنا أحسبه مريضاً بداء النفور من الناس أن يكون منهمكاً في تحقيق أهداف سرية لم أستطع بعد أن أعرف طبيعتها؟

كانت هذه الخواطر وكثير غيرها تهاجمني في وقت واحد. وإن مجال التخيل يكون بلا حدود في مثل هذه الظروف الشاذة. وهكذا ساورني قلق لا يحتمل. وبدا يوم الانتظار هذا بلا نهاية حتى خُيل إليّ من فرط القلق أن الساعة تدور ببطء.

وقُدم إليّ طعام الغداء في غرفتي كالمعتاد فأكلت قليلاً بسبب انشغال ذهني، ونهضت عن المائدة في الساعة السابعة وكان ثمة مائة وعشرون دقيقة لا تزال تفصلني عن موعد انضمامي إلى نيد لاند. وازداد انفعالي واشتدت ضربات قلبي ولم أستطع أن ألزم السكون فأخذت أتمشى لعلني بالحركة أهدئ من اضطراب ذهني. وكانت فكرة فشل محاولتنا الجريئة

أقل ما يؤلمني. ولكن التفكير في افتتاح مشروعنا قبل مغادرتنا الغواصة ثم وقوفنا أمام الربان نيمو وهو ساخط أو محزون لفراقي في أسوأ الظنون كان يضاعف من خفقان قلبي.

وأردت أن أرى الصالون للمرة الأخيرة. فذهبت عن طريق وسط الغواصة. ودخلت المتحف الذي طالما أمضيت فيه ساعات جميلة. ونظرت إلى تلك الكنوز وكأنني رجل يوشك أن يُنفى نفيًا أبدًا أو يذهب إلى غير رجعة. هذه العجائب الطبيعية، وهذه الروائع الفنية التي قضيت بينها كثيرًا من أيام حياتي، كنت على وشك مفارقتها إلى الأبد. وتاقت نفسي إلى النظر من النوافذ البللورية إلى مياه الأطلنطي. ولكن النوافذ كانت مغلقة بإحكام. وكانت الألواح الحديدية تفصلني عن المحيط الذي لم أعرف عنه الكثير بعد.

ووصلت وأنا أسير في الصالون إلى الباب المؤدي إلى الدهليز الموصل إلى غرفة الربان. وشد ما كانت دهشتي حين رأيته مواربًا فتراجعت برغمي، إذ لو كان الربان في غرفته لرآني. ولما لم أسمع صوتًا زدت اقتربًا، فوجدت الغرفة خالية، ففتحت الباب ودخلت فوجدتها كالعهد بها أشبه بصومعة ناسك.

واسترعى نظري إذ ذاك صور لم أرها من قبل في الغرفة معلقة على الجدران: صور رجال من عظماء التاريخ الذين كرسوا حياتهم في سبيل المثل الإنسانية العليا كوشيسكو البطل الذي خر صريعًا وهو يهتف «انتهيت يا بولنيا» وبوتزاري بطل اليونان الحديثة، وأوكينل المدافع عن إيرلندا، وواشنطن منشئ الاتحاد الأمريكي، ومانيني البطل الإيطالي،

ولنكولن الذي راح ضحية سفاك من ملاك العبيد. وأخيرًا جون براون ضحية تحرير الجنس الأسود، وهو معلق في المشنقة كما صورته قلم فكتور هوجو.

ترى أي وشائج تربط هؤلاء الأبطال بالربان نيمو؟ هل يؤدي اجتماع هذه الصور إلى إمالة اللثام أخيرًا عن سره الغامض؟ أهو بطل في وطن مضطهد أو قائد حركة لتحرير العبيد؟ أهو إحدى الشخصيات الكبيرة ذات الأثر البالغ في الحركات السياسية والاجتماعية المعاصرة؟ أهو أحد أبطال الحرب الأهلية الأمريكية الرهيبة؟ هذه الحرب التي يؤسف لها وإن كانت مجيدة رائعة.

وفجأة أعلنت الساعة الثانية مساءً. وكانت دقتها الأولى قد أعادتني إلى عالم الحقيقة فإذا أنا أرتعد كأن ثمة عينًا خفية تستطيع أن تنفذ إلى أعماق تفكيري. واندفعت إلى خارج الغرفة.

ولما نظرت إلى البوصلة وجدت أن الغواصة لا تزال متجهة نحو الشمال، ودل المقياس على أنها تسير بسرعة معتدلة. أما مقياس العمق فقد بدا منه أننا على عمق ستين قدمًا. وهكذا كانت الظروف مواتية لمشروع نيد لاند.

وعدت إلى غرفتي وارتديت حذائي البحري السميك، وقبعتي المصنوعة من فراء الفقمة «سبع البحر» وصديرتي المنسوجة من ألياف البحر والمطرزة بفراء الفقمة أيضًا. وهكذا كنت مستعدًا. وجعلت أنتظر. وكان رنين الرفاص وحده يقطع السكون العميق السائد في الغواصة. وأرهفت السمع مشفقًا أن أسمع صيحة تنبئ لتوها أن نيد لاند قُبض عليه

وهو يحاول الهرب. وهكذا استبد بي رعب ذريع وعبثًا حاولت أن أسترده
رباطة جأشي.

وقبيل التاسعة بدقائق وضعت أذني على باب غرفة الربان فلما لم
أسمع صوتًا غادرت غرفتي وعدت إلى الصالون الذي كان خاليًا قليل
الضوء...

وفتحت الباب المؤدي إلى المكتبة، فإذا نفس الضوء القليل ونفس
الوحشة. فدخلت ووقفت بالقرب من الباب المؤدي إلى رحبة السلم
الرئيسي أنتظر إشارة نيد لاند.

وفي هذه اللحظة سمعت صوت الرفاص يخفت تدريجيًا ثم يتلاشى
تمامًا. فما سبب هذا التغيير في عملية قيادة الغواصة. لم أستطع أن أقرر
إن كان هذا التوقف في صالح نيد لاند أم لا.

ولم يكن يقطع السكون المخيم إلا ضربات قلبي.

وفجأة شعرت بهزة خفيفة فأدركت أن الغواصة استقرت في قاع
المحيط واشتد قلقي إذ لم أتلق إشارة نيد لاند وتمنيت لو ذهبت إليه
ورجوته أن يرجئ محاولته. فقد أحسست أن تغيرًا حدث في عملية
القيادة العادية.

وفي تلك اللحظة فتح باب الصالون وأقبل الربان ولما لمحني قال
بغير مقدمات وفي صوت عذب:

- آه يا بروفيسور.. كنت أبحث عنك.. هل تعرف تاريخ إسبانيا؟

إن كل من يحفظ تاريخ بلاده لا يستطيع وهو في حالة من القلق

والاضطراب أن يذكر منه كلمة واحدة.

خطر لي ذلك بينما استطرد الربان قائلاً:

- حسناً. لقد سمعت سؤالاً: هل تعرف تاريخ إسبانيا؟

- معرفة يسيرة.

- هكذا شأن العلماء.. لا يعرفون شيئاً خارج حدود اختصاصهم.

حسناً؟ اجلس. سأذكر لك حقيقة عجيبة عن ذلك التاريخ.

وتمدد الربان على أريكة وثيرة، فجلست بجانبه آلياً وظهري إلى الضوء بينما قال:

- أعرني كل اهتمامك يا بروفيسور، فإن هذا التاريخ سيعينك بصورة

ما لأنه سيجلو مسألة لا ريب أنك لم تستطع فهمها من قبل.

فقلت وأنا لا أدري ماذا يهدف الربان من وراء هذا الحديث، وما إذا

كانت له صلة بمشروع هربنا:

- إنني منصت يا كابتن.

فاستطرد الربان قائلاً:

- سأعود بك يا بروفيسور إلى عام ١٧٠٢ إذا لم يكن لديك مانع. لقد

تصور ملككم لويس الرابع عشر كما تعلم أن إشارة من الحاكم القوي

تكفي لإزالة جبال البرانس من بين فرنسا وإسبانيا، وهكذا فرض على

الإسبانيين حفيده دوق إنجو ولكن هذا الأمير الذي اتخذ اسم فيليب

الخامس واختلفت الآراء في حكمه، واجه معارضة قوية خارج البلاد،

فقد حدث في العام السابق، أن وقّعت الأسرة المالكة في هولندا والنمسا

وإنجلترا معاهدة تحالف في مدينة لاهاي كان الغرض منها نزع تاج إسبانيا عن فيليب الخامس ووضع على رأس أرشيدوق أسبغوا عليه لقب تشارلس الثالث.

وكان على إسبانيا أن تقاوم هذا التحالف، ولكنها كانت تعاني نقصاً في المحاربيين برّاً وبحراً، وإن لم يعوزها المال بشرط أن تستطيع سفنها المحملة بالذهب والفضة من أمريكا دخول الموانئ الإسبانية..

والواقع أن إسبانيا في نهاية ١٧٠٢ كانت تنتظر قافلة بحرية محملة بالذهب تحرسها ثلاث وعشرون سفينة من الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال شاتو - رينو لحمايتها ضد أساطيل الدولة المتحالفة التي كانت تجوب المحيط الأطلنطي وقتذاك.

وكان المقرر رسو هذه القافلة البحرية في ميناء قادش. ولكن عندما علم الأميرال أن الأسطول الإنجليزي يتحرك عن كذب قرر الاتجاه إلى ميناء فرنسي، فقابل ربابنة السفن الإسبانية هذا القرار بالاعتراض - ورأوا أنه إذا لم يتيسر الوصول إلى ميناء قادش، فمن الممكن الاتجاه إلى خليج فيجو الواقع في القسم الجنوبي الغربي للساحل الإسباني لخلوه من الحصار الإنجليزي.

وكان الأميرال شاتو - رينو ضعيف الإرادة فقبل هذا الاقتراح وهكذا دخلت القافلة إلى خليج «فيجو».

ولكن هذا الخليج لسوء الحظ كان طريقاً مفتوحاً يتعذر الدفاع عنه، فكان على رجال القافلة أن يسرعوا بتفريغ حمولة السفن قبل وصول أسطول الدول المتحالفة، وفعلوا كان أمامهم متسع من الوقت لإتمام هذه

المهمة، لولا أن برزت فجأة مشكلة مؤلمة سببها المنافسات.

وكف الربان فجأة عن كلامه وسألني:

- هل أنت تتبع تسلسل هذا الحديث؟

فقلت وأنا لا أدري لماذا يلقي عليّ درس التاريخ هذا:

- تمامًا.

- إذن سأستمر. وإليك ما حدث بعد ذلك. فقد كان لتجار مدينة قادش امتياز شراء جميع البضائع الآتية من جزائر الهند الشرقية، وكان تفريغ حمولة الذهب في ميناء فيجو انتهاكًا لامتيازاتهم. ومن ثم تقدموا باحتجاجاتهم إلى مدريد، وظفروا من الملك الضعيف فيليب الخامس بأمر ينص على بقاء حمولة الذهب في القافلة دون تفريغ في ميناء خليج فيجو حتى تبتعد أساطيل الأعداء عن المنطقة.

ولكن حدث في اليوم الثاني والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٧٠٢ بينما كان هذا القرار قيد المداولة أن وصلت الأساطيل إلى خليج فيجو، فتصدى لها الأميرال شاتو - رينو وهاجمها ببسالة رغم ضعف قواته. فلما رأى كنوز القافلة توشك أن تقع في أيدي الأعداء، أحرق السفائن وأغرقها إلى القاع بما فيها من ثروات ضخمة.

وأمسك الربان نيمو مرة أخرى عن الحديث. وأعترف أنني لم أستطع حتى هذه اللحظة معرفة الهدف من حديثه فقلت:

- حسنًا.

- حسنًا يا مسيو أروناكس. نحن الآن في خليج فيجو. ولك أن تقرر

إن كنت تحب أن تنفذ إلى أسرارهِ.

ونهض الربان وطلب مني أن أتبعه، واستطعت في خلال ذلك أن أسترِد رباطة جأشي فأطعته وانتقلت معه إلى الصالون الذي كان مظلمًا. ولكنني استطعت أن أثبتن مياه البحر تبرق خلف النوافذ البللورية، فحدقت النظر.

بدت لي المياه في محيط نصف ميل حول الغواصة، كأنما يغمرها ضوء كهربائي، وهكذا كنت أرى القاع الرملي بوضوح وقد تبينت بعض بحارة الغواصة في ملابس الغوص يفرغون صناديق نصف معطوبة وبراميل مفككة بين الحطام الأسود المتخلف من السفن الغارقة. فكانت تنهال منها قضبان الذهب والفضة وكميات كبيرة من النقود والمجوهرات حتى غطت رمال القاع، وكان البحارة يحملون هذه الغنائم إلى الغواصة حيث يفرغونها ثم يعودون إلى حمل غيرها وهكذا.

وأدركت كل شيء. كانت هذه ساحة معركة ٢٢ أكتوبر عام ١٧٠٢ البحرية. في هذه البقعة غرقت السفن الإسبانية المحملة بالذهب. وإليها كان الربان نيمو يجيء كلما شاء ليحصل على الملايين التي يحفظها في الغواصة فمن أجله، ومن أجله فقط، سلمت أمريكا معدنها الثمين، إنه الوارث الأول الوحيد، الذي لا ينازعه أحد، لهذه الكنوز المنتزعة من قبائل الأنكاس وشعب فرديناند كورتيز المنهزم.

وسألني الربان باسمًا:

- هل كنت تعرف يا بروفيسور أن البحر يحتوى على هذه الكنوز؟

- أعرف أن الفضة الغارقة في البحار تقدر بمليونى طن.

- بلا ريب. لكن تكاليف استخراج الفضة من الأعماق تربو على الثمن المقدر لها. أما هنا بالعكس، ما عليّ إلا أن ألتقط ما فقدته غيرى، لا فى خلىج فىجو فحسب بل فى آلاف المناطق التى كانت مسرّحاً لغرق السفن، والتى حددها بالعلامات فى خرائطى البحرية. فهل تعرف الآن لماذا أنا من كبار أصحاب الملايين؟

- نعم يا كابتن. ولكن اسمح لى أن أقول لك إن عملك فى خلىج فىجو قد سبقت إليه شركة منافسة.

- أى شركة هذه بالله؟!

- شركة نالت من الحكومة الإسبانية حق البحث عن سفن الذهب الغارقة، وقد أغرت الأرباح الطائلة حملة الأسهم بعد أن قدروا الكنوز الغارقة بخمسمائة مليون فرنك ذهباً.

- خمسمائة مليون فرنك ذهباً؟ كانت الكنوز تساوى هذه القيمة من قبل، ولكنها الآن لم تعد كذلك.

- نعم. هو ذاك، وإن تحذير حملة الأسهم يُعتبر من الأعمال الخيرية. ولكن من يدري أنهم يتلقّون التحذير بقبول حسن. إن أصحاب الآمال عادة لا يأسفون على ضياع المال أكثر من أسفهم على تحطيم آمالهم الجنونية. على كل حال فإنى أرثى لهم أقل مما أرثى لآلاف البؤساء الذين كان يمكن أن تفيدهم هذه الكنوز لو وزعت عليهم بالعدل بدلاً من ضياعها منهم إلى الأبد.

وما كدت أعبر عن رأيي هذا حتى أحسست أنني آلمت مشاعر الربان
نيمو الذي قال بشيء من الانفعال:

- ضياعها منهم! هل تعتقد إذن أن هذه الثروة ضائعة لأنني أنا الذي
يستحوذ عليها؟ هل تعتقد أنني أتعب في جمع هذه الثروة لأحتفظ بها
لنفسي؟ من قال إنني لا أحسن استغلالها؟ هل تعتقد أنني أتجاهل آلام
غيري من البشر؟ آلام الأجناس المضطهدة في هذا العالم. أو المخلوقات
البائسة المحتاجة إلى المواساة والضحايا المحتاجين إلى من ينتصر لهم.
ألا تدرك...

وأمسك الربان وكأنما ندم على أن قال كل هذا. ولكنني أدركت
الحقيقة! أدركت أنه أيًا كانت البواعث التي أرغمته على التماس حريته
في أعماق البحار، فهو لا يزال من البشر.. لا يزال قلبه يخفق لآلام البشرية
وأن مجال بره العظيم يشمل الشعوب المضطهدة كما يشمل البؤساء من
الناس.

وعلى ضوء هذا فهمت لمن أرسل الربان نيمو تلك الملايين أثناء
سير الغواصة في مياه جزيرة كريت الثائرة...



الفصل الثالث والثلاثون

القارة المفقودة

في صباح اليوم التالي التاسع عشر من شهر فبراير، رأيت نيد لاند يدخل غرفتي، وكنت أتوقع هذه الزيارة، وكانت تلوح عليه دلائل خيبة الأمل. وقال لي:

- حسنًا يا سيدي.

- حسنًا يا نيد. كان الحظ ضدنا أمس.

- نعم فقد شاء الرب أن يجلس معك في نفس الوقت الذي حددناه للهرب من الغواصة.

- أجل يا نيد.. كان لديه عمل مع مدير مصرفه.

- مدير مصرفه؟

- نعم! أو على الأصح مع مصرفه المالي، وأعني به المحيط الذي يأمنه على كنوزه أكثر مما يأمن عليها في خزائن الحكومة.

ثم ذكرت لنيد لاند ما حدث في الليلة الماضية وقد راودني ألم دفين في أن أجعله يكره الافتراق عن الربان، ولكن نتيجة حديثي كانت تعبيرًا عنيفًا عن ندم نيد لاند وأسفه لأنه لم يستطع السير بمفرده في ساحة

معركة فيجيو....

وأخيراً قال:

- ولكن كل شيء لم ينته بعد. إنها مجرد حربة قذفت بها ولم تصب الهدف. ولكننا سننجح في المرة التالية هذه الليلة بالذات، وإذا لزم...

فقلت:

- في أي اتجاه تسير الغواصة الآن؟

فأجاب نيد:

- لا أعرف.

- حسناً سنعرف مكاننا في الظهرية.

وعاد نيد لاند إلى كونساييل، وما كدت أرتدي ملابسني حتى انتقلت إلى الصالون، وهناك رأيت مؤشر البوصلة في غير صالحننا، فقد دل على أن الغواصة تتجه نحو الجنوب بجنوب غربي، أي أننا كنا نولي ظهورنا إلى أوروبا.

وانتظرت بصبر نافذ نتيجة رصد الموضع. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أطلقت المياه من خزانات الغواصة فأخذت تطفو إلى سطح المحيط. وعندئذ هرعت إلى ظهرها حيث لقيت نيد لاند وقد سبقني إلى هناك.

ولم يكن ثمة أرض على مرمى البصر.. لا شيء غير المحيط الشاسع فقط ولمحت عند الأفق سفناً شراعية قليلة كانت لا شك تبحث عن الريح المواتية لتستطيع اجتياز رأس الرجاء الصالح. أما الجو فكان ملبداً

بالسحب وينذر بهبوب عاصفة عاتية.

وحاول نيد لاند في ثورة غضبه، أن ينفذ بنظراته في الأفق المغلف بالضباب وهو يعمل النفس بوجود الأرض التي يهفو إليها وراء الغيوم. وظهرت الشمس عند الظهر، وانتهاز الضابط الأول هذه الفرصة لتحديد موضع الغواصة ثم ازداد البحر هياجًا، فهبطنا إلى داخل الغواصة وأغلقت منافذها.

ولما نظرت في الخريطة بعد ساعة، رأيت أن الغواصة تسير بين خط طول ١٧-١٦ درجة وخط عرض ٢٢-٣٣ درجة، على مسافة ٤٥٠ ميلًا من أقرب شاطئ، وهكذا لم يكن ثمة فائدة من التفكير في الهرب الآن. وإني أترك للقارئ أن يتصور غضب نيد لاند عندما أخبرته بالموقف.

أما أنا فلم يكتنفي حزن شديد. لقد تخففت من العبء الذي كان يثقل على نفسي وصار بوسعي أن أعود إلى أداء عملي المعتاد بهدوء.

وحوالي الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة فوجئت بزيارة الربان نيمو لي. وقد سألني متلطفًا عما إذا كنت متعبًا بعد أن سهرت طويلاً في الليلة الماضية؟ فلما أجبته بالنفي قال:

- إذن أقترح عليك القيام برحلة عجيبة يا مسيو أروناكس.

- ما هي هذه الرحلة يا كابتن؟

- لقد شاهدت قيعان البحار حتى الآن في أضواء النهار، أفلا تريد أن

تراها مرة في ظلام الليل؟

- كم أود هذا.

- أعلم أنها ستكون رحلة شاقة، فإن عليك أن تمضي بعيداً، وأن تصعد جبلاً كما أن الطرق ليست ممهدة كما ينبغي.

- إن ما تقوله يضاعف من فضولي وأنا على استعداد لمتابعتك.

- إذن هلم يا بروفيسور. وسنذهب لارتداء ملابس الغوص.

وفي مخزن الملابس لم أر صاحبي، وكان مقرراً ألا يصاحبني أي بحار في هذه الرحلة. بل إن الربان لم يسألني أن أصطحب كونسایل أو نيد لاند.

وارتدينا أجهزة الغوص في دقائق ثم وضعت على ظهورنا مستودعات الهواء، ولكن المصابيح الكهربائية لم تكن معدة، فلما سألت الربان في هذا قال:

- إنها لن تكون ذات فائدة لنا.

وخيل إلى أنني لم أسمعه كما ينبغي، ولكنني لم أستطع أن أكرر ملاحظتي، لأن رأس الربان اختفى داخل الخوذة المعدنية. وبعد أن فرغت من ارتداء ملابسي وضعت في يدي عصا حديدية مشعبة الطرف. وما هي إلا دقائق قليلة، بعد إتمام الإجراءات المعتادة، حتى كنا نطأ قاع المحيط على عمق ثلاثمائة ياردة.

وكان الليل يوشك أن ينتصف، ومياه البحر في ظلام دامس، ولكن الربان نيمو أشار إلى نقطة مائلة للحمرة على بعد أشبه بضوء يتألق على مسافة ميلين من الغواصة. فأني نار هذه وبأي وقود تضرم؟ ثم كيف ولماذا تتأجج في وسط هذه اللجج المائية؟ ذلك ما لم أعرفه. ومهما

يكن فقد أضاءت لنا الطريق، في غير وضوح حقاً ولكن سرعان ما ألفت هذه المتعة، وأدركت عندئذ عدم جدوى مصابيح رومكورف.

وسرت مع الربان نيمو جنباً إلى جنب نحو الضوء مباشرة. وكانت الأرض المستوية ترتفع تدريجياً، ومضيئنا بخطوات واسعة مستعينين بالعصاوين ولكننا كنا رغم هذا نتقدم ببطء، لأن أقدامنا كثيراً ما غاصت في نوع من الطين المغطى بأعشاب البحر والحجارة المستوية.

وسمعت ونحن نتقدم صوتاً أشبه بالنقر مؤقتاً، وكان الصوت يزداد أحياناً كشيء ينهمر. وسرعان ما أدركت السبب. إنها الأمطار تسقط بغزارة على سطح الماء. وداخلني إحساس غريزي بأني سأعرض للبلل بالماء داخل الماء. ولم أتمالك من الضحك لهذه الفكرة. ولكن الحقيقة هي أن الإنسان لا يشعر بالبلل داخل ملابس الغوص بل يحس كأنه في جو أشد كثافة من جو الأرض.. هذا هو كل شيء.

وبعد مسيرة نصف ساعة، أمست الأرض صخرية وعرة. وكانت الدوبيات والقشريات الميكروسكوبية والنباتات الرشيقة تضيء لنا الطريق إلى حد ما بأشعتها الفسفورية. ولمحت كومة من الصخور مكسوة بملايين الدوبيات المحارية وأعشاب البحار المتكاثفة. وكثيراً ما انزلقت قدماي على هذا البساط اللزج من النباتات البحرية، ولولا عصاي الحديدية لسقطت أكثر من مرة. ولما التفت ورائي لاحظت أن ضوء الغواصة ما زال يبرق على البعد.

وكانت أكوام الحجارة التي تحدثت عنها متراكمة في قاع المحيط في شيء من الانتظام لم أستطع تفسيره. كما لاحظت وجود أخاديد طويلة

تغيب نهايتها في جوف الظلام البعيد، واستحال عليّ تقدير أبعادها، وكان ثمة ظواهر عجيبة تبدو لي دون أن أعرف سرها. وكان يخيل لي أن حذائي الغليظ يسحق طبقة من العظام كانت تنقصف تحت وطء قدمي. ترى ما هي طبيعة هذا السهل الشاسع الذي كنت أسير فيه؟ وددت لو استطعت سؤال الربان نيمو، ولكن لغة الإشارة التي كان يتحدث بها مع زملائه في رحلاته تحت الماء كانت غامضة على مداركي.

وفي خلال هذا كان الضوء الأحمر الذي يقودنا يزداد سطوعاً وتوهجاً. والحق أن وجود هذه النار في أعماق البحر قد أثار أشد الفضول في نفسي. تُري أهي ظاهرة كهربائية؟ أتراني أتقدم إلى ظاهرة طبيعية لا تزال غامضة في أذهان علماء الأرض؟ ثم خطر لي أن يد الإنسان قد يكون لها أثر في هذا التوهج. فهل ثمة إنسان أشعل هذه النيران؟ هل كنت في طريقي وأنا أسير في هذه الأعماق البحرية إلى ملاقة زملاء وأصدقاء للربان نيمو، يعيشون عيشته العجيبة هذه، ولهذا فهو ماضٍ لزيارتهم؟ كانت هذه الأفكار الشاذة البلهاء تدور بذهني، وتذكر دهشتي المستمرة إزاء سلسلة الغرائب التي تمر أمام عيني، ولهذا لن يدهشني كثيراً أن أبصر في قاع هذا المحيط إحدى المدن البحرية التي كان الربان نيمو يحلم بها. وازداد طريقينا ضياءً، ورأيت الضوء الأبيض ينبعث من قمة جبل يبلغ ارتفاعه نحو ثمانمائة قدم. ولكن ما حسبته ضوءاً لم يكن غير انعكاس لألاء الماء. أما النار، مصدر الضوء الغريب، فقد كانت في الجانب الآخر من الجبل.

وكان الربان نيمو يتقدم بثبات في وسط الممرات الصخرية التي

تشق قاع المحيط، وكأنه يعرف الطريق المظلم جدًا بعد أن سلكه من قبل مرارًا، فلن يضل فيه، وقد رحت أتبعه في ثقة تامة. وكان يبدو وهو يسير أمامي كإحدى الجنيات البحرية، وكان يبعث شديد إعجابي بقامته الطويلة وكأنه ظل أسود على صفحة أفق مضيء.

وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حين بلغنا أولى سفوح الجبل، ولكن الطريق إليه كان يمتد في ممرات وعرة بين أدغال كثيفة.

نعم.. أدغال من أشجار جافة، بلا أوراق ولا عصارة، تمعدنت بفعل مياه البحر، وتراكت فوقها هنا وهناك أشجار الصنوبر الضخمة. كان المشهد يبدو كسلسلة من الأشجار المتفحمة ظلت قائمة على جذورها بعد زوال التربة من حولها. وبقيت أغصانها كرسوم سوداء مقصوفة بعناية، صاعدة في شموخ إلى السقف المائي، وللقارئ أن يتصور غابة من الأشجار على سفح جبال هرقل مثلاً. فإذا هي تغوص مع الجبال إلى قاع المحيط. وكانت الممرات مزدحمة بالشوكيات ونباتات البحر التي اكتظت بالقشريات. وجعلت أرتقي الصخور، وأخطو فوق الجذوع الملقاة، وأشق المتسلقات البحرية التي تمتد من شجرة إلى أخرى كأنها الأسماك الطائرة من غصن إلى غصن، دون أن يعتريني أدنى تعب، إذ كنت أتبع مرشدًا لا يعرف للتعب معنى.

ويا له من مشهد وقعت عليه عيناى كيف أستطيع تصويره بالقلم. كيف أصف مشاهد الصخور والغابات في هذا العالم المائي، حيث تبدو أجزاؤها السفلى قائمة موحشة، وأطرافها العليا محفوفة بأطياف حمراء تزيد لآلاء الماء دائمًا في حمرتها... وكنا نتسلق صخورًا لا تلبث أن

تتهاوى متفتتة في أثرنا كأنها الانهيار الجبلي. وكان عن اليمين وعن اليسار كهوف عميقة مظلمة يتوه فيها البصر. ثم شاهدت ساحات واسعة من صنع البشر. حتى لقد سألت نفسي: ألا يجوز أن يبرز لنا فجأة بعض سكان هذه الأعماق المائية؟

ولكن الربان نيمو تابع صعوده، ولم أشأ أن أتخلف عنه. وكانت عصاي ذات عون كبير لي، فإن أي خطوة في غير موضعها تنطوي على خطر كبير في هذه الممرات الضيقة المحفورة في جوانب المرتفع. ولكنني مضيت بخطوات ثابتة دون أن أحس مشقة، وكنت أحياناً أثب فوق هاويات عميقة لو أنها كانت في سفوح الجبال الأرضية لتراجعت عنها ذعراً، وكنت أحياناً أخرى أغامر بالسير فوق جذوع الأشجار الملقاة بين هاوية وأخرى دون أن أنظر إلى ما تحت قدمي، بل كنت أشخص معجباً إلى المشاهد الرائعة في هذه المنطقة. وكنت أرى صخوراً موقوفة كالنصب واستقرت على حوافي الهاويات وكأنها تتحدى كل قوانين التوازن. وبين هذه الصخور كانت تبرز أشجار كأنها نافورات مائية تندفع تحت ضغط شديد، وكلاهما يدعم الآخر. وأعقب هذا أبراج طبيعية وكأنها كتل ضخمة قدت طولياً كواجهة قلعة، ومائلة بزاوية ما كانت تسمح بها الجاذبية الأرضية لو كانت هذه الأبراج الصخرية على سطح الأرض.

بل إنني قد شعرت بما هناك من فارق كان مرجعه إلى شدة كثافة الماء وأنا أتسلق هذه المرتفعات الوعرة في خفة الغزال رغم ملابسي الثقيلة وخوذتي النحاسية ونعالي المعدنية.

إنني أشعر بأن حديثي عن هذه الرحلة تحت سطح الماء غير معقول ولا محتمل، فأنا أدرج أحداثاً تبدو مستحيلة الوقوع. ورغم ذلك فهي حقيقة لا نزاع فيها.. إنني لا أحلم.. بل أبصر وأحس.

وبعد ساعتين من مغادرتنا للغواصة، اجتزنا منطقة الأشجار، وعلى ارتفاع مائة قدم فوق رؤوسنا لاحت قمة الجبل التي كان بروزها يُلقي ظله على السفح الآخر المتألق إشعاعاً. وكان ثمة شجيرات متجردة تناثرت هنا وهناك في متعرجات عجيبة. وكانت الأسماك تبرز من تحت أقدامنا أسراباً كطيور نافرة بين أعشاب فارعة. وكانت هذه الكتلة الصخرية تتفتح عن أقبية أو كهوف بقيعان تصدر عنها أصوات مدوية رهيبة. وكان الدم يجمد في عروقي كلما أبصرت حيواناً بحرياً من الزواحف يعترض طريقي أو بعض المخليات وهي تختفي في الكهوف. وبدأت في الظلام آلاف من النقاط المضيئة هي عيون القشريات الضخمة، وسرطانات البحر الهائلة التي كانت وهي تحرك مخالبها في صليل معدني أشبه بحراس مدرعين، هذا إلى الكابوريا الضخمة التي بدت بزعانفها وأذرعها كوكر للأفاعي.

تُرى.. ما هذا العالم العجيب الذي لم أتعرف عليه بعد؟ وإلى أي نوع تنتمي هذه الأحياء البحرية التي تحيطها الصخور بدروع إضافية؟ وأين ظفرت الطبيعة بسر وجودها؟ وكم مضى عليها من القرون وهي ثاوية في أعماق المحيط؟

ولكنني لم أستطع التوقف. أما الربان نيمو فلم يحفل بهذه الحيوانات الرهيبة لاعتياده عليها. ثم وصلنا إلى الهضبة الأولى حيث كانت مفاجآت

أخرى في انتظارنا، فقد رأيت أطلالاً وخرائب تدل بوضوح على أثر ليد الإنسان، فقد كانت أكواماً ضخمة من الأحجار على هيئة قلاع ومعابد مكسوة من الجسيمات المرجانية المزهرة، وقد علاها بدلاً من اللبلاب رداء من الطحالب والأعشاب البحرية.

ولكن أي منطقة هذه من العالم ابتلعها الأمواج بفعل الزلازل والطوفانات؟ من ذا وضع هذه الصخور والأحجار كأنها نصب تذكارية عن أزمان ما قبل التاريخ؟ وأين أنا؟ وإلى أين جاءت بي أهواء الربان نيمو؟

واشتقت إلى سؤاله. وإذا لم يكن هذا ممكناً، فقد أوقفته وأمسكت بذراعه، ولكنه هز رأسه مشيراً إلى فوق كأنما يقول لي:

- لنصعد إلى أعلى فأعلى.

فاستجمعت قواي وتبعته، وبعد لحظات قليلة وصلت إلى القمة التي كانت تعلو بنحو ثلاثين قدماً كل ما حولها من أكوام الصخور.

ونظرت إلى الجانب الذي ارتقىناه، ولم يكن ارتفاع الجبل فوق الهضبة يجاوز ثمانمائة قدم، أما من الجانب الآخر، فكان يبلغ ضعف هذا الارتفاع عن قاع المحيط.

وامتد بصري إلى مساحة يضيئها وهج شديد، فأدركت عندئذ أن هذا الجبل بركان نائر؛ إذ رأيت على مسافة خمسين قدماً أسفل القمة، وبين وابل من الصخور والشوائب فوهته الواسعة وهي تقذف سيلاً من اللابا المنصهرة التي كانت تنهمر كشلالات من النيران في قلب اللجج المائية.

وهكذا كان البركان في موضعه هذا كشعلة هائلة تضيء السهل الخفيض إلى نهاية الأفق.

لقد ذكرت أن فوهة البركان الغاطس تقذف باللابا المنصهرة. وليس بالنار. ذلك أن أوكسجين الهواء، الضروري لإشعال اللهب، كان غير موجود في الماء. ولكن سيول اللابا المنصهرة كانت تتغلب في زحفها على العناصر المائية وتحولها بالاحتكاك إلى بخار، وكانت التيارات السريعة تحمل الخليط الغازي بعيداً، بينما تنزلق سيول اللابا إلى سفح الجبل كأنها ثورات بركان فيزوف بإيطاليا.

وهناك.. أمام عيني... رأيت أطلال مدينة مخربة، مدمرة، منقلبة رأساً على عقب، منهارة الأسقف، متداعية المعابد، مفككة العقود، رقدت على الأرض أعمدتها البادي عليها طراز الهندسة التوساكانية، وعلى مسافة أخرى رأيت بقايا قناة مائية كبيرة، وأساس معبد كالأوكروبولس، وبقايا ملعب كالبارثينون وآثار أرصفة ميناء بحري كان يأوي سفناً بخارية وقطعاً بحرية حربية، وفيما وراء هذا رأيت خطوطاً طويلة من الجدران المخربة، وشوارع واسعة مهجورة. وصفوة القول رأيت مدينة بومبي أخرى مدفونة تحت الماء رفعها لعيني من مرقدها الربان نيمو..

أين أنا.. أين أنا؟. هذا ما وددت أن أعرفه بأي ثمن، وشعرت أنه لا بد لي من الكلام فحاولت رفع الخوذة المحيطة برأسي ووجهي. ولكن الربان نيمو أسرع إليّ وأوقفني بإشارة. ثم تناول قطعة حجر طباشيري ومضى إلى صخرة البازلت الأسود وخط هذه الكلمة الوحيدة:

«أطلانتيس».....

ما أسرع شعاع المعرفة الذي ومض في ذهني عندئذ. الأطلانتيس. جنة فيوبومبي القديمة. أطلانتيس أفلاطون. القارة التي أنكر وجودها أوريميم، وجامبليكو، ودانفيل، ومالتبرون، وهامبولد، أولئك الذين وضعوا قصة اختفائها بين قصص الأساطير والخرافات، القارة التي آمن بوجودها بوسيدنيوس وبطليموس، وأميانوس، ومارسيلنوس، وترتليان، وانجل، وشيرر، وتونفورت، وبانون، ودافيزال، هذه القارة ماثلة أمام عيني الآن، تحمل الأدلة الناطقة على كارثتها، هذه هي المنطقة الغارقة التي كانت تقع فيما وراء أوروبا وآسيا والصحراء الليبية، وفيما وراء أعمدة هرقل، حيث عاش البطل أتلانتيدس الذي شنت عليه حروب الإغريق الأولى.

إن المؤرخ الذي دون الأحداث العظيمة في تلك الأزمنة البطولية كان أفلاطون نفسه، وإن حواره بلسان فيموتوس وكريتاس إنما سطرت بإيحاء من صولون الشاعر المشرع.

فقد حدث ذات يوم أن كان صولون يتحدث إلى جماعة من حكماء مدينة سايس وهي مدينة كان عمرها عندئذ ثمانمائة عام كما يشهد بذلك التقويم السنوي المحفور على جدران معابدها المقدسة. وقد سرد أحد هؤلاء الحكماء تاريخ مدينة أخرى أقدم ألف سنة من الأولى. هذه المدينة الإغريقية التي كانت منذ تسعمائة قرن، قد تعرضت للغزو والدمار على أيدي الأطلانتيسيين. وذكر الرجل أن أولئك الأطلانتيسيين كانوا يعيشون في قارة ضخمة أكبر من أفريقيا وآسيا معًا، وتقع فيما بين خطي العرض الثاني عشر والرابع عشر شمالي خط الاستواء. وكان

سلطانها يمتد حتى حدود البلاد المصرية. وقد أراد سكانها أن يسيطروا نفوذهم على بلاد الإغريق، ولكنهم اضطروا إلى التراجع أمام المقاومة الهيلينية العنيفة، وانصهرت القرون، وحدث انشقاق في الكرة الأرضية مصحوبًا بالزلازل والطوفانات، واختفت هذه القارة في يوم وليلة، حتى لم يبق من مرتفعاتها غير جزائر ماديراس، وآزور، وكناريا ورأس فيرد.

تلك هي الذكريات التي ابتعتها الربان نيمو في ذهني بكلمته المكتوبة، وعلى هذه الصورة ساقتني تصارييف القدر العجيب إلى السير فوق جبل من جبال هذه القارة. لقد لمست بيدي أطلال هذه القارة التي ثبت وجودها ومعاصرتها للأحقاب الجيولوجية. وها أنا أسير حيث سار معاصرو الإنسان الأول في هذه الدنيا. وها أنا أسحق بنعل حذائي الثقيل عظام حيوانات العهود الأسطورية التي كانت هذه الأشجار المتحجرة الآن تضيء عليها ظلالها.

ألا ليت الوقت كان متسعًا أمامي. كم تمنيت لو أنني هبطت هذه السفوح المنحدرة في الجانب الآخر من هذا الجبل. ثم تجولت في أرجاء هذه القارة الضخمة التي كانت تربط ولا شك بين أفريقيا وأمريكا. وزرت مدنها التي قامت قبل التاريخ. ربما كانت تمتد أمام نظري الآن، ميادين كينوس الحربية ومعابد أيسبيوس حيث كان سكانها العمالقة يعيشون قرونًا كاملة، وهم الذين استطاعوا بقوتهم الخارقة تشييد هذه المباني والقلاع التي صمدت لتأثير المياه طوال تلك الأحقاب. وليس بمستبعد أن ترفع بعض الظواهر البركانية الثائرة ذات يوم هذه المناطق إلى سطح البحر! وكنت في خلال ذلك أسمع دويًا ينبئ عن معركة

العناصر الطبيعية الهائلة.

كما شاهدت الشوائب البركانية تطفو على سطح الماء مما يدل على أن كل هذه الأرض الغارقة الممتدة حتى خط الاستواء لا تزال مسرحاً للقوى الطبيعية الثائرة تحت الأرض. ومن يدري فربما جاء يوم تبرز فيه قمم هذه الجبال الغارقة إلى ما فوق سطح الماء بفعل الثورات البركانية وتراكم مواد اللابا بعضها فوق بعض.

وبينما كنت غارقاً في أحلامي تلك محاولاً أن أنقش كل دقائق هذا المشهد الرائع في ذهني، وقف الربان نيمو متكئاً بذراعه على طلل مكسو بطحالب البحر، في سكون تام كأنه تمثال للتأمل الصامت. ترى هل كان يحلم بالعصور السحيقة ويسألها عن مصائر البشرية وأسرارها عن هذه البقاع؟ أكان يلجأ هذا الرجل العجيب إلى موطن الذكريات التاريخية ليعيش في جو هذا العالم القديم. وهو الرجل الذي لا يربطه شيء بعصرنا هذا. إنني ما كنت أتردد في التضحية بكل شيء لكي أعرف ما يدور بذهنه من أفكار، ولكي أشاركه إياها وأفهم كنهها.

ولبثنا في هذه البقعة ساعة كاملة، نتأمل ذلك السهل الشاسع في ضوء اللابا التي كانت تتكاثر أحياناً إلى حد عجيب. وكان الفوران الداخلي يهز جوانب الجبل في اختلاجات سريعة، أما الأصوات العميقة التي تنتقل بوضوح في هذا الوسط المائي فكان لها أصداء مضاعفة رائعة.

وفي تلك اللحظة لاح القمر برهة خلال اللجج وأرسل أشعته الشاحبة على القارة الغارقة. ولم تكن إلا ومضة سريعة، ولكن كان لها

تأثير بالغ؛ فقد انتصب الربان وألقى نظرة أخيرة على السهل العظيم ثم
أشار إليّ بيده لكي أتبعه.

وهبطنا الجبل مسرعين، وبعد أن اجتزنا الغابة المتعدنة مرة أخرى
لاح لنا كشاف الغواصة يتألق كنجم. وسار الربان إلى الغواصة قدمًا،
فوصلنا إليها وتباشير الفجر تلون سطح المحيط.



الفصل الرابع والثلاثون

منجم الفحم في أعماق البحر

في اليوم التالي، العشرين من شهر فبراير، استيقظت في ساعة متأخرة. ذلك أن إجهاد الليلة السابقة قد أطال نومي حتى الحادية عشرة صباحًا. وارتديت ملابسني على الفور إذ كنت متلهفًا لمعرفة اتجاه الغواصة. وأنبأني الآلات أننا نمر جنوبًا بسرعة عشرين ميلًا في الساعة وعلى عمق مائة ياردة.

وأقبل كونساييل، فأخبرته بتفاصيل رحلة الأمس، وقد تيسر له من خلال نوافذ الصالون البللورية المفتوحة أن يرى لمحات من القارة الغارقة.

والواقع أن الغواصة كانت تسير على ارتفاع عشر ياردات فقط من سفح قارة الأطلانتيس. كانت تطير كأنها بالون تدفعه الريح فوق سطح الأرض، ولكن الأصح أن نقول إننا كنا في الصالون أشبه بركاب في مقصورة قطار سريع. وكنا نرى أمامنا صخورًا عجبية الشكل، وغابات تحولت من مملكة النبات إلى مملكة المعادن وكانت هياكلها الثابتة تبدو تحت الأمواج.

هذا إلى أكوام من الصخور مدفونة تحت أبسطة من الطحالب وشقائق النعمان في أشكال تخيلها أذرعاً راسية من النباتات المائية، وكتل من اللابا الملتوية في أشكال عجيبة تشهد بما في باطن الأرض من فوران وثورة.

وبينما كانت هذه المشاهد تتألق في ضوء كشاف الغواصة الكهربائي، جعلت أحدث كونساييل عن تاريخ قارة الأطلانتيس التي ألهمت بايلي بصفحات عديدة رائعة من الخيال الرائق. ثم حدثته عن حروب سكانها الأبطال.

وناقشت معه موضوع هذه القارة بلهجة إنسان لم يبق لديه شك في وجودها. ولكن كونساييل لم يحفل كثيرًا بهذا الدرس التاريخي، وسرعان ما أدركت السبب.

كانت أفواج عديدة من الأسماك قد أثارت انتباهه، وعندما تتراءى الأسماك لعيني كونساييل فإنه يستغرق استغراقًا كاملاً في عملية تصنيفها ناسياً العالم المحيط به. فلم يسعني في هذه الحالة إلا أن أحذو حذوه وأشاركه دراسته علم الأحياء المائية.

ولكن أسماك الأطلنطي لم تكن تختلف كثيرًا عن تلك التي رأيناها في مناطق أخرى. كانت من نوع الراي أو الشفنين. ضخمة الحجم. طول كل منها خمس ياردات، وذات قوة عضلية هائلة تتيح لها القفز إلى ما فوق سطح البحر، ونمور بحر من مختلف الأنواع، بينها النوع الأغبر الذي يبلغ طوله خمسة عشر قدمًا، والذي يمتاز بأنياب مثثة حادة، ولقشرته شفافية تجعله لا يكاد يبين في داخل الماء. وسمك الساجريا البني والهيوماتين

المنشوري الشكل المكسو بجلد درقي، وطول الواحدة نحو قدم ونصف قدم، لونها أصفر قاتم؛ وزعانفها رمادية وهي بلا أسنان ولا لسان. ولكنها ناعمة ولينة كالشعابين.

ولاحظ كونسايل بين الأسماك العظمية سمك الماكرياس المسود اللون، وطول كل سمكة ثلاث ياردات، مسلح فكها الأعلى بنصل نافذ. وسمك الزباء الزاهي اللون، المعروف في عهد أرسطو باسم «تين البحر» والذي يصعب الإمساك به لصغر حجم زعانفه الصدرية. وسمك الدوريد الجميل و«الليوناركزوستون» أي سمك الزمرد الفضي المزود بأقراص سماوية الظلال إذا سطعت عليها أشعة الشمس، بدت كنقاط الفضة، وأخيرًا سمك الكوسح. أو سمك السيف - وطول السمكة ثمان ياردات، وهو يسبح في أفواج كبيرة، بزعانف صفراء منجلية الشكل ونصال طولها ستة أقدام، وهي حيوانات مائية جريئة أميل إلى أكل النبات منها إلى أكل اللحوم.

ولكني لم أغفل وأنا أتفحص الأنواع المختلفة من الحيوانات والأحياء المائية عن مراقبة سهول قارة الأطلانتيس في الوقت نفسه، وكانت طبيعة الأرض المتعرجة صعودًا أو هبوطًا رغم الغواصة على تخفيف سرعتها وهي تنساب ببراعة الحيتان في الممرات الضيقة بين التلال. فإذا لم يكن ثمة منفذ في الممر ارتفعت الغواصة كالبالون، حتى إذا اجتازت العقبة استأنفت سرعتها على بعد ياردات من القاع. وكانت براعة قيادتها تذكرني بحركات بالون هوائي في إحدى رحلاته، مع فارق مهم، هو أن الغواصة تخضع في سيرها لتوجيه قائدها.

وفي نحو الرابعة بعد الظهر أخذت الطبقة الأرضية المكونة عموماً من الطين السميك ومن الأغصان المتعدنة تتغير تدريجياً، فأُمست أكثر صخرية، وبدت كأنها مغطاة بكتل من أحجار البازلت وقطع من اللابا والزجاج البركاني الكبريتي، ولذلك خطر لي أن سلسلة من الجبال سوف تعقب هذه السيول الطويلة. وقد تحقق هذا فقد رأيت أثناء سير الغواصة الأفق الجنوبي مسدوداً بجدار صخري لا منفذ فيه ويبدو أن قمته كانت ترتفع فوق سطح البحر، وقد يكون هذا الجدار الصخري جبلاً يحدد قارة أو تتكون من قمته جزيرة على الأقل. فإذا كانت الأخيرة فهي إما أن تكون جزيرة كناري أو إحدى جزر رأس فيرد. ونظراً لأن مكاننا لم يحدد بعد، وربما كان ذلك عمداً فإنني لم أستطع أن أعرف أين نحن، وعلى أي حال بدا لي هذا الجدار الصخري حداً تنتهي عنده قارة الأطلانتيس التي لم نشهد منها غير القليل.

ولم تتوقف رؤيتي للأشياء بحلول الليل. وكان كونسایل قد أوى إلى غرفته، وراحت الغواصة التي أبطأت في سيرها قليلاً تنساب فوق أكوام الصخور، تكاد تلمسها أحياناً كأنما توشك أن تستقر فوقها، وأحياناً أخرى ترتفع إلى سطح الماء.

ولم يطل بي الوقت حتى لمحت بعض الأجرام السماوية المنيرة تبدو من خلال المياه الشفافة أو على التحديد رأيت خمسة أو ستة من هذه النجوم البرجية الدائرة في فلك كوكب الجوزاء.

وكان بودي أن أطيل المكث أمام هذه النافذة البللورية لأمتع بصري بجمال الماء والسماء لولا أنها أغلقت، وكانت الغواصة عندئذ جد قريبة

من الجدار الصخري، فلم أعرف ماذا يكون بعد هذا، ومن ثم لم ألبث أن عدت إلى غرفتي، وبدا لي أن الغواصة لا تتحرك. فقصدت إلى الفراش وفي نيتي أن أستيقظ بعد ساعات قليلة من النوم.

ولكن الساعة كانت الثامنة من صباح الغد عندما ذهبت إلى الصالون ونظرت إلى جهاز العمق فعلمت أن الغواصة تطفو على سطح الماء، وترامى إلى سمعي وقع أقدام على سطحها، ومع ذلك لم تكن الغواصة تهتز كما يحدث وهي بين الأمواج العليا.

وقد ذهبت إلى المنفذ المؤدي إلى السطح فكان مفتوحاً ولكن بدلاً من ضوء النهار الذي كنت أنشده صافحني ظلام كثيف. ترى أين نحن؟ هل أخطأت التقدير، أم لا زلنا في الليل؟ لا... لم يكن ثمة نجم يتألق، ولا يكون الليل بمثل هذه الظلمة.

وفيما كنت حائراً إذ سمعت صوتاً يقول لي:

- أهذا أنت يا بروفيسور؟

- آه.. كابتن نيمو... أين نحن الآن؟

- تحت الأرض يا بروفيسور.

فهتفت قائلاً:

- تحت الأرض، والغواصة لا تزال طافية؟

- نعم. لا تزال طافية.

- ولكنني لا أفهم.

- انتظر قليلاً. فسوف يضاء كشافنا الكهربائي، وإذا أردت أن تعرف

حقيقة الأمر فسيكون لك ما تريد.

وصعدت إلى السطح وجعلت أنتظر. وكان الظلام حالًا بحيث لم أستطع رؤية الربان نيمو. ولكن حين نظرت إلى أعلى خُيل إليّ أنني أرى ضوءًا باهتًا، أشبه بالشفق يبدو من فتحة مستديرة وفي تلك اللحظة أضيء الكشاف فجأة فإذا بريقه يؤدي إلى اختفاء ذلك الضوء الباهت.

وأغمضت عيني برهة مبهورًا بالضوء الكهربائي ولما فتحتهما شاهدت الغواصة راسية إلى شاطئ كرسيف ميناء، وكان البحر الذي استقرت فوقه مجرد بحيرة محاطة بجدران دائرية، قطرها ميلان ومحيطها ستة أميال. وكان مستوى مائها - كما دل مقياس العمق - كمستوى الماء الخارجي إذ كان ولا شك ثمة اتصال بين مائها وماء المحيط الخارجي. وكانت الجدران الصخرية العالية المنحدرة عند القاعدة، دائرية كالقبو مكونة ما يشبه الكهف المقلوب، ويبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ قدم، وفي نهايتها فتحة مستديرة كانت مصدر الضوء الباهت الذي لمحته وكان ولا شك ضوء النهار.

وقبل أن أفحص الجوانب الداخلية لهذا الكهف الهائل، وقبل أن أتساءل ما إذا كان من صنع الإنسان أم الطبيعة، قلت للربان نيمو:

- أين نحن؟

- في قلب بركان خامد.. بركان اقتحمت مياه البحر داخله بعد إحدى الهزات الأرضية العنيفة. وبينما كنت نائمًا يا بروفيسور، نفذت الغواصة إلى هذه البحيرة بواسطة قناة طبيعية مفتوحة على عمق عشر ياردات تحت سطح المحيط وهذا مرفأ آمن صالح، خفي مصون من كل

الرياح... نعم لا يمكن أن تدلني في كل شواطئ عالمك الأرضي وجزره على مرفأ يضارع هذا في الاحتماء من أعنف الزوابع.

- أنت في أمان هنا يا كابتن حقًا. فمن ذا يجروء على الوصول إليك في قلب بركان كهذا؟ ولكن... ألم تلاحظ وجود فتحة في القمة؟

- نعم. إن القمة هي فوهة البركان التي كانت يومًا تقذف بالحمم واللابا والدخان ولكنها الآن منفذ الهواء اللازم للتنفس.

- ولكن أي جبل بركاني هذا؟

- إنه إحدى الجزر الكثيرة المتناثرة في هذا البحر... إنه مجرد صخرة ضخمة لدى السفن ولكنه لنا بمثابة مأوى ضخم، لقد اكتشفته مصادفة، وطالما أسدت إليّ المصادفات أجل الخدمات.

- ولكن ألا يمكن أن يهبط أحد بواسطة الفتحة المكونة لفوهة البركان؟

- لا.. هذا مستحيل استحالة صعودي أنا عن طريقها. ذلك لأن الصعود ممكن إلى مدى أربعمئة قدم من قاعدة الجبل.. أما بعد ذلك فمن المستحيل تسلق الجدران.

- آه.. فهمت يا كابتن أن الطبيعة عون لك دائمًا في كل مكان. أنت آمن في هذه الجزيرة ولا يستطيع أحد سواك أن يزور مياهاها. ولكن ماذا تبغي من هذا الملاذ؟ إن الغواصة في غير حاجة إلى مرفأ.

- صدقت يا بروفيسور ولكنها في حاجة إلى كهرباء.. إلى العناصر المولدة للكهرباء، وإلى الصوديوم الذي يغذي هذه العناصر وإلى الفحم

الذي يصنع الصوديوم وإلى مناجم الفحم لاستخراجه منها. وتصادف أن البحر هنا يغطي غابات كاملة دفنت في الأحقاب الجيولوجية، وأصبحت الآن متعدنة وتحولت إلى مناجم فحم لا ينضب معينها.

- إذن فإن رجالك هنا يؤدون أعمال المعدنيين؟

- تمامًا. إن هذه المناجم ممتدة تحت الماء كمناجم الفحم في نيوكاسل. وهنا يعمل رجالي وهم بملابس الغوص معهم المجارف والمعاول على استخراج الفحم الذي لا يمكن الحصول عليه من مناجم الأرض. وعند حرق هذا الفحم لاستخراج الصوديوم فإن الدخان المتصاعد من فوهة البركان يكسبه مظهر البركان الحي...

- هل سنرى رجالك أثناء العمل؟

- لن يكون ذلك في هذه المرة على الأقل، لأنني متعجل لمواصلة رحلتنا حول العالم المائي. ولهذا سأكتفي بأخذ كمية من الصوديوم المخزن الذي أمتلكه هنا. ويكفي يوم واحد لشحنها إلى الغواصة ثم نستأنف رحلتنا. فإن كنت تحب تفقد هذا الكهف والقيام بجولة في البحيرة فانتهاز فرصة هذا اليوم يا مسيو أروناكس.

فشكرت الربان نيمو وذهبت للبحث عن صاحبيّ اللذين لم يغادرا مقصورتهما بعد. وقد طلبت إليهما أن يتبعاني دون إبلاغهما أين هما.

وصعدا معي إلى سطح الغواصة. ولم يستغرب كونساييل الذي لا يدهشه شيء، أن يستيقظ ليجد نفسه تحت جبل بعد أن نام وهو تحت البحر. أما نيد لاند فكان تفكيره منحصرًا في التماس مخرج آخر لهذا الكهف.

وبعد طعام الإفطار، في نحو العاشرة صباحاً، هبطنا إلى شاطئ
البحيرة حيث قال كونسايل:

- ها نحن أولاء مرة أخرى على الأرض.

فقال نيد لاند:

- إنني لا أسمى هذا المكان أرضاً، وفضلاً عن هذا فلسنا فوق
الأرض بل تحتها...

وكان ثمة شاطئ رملي يمتد بين قاعدة الجبل المنحدرة وبين حافة
مياه البحيرة يبلغ اتساعه في أعرض موضع منه خمسمائة قدم، وكان من
السهل القيام برحلة حول البحيرة على هذا الشاطئ، ولكن قاعدة الجبل
المنحدرة كانت من تربة غير ممهدة تستقر فوقها كتل بركانية وقطع
ضخمة من حجارة الخفاف في أشكال عجيبة، كستها النيران الجوفية
بالميناء المصقولة مما جعلها تتألق في ضوء الكشاف الكهربائي. وكان
الغبار البركاني يثور على الشاطئ تحت أقدامنا كسحب من الشرر.

وكانت الأرض ترتفع تدريجياً بعد حافة الماء، وسرعان ما وصلنا
إلى منحدرات طويلة معروقة مدرجة مما أتاح لنا أن نرتقيها على مراحل.
ولكن كان علينا أن نسير في حذر بين هذه الكتل المتخلخلة التي خلت
من أسمنت يشد بعضها إلى بعض. وكانت أقدامنا تنزلق على الصخور
البركانية الملساء المكونة من الزجاج والحجارة المعدنية والكوارتز.

والحق أن الطبيعة البركانية في ذلك الكهف الواسع كانت واضحة
في كل ناحية منه، وقد عبرت عن رأيي هذا لصاحبي قائلاً:

- هل يمكن أن نتصور كيف كان هذا الكهف الضخم يبدو وهو ممتلئ باللابا الفائرة المتصاعدة إلى فتحة الجبل وهي تسيل على جوانبه كما يسيل المعدن المصهور على جوانب الأتون؟

فقال كونسايل:

- إنني أستطيع أن أتصور تمامًا. ولكن هل يستطيع سيدي أن يخبرنا لماذا توقف هذا البركان الكبير عن الفوران، وكيف تحول أتون الحمم إلى مياه بحيرة هادئة.

- من المحتمل يا كونسايل أن الهزات الأرضية تسببت في حدوث تصدع تحت سطح المحيط الذي نفذت منه الغواصة ونتيجة لذلك تدفقت مياه الأطلنطي إلى جوف هذا الجب. لا تنس أن هناك معركة بين عنصري الماء واليابسة. وهي معركة كانت لصالح الماء. ولكن أحقابًا عديدة انصرمت منذ ذلك الحين، وما لبث البركان الثائر أن استحال إلى هذا الكهف الهادئ.

فقال نيد لاند:

- حسنًا جدًا.. لقد قبلت هذا التفسير، ولكن مما يؤسف له - إذا نظرنا إلى جانب المصلحة - أن هذا الشق لم يحدث في جبل فوق مستوى ماء البحر.

فقال كونسايل:

- ولكن.. لو لم يكن هذا الممر تحت سطح البحر، لما استطاعت الغواصة أن تنفذ منه.

فقلت:

- ويمكنني أن أضيف إلى هذا أن الماء ما كان ليندفع من الشق تحت البركان وكان البركان يظل ثائراً حتى الآن. وإذن فلا جدوى من المناقشة. وتابعنا الصعود والجوانب تزداد انحداراً وضيقاً. وكانت بعض الكتل البركانية تعترض سبيلنا أحياناً فنضطر إلى عبورها، وكان علينا أن نتجنب الاصطدام بالكتل المعلقة. وكنا نزحف على أيدينا وركبنا ثم استطعنا أخيراً بفضل براعة كونسایل وقوة نيد لاند أن نجتاز كل العقبات. وعلى ارتفاع عشرة أقدام تغيرت طبيعة الأرض، فبدلاً من الصخور المصقولة والأحجار البركانية وجدنا صخور البازلت الأسود ممتدة في طبقة زاخرة بالحصى، بعضها على شكل المنشورات المتساوية الأضلاع، موضوعة في هيئة أعمدة تتركز عليها جوانب الكهف الضخم، وتكون في مجموعها لوناً رائعاً من هندسة الطبيعة. ومن هذه الصخور البازلتية امتدت جداول متعرجة مكونة من اللابا الباردة المقلمة بخطوط قارية، وكانت تتسع أحياناً فتبدو كأبسطة كبريتية حية. وكان ثمة ضوء قوي ينساب من الفوهة العليا ويرسل وميضاً غائماً فوق المنخفضات البركانية المدفونة إلى الأبد في قلب هذا الجبل الهامد.

ومهما يكن فإن صعودنا لم يلبث أن توقف على ارتفاع مائتين وخمسين قدماً بسبب عوائق لا سبيل إلى اجتيازها. وكان فوقنا سقف مقبوع لا يمكن الصعود إليه، واستحال طريقنا إلى جدران دائرية وهنا بدأت مملكة النبات كفاحها ضد مملكة المعادن. فقد رأيت بضع شجيرات بل بعض أشجار تمتد من شقوق الجوانب، وقد تعرفت منها على نبات

العنجد بعصارتة الحارقة تسيل على جوانبه وشجر اليمام «الهليوتروب» الذي يدور مع الشمس أينما تدور، ولكنه كف هنا عن التطلع للشمس لأن أشعتها لا تصل إليه قط. ولذلك كانت أوراقه تتدلى في تخاذل، وكانت ألوانها شاحبة، ورائحتها زائلة. وكانت أزهار الكريزنتيوم تنمو على استحياء عند أقدام أعواد الند وقد سقمت أوراقها الطويلة. وقد لاحظت بين خطوط اللابا وجود أزهار بنفسج كانت لها رائحة عطرية خفيفة. وأعترف أنني شممت رائحتها في ابتهاج؛ فإن العطور هي روح الزهور، أما أزهار البحر -الهيدرونيث البديعة- فإنها بلا روح.

وكنا قد وصلنا عند القاعدة إلى مجموعة من أشجار التنين القوية التي دفعت الصخور جانبًا بقوة جذورها وهنا هتف نيد لاند قائلاً:

- عجباً.. هذا خلية نحل.

فقلت في لهجة تنم عن دهشة صادقة:

- خلية نحل؟!!

- نعم النحل يطن حولها...

ولم يسعني حين اقتربت إلا الاعتراف بالأمر الواقع. فقد رأيت في مدخل فجوة بجذع شجرة التنين بضعة آلاف من هذه الحشرات العاملة المعروفة في جميع جزر الكناريا والتي يقدر الجميع إنتاجها كل تقدير.

وقد أراد نيد لاند طبعاً أن يظفر بكمية من الشهد، ولم يكن من الكياسة أن أنفس عليه هذه الرغبة وسرعان ما قذح الزناد وأشعل النيران في بعض الأوراق الجافة الممزوجة بالمواد الكبريتية، وما لبث الدخان

أن طرد من الخلية النحل . فإذا الطنين يخف تدريجيًا وإذا نحن نظفر من الخلية ببضعة أرتال من العسل وضعها نيد لاند في جعبته وهو يقول:
- عندما أمزج هذا العسل بعجينة من دقيق العظام، فسأقدم لكما كعكة شهية.

فقال كونسایل:

- ستكون طيبة المذاق كفتيرة الزنجبيل .

فقلت:

- لتكن إذا فتيرة الزنجبيل، ولكن هيا نتابع رحلتنا الممتعة.
وفي بعض المنعطفات التي اجتزناها بدت البحيرة على أتم سعتها، وكان الكشاف الكهربائي يضيء سطحها الساجي الهادئ الذي لا أثر للموج فيه.

وكانت الغواصة مستقرة في موضعها وكان بحارتها فوق السطح على رصيف المرفأ يبدون كظلال سوداء مرسومة بوضوح في الضوء.

وكنّا في تلك اللحظة ندور حول أعلى قسم من طبقات الصخور التي يتركز عليها السقف، وقد رأيت عندئذ أن النحل لم يكن الممثل الوحيد للمملكة الحيوانية في داخل هذا البركان، إذ شاهدت طيورًا برية تحلق وتدور هنا وهناك في الظلام. تنفر من أوكارها المستقرة على أطراف الصخور. وكان ثمة بواشق بصدورها البيضاء وأفراخها الزائطة، وعلى مهابط المنحدرات كانت طيور الحبارى السمينة تتواثب بكل ما في سيقانها الطويلة من سرعة، وللقارئ أن يتصور نيد لاند وهو ييدي

لهفته إلى هذا الصيد الدسم ويأسف لخلو يديه من البندقية. وقد حاول أن يستبدل الحجارة بالرصاص وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع أن يصيب طائرًا بديعًا. والواقع أنه غامر بحياته عشرين مرة قبل أن ينجح في إصابته، ولكنه استطاع أخيرًا أن يضمه إلى كمية العسل في الجعبة.

وصار لزامًا علينا أن نهبط نحو الشاطئ بعد أن استحال الاستمرار في الصعود. وكانت فوهة البركان المفتوحة تبدو كفتحة البئر. ومن مكاننا يتهيأ لنا أن نرى السماء بوضوح. وقد شاهدت السحب المضطربة تلمس أطراف الجبل بأجنحتها الرطبية وهي تندفع أمام الرياح الغربية. وكان ذلك دليلًا على أنها سحب منخفضة لأن البركان لم يكن يرتفع أكثر من ثمانمائة قدم فوق سطح البحر.

وبعد نصف ساعة من مغامرة نيد لاند مع الطائر، وصلنا إلى الشاطئ الداخلي، وهنا رأينا المملكة النباتية ممثلة في أبسطة كبيرة من البللورات البحرية. وهي نوع من النباتات الطحلبية، ذات قدرة كبيرة على البقاء، كما تحمل أسماء مختلفة منها «السمار» وقد جمع كونسايل حزمًا منها. أما المملكة الحيوانية فيمكن إحصاء آلاف القشريات من كل نوع، والسرطانات البحرية، والجمبري، والكابوريا، وأنواع من الحرباءات وكميات كبيرة من المحار، والركنيش، «وأنواع من السمط» والبطلينوسات وهو نوع من الأسماك الصدفية.

وفي ذلك المكان وجدنا مغارة صغيرة رائعة، وشد ما كانت بهجتي وصاحبِي عندما رقدنا على رمالها الناعمة وكانت النيران قد صقلت جدرانها اللامعة المكسوة بالميناء المموهة بالميك. ونقر نيد لاند على

الجدران ليعرف مبلغ سمكها، فلم أتمالك عندئذ من الابتسام، ثم تطرق الحديث إلى مشروعات الهرب الخالدة، وبدا لي أن أمد له في جبل الأمل بقولي إن الربان نيمو لم يأت إلى هذه المنطقة الجنوبية إلا ليحصل على حاجته من الصوديوم، وهكذا كان يخامرني الأمل في عودته بعد هذا إلى الشاطئ الأوروبية أو الأمريكية مما يتيح لنيد لاند أن يكرر محاولته الأولى بنجاح.

واستلقينا نحو ساعة في تلك المغارة الجميلة، وسرى الفتور إلى حديثنا بعد أن كان حامياً، وشعرنا بميل إلى النوم، وإذا لم أجد ما يمنعني من تحقيق هذه الرغبة فقد استغرقت في سبات عميق وقد حلمت والإنسان لا يختار أحلامه أنني قد تحولت إلى دويبة لا فقارية دقيقة، وأن هذه المغارة هي المحارة التي تنطبق عليّ، وفجأة استيقظت على صوت كونسايل وهو يصيح قائلاً:

– انظروا..

فسألته وأنا أرفع رأسي:

– ماذا حدث؟

– إن المياه آتية إلينا..

فنهضت ورأيت المياه تندفع نحونا كالسيل الجارف وما دمنا لم نكن دويبات لا فقارية حقاً فد اضطررنا إلى الفرار وإن هي إلا لحظات حتى كنا بمأمن في أعلى المغارة.

وسألني كونسايل قائلاً:

- ما هذا.. أهى ظاهرة طبيعية جديدة؟

فأجبتة قائلاً:

- لا يا صاحبي. إنه المد! المد الذي أوشك أن يغرقنا كما فعل مع بطل وولتر سكوت. لقد ارتفعت مياه المحيط في الخارج، وبحكم قانون التوازن الطبيعي ارتفع معها سطح البحيرة. لقد نجونا بعد حمام بارد. هلموا بنا إلى الغواصة لإبدال ملابسنا.

وبعد ثلاثة أرباع ساعة أتممنا دورتنا حول جدران الكهف ثم عدنا إلى الغواصة حيث كان بحارتها قد أوشكوا على الفراغ من شحن الصوديوم إليها، وأمسست مستعدة للإبحار فوراً.

ولكن الربان نيمو لم يصدر أمراً، ولعله قرر الانتظار حتى الليل ثم الخروج سراً من الممر المائي.

وأياً كان الأمر فإنه لم يحل اليوم التالي حتى تركت الغواصة مرساها في تلك البحيرة وأخذت تمخر الماء بعيداً عن كل يابسة، وعلى عمق بضع ياردات من سطح المحيط.



الفصل الخامس والثلاثون

بحر سارجاسو

لم تتغير وجهة الغواصة، وهكذا كان علينا أن نفقد كل أمل في العودة إلى البحار الأوروبية في الوقت الحالي. فقد تابع الربان نيمو اتجاهه إلى الجنوب. ترى إلى أين يذهب بنا؟ ذلك ما لم أجسر على التفكير فيه.

وفي ذلك اليوم اجتازت الغواصة منطقة فريدة في المحيط، وكل إنسان يعرف أمر ذلك التيار الكبير الدافئ المياه المعروف باسم تيار الخليج. وبعد مغادرة هذا التيار خليج فلوريدا يتجه نحو ستزبرجن، ولكنه ينقسم إلى فرعين بعد خليج المكسيك بمسافة، أي في الدرجة الرابعة والأربعين من خط العرض الشمالي وعلى الفرع الرئيسي إلى شواطئ إيرلندا والنرويج، بينما ينحرف الثاني إلى الجنوب في جوار جزائر الأزور، ثم يقوم بدورة بيضاوية بعد اصطدامه بالشواطئ الأفريقية، فيعود إلى جزر الأنتيل.

وهذا الفرع الثاني يحيط بنطاق مياهه الدافئة ذلك الجانب البارد الهادئ من المحيط المسمى بحر سارجاسو. إنه بحيرة كاملة في قلب المحيط وتحتاج مياه التيار الكبير إلى ثلاثة أعوام لكي تتم دورتها حوله.

وبحر سارجاسو إن أردنا الدقة في التعبير يغطي كل مساحة قارة
أطلانتيس الغارقة، وقد قرر بعض العلماء أن الأعشاب الكبيرة التي تطفو
على سطحه، منتزعة من براري تلك القارة القديمة. ولكن الاحتمال
الأرجح على كل حال هو أن هذه الأعشاب والنباتات البحرية والطحالب
يحملها تيار الخليج الدافئ من الشواطئ الأوروبية والأمريكية إلى هذه
المنطقة. وكان ذلك هو أحد الأسباب التي جعلت كولمبوس يؤمن
بوجود الدنيا الجديدة. فعندما وصلت سفن ذلك الملاح الباسل إلى بحر
سارجاسو، أخذت تشق طريقها بصعوبة بين أكوام الأعشاب والنباتات
البحرية التي اعترضتها مما أثار الفزع في قلوب البحارة، وضيع منهم
ثلاثة أسابيع كاملة في اجتيازها.

تلك هي المنطقة التي ألمت بها الغواصة، براري مائية ممتدة، أو
بساط واسع سميك من الأعشاب والطحالب البحرية والثمار الاستوائية
التي يبلغ من كثافتها وتراكمها أن مقدم أي سفينة لا تكاد تشق طريقها
بينها. وقد حرص الربان نيمو على السير تحت سطح الماء ببضع ياردات
حتى لا يدع هذه الأخشاب تلتف حول رفاصها.

واسم «سارجاسو» مشتق من الكلمة الإسبانية «سارجازيو» ومعناها
«قش البحر» وهو نوع من النبات التوتي الثمار تتكون منه معظم أعشاب
هذه المنطقة. والتفسير الذي علل به العالم موري مؤلف «الجغرافيا
الطبيعية للبحار» وجود هذه النباتات البحرية في هذه المنطقة الهادئة من
المحيط هو كما يلي:

«يبدو لي أن التفسير الذي يمكن أن نقدمه هو نتيجة تجربة معروفة

للجميع، فإذا وضعنا قطعاً من الفلين أو من أي مادة طافية في وعاء به ماء وأحدثنا فيه حركة دوارة، رأينا القطع المتناثرة تتجمع في قلب السطح المائي، أو بعبارة أصح، في المكان الذي يقل فيه الاضطراب والحركة عن غيره. وهكذا يمكن تعليل هذه الظاهرة إذا تصورنا أن وعاء الماء هو المحيط الأطلنطي وأن تيار الخليج هو الحركة الدوارة فيه، وأن بحر سارجاسو هو أقل الأمكنة فيه اضطراباً، وهو المكان الذي تتجمع فيه الأجسام الطافية..».

وأنا أتفق في هذا الرأي مع موري، وقد أمكنني أن أدرس هذه الظاهرة في نفس البحر الذي قلما تغامر السفن بالمرور فيه.. فقد كانت تطفو فوق رؤوسنا مواد من كافة الأصناف. وكانت تتشابك بين هذه الأعشاب المائلة إلى اللون البني جذوع أشجار من جبال روكي أو الأنديز حملتها تيارات نهر الأمازون أو نهر المسيسيبي. مع الكثير من الصواري وبقايا هياكل وألواح السفن. وقد بلغ تراكم المحار والقواقع فوقها أنها لم تستطع الارتفاع إلى سطح الماء وسيعزز الزمن يوماً ما آراء موري في أن هذه المواد المتراكمة منذ أحقاب عديدة سوف تتعدن بفعل المياه. وأنها ستصبح معيئاً لا ينضب من مناجم الفحم، وهو احتياطي ضخمة تعده الطبيعة البعيدة النظر لحين يستنفد الإنسان مناجم الفحم في اليابسة.

وقد لاحظت بين أكداس النباتات والأعشاب بعض أسماك الشريا القرمزية الجميلة، والاكيتيا بمجساتها الطوال والميديموز الحمراء والخضراء والزرقاء ولا سيما أسماك الريوستروم بمظلاتها الزرقاء ذات الحوافي البنفسجية.

وانقضى يوم الثاني والعشرين من شهر فبراير كله في بحر سارجاسو ذي الأسماك الكثيرة التي تقتات بالنباتات البحرية والقشرية وهي الغذاء الموفور، أما في اليوم التالي فقد بدا المحيط في امتداده الرحيب.

ومنذ ذلك اليوم وطوال تسعة عشر يومًا، أي من الثالث والعشرين من فبراير إلى الثاني عشر من مارس، ظلت الغواصة في عرض الأطلنطي، منطلقة بسرعة منتظمة قدرها ثلاثمائة ميل كل أربع وعشرين ساعة. وقد بدا جليًّا أن الربان نيمو اعتزم استكمال برنامجهِ البحري وأنه بعد الطواف حول رأس هورن سيمضي إلى المنطقة الجنوبية من المحيط الهادي.

وكان نيد لاند إذ ذاك محقًّا في شعوره بالخوف؛ إذ لم يكن الهرب من الغواصة ممكنًا في تلك البحار الواسعة الخالية تقريبًا من الجزر، ثم إنه لم يكن ثمة وسيلة لمعارضة رغبات الربان نيمو كما لم يكن أمامنا إلا الخضوع. ولكنني كنت أرى أن الهدف الذي لا يمكن بلوغه بالقوة أو بالحيلة، قد يتحقق بالحجة والإقناع. فهلا يرضى الربان نيمو في نهاية الرحلة أن يطلق سراحنا إذا أقسمنا بكتمان سره مدى الحياة - قسم بالشرف يوجب علينا أن نبر به. ولكنه موضوع دقيق ينبغي مناقشته مع الربان. فهل ترى يستقبل هذا الرجاء لإطلاق سراحنا بروح طيبة. ألم يعلن لنا من أول الأمر، وبأسلوب حاسم أن سره الكبير يوجب بقاءنا سجناء في الغواصة إلى ما شاء الله. ألا يبدو له صمتي خلال الأشهر الأربعة قبولًا مآكرًا للأمر الواقع. ألا يحتمل أن تثير العودة إلى مناقشة هذا الموضوع شكوكه وهي تعوق محاولتنا للهرب إذا سنحت لنا الفرصة المناسبة لتكرارها. لقد رحت أستعرض هذه الاحتمالات جميعًا

وأفحصها في ذهني ثم عرضتها على كونسایل الذي لم يكن أقل حيرة وارتباكًا -رغم أنني لا أركن إلى اليأس بسهولة. فقد أدركت أن الفرص السانحة لرؤية أهلي وعشيرتي في اليايسة كانت تتضاءل يومًا بعد يوم، وفوق هذا كله ذهب الربان نيمو يندفع بالغواصة إلى جنوبي المحيط الأطلنطي في كل جرة.

ولم يقع خلال هذه الأيام التسعة عشر شيء يستحق الذكر، ولم أكن أرى الربان نيمو إلا لمامًا، إذ كان دائم المشاغل. وكثيرًا ما كنت أرى في المكتبة كتبًا تركها مفتوحة، ولا سيما كتب التاريخ الطبيعي. وكان مؤلفي عن أعماق البحار مملوء الهوامش بتعليقاته وآرائه التي كانت تتعارض أحيانًا مع آرائي ونظرياتي ولكنه لم يحاول أن يتجاوز هذا الحد في معارضته وقلما كان يناقشني في هذا المقام. وكنت أحيانًا أخرى أسمع النغمات الشجية وهو يعزف على الأرغن بتلك الروح المعبرة، ولكن هذا لم يكن إلا ليلاً وفي أبعد الأماكن عن البشر، أي عندما ترقد الغواصة في فيافي المحيط.

وكنا في خلال هذه الرحلة نقضي أيامًا كاملة على سطح البحر الخالي تمامًا إلا من بعض السفن التي كانت في طريقها إلى جزر الهند عن طريق رأس هورن. وفي ذات يوم طاردنا زورق لصيد الحيتان وهو يحسبنا بطبيعة الحال حوتًا عظيمًا. ولكن الربان نيمو أبى أن يضيع وقت بحارة الزورق البواسل وجهدهم، فأنهى المطاردة بالغوص تحت سطح الماء. ويبدو أن هذا الحادث أثار في نفس نيد لاند أشد الاهتمام. ولست أشك في أنه كان يتمنى لو أن أولئك الصيادين استطاعوا تحطيم ألواح

الغواصة الحديدية بحرايهم.

وكانت الأسماك التي شاهدها مع كونساييل في خلال الفترة لا تختلف إلا قليلاً عما سبق أن شاهدناها في خطوط العرض الأخرى. وكان أهمها أنواعاً من مرتبة الغضروفيات الرهية التي تنقسم إلى ثلاث مجموعات فرعية. وهذه بدورها تنقسم إلى ما لا يقل عن اثنين وثلاثين نوعاً. منها سمك الكلب من «فصيلة القرش المخطط» الذي يبلغ طوله خمس ياردات، وهو برؤوس مفرطحة أعرض من جسمها، وزعانف ذنبية مستديرة وسبعة خطوط طويلة سوداء كبيرة متوازية على ظهره. وسمك الكلب ذو اللون الرمادي والخيشوم ذو الفتحات السبعة. وزعنفة الصدر الوحيدة القائمة في منتصف جسمه.

ثم نمور البحر المعروفة باسم «كلاب البحر» وهي من أشرس وأعنف أنواع الأسماك. وقد يرتاب الإنسان فيما يرويه الصيادون عنها. ولكنهم يقولون إنه عُثر ذات يوم في بطن واحد منها على رأس بقرة وجسم عجل كامل، وفي بطن آخر على سمكتين كبيرتين وبحار بملابسه الكاملة، وفي بطن ثالث على جندي بسيفه، وأخيراً على حصان وراكبه. وهذا كله ولا شك نوع من المبالغات. وكل ما أستطيع أن أذكره هو أن الغواصة لن تظفر قط بواحدة من هذه الوحوش البحرية، ولهذا لم أستطع الجزم بشراستها.

وكانت ترافقنا لمدة أيام عديدة مجموعات من الدرافيل الرشيقة اللعوب، تتألف كل مجموعة من خمسة أو ستة تنطلق معاً للصيد كالذئاب. وهي بطبيعتها لا تنقل وحشية عن كلاب البحر إذا صدقنا العالم الدانمركي

الذي استخرج من معدة إحداها ثلاث عشرة ترسة، وخمس عشرة فقرة. ويتتمي الدرفيل إلى أكبر أنواع الغرامبوس «الحيتان الدرفيلية» ويزيد طوله أحيانًا على أربعة وعشرين قدمًا. وتضم أسرة الدرفيل ست مراتب والنوع الذي رأيته يتتمي إلى مرتبة «الدلفينورينكس» المشهورة بأفواهها الطويلة الضيقة جدًا والتي يبلغ طولها أربعة أمثال جمجمة الرأس. أما أجسامها البالغ طولها ثلاث ياردات فهي سوداء الظهر، ببطون بيضاء وقرمزية، بنقط قليلة نادرة.

ويمكن أن أذكر أيضًا مما رأيته في هذه البحار أنواعًا عجيبة من السمك من مرتبة الأكانتوبريجيان التابعة لأسرة الأسقين، ويزعم بعض المؤلفين من كبار الشعراء لا العلماء أن هذه الأسماك تغني غناء عذبًا، وأن أصواتها المجتمعة تفوق في عذوبتها أي «كورس» من البشر. ولست أقول إن هذا لم يقع ولكننا لم نستمع مع الأسف أثناء مرورنا إلى هذه المعزوفات.

وصفوة القول لقد استطاع كونسايل أن يصنف كثيرًا من السمك الطائر، ولم يكن هناك ما هو أعجب من مشهد الدرافيل أثناء مطاردتها المحكمة لهذه الأسماك. فمهما حلقت الأسماك، ومهما حاولت الهرب كانت تجد في انتظارها دائمًا شدقًا مفتوحًا لاستقبالها، وكانت هذه الأسماك من نوع الغرنار الطائر ذات أفواه مشعة تبدو في الليل وهي تشق الجو بخطوط نارية ثم تغطس في ظلمات الماء كنجوم متهاوية.

واستمرت رحلتنا في هذه الظروف حتى اليوم الثالث عشر من شهر مارس، وفي ذلك اليوم شغلت الغواصة بعمليات قياس للأعماق مما

أثار اهتمامي إلى حد كبير.

كنا عند ذاك قطعنا نحو ١٣ ألف فرسخ منذ رحيلنا من أعالي البحار في المحيط الهادي. وكان جهاز تحديد الموقع يشير إلى أننا في جنوبي خط العرض ٣٧: ٤٥ درجة وغربي خط الطول ٥٣: ٣٧ درجة وهو نفس الموضع الذي أرسل فيه الربان دنهام - قائد السفينة هير الدا - حبالاً معدنية لقياس عمق المحيط طولها ١٤ ألف ياردة دون أن تصل إلى القاع. وهنا أيضاً لم يستطع اللقنات باركر ربان السفينة الأمريكية كونجرس - أن يصل إلى قاع المحيط بحبال معدنية طولها ١٤٤٠٠ ياردة.

ولكن الربان نيمو اعتزم الوصول إلى قاع هذه المنطقة بالغواصة، وقد تأهبت لتدوين ملاحظاتي في أثناء عمليات قياس العمق فيها، وبقيت نوافذ الصالون البللورية مفتوحة عندما بدأت العمليات.

ويمكن بطبيعة الحال أن نتصور أن امتلاء خزانات الغواصة بالماء لا يكفي للهبوط بها إلى القاع. فمن المحتمل أن ثقل الخزانات لا يكفي للهبوط بالغواصة إلى أي عمق. فضلاً عن هذا فإن العودة إلى السطح مرة أخرى تستوجب التخلص من الماء الزائد، والمرجح أن مضخات التفريغ ليست لها القوة الكافية لمقاومة الضغط الخارجي.

ولكن الربان نيمو قرر الهبوط إلى الأعماق بواسطة الألواح الجانبية المثبتة في جوانب الغواصة بانحدار تبلغ زاويته ٤٥ درجة بالنسبة لمستوى الماء. وسرعان ما أخذ الرفاص يدور بكل قوته، وإذا ألواحه الرباعية تضرب الماء بعنف كبير. وجعل هيكل الغواصة المهتز بتأثير ضربات الرفاص يهبط تدريجياً إلى أعماق الماء. وجلست مع الربان في

الصالون نرقب مؤشر الغوص وهو يتحرك بسرعة، وسرعان ما اجتزنا حدود المناطق المأهولة بالأسماك، فهناك أنواع لا تستطيع الحياة إلا قريباً من أسطح الأنهار والبحار، بينما تعيش الأقلية فيما هو أكثر عمقاً. وبين هذه الأنواع رأيت قرش الهكسان - وهو من فصيلة كلاب البحر - وله ستة خياشيم وعيناه كبيرتان في قوة التلسكوب وجلد المالمالرمات وعنق رمادي وزعانف جانبية سوداء تحمي عظام صدره، ثم سمك الغرباء الذي يعيش في عمق ١٢٠٠ ياردة ويتحمل ضغطاً مائياً يساوي مائة وعشرين ضغطاً جويّاً.

وسألت الربان نيمو إن كان رأى من قبل سمكاً يعيش في مثل هذا العمق فقال:

- نادراً. ولكن إذا تحدثنا بلغة العلم، فماذا يعرف العلماء؟

- يعرفون أننا كلما أمعنا في الغوص اختفت الحياة النباتية قبل الحيوانية. ويعرفون أيضاً أنه حيث لا تزال توجد الحياة الحيوانية في الأعماق، قد لا يوجد عود واحد من النبات البحري. ويعرفون أيضاً أن المحار والتليرين تعيش على عمق ألفي ياردة، وأن ماكليتنوش بطل البحار القطبية اصطاد سمكة من نوع نجم البحر من عمق خمسة آلاف ياردة. ويعرفون أن بحارة السفينة الحربية بلودوج اصطادوا سمكة من نوع نجم البحر أيضاً من عمق ٦٢٤٠ ياردة. ولكن لعلك تقول يا كابتن إنهم لا يعرفون شيئاً.

- لا يا بروفيسور لن أكون فظاً إلى هذا الحد.. ولكني أسألك فقط كيف تفسر قدرة الحيوان على الحياة في مثل هذا العمق.

- هناك تعليلان: الأول لأن التيارات الرأسية الناشئة من اختلاف ملوحة وكثافة المياه تتيح حركة كافية تحفظ العناصر الأولية لحياة النجميات البحرية.

- وأيضًا لأنه إذا كان الأكسجين هو عماد الحياة فالمعروف أن كميات الأكسجين المتحللة في مياه البحر تزيد بدلًا من أن تقل كلما هبطنا إلى الأعماق. وأن الضغط المتزايد يؤدي إلى ضغط كميات الأكسجين به.

فقال الربان نيمو في صوت ينم عن الدهشة:

- آه.. أتعرفون هذه الحقيقة؟ حسنًا يا بروفيسور؛ جميل منكم أن تعرفوا هذا لأنه لا يعدو الحقيقة. ويمكنني أن أضيف أن المثانة الهوائية في الأسماك التي تصاد فوق سطح الماء تحتوي على أزوت أكثر من الأكسجين وعلى أكسجين أكثر من الأزوت إذا صيدت في أغوار أعمق. وهذه الحقيقة تطابق نظريتك. ولكن هيا نتابع ملاحظتنا.

ونظرت إلى جهاز تسجيل العمق. فألفيته يشير إلى عمق ستة آلاف ياردة. وكانت الغواصة قد استغرقت ساعة في الهبوط كما استمرت في الغوص مناسبة بالواحا الجانبية المائلة، وكانت المياه العميقة رائعة الشفافية إلى حد يجعل عن الوصف. وبعد ساعة أخرى كنا في عمق ثلاثة عشر ألف ياردة، ومع ذلك لم يكن ثمة أثر للقاع.

وأخيرًا لمحت على عمق عشرة آلاف ياردة قممًا سوداء بين الماء. ولكن قد تكون قمم جبال مرتفعة كالهملايا أو مونت بلانك، بل ربما أكثر ارتفاعًا - ومعنى هذا أن القاع في تلك الأغوار ما زال مجهولًا.

وظلت الغواصة ممعنة في الهبوط رغم الضغط العنيف الذي كانت تتحمله. وأحسست بالألواح الجانبية المائلة تهتز، وبمرباطها وبالقضبان تنحني، وبالفواصل تتن، وببللور النوافذ يتقوس تحت الضغط المائي الشديد. وقد يمكن أن تسحق الغواصة سحقاً لولا أنها كانت متماسكة ككتلة الصخر كما قال الربان.

وكنت ونحن نهبط متحاشين هذه الصخور الضائعة في الأعماق أرى بعض الأصداف والقواقع وهي لا تزال حية، وبعض أنواع من النجميات البحرية.

ولكن سرعان ما اختفت هذه الأنواع الأخيرة التي تمثل مملكة الحيوان؛ وبعد عمق عشرة أميال تجاوزت الغواصة حدود الحياة تحت الماء كما يتجاوز البالون طبقات الجو الصالحة للتنفس. ولم نلبث أن وصلنا إلى عمق ستة عشر ألف ياردة، أي أن جوانب الغواصة كانت تحتمل ضغطاً مائياً يوازي ١٦٠٠ ضغط جوي أو ٣٢٠٠ رطل على كل سنتيمتر مربع من سطحها.

وهتفت قائلاً:

- يا له من موقف عجيب! لقد اجتزنا مناطق لم يسبق لإنسان أن وصل إليها.. انظر يا كابتن... انظر إلى هذه الصخور الرائعة. إلى هذه الكهوف الموحشة.. إلى هذه المعالم الأخيرة من الكرة الأرضية حيث تستحيل الحياة!

- هل تريد أن تعود بما هو أفضل من الذكريات؟

- ماذا تعني !

- أعني أنه ليس ثمة أسهل من أن نلتقط صورًا فوتوغرافية لهذه المناطق العجيبة.

وقبل أن أعرب عن دهشتي لهذا الاقتراح الجديد أصدر الريان نيمو أمرًا حضرت على أثره آلة تصوير إلى الصالون. وكانت اللجج المائية تبدو وراء النوافذ البللورية الواسعة شديدة الوضوح في الضوء الكهربائي المنساب من الغواصة. وما كان يمكن أن تمدنا أشعة الشمس نفسها بأسطع من هذا الضوء القوي. واستطاعت الغواصة بفضل حركة رفاصها وخضوعها للألواح الجانبية أن تبقى ثابتة مكانها. وصوبت آلة التصوير إلى هذه المشاهد في قاع المحيط وما هي إلا لحظات حتى ظفرنا بصور سلبية كانت غاية في الوضوح.

أما الصور الإيجابية فقد أوضحت لنا أشكال الصخور البدائية التي لم تشهد قط ضوء السماء، وهي صخور الجرانيت السفلي التي تكون الأساس القوي للكرة الأرضية. والكهوف الهائلة المحفورة في الكتل الصخرية الضخمة، كلها مصورة بخطوط واضحة وكأنما رسمتها ريشات بعض الفنانين الفلمنكيين. ومن وراء المناظر الأمامية ظهرت سلاسل الجبال الرائعة التي كانت بمثابة الإطار الخلفي لها. ولا أستطيع وصف شعوري وأنا أرى صور هذه الصخور السوداء الناعمة المصقولة الخالية من الطحلب ومن البقع والتي كانت تبدو في أشكال عجيبة وهي مستقرة فوق بسات من الرمال المتألقة في الضوء الكهربائي.

ومهما يكن فقد قال لي الريان نيمو بعد أن فرغ من عمليات جس

الأعماق.

- ينبغي أن نصعد الآن يا بروفيسور. فلا يصح أن نعرض الغواصة لهذا الضغط فترة طويلة.

فهتفت قائلاً:

- نصعد إلى السطح؟

- تمالك نفسك.

وقبل أن أفهم المراد من تحذير الربان لي على هذه الصورة ألفتني مُلقى فوق سجادة الصالون.

فقد أمر الربان بتوقف الرفاص؛ وتحركت الألواح الجانبية رأسياً؛ وإذا الغواصة ترتفع بسرعة مذهلة كالبالون في الهواء. كانت تشق الماء في صعودها بصوت رنان، بحيث لم يكن في مقدورنا أن نرى شيئاً. وفي أربع دقائق قطعنا الأميال الثلاثة عشر التي كانت تفصلنا عن سطح المحيط. وبعد أن برزت الغواصة كالسمكة الطائرة عادت فاستقرت فوقه بحركة جعلت الأمواج تتلاطم عالياً.

* * *

الفصل السادس والثلاثون

حيتان وقياطس

تابعت الغواصة طريقها جنوباً ليلة الرابع عشر من شهر مارس. وقد خطر لي أننا سنتجه غرباً بعد الوصول إلى رأس هورن، أي شطر المحيط الهادي، وبذلك نتم رحلتنا حول العالم. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل على كل حال، واستمرت الغواصة في طريقها صوب البقاع الجنوبية فماذا كانت وجهتها، أإلى القطب الجنوبي؟ إن هذا الهو الجنون. لقد بدأت أعتقد أن مخاوف نيد لاند لها ما يبررها إزاء تهور الربان نيمو. وكان نيد لاند قد أمسك حيناً عن مفاتيحي في مشروعات الهرب فأصبح قليل الكلام، بل كان أقرب إلى الصمت التام. وكنت أعرف ما يعاني بسبب هذا الأسر الطويل، وأحسست أن غضبه يتراكم في أعماق نفسه حتى كان إذا التقى بالربان تألقت عيناه بنيران دفيئة. وكنت أخشى في كل حين أن يدفعه عنفه الطبيعي إلى عمل لا تحمد عقباه.

وفي ذلك اليوم الرابع عشر من شهر مارس أقبل مع كونسایل إلى غرفتي ولما سألتهما عن سبب هذه الزيارة قال نيد لاند:

- لديّ سؤال يسير لك يا سيدي.
- تكلم يا نيد.
- كم رجلاً تضمهم الغواصة في رأيك؟
- لا أدري يا صديقي.
- يبدو لي أنها في غير حاجة إلى عدد كبير من البحارة لقيادتها.
- نعم. وفي مثل ظروفنا هذه يكفي عشرة رجال للعمل بها.
- حسناً، فلماذا إذن تضم أكثر من هذا العدد؟
- لماذا؟
- وحدقت في وجه نيد لاند الذي كان من السهل معرفة نواياه ثم
استطردت قائلاً:
- لأن الغواصة. إذ صبح ظني وصدق حدسي عن موقف الربان
نيمو، ليست مجرد ملاذ يأوي إليه وإنما هي مكان يحتمي به أولئك الذين
قطعوا كل صلة لهم بالأرض كالربان.
- فقال كونسایل:
- ربما. ولكن الغواصة مع هذا لا يمكن أن تضم سوى عدد معين
من الرجال يستطيع سيدي أن يقدر عددهم.
- وكيف ذلك يا كونسایل؟
- بالحساب. إن سيدي يعرف الآن حجم هذه الغواصة، وبالتالي
يستطيع أن يعرف كمية الهواء بها، كما يعرف مقدار حاجة كل فرد إلى

الهواء، ويضاف إلى هذه النتائج اضطرار الغواصة للصعود فوق سطح الماء كل أربع وعشرين ساعة..

ولم يتم كونسایل عبارته، ولكني أدركت مراده فقلت:

- إنني أفهمك يا كونسایل.. ولكن هذه التقديرات رغم بساطتها لا يمكن أن تؤدي بنا إلى نتائج محدّدة.

فقال نيد لاند في إصرار:

- هذا لا يهم.

- حسنًا. هذه هي التقديرات.. إن الرجل الواحد يتنفس في الساعة الواحدة كمية من الأكسجين الموجودة في مائة لتر من الهواء. أي أنه يتنفس في أربع وعشرين ساعة الأكسجين الموجود في ٢٤٠٠ لتر هواء، ولهذا يجب أن نعرف كم لتر من الهواء تتسع لها الغواصة في أربع وعشرين ساعة.

فقال كونسایل:

- تمامًا...

- إن سعة الغواصة هي ١٥٠٠ طن والطن ألف لتر. أي أن سعتها مليون ونصف مليون لتر من الهواء إذا قسمناها على حاجة الرجل الواحد في الأربع وعشرين ساعة أي على ٢٤٠٠ لتر..

وبسرعة سطرت العملية الحسابية بالقلم الرصاص وأردفت قائلاً:

- كانت النتيجة ٦٢٥ ، أي أن الغواصة بهذه العملية الحسابية بها من الهواء ما يكفي ٦٢٥ رجلاً في الأربع والعشرين ساعة.

فقال نيد لاند:

- ٦٢٥ رجلاً..!

- ولكنني أؤكد أن كل من في الغواصة ركابًا وبحارة ومهندسين
وخدم لا يتجاوزون عشر هذ العدد.. أي نحو ٦٢ رجلاً..

فغمغم كونسایل قائلاً:

- إنه عدد كبير بالنسبة لنا نحن الثلاثة.

- ولهذا لا يسعني يا صديقي المسكين نيد لاند إلا أن أنصحك
بالصبر.

فقال كونسایل:

- وربما ما هو أكثر من الصبر أيضًا... بالاستسلام.

لقد عبر كونسایل بهذه الكلمة عن الحقيقة، ثم استطرد يقول:

- ومع هذا. فلن يستطيع الربان نيمو السير إلى الجنوب دومًا. لا
مندوحة له من التوقف في مكان ما، ولو على شاطئ جليدي، وبعد ذلك
لن يسعه سوى العودة إلى البحار المتحضرة، وإذ ذاك يمكننا استئناف
الحديث عن الهرب.

فhez نيد لاند رأسه، ومسح بيده على جبينه، ثم انصرف من الغرفة
دون جواب..

وقال كونسایل:

- هلا أذن لي سيدي بإبداء ملاحظة واحدة؟ إن نيد لاند المسكين

يفكر في كل شيء لا يستطيع أن يحصل عليه. إن كل شيء في حياته الماضية يترد إلى ذهنه. وكل ما هو محرم علينا يأسف له ويهفو إليه. إن ذكرياته القديمة تثقل على ذهنه وتملاً قلبه بالحنين. هذا شيء سهل إدراكه. ماذا في وسعه أن يفعل هنا؟ لا شيء. إنه ليس عالمًا كسيدي؟ ولم يؤت الإحساس بتذوق جمال البحث مثلنا: إنه لا يتردد في المجازفة بكل شيء في سبيل دخول إحدى حانات موطنه مرة أخرى.

حقاً إن الحياة الرتيبة في الغواصة لا يطيقها رجل مثل نيد لاند ألف حياة كلها الحركة والحرية، ولم تكن الأحداث التي يمكنه الاشتراك فيها إلا قليلة نادرة. ومع ذلك ففي اليوم وقع حادث أعاد إلى نيد لاند ذكريات أيامه الباهرة.

ففي الساعة الحادية عشرة صباحاً التقت الغواصة وهي على سطح المحيط بفوج من الحيتان. وهو لقاء لم يدهشني إذ كنت أعلم أن هذه الحيوانات البحرية التي يتعقبها الصيادون في غير هودة، قد اتخذت من البحار النائية ملاذاً لها.

وإن الدور الذي لعبه الحوت في عالم البحار وتأثيره في الاكتشافات الجغرافية لهو دور كبير. فالحوت هو الذي استدرج في أعقابه أوائل الصيادين من أبناء الباسك، ومن بعدهم النمساويين والإنجليز والهولنديين، وأثار فيهم الجراءة لمواجهة أخطار المحيط، وقادهم من أقصى العالم إلى أقصاه. وتميل الحيتان إلى الحياة في المناطق الشمالية والجنوبية من المحيطات. وحتى الأساطير القديمة زعمت أن الحيتان استدرجت الصيادين إلى مدى عشرين ميلاً من القطب الشمالي. فإن

كان هذا حديث خرافة، فإنه واقع يومًا، ولهذا يحتمل أن يصل الناس في مطاردتهم الحيتان في الأصقاع المتجمدة إلى المنطقة القطبية التي ظلت حتى الآن مجهولة للإنسان.

وكنا إذ ذاك جالسين على سطح الغواصة والبحر هادئ من حولنا، وكان شهر أكتوبر في تلك المناطق قد أضفى علينا جوًّا أفريقيًّا جميلًا. وكان نيد لاند الذي لا يخطئ في مثل هذه الظروف هو الذي أشار إلى وجود حوت في الأفق الشرقي. فلما دققنا النظر شاهدنا ظهره الأسود يرتفع ويهبط فوق الأمواج على بعد خمسة أميال من الغواصة، وعندئذ صاح نيد لاند:

- آه لو كنت الآن في زورق لصيد الحيتان، لمأ هذا المشهد صدري بهجة، إنه حوت ضخم. انظر كيف يدفع أعمدة الماء الهواء والبخار من منخاريه بقوة! تبًّا لهذا. لماذا قيدت إلى قطعة الحديد هذه! فقلت له:

- ما هذا يا نيد، ألم تنس بعد حبك للصيد؟
- هل يستطيع صياد حيتان أن ينسى مهنته يا سيدي؟ هل يمكن أن يسأم الانفعال الذي تثيره في نفسه مطاردة الحوت؟
- هل سبق لك الصيد في هذه البحار يا نيد؟
- كلا يا سيدي بتاتًا. في بحر القطب الشمالي، وأحيانًا في مضائق بهرنج ودافيز.

- إذن فلا يزال حوت المناطق الجنوبية مجهولًا لك، لقد اعتدت

حتى الآن صيد حيتان جرينلاند لأنها لا تستطيع المجازفة باختراق المياه الدافئة في منطقة خط الاستواء.

فهتف نيد لاند في صوت ينم عن الدهشة والاستنكار:

- آه يا بروفيسور.. ما هذا الذي تقوله؟

- أقول ما هو واقع حقاً..

- حسناً. لكنني أعرف ما حدث لي شخصياً عام ١٨٦٥، أي منذ عامين ونصف عام، فقد اصطدت بالقرب من جرينلاند حوتاً وجدت في جنبه حربة صياد من مضيق بهرنج. فخبرني يا سيدي كيف تمكن هذا الحوت الذي أصيب في شاطئ أمريكا الغربي أن يصل إلى الشاطئ الشرقي حيث لقي حتفه، ما لم يكن قد دار حول رأس هورن أو رأس الرجاء الصالح، مجتازاً أقاليم المياه الدافئة في خط الاستواء.

فقال كونسايل:

- إنني أشاطر نيد رأيه وأنا في انتظار إجابة سيدي؟

فقلت:

- إن جوابي يا كونسايل هو أن الحيتان تتأقلم تبعاً لأنواعها في بحار معينة لا تبرحها، فإذا كانت هذه المخلوقات تنتقل من مضيق بهرنج أو دافيز، فإن السبب ببساطة يرجع إلى وجود ممر من بحر إلى آخر إما على شواطئ أمريكا أو آسيا.

فغمز نيد لاند بعينه قائلاً:

- هل يتحتم أن أصدقك يا سيدي؟

فأجاب كونسایل قائلاً:

- يجب أن تصدق.

- في هذه الحالة لا أعرف أنواع الحيتان التي تجوب هذه المناطق
لأنني لم أصطد فيها من قبل.

- هذا ما قلته لك يا نيد.

فقال كونسایل:

- وهذا ادعى لأن تتعرف بها.

فهتف نيد لاند قائلاً:

- انظروا. انظروا. إنه يقترب. إنه آت إلينا. إنه يتحدثاني، إنه يعرف
أنني سأقف أمامه عاجزاً.

وضرب سطح الغواصة بقدمه وارتعدت يده وهو يهز بها رمحاً
وهمياً.

ثم سألني قائلاً:

- هل توجد حيتان بهذا الحجم في البحار الشمالية؟

- تقريباً يا نيد..

- لأنني رأيت حيتاناً ضخمة يا سيدي... حيتاناً يبلغ طول الواحد
منها مائة قدم، بل لقد قيل لي إن حيتان الهولاموك والأمجاليك في مياه
جزر الوشيان، يبلغ طول الواحد منها أحياناً مائة وخمسين قدماً.

- يخيل إليّ أن هذه مبالغة. فإن هذه الأحياء المائية التي نتحدث

عنها هي حيتان من نوع القياطس ولها زعانف صدرية، أصغر حجمًا من الحيتان العادية.

وهتف نيد لاند دون أن تفارق عيناه سطح المحيط:

- آه.. إنه يزداد قربًا.. إنه ينتقل إلى المياه المحيطة بالغواصة.

ثم استأنف حديثه الأول قائلاً:

- إنك تتحدث عن حوت القياطس كأنه مخلوق صغير، ولكني سمعت حديثًا عن حيتان هائلة من هذا النوع وهي حيوانات بحرية ذكية يقال إنها تغطي أجسامها بالطحالب والأعشاب البحرية حتى حسبها الناس جزرًا صغيرة، فهبطوا فوقها وأقاموا الخيام وأشعلوا النار... فقاطعه كونسايل قائلاً:

- وأقاموا المنازل!

- نعم أيها الهازل. ثم إذا الحوت يغطس دون سابق إنذار ويجر معه السكان إلى قاع البحر.
فقلت ضاحكًا:

- كما حدث في رحلة السندباد البحري... آه يا نيد.. يبدو أنك من عشاق القصص الخرافية، ما حجم القياطس التي تتحدث عنها، وأرجو ألا تكون مصدقًا لما قيل لك في صدها.
فأجاب نيد لاند بلهجة جادة:

- يا سيدي العالم الطبيعي، كل شيء عن الحيتان ممكن تصديقه. يا لسرعة هذا الحوت! لقد قيل إن هذه المخلوقات يمكنها الطواف حول

العالم في أسبوعين.

- لن أناقض هذا الرأي.

- ولكن ما قد لا تعرفه يا مسيو أروناكس هو أن الحيتان في بدء الخليقة كانت تطوف الكرة الأرضية بأسرع من هذا.

- أحقًا يا نيد؟ كيف هذا؟

- كانت ذبولها في تلك الأحقاب كذيول السمك.. أي أنها وهي مضغوطة رأسياً كانت تضرب الماء من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين، ولكن الخالق وقد رأى أنها أسرع مما ينبغي أزال ذبولها فأصبحت تضرب الماء من أعلى إلى أسفل - فقلت سرعتها. فقلت متحدياً أسلوبه:

- حسنًا يا نيد... هل يتحتم أن أصدقك؟...

- إلى حد ما. كما لو قلت لك إنه توجد حيتان طول الواحد منها ثلاثمائة قدم وزنته مائة ألف رطل.

- هذا تهويل ولا ريب. ومع ذلك فيجب الاعتراف بوجود حيتان بالغة الضخامة منذ أمكن استخراج مائة وعشرين طنًا من الزيت منها.

فقال نيد لاند:

- هذا شيء رأيته يحدث.

- إنني أصدق هذا يا نيد لاند، كما أصدق أن من الحيتان ما يبلغ حجمه مائة فيل. فهل تتصور أثر هذه الكتلة الهائلة حين تندفع بكل سرعتها؟

فقال كونسايل:

- هل يمكن للحوت أن يغرق سفينة؟

- لا أظن. ومع ذلك قيل إن حوتًا في هذه المناطق الجنوبية ألقى بجسمه على السفينة أسكس وقذف بها إلى الوراء بسرعة ١٤ قدمًا في الثانية فاندفعت المياه إليها وغرقت فورًا.

فنظر نيد لاند إليَّ بعين هازلة وقال:

- أما أنا فقد أصبت بضربة من ذيل حوت.. أعني زورقي طبعًا. وقد أَلَقْتُ الضربة بي وبزملائي مسافة عشرين قدمًا. ولكن حوتي هذا يعتبر رضيعًا بالنسبة لحوتك.

فقال كونسايل:

- هل تعيش هذه الحيتان طويلًا؟

فقال نيد لاند بلا تردد:

- ألف عام.

- كيف عرفت هذا يا نيد لاند؟

- هكذا يقولون..

- ولكن ما الذي جعلهم يقولون هذا؟

- لأنهم يعرفون ما يقولون.

فقلت:

- لا يا نيد.. إنهم لا يعرفون يقينًا. ولكنهم يظنون، وإليك البيان:

كانت هذه الحيتان منذ أن بدأ الصيادون مطاردتها لأول مرة، أي منذ أربعمئة عام، أكبر حجمًا مما هي الآن، ولهذا السبب ظن الناس من الوجهة المنطقية أن صغر حجم الحيتان نسبيًا راجع إلى أنها لم تبلغ سن الاكتمال. وهذا ما جعل العالم بانول يقول إنه من الممكن أن تعيش الحيتان ألف سنة... فهل فهمت؟..

ولكن نيد لاند لم يكن منصتًا إليّ. فقد كان الحوت يزداد اقترابًا وهو يلتهمه بنظراته وإذا به يصيح قائلاً:

- إنه ليس حوتًا واحدًا بل عشرة.. عشرون، فوج كامل... كل هذا وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئًا.. مقيد اليدين والقدمين..
فقال كونسايل:

- ولكن لماذا لا نلتمس يا صديقي الإذن من الربان نيمو لمطاردتها.
وما كاد كونسايل يتم عبارته حتى هبط نيد لاند إلى داخل الغواصة باحثًا عن الربان. وبعد فترة وجيزة عاد الاثنان إلى السطح.
ونظر الربان إلى فوج الحيتان التي كانت تلهو على بعد ميل من الغواصة.

ثم قال:

- إنها حيتان جنوبية، إنها ثروة لأسطول كامل من زوارق الصيادين..
فقال نيد لاند:

- حسنًا يا سيدي.. هل تأذن لي بمطاردتها حتى لا أنسى مهنتي كصياد حيتان.

- وما فائدة صيدها؟ لسنا في حاجة إلى زيت الحوت في الغواصة.
فاستطرد نيد لاند قائلاً:

- ولكنك يا سيدي أذنت لنا بصيد بقرة البحر في البحر الأحمر.

- ذلك لكي نحصل على لحم طازج للبحارة. أما الآن، فإن صيدك لهذه الحيتان لن يكون إلا إرضاء لشهوة القتل. أنا أعرف أن هذه الشهوة إحدى الغرائز البشرية ولكنني لا أقر مجاراتها. إن الصيادين أمثالك يا نيد لاند يرتكبون خطأ فادحاً بقتلهم هذه الحيتان المسالمة، جنوبية أو عادية، وهذا هو السبب في استعمارهم لخليج بافن بأجمعه. إنهم سيقضون على هذه الحيوانات النافعة ولهذا أحب أن تدع هذه الحيوانات البحرية البائسة وشأنها. وحسبها ما تعانيه من أعدائها الطبيعيين كالقياطس، وسمك السيف، وسمك المنشار دون تدخل منكم.

وإنني أترك القارئ يتصور وجه نيد لاند أثناء هذه المحاضرة الأخلاقية.

كان من العيب أن نحاول بمثل هذه الحجج إقناع الصياد. فقد تطلع نيد لاند إلى الربان وبدا بوضوح أنه لم يفهم شيئاً. ولكن الربان كان على حق لأن جشع الصيادين وضراوتهم سيؤديان يوماً إلى انقراض آخر حوت في المحيط.

وصفر نيد لاند بشفتيه لحناً أمريكياً ثم أولانا ظهره. أما الربان نيمو فقد اتجه بنظره إلى فوج الحيتان، ثم خاطبني قائلاً:

- كنت على حق يا سيدي في قلبي إن للحيتان أعداء طبيعيين بما

فيه الكفاية. ويبدو أن الحيتان ستضطر قبل فترة طويلة إلى الدفاع عن نفسها. هل ترى يا مسيو أروناكس هذه النقط السوداء المتحركة على بعد نحو ثمانية أميال؟

- نعم يا كابتن...

- إنها حيتان القياطس. وهي حيوانات بحرية وحشية رهيبة. إنها أحياناً تسبح في مجموعات قد يصل عدد كل منها إلى مائتين أو ثلاثمائة. وعندي أن من الحكمة القضاء على هذه الوحوش القاسية الشريرة. والتفت نيد لاند إلينا بسرعة حين سمع هذه العبارة الأخيرة، بينما قلت:

- حسنًا يا كابتن.. لا يزال أماننا وقت لإنقاذ الحيتان المسالمة.

- لا جدوى من تعريض أنفسنا للخطر. ويكفي أن نفرق هذه القياطس. إن الغواصة مزودة بمهازم من الصلب تماثل في رأيي حراب السيد نيد لاند.

ولم يتمالك نيد لاند أن هز كتفيه وكأنما يقول لنفسه. «من سمع من قبل عن مهاجمة الحيتان الوحشية بنتوءات سفينة»... أما الربان فقد أردف قائلاً:

- مهلاً يا مسيو أروناكس.. ستشهد لوّنًا من الصيد لم يسبق أن شهدت مثله. إني لا أشفق على هذه الحيتان الوحشية؟ فإنها عبارة عن أشداق وأسنان. أشداق وأسنان.. هذا أصدق وصف للقياطس. أو «حوت العنبر» فهو يتجاوز في الطول أحياناً خمسة وسبعين قدمًا.

ويحتل رأسه الضخم ثلث جسمه. وهو أقوى سلاحًا من الحوت العادي الذي لا يضم في فكه الأعلى سوى عظام حوتية أو القيطس فإن فكه الأعلى خمسة وعشرين نابًا طول كل منها نحو ثلاث بوصات مخروطية الشكل حادة الأطراف ويزن الناب الواحد نحو رطلين، ويوجد في هذا الجزء العلوي من الرأس الضخم وفي كهوف كبيرة مقسمة إلى خياشيم، نحو ثمانمائة رطل من زيت الحوت الثمين أو زيت «الأيل»، والقيطس وحش بحري رهيب. وهو مشوه التركيب إذ إن جانبه الأيسر كله يوصف بأنه ناقص التكوين وهو لا يبصر إلا بعينه اليمني فقط.

وفي هذه الأثناء كان فوج القياطس الهائلة يزداد اقترابًا بعد أن رأت الحيتان واستعدت لمهاجمتها، وبوسع المرء أن يتنبأ سلفًا أن الانتصار سيكون للقيطس؛ لا لأنها أقوى سلاحًا في الهجوم على أعدائها المسالمة فحسب، بل ولأنها أقدر على البقاء فترات أطول تحت سطح الماء.

وأسرعت الغواصة إلى نجدة الحيتان قبل فوات الوقت، فغاصت تحت السطح، واتخذت مع كونسایل ونيد لاند أماكنًا وراء النافذة البللورية في الصالون وانضم الربان نيمو إلى عامل الدفة في المقصورة البللورية ليقود الغواصة بوصفها آلة للدمار. وسرعان ما شعرت بازدياد حركة الرفاص، وازدادت سرعة الغواصة على الأثر.

وكانت المعركة بين الحيتان والقيطاس قد بدأت عندما وصلت الغواصة إلى ميدانها. وتوخى الربان في توجيهها تشتيت شمل القياطس التي لم تفزع أول الأمر من هذا الوحش الذي اشترك في المعركة ولكنها لم تلبث أن بدأت تتلقى ضرباتها.

يا لها من معركة! إن نيد لاند نفسه لم يتمالك لفرط حماسته من أن يصفق طرباً. وكانت الغواصة إذ ذاك بمثابة حربة هائلة مشرعة في يد الربان، فهي تندفع إلى الكتل الحيوانية وتشقها من طرف إلى طرف تاركة وراءها أنصافاً من جثث تختلج بالموت، ولم تكن بدورها تحس بالضربات الهائلة الموجهة إليها من ذيول القياطس ولا بالهزات الناتجة من اندفاعها إليها. وكانت إذا فرغت من القضاء على قيطس اندفعت إلى آخر، لتقضي عليه في موضعه قبل أن يهرب. وهي خلال هذا تندفع أماماً وخلفاً، طيعة لربانها، وتغطس في أثر الوحوش حين تغطس ثم تندفع صاعدة إلى السطح ضاربة هذا الوحش أو ذاك بجوانبها المهمازية، ممزقة أجساد كل ما يعترض سبيلها، مخترقة بمقدمتها الحادة ما يقع أمامها.

يا لها من مذبحة.. ويا له من دوي واصطخاب فوق سطح الماء، ويا له من فحيح ونخير يصدران من هذه الحيوانات الوحشية حين يدركها الفزع. أما ذيولها فكانت في هذه المياه الهادئة بمثابة المنافيخ تحرك ساكنها.

ودامت هذه المذبحة الهوميرية ساعة دون أن يتاح للقياطس فرصة الهرب. وقد حاول نحو عشرة منها بضع مرات تحطيم الغواصة بتكتلتها. وكنا نرى من النوافذ البللورية أشداقها الهائلة المرصوفة بالأنياب، وعيونها الضخمة. ولم يتمالك نيد لاند أن راح يصب عليها سيول غضبه وتهديداته وكنا نشعر بها وقد تشبثت بالغواصة ككلاب الصيد وهي تطارد خنزيراً وحشياً في أجمة. ولكن الغواصة كانت بقوة رفاصها المتزايدة تحملها هنا وهناك، أو ترفعها إلى ما فوق الأمواج رغم ثقلها

الهائل وعنف تشبثها.

وأخيراً تشتت شمل الكتلة الوحشية وساد الهدوء مرة أخرى سطح البحر، وشعرت بالغواصة ترتفع إلى سطح المحيط. وما إن فتحت المنافذ حتى اندفعنا إلى ظهرها.

إن البحر مغطي بالجثث الممزقة.. وما كان في مقدور انفجار عنيف أن يشتت أو يمزق هذه الكتل اللحمية كما فعلت الغواصة. فقد كنا نطفو بين جثث هائلة ظهورها مائلة للزرقة، وبطونها مبيضة وقد علتها كتل بارزة من اللحم المتورم. وكانت بقية القياطس المذعورة تنطلق هاربة إلى الأفق البعيد. كما اصطبغت الأمواج باللون الأحمر مدى أميال حول الغواصة حتى لكانما هي تطفو في بحر من الدماء.

وانضم الربان نيمو إلينا قائلاً:

- حسنًا يا مستر نيد لاند.

فقال نيد لاند الذي هدأت حماسته:

- حسنًا يا سيدي.. كان مشهدًا رهيبًا حقًا. ولكنني لست قصابًا بل صيادًا. إن ما حدث ليس إلا مجزرة.

- إنها مجزرة وحوش شريرة وليست الغواصة إلا سكين قصاب.

- إنني أفضل عليها حربة الصيد.

فقال الربان نيمو وهو يحدج نيد لاند بنظراته:

- كل إنسان يفضل سلاحه الخاص.

وخشيت أن يدر من نيد لاند عمل عنيف تكون له نتائج يؤسف لها.

ولكنه شغل عن غضبه بمشهد حوت كانت الغواصة قد اقتربت منه .

كان حوتًا لم يكتب له النجاة من أنياب القياطس، وقد عرفت أنه من حيتان البحار الجنوبية المفرطح الأسود. وكان يختلف - من الوجهة التشريحية - عن الحوت الأبيض أو حوت الثلوج بسبع فقرات مخروطية ملتحمة، وبزيادة ضلعين عن بقية جنسه. وكان الحوت المسكين مقلوبًا على جانبه جثة هامدة وبطنه مليء بالجروح الناشئة عن عض الأنياب. وكان ثمة حوت رضيع تعلق بزعنفته المشوهة، ولم يستطع هذا الصغير أيضًا أن ينجو من المذبحة. وكان فمه مفتوحًا تجري فيه المياه داخله خارجة. مرسله خلال عظامه خريزًا كخريز أمواج تتكسر على الشاطئ.

واقترب الربان نيمو بالغواصة من جثة الحوت، وهبط اثنان من البحارة فوقه. ودهشت إذ رأيتهما يحلبان من أندائه كل ما فيها من لبن، أي ما يتراوح من طنين وثلاثة أطنان.

وقدم الربان إليّ قدحًا من هذا اللبن الذي ما زال محتفظًا بدفته. ولم يسعني سوى إبداء نفوري من هذا الشراب، ولكنه أكد لي عذوبته وعدم اختلافه عن لبن البقر.

ولما تذوقته وجدته كما وصفه. ادركت أنه سيكون طعامًا احتياطيًا مفيدًا لنا. فهو على صورة زبد أو جبن سيغدو تغييرًا طيبًا في طعامنا اليومي.

ومنذ ذلك اليوم كنت ألاحظ والقلق يساورني ازدياد كراهية نيد لاند للربان؛ ولهذا قررت أن أراقب تصرفاته وحرركاته بعناية واهتمام.

الفصل السابع والثلاثون

شاطئ الجليد

استأنفت الغواصة سيرها جنوبًا متبعة المدار الخمسين بسرعة بالغة. ترى هل ينوي ربانها أن يمضي بنا إلى القطب. لا أظن هذا؛ لأن كل محاولة بذلت حتى ذلك الحين للوصول إلى هذا القطب الجنوبي كان مآلها الفشل، وفضلاً عن هذا فقد فات موسم الوصول إلى هذا القطب. لأن الثالث عشر من شهر مارس في المناطق القطبية الجنوبية يعادل الثالث عشر من شهر سبتمبر في المناطق القطبية الشمالية. وهو بدء الفترة التي يتساوي فيها الليل والنهار.

في اليوم الرابع عشر رأيت في خط عرض ٥٥ درجة كتلة جليدية طافية، وكانت صخرة ثلجية يتراوح طولها بين عشرين وخمسة وعشرين قدمًا مكونة حواجز تتكسر عليها الأمواج. وتابعت الغواصة مسيرها على سطح المحيط. وكان نيد لاند الذي سبق له الصيد في هذه المياه القطبية الشمالية معتادًا على رؤية جبال الجليد الطافية. أما أنا وكونسايل فقد كان نستمتع بمشاهدتها لأول مرة.

وكان يمتد نحو الأفق الجنوبي شاطئ أبيض براق يطلق عليه صيادو

الحيثان الإنجليز اسم الشعاع الثلجي؛ لأن السحب مهما تراكت لا تستطيع أن تحجبه، كما كان يعلن دائماً عن وجود تراكم ثلجي أو شاطئ. وفي الواقع سرعان ما ظهرت كتل أضخم وأضخم. كان بريقتها يختلف تبعاً لحالة الضباب. وكان بعض هذه الكتل يكشف عن عروق خضراء بداخلها. وكأنما رسمت هذه الخطوط الطوال المتموجة بسلفات النحاس. وكان بعضها - كالجشمت الهائل - يهيئ للضوء أن يتألق داخلها. وكان غيرها يعكس أشعة الشمس من آلاف الجوانب البللورية. وكان ثمة غير هذه وتلك كتل مظلمة بطبقات كلسية مصقولة تكفي لإنشاء مدينة هائلة كاملة من الرخام.

وكانت هذه الجزر العائمة تزداد عددًا وحجمًا كلما أمعت الغواصة في سيرها نحو الجنوب. وقد رأيت الطيور القطبية تحط عليها بالآلاف. وكانت أطيّار النورس، والدانارد والناصح تكاد تصم آذاننا بصيحاتها. وقد ظن بعضها أن الغواصة ظهر حوت، فأقبلت تحط عليها وتنقر ألواحها الرنانة بمناقيرها.

وكان الربان نيمو حريصاً على البقاء في مقصورة القيادة أثناء سيرها بين كتل الجليد. وكان يرقب هذه المناطق الموحشة باهتمام. وكنت أرى ملامحه الهادئة تضيئها أحياناً سمات الحيوية والانتعاش.

ترى هل يقول لنفسه إنه في هذه البحار القطبية النائية عن البشر، كأنما هو في بيته ووطنه، وسيد لهذا الفضاء غير المحدود؟ ربما.. ولكنه لم يتحدث بما في نفسه. بل كان يظل بلا حراك لا يفيق إلا حين تنتابه غريزة الشعور بالخطر أثناء القيادة. فإذا هو يقود الغواصة ببراعة. متحاشياً

الاصطدام بهذه الجبال العائمة التي كان طول بعضها يبلغ بضعة أميال، وارتفاعها نحو مائتين أو ثلاثمائة قدم. وكان الأفق يبدو أحياناً مسدوداً تماماً. وفعلاً اختفت جميع الممرات المائية في نهاية الدرجة الستين من خط العرض، وكان الربان نيمو قد استطاع بالبحث الدقيق أن يهتدي إلى فجوة نفذ منها ببراعة وهو يعرف تماماً أنها ستلتحم وراءه.

على هذا النحو كانت الغواصة تنقاد لهذه اليد البارعة، وتغوص بين كتل الجليد التي كانت مصنفة طبقاً لحجمها وتكوينها تصنيفاً دقيقاً يبهج قلب كونساييل. فهي جبال الجليد وحقول الجليد والرزم عندما تكون دائرية، والجدران عندما تتكون من قطع مستطيلة.

وكان الجو بارداً وكان مقياس الحرارة المعرض للهواء الخارجي يدل على أن حرارة الجو تبلغ درجتين أو ثلاثاً تحت الصفر، ولكن كنا ننعم بالدفء بفضل ملابسنا المصنوعة من فراء الفقمة أو الدببة القطبية. أما داخل الغواصة المزودة بأجهزة الدفء الكهربائية، فكان يتحدى أعنف الأجواء الباردة. وفضلاً عن هذا كان يمكن أن تهبط الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء حيث الجو الحار محتمل. ولو أننا وصلنا قبل شهرين لوجدنا النهار دائماً في هذا المناطق! أما الآن فقد كان الليل يستمر ثلاث ساعات أو أربعاً تظل تزداد حتى تمتد فترة الليل في هذه المنطقة من الدائرة القطبية ستة أشهر.

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس اجتزنا خطوط عرض جزائر نيو جتلاند ونيو أوركني. وقد أخبرني الربان أن جماعات كثيرة من حيوان الفقمة كانت تستوطن هذه المناطق من قبل، ولكن صيادي

الحيتان الإنجليز والأمريكيين الذين استبدت بهم شهوة القتل أبادوا تجمعات هذا الحيوان المسالم عن آخرها. ولم يرحموا حتى الإناث والرضع وخلفوا وراءهم سكون الموت بعد أن كان ديبب الحياة والنشاط يملأ الجو.

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم السادس عشر، اجتازت الغواصة وهي تتبع المدار الخامس والخمسين، حدود الدائرة القطبية الجنوبية، حيث أحاطت بنا الثلوج من جميع الجهات وسدت في وجوهنا الأفق، ورغم ذلك ظل الربان يتنقل من ممر إلى آخر ملتزمًا الاتجاه الجنوبي.

وفي هذا قلت:

- ترى ما هي وجهته؟

فقال كونسایل:

- إنه يتجه إلى حيث يشاء.. وعلى أي حال سيضطر إلى التوقف عندما يعجز عن المضي.

- هذا رأي غير مؤكد.

ولكنني أعترف، مع هذا، أنني لم أكن ساخطاً على هذه الرحلة المتسمة بروح المغامرة. ولا أستطيع أن أصور دهشتي لمظاهر الجمال في تلك المناطق الجديدة. فقد كان الجليد يتخذ أبهى الأشكال. فهنا مثلاً كانت الكتل المتجمعة تبدو كمدينة شرقية بمساجدها ومآذنها العديدة. وهناك مدينة مقلوبة تبدو كأنها ملقاة على الأرض. بفعل زلزال عنيف. وكانت المشاهد تتغير باستمرار في ضوء الشمس. أو تختفي وراء غلاثل

الضباب، بين الزوابع الثلجية. وكان دوي سقوط الكتل الجليدية يُسمع في جميع الجهات. وكانت الكتل الثلجية العارمة تغير المشاهد كأنها معالم صور متحركة.

وعندما كانت الغواصة تهبط إلى الأعماق في لحظة اضطراب هذه الكتل المائية كان الصوت ينفذ إلى الماء في هدير بالغ مروع؛ وكان سقوط الكتل يثير دوامات تصل إلى أعماق المحيط حتى كانت الغواصة تضطرب وتمايل كسفينة في براثن ثورة العناصر الطبيعية.

وكنت أعتقد كلما سدت الطرق أماناً أننا أصبحنا أسرى هذه الكتل الرهيبة. ولكن الربان نيمو كان يتقدم بوحى غريزته، وكان يسترشد بأقل علامة لتحديد ممرات جديدة للغواصة. والحق أنه لم يكن يخطئ في التقاط خيوط الماء الزرقاء التي تتخلل حقول الجليد. ولهذا لم يخالجنى الشك في أنه قاد الغواصة قبل هذه المرة في البحار المتجمدة الجنوبية.

ولكن هذه الحقول الجليدية لم تلبث أن سدت الطريق تمامًا في اليوم السادس عشر من شهر مارس. ولم يكن هذا شاطئ الجليد بعد، بل كانت حقولاً ثلجية جمدها البرد حتى صارت كالأسمنت. ولكن هذه العقبة لم توقف الربان نيمو، فقد اندفع بالغواصة في عنف مخيف فإذا هي تنساب في الكتل المتجمدة تشقها كالنصل في صوت قاصف رهيب. كانت كالمدق المستعمل في العصور القديمة وهو يندفع بقوة هائلة. وكانت قطع الثلج المتطايرة في الهواء تتساقط حولنا كال مطر. واستطاعت الغواصة بقوتها الذاتية الدافعة أن تشق لنفسها ممرًا مائيًا. وهي أحياناً كانت تحط بكل قوتها على ركام الجليد فتحطمها بثقلها.

وأحياناً أخرى كانت تلتحم بمقدمتها مع الثلوج فتشققها بحركة بارعة، وتفتح فيها ممراً واسعاً.

وفي تلك الأيام كانت الأمطار الغزيرة تنهمر علينا بلا انقطاع. ولم يكن بوسعنا إذا تكاثف الضباب أن نرى أول الغواصة ونحن في آخرها. وكانت الرياح تعصف حولنا في كل اتجاه. وكانت الثلوج تهطل وتتراكم في أكوام صلبة كنا نحطمها بالمعاول. وكانت درجة الحرارة البالغة ٥٠ درجة تحت الصفر قد علت جوانب الغواصة الخارجية بطبقة من الجليد. وما كان لسفينة شراعية أن تشق طريقها في مثل هذه المنطقة، لأن الحبال تتجمد على «البكر» من فرط البرد. ولكن السفينة التي تدار بالكهرباء لا بالفحم، هي التي تستطيع وحدها السير في هذه المنطقة النائية. وكان «البارومتر» في هذه الظروف ينم دائماً عن الهبوط الشديد. ولم يكن بوسعنا الاعتماد على تقديرات البوصلة البحرية، فقد كان مؤشرها يدل على اتجاهات مضادة ونحن نقرب من القطب المغناطيسي الجنوبي الذي لا يجب الخلط بينه وبين جنوب الكرة الأرضية. فإن هذا القطب المغناطيسي يقع طبقاً لنظرية هانستين بالقرب من خط العرض ٧٠ درجة وخط الطول ١٣٠ درجة. وطبقاً لنظرية دوبيري يقع في خط الطول ١٣٠ درجة وخط العرض ٣٠: ٧٠ درجة وكان علينا أن ندون مختلف الملاحظات على البوصلة بعد وضعها في عدة أماكن بالغواصة لتقدير المعدل. وما كان علينا إلا أن نراجع هذه التقديرات بين وقت وآخر لتحديد مواقعنا، وهي طريقة غير مرضية بين ممرات ضيقة تتغير معالمها باستمرار.

وأخيرًا في الثامن عشر من شهر مارس، وبعد محاولات عنيفة فاشلة توقفت الغواصة توقفًا تامًا، وهي لم تتوقف أمام جداول ثلجية أو حقول جليدية بل أمام حاجز راسخ مكون من كتل جليدية ملتحمة. وقال نيد لاند:

- هذا شاطئ الجليد.

وقد أدركت أن هذا الشاطئ عقبة كؤود لا منفذ منها في نظر نيد لاند أو غيره من الملاحين الذين سبقونا إليه. وكان الربان قد انتهز فرصة شروق الشمس لحظة واحدة عند الظهر، فأسرع بتحديد موضعنا، فإذا نحن في نقطة تقع بين خط الطول ٣٠: ٥١ درجة وجنوبي خط العرض ٣٩: ٦٧ درجة، وهي نقطة سحيقة في هذه المناطق الجليدية.

ولم يكن ثمة دليل على وجود بحار أو مسطحات مائية أمام نواظرنا وإنما امتد من مقدمة الغواصة سهل شاسع مغطى بكتل مبعثرة يبدو كسطح نهر قبل تكسر الثلوج فوقه. ولكن بصورة مضاعفة إذ كانت القمم والأطراف الثلجية الدقيقة ترتفع هنا وهناك إلى مائتي قدم. وعلى مسافة منها سلسلة من التلال الثلجية منحدره الجوانب وعرة، كسيت بطبقة لامعة رمادية وكأنها مرايا هائلة تعكس بعض أشعة الشمس نصف الغارقة في غلائل الضباب. وكان السكون رهيب يخيم بصرامة فوق هذا المشهد الموحش. فلا يقطعه بين حين وآخر سوى خفق أجنحة طيور النورس أو الفاصوح. وعلى الجملة كان كل شيء متجمدًا.. حتى الصوت..

وهكذا اضطرت الغواصة إلى التوقف في سيرها المحفوف

بالمخاطر بين حقول الجليد.

و ذات يوم قال نيد لاند:

- سيدي.. إذا حاول ربانك أن يمضي إلى أبعد من هذا..

- حسنًا.

- سيكون رجلًا بارعًا حقًا..

- لماذا يا نيد؟

- لأن أحدًا لم يستطع قط اجتياز شاطئ الجليد. إن ربانك هذا رجل قوي.. ولكنه برغم هذا لن يكون أقوى من الطبيعة. وعليه أن يتوقف - شاء أو لم يشأ - حيث أرادت له الوقوف.

- لا شك في هذا يا نيد لاند. ومع ذلك بودي أن أعرف ماذا وراء هذا الشاطئ الجليدي. أهو جدار أم ماذا؟ إن هذا يضايقني إلى حد كبير... فقال كونسایل:

- إن سيدي على حق.. إن الجدران لم تبتكر إلا لمضايقة العلماء. لا ينبغي أن تكون أمامهم جدران في أي مكان. فقال نيد لاند:

- حسنًا.. إن ما وراء شاطئ الجليد معروف تمامًا..

- ما هو؟..

- جليد.. وجليد.. ولا شيء غير الجليد.

- هل أنت واثق من هذه الحقيقة يا نيد. أنا شخصيًا غير واثق. ولهذا

أريد أن أمضي لكي أعرف.

- حسنًا يا سيدي البروفسور.. عليك أن تتخلى عن هذه الفكرة، لقد وصلت إلى شاطئ الجليد. وفي هذا الكفاية. ولن نستطيع أن نمضي إلى أبعد منه. لا أنت ولا الربان ولا الغواصة. علينا أن نعود نحو الشمال مرة أخرى أراد أو لم يرد.. إلى بلاد الحضارة.

وكان عليّ أن أوافق نيد لاند على رأيه. فإنه حتى لو صنعت السفن التي تستطيع السير على حقول الجليد، فإنها ستضطر للوقوف أمام شاطئ الثلوج.

والواقع أنه برغم جهود الغواصة، وبرغم القوى المزودة بها لتحطيم الثلوج وقفت بلا حركة أمام هذا الشاطئ الجليدي، والمعروف كقاعدة أنك إذ لم تستطع أن تتقدم إلى الأمام، كان عليك أن تعود إلى الوراء. ولكن العودة إلى الوراء هنا أمست مستحيلة تمامًا كالتقدم إلى الأمام، ذلك لأن الممرات التي تقدمنا منها لم تلبث أن أغلقت وراءنا، وبعد أن أطالت الغواصة المكث هنا فستصبح محاصرة من جميع النواحي. وهذا ما حدث في الساعة الثانية بعد الظهر. فقد أهدقت بها الثلوج وبسرعة مذهلة، ولم يسعني إلا الاعتراف بأن تصرف الربان نيمو كان مجردًا من أسباب الحكمة، وكنت عندئذ على سطح الغواصة. وظل هو يرقب الموقف بضع دقائق ثم قال لي:

- حسنًا يا بروفسور. ما رأيك في هذا؟

- أعتقد أننا وقعنا في الفخ يا كابتن.

- وقعنا في الفخ.. ماذا تعني؟

- أعني أننا لن نستطيع أن نتراجع أو نتقدم في أي اتجاه. ومعنى هذا في رأيي أننا وقعنا في الفخ أو على الأقل في قارة غير مأهولة.
- كأنك لا تعتقد يا مسيو أروناكس أن في مقدور الغواصة الخروج من هذا المأزق.

- ليس بالسهولة التي تتصورها يا كابتن. لأن موسم ذوبان الثلوج لا يزال بعيداً جداً...
قال بتهكم:

- آه.. أنت دائماً هكذا.. لا ترى غير العقبات والمصاعب. ولكنيؤكد لك أن الغواصة لن تخرج من هذا الفخ وحسب بل وستمضي قدماً..

وقلت وأنا أحدق في وجهه:

- نحو الجنوب؟!!

- نعم يا سيدي.. ستمضي إلى مدار القطب..

فهمت قائلاً ولم أتمالك من رفع يدي لفرط الدهشة:

- إلى القطب؟..

فأجاب الربان ببرود:

- نعم.. إلى قطب المنطقة الجنوبية.. إلى النقطة المجهولة التي تلتقي عندها كل مدارات الكرة الأرضية. وأنت تعرف أنني أفعل بالغواصة ما أريد.

- أجل كنت أعرف هذا. أعرف أن الإنسان قد يندفع في تهوره إلى أقصى حد. ولكن هذه المغامرة تتسم بالجنون التام. وليس سوى عقلية مجنون تتصور إمكان الوصول إلى طرف القطب الجنوبي.

ثم خطر لي أن أسأل الربان إن كان قد اكتشف هذا القطب الذي لم تطأه قدم مخلوق بشري فقال:

- لا يا بروفيسور.. سنكتشف هذا القطب معاً.. هناك حيث فشل الكثيرون.. لم أفشل. إنني لم أتقدم بالغواصة قط إلى هذا الحد جنوباً. ولكنني أكرر لك أننا سنمضي قدماً..

فقلت في تهكم يسير:

- أتمنى لو أصدقك يا كابتن.. ولكنني أصدقك.. نعم.. ليس أمامنا عقبات! سنحطم شاطئ الجليد.. فإذا قاومنا.. فسنزود الغواصة بالأجنحة لكي نعبره.

فقال الربان نيمو بهدوء:

- نعبره. لن نعبره. ولكننا سنجتازه من أسفل.

- من أسفل؟

وومضت في ذهني فجأة بعض مشروعات الربان، لقد أدركت كل شيء.. أدركت أن مميزات الغواصة العجيبة ستخدمنا في هذه المغامرة الخارقة.

وقال الربان في شبه ابتسام:

- أرى أننا بدأنا نتفاهم يا بروفيسور. لقد أدركت فعلاً بعض

الإمكانيات. أعني إمكانيات النجاح التي تنتظر هذه المحاولة.. إن المستحيل أمام سفينة عادية هو الممكن أمام الغواصة. إن كان ثمة قارة عند القطب الجنوبي، فسوف نتوقف أمام هذه القارة. أما إذا كان العكس ووجدنا القطب الجنوبي سابقًا في بحار مفتوحة فسوف تصل الغواصة إليه...

فقلت مدفوعًا بقوة منطق الربان:

- المؤكد أنه برغم تجمد سطح البحر بالثلوج فإن جوفه يظل سائلًا. وذلك بفضل العناية الإلهية التي جعلت معدل كثافة مياه البحر أعلى من معدل العناصر المماثلة لها. وإذا لم أكن مخطئًا فإن نسبة حجم الجزء الغاطس من شاطئ الجليد إلى حجم الجزء الطافي كنسبة ثلاثة إلى واحد.

- نحو ذلك يا بروفيسور... فإن لكل قدم مكعب من جبال الثلج الطافية، ما يوازيه من الثلج تحت السطح ثلاث مرات، وإذا كانت هذه الجبال الثلجية ترتفع الآن ثلاثمائة قدم، فإن الجزء الغاطس منها يزيد على تسعمائة قدم، فما قيمة هذا العمق اليسير بالنسبة للغواصة؟

- لا شيء يا كابتن.

- إنها قد تهبط أيضًا إلى أغوار أعمق حيث تعادل حرارة المياه. ولكن المشكلة هي أننا سنضطر للبقاء تحت سطح الماء أيامًا عديدة دون أن نجدد هواء الغواصة.

- أهذه هي المشكلة؟ إن للغواصة مستودعات هوائية ضخمة

سنملأها وستزودنا بالأكسجين اللازم لنا.

فقال الربان باسمًا:

- أحسنت يا بروفيسور، ولكني لا أريد أن تتهمني بالتهور. ولهذا
أضع أمامك سلفًا ما قد يعترض طريقنا.

- هل بقيت عقبات أخرى؟

- واحدة فقط.. يحتمل إذا كان ثمة بحر في القطب الجنوبي أن
يكون سطحه متجمدًا تمامًا. فلا تستطيع الصعود إليه.

- حسنًا. يا سيدي... هل نسيت أن الغواصة مزودة بمقدمة حديدية
قوية، وأنه في مقدورنا أن ندفع بها، رأسياً إلى طبقة الجليد فتتشقق فوراً
من أثر الاصطدام.

- آه.. إن أفكارك نيرة اليوم يا بروفيسور.

فقلت وأنا أزداد حماسة:

- فضلاً عن هذا فلماذا لا نجد بحرًا مفتوحًا في القطب الجنوبي
كما هو الشأن في القطب الشمالي؟ إن قطبي الجليد وقطبي الأرض،
ليست كلها متماثلة الحالات في الشمال وفي الجنوب. وحتى يكون
لدينا الدليل المحقق على العكس، لنا أن نعتقد بوجود إما قارة أو محيط
غير متجمد في كلا القطبين.

- وهذا ما أراه أيضًا يا مسيو أروناكاس،. وكل ما أقوله هو إنك بعد
أن كنت تكثر من معارضة رأيي، أصبحت الآن تنهال عليّ بالآراء المؤيدة
له.

ولم يتجاوز الربان نيمو الحقيقة. فقد رحت أنافسه في الجراءة والإقدام. وكنت أنا الذي أحاول أن أدفعه إلى القطب.. لقد سبقته بخيالي.. ولكن.. لا.. يا لبلاهتي.. إن الربان نيمو يعرف ما لهذه المغامرة وما عليها. وكل ما هنالك أنه كان يتمتع نفسه برؤيتي مندفعًا في التحمس لأحلام مستحيلة التحقيق.

وفي خلال ذلك لم يضع الربان وقته.. فبإشارة منه أقبل الضابط الأول وتبادل الاثنان حديثًا بلغتهما غير المفهومة. وسواء كان الضابط على علم بأمر هذه الرحلة من قبل أو أنه فوجئ بها ووجدها ممكنة فلم يبد أدنى دهشة.

وكان ذلك شأن كونسایل الذي لم يدهش وأنا أخبره بعزمنا على الوصول إلى القطب الجنوبي. وقد قنعت منه بعبارته التقليدية التي يجيب بها في مثل هذه الظروف «كما يريد سيدي» أما نيد لاند فقد هز كتفيه قائلاً:

- إنني أسف لك ولربانك يا بروفيسور.

- ولكننا سنذهب إلى القطب يا نيد.

- جائز. ولكنكم لن تعودوا...

وبدأت الاستعدادات لهذه الرحلة الجريئة، فأخذت مضخات الغواصة القوية في ملء المستودعات بالهواء وحفظه تحت ضغط مرتفع. حتى إذا كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، أخبرني الربان بأن منافذ الغواصة ستغلق. فألقيت نظرة على شاطئ الجليد المتراكم الذي سنمضي تحته.

وكان الجو صافياً، والهواء نقيًا، والبرد قارسًا، ودرجة الحرارة ١٢ تحت الصفر. ولكن الريح كانت ساكنة، مما جعل هذه البرودة محتملة.

ووقف نحو عشرة رجال حول الغواصة بالمعاول يحطمون الثلوج عن جوانبها، وسرعان ما تحررت لأن طبقة الثلوج التي تراكمت حولها كانت يسيرة وانتقلنا جميعًا إلى الداخل. وامتألت الخزانات كالمتعناد بالماء المتخلف من عملية إزالة الثلج. وسرعان ما هبطت الغواصة إلى ما تحت السطح.

واتخذت مكاني بجانب كونساييل في الصالون. ومن خلال النوافذ البللورية كنت أرى درجات الأعماق المختلفة في المحيط الجنوبي. وبدأ مقياس الحرارة يرتفع.

وعلى عمق تسعمائة قدم كما توقع الربان كنا نطفو تحت الشاطئ المتجمد ولكن الغواصة استمرت في الهبوط حتى وصلت إلى عمق ثمانمائة ياردة.

ولكن درجة الحرارة التي كانت ١٢ درجة تحت الصفر فوق السطح أصبحت في هذا العمق ١٠ درجات تحت الصفر. أي أننا اكتسبنا درجتين وكانت عمليات الغوص تتم بإحكام تام.

وقال لي كونساييل:

- سنجتاز هذه المياه الجنوبية حتمًا، إذا سمح لي سيدي أن أقول هذا.

فقلت بصوت كله اليقين:

- هذا ما أقدره.

ومضت الغواصة في أعماق البحر إلى الطريق المؤدي إلى القطب رأساً على المدار الثاني والخمسين، وكانت الدرجات الباقية من ٣٠: ٦٧ إلى ٩٠ درجة نحو اثنتين وعشرين درجة ونصف درجة. ولكي نجتازها كان علينا أن نقطع نحو ألف وخمسين ميلاً. وكانت الغواصة تنطلق بسرعة معدلها ٢٦ ميلاً في الساعة، أي بسرعة قطار فرنسي سريع، فإذا استمرت تسير بهذا المعدل أربعين ساعة، فإن هذا الوقت يكفي لوصولها إلى القطب.

وكانت جدة المناظر قد ربطتنا إلى نوافذ الصالون البللورية طوال الليل، ذلك أن المياه كانت مضاءة بنور الكشاف الكهربائي، ولم تكن الأسماك تعيش في هذه المياه المغلقة، وإنما كانت تستخدمها للمرور من المحيط المتجمد الجنوبي إلى البحار القطبية المفتوحة.. وكانت الغواصة تسير بسرعة تجلت لنا من اهتزازات هيكلها الصلبي المستطيل. وفي نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل ذهبت لنيل قسط من الراحة مدى ساعات. وحذا كونسايل حذوي. ولم ألتق بالربان وأنا في الطريق إلى غرفتي وبدأ لي أنه في مقصورة القيادة.

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر مارس عدت إلى مكاني من النافذة بغرفة الصالون، وكان جهاز السرعة يدل على اعتدال سرعة الغواصة. فقد كانت في طريقها إلى السطح، وكانت ترتفع متهادية، وهي تفرغ الخزانات ببطء.

وشعرت بقلبي يخفق بسرعة. ترى هل كنا في الطريق إلى جو

القطب الطليق؟ لا.. لقد أدركت من صدمة الغواصة أنها ارتطمت بقاع الشاطئ الجليدي الذي عرفت من رنين الارتطام المكتوم أنه لا يزال كثيفاً سميكاً. لقد اصطدمنا بقاع سمكه ألف قدم. تعلوه طبقة جليدية سمكها ألف قدم. منها ألف قدم بارزة فوق سطح الماء. ومعني هذا أن سمك الشاطئ الجليدي هنا أشد منه عند حدوده الأولى وهي حقيقة غير مشجعة.

وكررت الغواصة هذه التجربة بضع مرات طوال ذلك اليوم. وفي كل مرة كانت تصطدم بجدار سميك كأنه السقف. وفي بعض الأحيان كانت تلتقي بهذا السقف على عمق ثلاثة آلاف قدم. وكنت أسجل بدقة مختلف درجات العمق، وهكذا أتيح لي الحصول على صورة تقريبية لهذه السلسلة.

وفي المساء لم يحدث أي تغيير في الموقف. وكانت الثلوج لا تزال على عمق يتراوح بين ألف ومائتي قدم وألف وثمانمائة قدم، وهو سمك دل على أن الطبقة الثلجية بدأت تخف تدريجياً. ولكن أي طبقات ثلجية لا تزال مع هذا بيننا وبين سطح الماء؟ وبلغت الساعة الثامنة مساءً وطبقاً للقاعدة اليومية كان على الغواصة أن تصعد إلى السطح لتجدد الهواء قبل ذلك بأربع ساعات. ولكنني لم أعان كثيراً من عدم تجديد الهواء رغم أن الربان نيمو لم يكن قد لجأ إلى الهواء الاحتياطي.

وكان نومي مضطرباً تلك الليلة بعد أن هاجمني الأمل والخوف متعاقبين حتى استيقظت بضع مرات. ذلك وما برحت الغواصة ماضية في طريقها. وفي نحو الثالثة صباحاً وجدت أن الجزء الغاطس من الجليد

صار على عمق مائة وخمسين قدمًا فقط. ومعنى هذا أنه لم يبق بيننا وبين سطح الماء غير هذه المائة والخمسين قدمًا. لقد تحول شاطئ الجليد تدريجيًا إلى حقل جليدي وغدت الجبال الثلجية سهولًا..

ولم يفارق نظري جهاز تسجيل الأعماق. واستمرت الغواصة في طريقها صعودًا مقتفية أثر السطح اللامع الذي كان يتألق بتأثير الكشاف الكهربائي. وأخذ الشاطئ الجليدي ينخفض من أعلى ومن أسفل ممتدًا في منحدرات طويلة. وكان سمكه يقل تدريجيًا ميلًا بعد ميل.

وأخيرًا وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم المشهود. التاسع عشر من شهر مارس فتح باب الصالون. وأقبل الربان نيمو قائلاً:
- البحر المفتوح..



الفصل الثامن والثلاثون

القطب الجنوبي

واندفعت مسرعًا إلى السطح. نعم، رأيت البحر ممتدًا حيث كان ثمة قطع من الجليد والكتل الثلجية العائمة متناثرة هنا وهناك، وكانت المياه تمتد إلى غاية البصر، وكان ثمة عالم من الطيور في الجو وجموع لا حصر لها من السمك في الماء الذي كان لونه يختلف طبقًا للعمق متراوحًا بين الأزرق القاتم والأخضر الزيتوني. ودل مقياس الحرارة على أن حرارة الجو ثلاث درجات فوق الصفر وهو جو يبدو - نسبيًا - كالربيع الكامن وراء ذلك الشاطئ الجليدي الذي كانت تلاله الثلجية البعيدة تبدو في الأفق الشمالي.

وسألت الربان بقلب خافق:

- هل نحن الآن عند القطب؟

- لا أعرف حتى الآن، سنحدد موقعنا في ساعة الظهيرة.

فقلت متطلعًا إلى السماء الملبدة:

- ولكن هل تبرز الشمس من خلال هذه السحب؟

- إن أقل ضوء منها فيه الكفاية.

وعلى بعد نحو عشرة أميال من جنوبي الغواصة كان ثمة جزيرة معزولة ترتفع نحو ستمائة قدم في الهواء، فاتجهنا إليها في حذر خشية أن يكون البحر ممتلئًا بالحواجز الصخرية.

وبعد ساعة وصلنا إلى الجزيرة.. وبعد ساعتين أتممنا الدورة حولها. وكان محيطها يتراوح بين أربعة وخمسة أميال، وتفصل قناة ضيقة بينها وبين أرض شاسعة.. وربما كانت هذه الأرض جزءًا من قارة لم يكن بوسعنا أن نبصر حدودها. وأعتقد أن وجودها يؤيد نظرية موري، فإن هذا العبقرى الأمريكي قد ذكر في الواقع أن البحر فيما بين القطب الجنوبي وبين خط العرض ٦٠ درجة مغطى بجبال جليدية ذات حجم هائل لا يوجد لها مثل في شمال الأطلسي.

ونخلص من هذه الحقيقة إلى أن الدائرة القطبية الجنوبية عبارة عن مساحات ضخمة من الأرض، لأن جبال الجليد الهائلة لا تتكون في عرض المحيط، بل بالقرب من الشواطئ. وبناء على تقديراته فإن كتلة الجبال الجليدية المحيطة بالقطب الجنوبي تكون رأسًا جغرافية هائلة يبلغ اتساعها ثلاثمائة ميل.

وتوقفت الغواصة على بعد ستين مترًا من الشاطئ الصخري خوفًا من أن يغوص قاعها في الرمال. وبعد أن أنزل الزورق إلى الماء هبطت فيه مع كونساييل والربان نيمو واثنين من الرجال يحملان الأجهزة. وكانت الساعة العاشرة صباحًا. ولم أبصر نيد لاند الذي أبى ولا شك أن يعترف بخطأه عقب وصولنا إلى القطب الجنوبي.

وبعد تجديد قصير الأمد وصلنا بالزورق إلى رمال الشاطئ حيث
رسونا. وفيما كان كونسايل يهم بالهبوط أوقفته وقلت للربان:

- كابتن نيمو.. من حقل أن يكون لك شرف أول من يضع قدمه
على هذه الأرض..

- نعم يا بروفيسور.. وأنا لا أتردد أن أفعل هذا لأنه لم يسبق لمخلوق
بشري أن وضع قدميه عليها.

قال هذا ووثب بخفة إلى الرمال. ولا شك أن الانفعال الشديد جعل
قلبه يخفق بقوة. وما لبث أن تسلق صخرة بارزة تشبه الهضبة. ووقف
فوقها عاقداً ذراعيه جامداً صامتاً. وبدا كأنه يستحوذ بنظرائه الملهوفة
على كل هذه المناطق الجنوبية. وبعد استطرد عنيف في هذه التأملات
الصامت دام خمس دقائق التفت إلينا قائلاً:

- هل أنت مستعد يا بروفيسور؟

فهبطت يتبعني كونسايل تاركاً البحارين في الزورق. وبعد مسافة
يسيرة وجدت التربة مكونة من التون المحمر «حجر رملي ذي مسام»
وكانها من آجر مسحوق، وكانت مكسوة بجداول اللابا الباردة وحجارة
الخفاف الشفافة «المعروف أصلها البركاني». وفي بعض الأماكن كانت
سحب الدخان الحقيقية تشهد بأن النيران الجوفية لا تزال محتفظة بقواها،
ومع ذلك لم أشهد حين تسلقت مرتفعاً صخرياً على الشاطئ أي بركان
عل مدى أميال عديدة في كل ما حولي. والمعروف أن الرحالة جيمس
روس وجد في المناطق الجنوبية بركاني أبرميوس وتيمور عند خط
العرض ٣٢: ٧٧ درجة وخط الطول ١٦٧ درجة في عنفوان ثورتها.

وكانت نباتات هذه القارة النائية تبدو محدودة جدًا. فقد كانت بعض الأعشاب المعروفة باسم «الآشنة» أو حزار الصخر منتشرة على الصخور السوداء، وبعض النباتات الفطرية والنباتات البدائية المزوجة الفلقة وهو نوع من الخلايا موضوعة بين صدفين من الكوارتز، وبعض الطحالب الفوسفورية الطويلة الحمراء والقرمزية الموضوعة فوق المثانات السبحية التي يلقي بها المد إلى الشاطئ. كانت هذه هي كل الأنواع القليلة التي تتكون منها المملكة النباتية في تلك الأصقاع.

وكان الشاطئ تتناثر فيه المحارات والقواقع والأصداف واليكاردات القلبية الشكل، ولا سيما القليوزات ذات الأجسام الغشائية والرؤوس التي تتكون من فلتين مستديرتين. كما رأيت أيضًا آلافًا مؤلفة من القليوزات الجنوبية «أسماك صغيرة» طولها نحو خمسة سنتيمترات كانت الحيتان تلتهمها بالملايين، وكانت بعض أنواع الفراشات البحرية تشيع الحياة في الماء القريب من الشاطئ.

وفي الأماكن الضحلة من الشاطئ رأيت بين العناصر المرجانية وبعض الأحياء المرجانية المتحجرة التي تعيش، طبقًا لنظرية جيمس روس، على عمق ألف ياردة من المنطقة الجنوبية. وأسماك المازور، من النوع الصغير - وكميات كبيرة من سمك الاضطرباد المعروف في هذه الأجواء، أما سمك نجم البحر فكان يرصع القاع الضحل.

ولكن الفضاء كان حاشدًا بعدد لا يحصى من الطيور. كانت الآلاف ترفرف من مكان إلى آخر وهي تصم آذاننا بصيحاتها. وتجمعت آلاف أخرى فوق الصخور تشخص إلينا دون خوف ونحن نمر بجانبها،

وتتجمع مستأنسة عند أقدامنا. وكان ثمة طيور البنجوين التي تبدو رشيقة في الماء ولكنها فوق اليابسة ثقيلة شوهاء، ومنها كانت تنبعث أصوات خشنة، وكانت تتشكل في مجموعات قليلة الحركة ولكنها كثيرة الصخب والضجيج.

وقد رأيت بين أنواع الطيور طائر القيونيز الطويل السيقان الذي يناهز حجم الحمام، وهو أبيض اللون، قصير المنقار، تحيط بكل عين منه دائرة حمراء. وقد اصطاد كونسايل كثيرًا منها لأن لحومها - إذا أُنقن طهوها - طيبة المذاق. وكانت طيور الفطرس - أو الصخابة - تحلق في الجو، وهي تسمى بحق غربان المحيط، ويبلغ طول جناحيها أثناء التحليق أربع ياردات ونصف. كما رأيت طيور النورس الضخم وطيور القبرق ذات الأجنحة المقوسة. وهي مشغوفة بأكل لحوم الفقمة. وطيور الدامير - وهي نوع من البط الصغير يتلون أعلى جسمه بالأبيض والأسود. وأخيرًا مجموعات مختلفة من طيور النورس العادية، بعضها مائل إلى البياض وله أجنحة يحف بها اللون البني، وبعضها أزرق، وهي تنتمي إلى المناطق المتجمدة الجنوبية، أي أنها ممتلئة بالشحم. وقد قلت لكونسايل في هذه المناسبة: «إن سكان جزر فارد يكتفون بوضع فتيل في أجسام هذه الطيور - بعد قتلها - ثم إشعال الفتيل فإذا هي تضيء لهم».

فقال كونسايل:

- إنها لا تضيء فحسب، بل تعدو مصابيح حقيقية. ولم لم تزودها الطبيعة بالفتائل أيضًا؟

وعلى بعد نصف ميل آخر رأيت التربة الزاخرة بأوكار طير الران،

وبدت الأرض كأنها منطقة تفريخ يبرز منها عدد كبير من الأفراخ. وأمر الربان نيمو بقتل مئات منها لأن لحومها الرمادية طيبة المذاق. وكانت لها أصوات كنهيق الحمير. وحجم الواحدة منها كحجم الإوزة. وهي أردوازية اللون من أعلى، بيضاء من أسفل، تحيط بأعناقها خطوط صفراء كأنها العناقات «ربطات العنق». وكانت هذه الطيور تستسلم للموت ضرباً بالحجارة دون أن تحاول الهرب.

وفي خلال هذا لم تنقشع السحب. ولم تظهر الشمس حتى الحادية عشرة فشعرت بالقلق لهذا السبب. فبغير الشمس لا نستطيع تسجيل شيء. فكيف إذن نستطيع أن نتأكد من وصولنا إلى القطب.

ولما انضمت إلى الربان نيمو وجدته مستنداً إلى الصخرة يتطلع إلى السماء ويبدو متبرماً متضجراً، ولكن لم يكن له حيلة في هذا، فإن هذا الرجل القوي الجسور لا قبل له بالسيطرة على الشمس كما هو شأنه مع البحر.

وحلت الساعة الثانية عشر دون أن تظهر الشمس برهة واحدة. بل لم يكن في مقدورنا أن نستشف مكانها وراء أستار السحب التي سرعان ما تحللت وراحت تمطر ثلجاً.

وقال الربان ببساطة ونحن في طريق العودة إلى الغواصة تحت المطر الثلجي:

– لا مندوحة لنا من الانتظار حتى غد.

وفي فترة غيابنا ألقيت شباك الصيد في الماء، فجعلت أتفحص

الأسماك التي وقعت فيها باهتمام كبير. كانت البحار في المنطقة المتجمدة الجنوبية ملاذًا لمقادير هائلة من السمك المهاجر الهارب من عواصف البحار في المناطق العالية ليقع بين أشداق الفقمة وخنازير البحر. وقد رأيت كثيرًا من سمك القد الذي يبلغ طول الواحدة منه ثلاث بوصات، وأنواعًا أخرى من أسماك غضروفية مائلة للبياض بخطوط عرضية شاحبة، وهي مزودة بالسهام العظمية، وأسماك الخميرة القطبية التي يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أقدام. وهي مستطيلة الجسم كثيرًا، بيضاء الجلد، فضية ناعمة، برأس مستدير، وظهر مزود بثلاث زعانف وبحيزوم ينتهي بخرطوم صغير ينثني إلى الخلف نحو الفم. وقد تذوقت هذا النوع من السمك، فوجدته غير سائغ رغم أن كونساييل استطابه كثيرًا.

واستمرت الأمطار الثلجية إلى اليوم التالي؛ فاستحال علينا البقاء على سطح الغواصة، فمضيت إلى غرفة الصالون حيث جلست لتدوين مذكراتي عن رحلتنا هذه إلى القطب الجنوبي. وكنت أسمع صياح طيور النورس الصخاب وهي تمرح إبان الزوبعة الثلجية. ولم تبق الغواصة في مكانها بلا حراك بل راحت تجوب شواطئ القارة فتقدمت عشرة أميال نحو الجنوب في ظل الشفق المتخلف عن الشمس وهي تقترب من أفق المغيب.

وفي اليوم التالي: العشرين من شهر مارس، توقف سقوط الثلج وكان الجو أميل إلى البرودة، إذ كانت درجة الحرارة ٢ تحت الصفر، وارتفع الضباب حتى رجوت أن نتمكن من تحديد موضعنا في هذا اليوم. ولما لم يخرج إلينا الربان ركبت الزورق مع كونساييل إلى الشاطئ

وكانت طبيعة التربة بركانية، ففي كل مكان كنت أرى آثار اللابا والحمم والبالزت ولكن دون أثر لفوهة البركان الذي أخرجت منه. وكان ثمة أسراب عديدة من الطير تستوطن القارة القطبية في كل مكان ولكنها كانت تقتسم هذه الإمبراطورية مع الأسراب الكثيرة من الثدييات البحرية التي كانت تحدد إلينا بنظرات رقيقة.. كانت فقمت من كل نوع، بعضها راقد على الأرض وبعضها فوق قطع من الجليد الطافي وكثيراً منها يخرج من الماء أو يقفز إليه، وعند اقترابنا منها لم تحاول الهرب، فهي لم تشهد رجلاً من قبل. وجعلت أحصي من أعدادها ما يكفي مؤونة بضع مئات من السفن.

وقال كونسایل:

– حمداً لله أن نيد لاند لم يصحبنا في هذه الجولة..

– لماذا يا كونسایل؟

– لأن هذا الصياد المتهور ما كان ليتردد في قتل هذه الفقمت.

– ليس من المعقول أن يقتلها كلها. ولكن أعتقد أننا ما كنا نستطيع

منعه من قتل بعض هذه الثدييات البحرية البديعة، وهذا مما يثير غضب الربان نيمو الذي لا يحب إهراق دماء المخلوقات المسالمة.

– إنه على حق.

– بالتأكيد يا كونسایل. ولكن.. ألم تصنف بعد بعض أنواع هذه

الحيوانات البحرية؟

– إن سيدي يعرف تماماً أنني لست بارعاً في التصنيف العملي، إذا

ذكر لي سيدي أسماء هذه الحيوانات فإني...

- إنها الفقمة^(١) والأفطاز^(٢).

- هما نوعان ينتميان إلى أسرة الزعنفيات وينتهيان إلى فصيلة الدرفيليات من الثدييات البحرية، أي نوع من الفقاريات.

- أحسنت يا كونسايل.. ولكن هذين النوعين ينقسمان أيضًا إلى أنواع أخرى كثيرة. وما لم أكن مخطئًا فستتاح لنا فرصة رؤيتها هنا.. هيا بنا..

وكانت الساعة الثامنة صباحًا.. أي كان أماننا أربع ساعات يمكن استغلالها قبل أن نستفيد من ظهور الشمس. وهكذا تقدمت شطر الخليج الواسع المجوف في مرتفعات الشاطئ الصخرية.

بوسعي أن أقول إن الأرض والصخور والثلوج كانت على امتداد البصر محجوبة بالثدييات البحرية حتى لم أتمالك أن أتلفت حولي بحركة غريزية مفتقدًا بروتينوس أو الراعي الأسطوري الذي يشرف على هذه القطعان الضخمة. التي يمتلكها «الإله نبتون» وكانت الفقمة أكثر من أي شيء آخر اجتمعت أفواجًا ذكورًا وإناثًا، منها الوالد الذي يراعي شئون أسرته، والأم التي ترضع صغارها. وكان بعض الصغار قد اشتد عودها فجعلت تتحرك بضع خطوات. وإذا أرادت هذه الفقمة الانتقال من مكان إلى آخر مضت في وثبات قليلة تقوم بها عن طريق تقلصات عضلات جسمها، مستعينة بزعنفتها الوحيدة الشوواء التي تكون مع

(١) الفقمة هي الحيوان البحري المعروف باسم سبع البحر.

(٢) واللفظ هو فرس البحر.

العظم اللامي ذراعًا كاملاً. وينبغي أن أقول إن هذه الحيوانات حين تصل إلى الماء تسبح ببراعة فائقة بسلسلتها الفقرية. وإذا هي استراحت على الأرض، اتخذت أجمل الأوضاع؛ ولهذا السبب فطن القدماء إلى نظراتها الأسرة المعبرة التي تفوق أي نظرة يمكن أن ترسلها امرأة جميلة وعيونها الصافية الجذابة وأوضاعها الفاتنة. فاتخذوا منها صورًا شعرية، حتى جعلوا من الذكور آلهة البحر ومن الإناث حوريات الماء.

وقد لفتُ نظر كونساييل إلى كبر حجم فلقات المنخ في هذه الحيوانات الطريفة. فليس بين الثدييات عدا الاتساق - هذا الحجم الكبير للمنخ. ولهذا كانت الفقمة قادرة على استيعاب قدر معين من التعليم، ويسهل استئناسها. وأعتقد مع غيري من العلماء الطبيعيين أنه يمكن بالتدريب الجيد استخدامها ككلاب لصيد السمك.

وكان سواد هذه الفقمة يرقد على الصخور أو على الرمال. وقد لاحظت بين هذه الفقمة التي ليس لها آذان خارجية مما يجعلها تختلف عن القناوس «ثعالب الماء» ذات الآذان الظاهرة - أنواعًا مختلفة من فقمة الأستونوريثشي وطولها نحو تسعة أقدام ولها رأس البولنج وهي مسلحة بعشرة أسنان في كل فك، فيها أربعة قواطع في أعلى وأخرى في أسفل، ونابان كبيران على هيئة الزنابق. وبين هذا النوع كانت تنساب الفيلة البحرية وهي نوع من الفقمة ذات خراطيم صغيرة متحركة «وهي مقصورة على النوع الضخم فقط» ولم تحاول أن تبتعد ونحن نقرب منها حتى قال كونساييل:

- أهى حيوانات خطيرة؟

- كلا ما لم يهاجمها أحد. فإن غضب الفقمة رهيب وهي تدافع عن صغارها. ولا يستبعد أن تحطم زوارق الصيد في ثورة غضبها.

- إن حقها في هذا مقرر.

- وأنا لم أنكر هذا الحق.

وتوقفنا بعد ميلين أمام مرتفع يحمي الخليج من رياح الجنوب، وكان شديد الانحدار إلى البحر، يغطيه زبد الأمواج، ومن ورائه سمعنا خوارًا هائلًا كالذي يصدر عن قطع من الشيران.

- حسنًا.. ترى هل سنشاهد حفلة ثيران موسيقية؟

- لا.. بل حفلة موسيقية لأفراس البحر.

- أهى تتصارع؟

- إما أنها تتصارع أو تتلاعب..

- يجب أن نراها إذن يا سيدي.

- يجب يا كونسایل.

وعبرنا المرتفع الصخري بين منزلقات غير ظاهرة للعيان. وفوق صخور جعلها الثلج منزلقة حتى زلت قدمي أكثر من مرة وأصبت برضوض ولكن كونسایل الذي كان أثبت وأكثر حذرًا وأقل تعثرًا راح يساعدني وهو يقول:

- لو تفضل سيدي وجعل ساقيه أكثر انفراجًا لاستطاع الاحتفاظ

بتوازنه...

ولما بلغنا قمة المرتفع رأيت سهلاً واسعاً مكسوً بالثلوج، حجبته
أفراس البحر، وكانت تلعب وتتصايح بهجة لا غضباً.

وكانت أفراس البحر تشبه الفقمة جسمًا في وضع الأطراف،
ولكن فكاكها السفلى خالية من القواطع والأنياب. أما أنياب الفك
الأعلى فهي أسلحة دفاع طول كل منها نحو ياردة. وهذه الأنياب العاجية
أصلب من أنياب الفيلة وغير معرضة للاصفرار. وهي مناط إقبال كثير،
ولهذا السبب يتهافون على صيدها. ولا يتورع الصيادون عن قتلها وقتل
إنائها وصغارها حتى يبلغ عدد القتلى في كل عام أكثر من أربعة آلاف.

وقد أتيت لي الوقت الكافي لملاحظة هذه الحيوانات العجيبة بإمعان
وأنا أمر بقربها، لأنها لم تكثرث لنا. كانت جلودها سميقة مجمعة لها
لون الظباء مع ميل إلى الاحمرار وشعرها قصير متناثر وطول بعضها نحو
اثني عشر قدمًا. وهي أهدأ وأقل حذرًا من زميلاتها في الشمال؛ بمعنى
أنها لا تضع الحراس للتحذير ممن يقترب من مواطنها.

وبعد أن تم لي فحص مدينة أفراس البحر هذه.. رأيت أن أعود
أدراجي إلى الغواصة، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة. فإذا بدا
للربان نيمو أن تحديد المكان ميسور إذ ذاك، كنت معه أثناء قيامه بهذه
العملية. ولكن الأمل على كل حال كان ضعيفًا في ظهور الشمس هذا
اليوم، فقد كانت السحب المتراكمة في الأفق تحجبها عنا وكأنما كان
هذا الكوكب الغيور يأبى على البشر أن يكتشفوا قطب الأرض.

ومهما يكن فقد قررت العودة إلى الغواصة، فسرنا في ممر ضيق كان
صاعدًا إلى قمة المرتفع الصخري على الشاطئ، ووصلنا إلى المكان

الذي هبطنا فيه من الزورق في الحادية عشرة والنصف، وكان الزورق قد جاء أثناء غيابنا بالربان الذي رأيته واقفًا فوق كتلة من البازلت وآلات الرصد في يده وعيناه محدقتان في الأفق الذي كانت الشمس ترسم عليه قوسًا مستطيلًا.

ووقفت بجانبه صامتًا. وحلت الساعة الثانية عشرة دون أن تظهر الشمس كما حدث في اليوم السابق.

وبدا الأمر كالكارثة، فقد كان علينا أن نرصد موضعنا، فإن لم يتيسر هذا في اليوم التالي ضاع كل أمل في تحديد مكاننا.

ذلك أننا كنا في اليوم العشرين من شهر مارس. واليوم التالي كان الواحد والعشرين. وهو يوم الاستواء في تلك المناطق، فإن لم نحدد مكاننا فيه، فإن الشمس ستختفي وراء الأفق مدى نصف عام، ومع اختفائها يبدأ الليل القطبي الطويل. ويظل هذا الليل حتى يوم الاستواء في سبتمبر حيث تبدو أول أشعة الشمس في الأفق، وتظل ترتفع رويدًا رويدًا يومًا بعد يوم حتى اليوم الواحد والعشرين من شهر ديسمبر حين يبدأ فصل الصيف في هذه المناطق الجنوبية. وقد مالت الشمس في المغيب وغدا سوف ترسل آخر أشعتها ثم تختفي ستة أشهر.

ولما ذكرت للربان نيمو رأيي ومخاوفي في هذا الشأن قال:

- إنك على حق يا مسيو أروناكس. إذا لم أستطع أن أظفر غداً بسمت الشمس فلن أستطيع أن أرصد موضعنا هذا لمدة ستة أشهر. ولكن ما دامت الأقدار قد جاءت بي إلى هذه المناطق في اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس فستيسر لي غداً أن أرصد هذا المكان إذا ظهرت الشمس

وقت الظهيرة.

- لماذا يا كابتن؟

- لأنه ما دامت الشمس ترسم هذه الأقواس المستطيلة فسوف يصعب تحديد ارتفاعها بصدق فوق الأفق، ومن المحتمل جدًا أن نخطئ التقدير بالآلات.

- إذن ماذا أنت فاعل؟

- سأستخدم الكرونومتر فقط. فإذا ظهر قرص الشمس غدًا، أي في ظهر اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس مقسومًا تمامًا عند النصف بخط الأفق الجنوبي فسأعرف أننا في القطب الجنوبي.

- هذا صحيح.. ولكن المعادلات الرياضية لا تعترف بمثل هذا التقدير؛ لأنه ليس من المحتم أن يبدأ يوم الاستواء هنا في الثانية عشرة تمامًا.

- بلا شك يا بروفيسور.. ولكن الخطأ الذي قد يحدث لن يتجاوز مسافة مائة ياردة وهذا كل ما نحتاج إليه. إلى الغد إذن.

وعاد الربان نيمو إلى الغواصة وبقيت مع كونسایل حتى الساعة الخامسة مساء ونحن نجوب الشاطئ نلاحظ، وندرس. ولم أجد ما يثير الغرابة غير بيضة بنجوين ذات حجم كبير لا يتردد أي هاو في شرائها بأربعين جنيتها، وكان لونها البرتقالي وما يغطيها من خطوط وعلامات بدت كالأحرف الهيروغليفية قد جعلها كإحدى العجائب. وعهدت بحفظها إلى كونسایل الذي استطاع بثباته وحذره وهو يمسكها كأنها

قطعة خزف ثمين، أن يعود بها سالمًا إلى الغواصة. وفي الغواصة وضعت البيضة النادرة في خزانة زجاجية بالمتحف. وتناولت عشائي بشهية من شرائح كبد الفقمة وكان مذاقها كالحم الخنزير. ثم أويت إلى فراشي مطمئن البال.

وفي اليوم التالي الواحد والعشرين من شهر مارس صعدت إلى سطح الغواصة في الخامسة صباحًا فوجدت الربان نيمو هناك، وإذا هو يقول لي:

- إن الجو يصحو قليلًا وأملّي فيه كبير. سنهبط بعد طعام الإفطار إلى الشاطئ فنتخذ لأنفسنا موضعًا للرصد.

وبعد أن تم الاتفاق على هذا ذهبنا إلى نيد لاند وحاولت إقناعه لمصاحبتنا ولكن الصياد العنيد أبى وقد تبينت أن نفرتة كغضبه تزداد يومًا بعد يوم. ومع ذلك لم آسف على رفضه صحبتنا في تلك الظروف، فقد كان ثمة مجموعة كبيرة من الفقمة على الشاطئ ولا ينبغي أن نضع مثل هذا الإغراء أمام صياد متهور...

وهبطت إلى الشاطئ بعد الفراغ من طعام الإفطار. وكانت الغواصة قد تقدمت أثناء الليل مسافة أخرى مقدارها أربعون ميلًا نحو الجنوب.. وقد توقفت على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ الذي كان مرتفعًا إلى علو ١٦٠٠ قدم. وكان الزورق يقل الربان نيمو واثنين من البحارة وآلات الرصد وهي الكرونومتر والمنظار المقرب والبارومتر.

وفي الطريق رأيت كثيرًا من الحيتان المتمية إلى البحار الجنوبية منها «الحوت الأيمن» الذي بلا زعنفة في ظهره والحوت الطائر يبطنه

الموثوقة وزعانفه الضخمة البيضاء لم تصل إلى حد الأجحة رغم تسميته تلك والحوث الأصفر البني، ذو الزعانف الظهرية وهو أنشط أنواع الوحوش البحرية. إن هذا الحيوان البحري يستطيع إسماع صوته إلى مسافات بعيدة حين يدفع الماء والبخار من منخاريه في الهواء فتبدو عندئذ كأعمدة من الدخان. كانت هذه الثدييات البحرية المختلفة تجعل من نفسها جماعات في هذه البحار الهادئة. وقد أدركت أن هذا الحوض من القطب الجنوبي قد أصبح ملاذاً تلجأ إليه هذه الوحوش البحرية التي يطاردها الصيادون بالبحار.

ورأيت صفوفًا طويلة من السالبيا، ومجموعات من اللافقاريات الصيرنانية ومن قناديل البحر الكبيرة التي كانت تتراقص مع حركات الموج.

وهبطنا إلى الشاطئ في الساعة التاسعة صباحًا، وكانت السماء تزداد صحوًا، والسحب تطير نحو الجنوب، والضباب يرتفع عن سطح البحر البارد. وسار الربان نيمو إلى قمة المرتفع الذي اعتزم ولا شك أن يتخذه مكانًا للرصد. وكان الصعود إليه شاقًا عسيرًا بسبب اللابا المسنونة والحجارة الزجاجية وفي جو تنساب منه أحيانًا الروائح الكبريتية المنبثقة من الشقوق. ورغم أن الربان لم يعتد الحياة فوق اليابسة، فقد راح يتسلق المرتفع بخفة ومرونة لم أستطع أن أجاريه فيهما حتى ليحسده صياد الغزلان عليهما.

واستغرقتنا ساعتين في الوصول إلى القمة التي كان بعضها من صخور البروفير، وبعضها من صخور البازلت. ومن فوقها رأينا البحر

الواسع الممتد إلى حدود الأفق الجنوبي. أما عند أقدامنا فقد امتدت حقول الثلج الناصعة البياض وفوق رؤوسنا كانت السماء الشاحبة الزرقة خالية من الضباب وعند الجنوب كان قرص الشمس ككرة من النار، يوشك أن ينحدر وراء الأفق. أما البحر فكانت تنبثق منه مئات من النوافير المتألقة. بينما كانت الغواصة تبدو من بعيد كوحش بحري نائم. ومن ورائنا امتدت الصخور والكتل الثلجية الطافية إلى مدى البصر.

ولما وصل الربان نيمو إلى قمة المرتفع قاس ارتفاعه بدقة بواسطة البارومتر لإدخاله في تقديراته عند الرصد.

وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً بدت الشمس عن بعد كأنها قرص من الذهب يسكب أشعته فوق أرض وبحار لم تطأها أقدام رجال غيرنا من قبل.

وراح الربان نيمو وهو مزود بعدسة شبكية تستطيع بمعونة مرآة أن تصحح انكسار الضوء، يرقب الشمس وهي تختفي تدريجياً وراء الأفق راسمة قوساً مستطيلاً. وأمسكت أنا بالكرونومتر وشعرت بقلبي يخفق بعنف. فإذا توافق اختفاء نصف قرص الشمس مع موعد الظهيرة في الكرونومتر فقد ثبت أننا في سمت القطب الجنوبي نفسه.

وصحت قائلاً:

- الثانية عشرة ظهرًا.

- القطب الجنوبي..

قالها الربان بصوت رصين وهو يسلمني العدسة التي أظهرت قرص

الشمس عند انتصافه تمامًا على خط الأفق.

ونظرت إلى أشعة الشمس وهي تتوج القمة، وإلى الظلال الصاعدة إليها ببطء، ولم يلبث الربان في تلك اللحظة أن وضع يده على كتفي قائلاً:

- بروفسور.. في عام ١٦٠٠ دفعت التيارات والعواصف الربان الهولندي نمريك إلى خط العرض ٦٤ درجة جنوبًا حيث اكتشف جزر جتلاند. وفي اليوم السابع عشر من شهر فبراير عام ١٧٧٣ وصل الرحالة الباسل كوك في إبحاره على خط الطول ٣٨ درجة إلى خط العرض ٣٠- ٦٧ درجة. وفي الثلاثين من شهر يناير عام ١٧٧٤ وعلى خط الطول ١٠٩ وصل نفس الرحالة إلى خط العرض ١٥ - ٧١ درجة. وفي عام ١٨١٩ وصل الرحالة الروسي بلنجهوزن إلى خطي الطول والعرض ٦٩. ووصل في عام ١٨٢١ إلى خط عرض ٧٦ وخط الطول ١١١ غربًا. وفي عام ١٨٢٠ توقف الرحالة الإنجليزي برنسفيلد عند خط العرض ٦٥. وفي نفس العام اكتشف الرحالة الأمريكي موريل -الذي لا يوثق بتقريره تمامًا- بحرًا مفتوحًا على خط العرض ١٤ - ٧٠ متبعًا خط الطول ٦٢. وفي نفس العام وصل صياد فقمة إنجليزي الجنسية يدعى ويديل إلى خط العرض ١٤ - ٧٢ على خط الطول ٣٥. ثم خط العرض ١٥ - ٧٤ على خط الطول ٣٦. وفي عام ١٨٢٩ استولى الربان الإنجليزي فورستر قائد السفينة شانيلر على القارة المتجمدة الجنوبية على خط العرض ٢٠ - ٦٣ وخط الطول ٢٦ - ٦٦. وفي ٢١ فبراير عام ١٨٣١ اكتشفت الرحالة الإنجليزي بيسكو منطقة اندرباي لاند في خط العرض ٥٠ - ٦٨. وفي

فبراير عام ١٨٣١ اكتشف منطقة أديليد لاند على خط العرض ٤٥ - ٦٤ .
وفي عام ١٨٣٨ توقف الرحالة الفرنسي دومونت دورفيل عند شاطئ
الجليد على خط العرض ٥٧ - ٦٢ وقد سجل بالرؤية أرض لويس -
فيليب . وقد شاهد بعد عامين ومن نقطة جديدة في الجنوب منطقة أديليد
لاند في ٢١ يناير على خط العرض ٣٠ - ٦٦ واكتشف بعد ثمانية أيام
شاطئ كلير على خط العرض ٤٠ - ٦٤ درجة . وفي عام ١٨٣٨ وصل
الإنجليزي ويلكز إلى خط العرض ٦٩ درجة على خط الطول ١٠٠
درجة . وفي عام ١٨٣٩ اكتشف الإنجليزي باليني منطقة سابرينا على
حدود الدائرة القطبية . وأخيرًا في ١٢ يناير عام ١٨٤٢ اكتشف الإنجليزي
جيمس روث قائد السفينتين إيروبيوس وتيرور منطقة فكتوريا لاند على
خط العرض ٥٦ - ٧٦ شرقي خط الطول ٧ - ٧١ وفي نفس الشهر وصل
إلى خط ٧٤ درجة عرضًا وهي أعلى نقطة وصل إليها أحد حتى ذلك
الحين . وفي السابع والعشرين من الشهر نفسه وصل إلى خط العرض
٨ - ٧٦ درجة . وفي اليوم الثامن والعشرين وصل إلى خط العرض
٣٢ - ٧٧ درجة . وفي اليوم الثاني من شهر فبراير وصل إلى خط العرض
٤ - ٧٨ . وفي عام ١٨٤٢ عاد إلى خط العرض ٧١ درجة ولم يستطع
تجاوزه أما أنا الربان نيمو فقد وصلت في اليوم الواحد والعشرين من
شهر مارس عام ١٨٦٨ إلى القطب الجنوبي نفسه على خط العرض ٩٠
درجة . وإني لأضع يدي على هذا الجزء من الكرة الأرضية وهو يوازي
سدس مساحتها المعروفة .

- لحساب مَنْ تستولى على هذه المنطقة يا كابتن؟

- لحسابي يا سيدي.

قال هذا وبسط علمًا أسود توسطه حرف «ن» مكتوبًا بالذهب. ثم استدار نحو الشمس التي كانت أشعتها الأخيرة تلامس أفق البحر وقال: - وداعًا أيتها الشمس. واختفِ أيها الكوكب المنير. ارقد طليقًا تحت البحر ودع ليالي ستة أشهر تبسط ظلامها على هذه المملكة الجديدة.



الفصل التاسع والثلاثون

أحادثة أم حدث؟

بدأت استعدادات الرحيل في اليوم التالي الثاني والعشرين من شهر مارس، وكانت آخر ومضات الشفق تذوب في سواد الليل، وكان البرد قارسًا مشتدًا، ونجوم السماء تلمع في وضوح عجيب. وفي سمت الرأس كان ذلك النجم الرائع يتألق باهرًا وأعني به النجم القطبي في تلك المناطق المتجمدة الجنوبية.

وكانت حرارة الجو ١٢ درجة تحت الصفر. والرياح كلما هبت تلسع كالسياط وجبال الثلج تزداد على سطح البحر والبحر يبدو كأنه تجمد كله ولاحت على سطحه رقاع كثيرة قائمة تنبئ عن تجمعات جديدة للثلج الوليد. والواضح أن هذه البحار الجنوبية تغدو مقفلة تمامًا أثناء تجمدها ستة أشهر في العام. فماذا تفعل الحيتان خلال هذه الفترة؟ لا شك أنها تلتمس من تحت الثلوج بحارًا أخرى تلوذ بها. أما الفقمة وأفراس البحر التي تعتاد الحياة في مختلف الأجواء فإنها لا تبرح هذه المناطق المتجمدة. إن لهذه الحيوانات غرائز تدفعها إلى حفر فجوات في حقول الجليد وتركها مفتوحة دائمًا. وهي تخرج من فجواتها تحت

الثلوج للتنفس. وتهرب الطيور من البرد مهاجرة إلى الشمال. ولا يسيطر في القارة القطبية في هذه الفترة سوى الثدييات البحرية.

وامتلأت خزانات الغواصة بالماء في الوقت المناسب. وشرعت تهبط في بطن. حتى توقفت على عمق ألف قدم. ثم أخذت تضرب الماء برفاصها منطلقة إلى الشمال بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة، وعند المساء كانت تسبح تحت الحاجز الهائل للشاطئ الجليدي.

وأغلقت نوافذ الصالون على سبيل الحيلة والحذر، تحاشياً لاصطدام الغواصة بصخرة غائصة تحطم زجاجها، وأمضيت يوماً في كتابة مذكراتي. ثم استغرقت في التفكير في القطب الجنوبي. لقد وصلنا إلى هذا القطب النائي عن البشر دون مشقة ولا استهداف للخطر وكأنما كانت مركبتنا السابحة تنساب على قضبان سكة حديدية. وها هي ذي العودة قد بدأت فعلاً. فهل تدخر لنا مفاجآت جديدة؟ لقد خطر لي أن هذا قد يحدث، فإن غرائب الأعماق لا ينضب لها معين. ففي الأشهر الخمسة والنصف التي أقمناها في هذه الغواصة منذ أن دفعت بنا الأقدار إليها، قطعنا أربعين ألف فرسخ. وفي خلال هذه المسافة التي تزيد على محيط الكرة الأرضية رأينا من الأحداث كل عجيب خطير. الصيد في غابات كريسبو تحت سطح الماء والجنوح في مضائق توريز. ومقابر المرجان. ومسايد اللؤلؤ في سيلان. ونفق العرب تحت برزخ السويس. ونيران سانتورين. وكنوز خليج فيجو. وقارة الأطلانتيس ثم القطب الجنوبي. لقد أخذت هذه الذكريات كلها تمر بذهني فلا تدع لي الفرصة للاستغراق في النوم.

واستيقظت في الساعة الثالثة صباحًا، على صدمة عنيفة، فانتفضت جالسًا في فراشي وأرهفت السمع في ظلام الغرفة، فما شعرت إلا وأنا ألقى بعنف على الأرض ويبدو أن الغواصة ارتدت بقوة بعد الاصطدام. ولم ألبث أن جعلت أتلمس طريقي على الحاجز إلى وسط الغواصة ثم إلى الصالون الذي كان مضاء من خلال سقفه المشع. وكان الأثاث كله مقلوبًا. ولكن مصاريع النوافذ كانت لحسن الحظ محكمة فلم تتدخل. وكانت الصور المعلقة على الجانب الأيمن - بعد أن أمست الغواصة شديدة الميل - ملقاة على الأرض. بينما كانت الصور في الجانب الآخر معلقة على ارتفاع قدم من أطرافها السفلى.. لقد مالت الغواصة على جانبها الأيمن واستقرت دون حراك.

وسمعت من الداخل وقع أقدام ولغط أصوات. ولكن الربان نيمو لم يظهر في الصالون. وبينما كنت أهم بالانصراف أقبل كونسایل ونيد لاند.

فقلت لهما:

- ماذا حدث؟

فهتف نيد لاند قائلاً:

- يا للشيطان!.. إنني أعرف تمامًا ماذا حدث... لقد اصطدمت

الغواصة. وإذا نظرنا إلى كيفية جنوحها أدركنا أنه لن يسهل تعويمها كما حدث في مضائق توريز.

فقلت:

- ولكن... أليست على الأقل فوق سطح الماء؟

فقال كونسايل:

- إننا لا نعرف..

فقلت:

- من السهل أن نعرف هذا.

ونظرت إلى جهاز تسجيل الأعماق فوجدت لدهشتي أننا على عمق
ثلاثمائة وستين ياردة.. فقلت متعجباً:

- ما معنى هذا؟

فقال كونسايل:

- يجب أن نسأل الربان نيمو.

وقال نيد لاند:

- وأين نجده؟

فقلت لهما:

- اتبعاني..

وغادرنا الصالون إلى غرفة المكتبة فلم نجد بها أحداً. كما لم نجد
أحداً في السلم المركزي أو في غرفة الملابس. وخطر لي أن الربان نيمو
لاند موجود في مقصورة القيادة، وهكذا لم يكن أماننا سوى الانتظار.
فعدنا إلى الصالون.

ولن أذكر بالتفصيل حالة نيد لاند في تلك اللحظة.. فقد وجد الآن

سبباً آخر لإطلاق غضبه فتركته يتمادى في ثورته دون أن أبادره برد.

وبقينا هكذا عشرين دقيقة ونحن نرهف السمع لكل صوت داخل الغواصة. وما لبث الربان نيمو أن جاء وقد بدا عليه أنه لم يبصرنا. وكان وجهه الهادئ عادة ينم عن أشد القلق. وبعد أن نظر إلى البوصلة ثم إلى المانومتر، وضع إصبعه على نقطة في الخريطة البارزة التي تمثل البحار الجنوبية.

ولم أشأ أقطع عليه تفكيره وعمله ولكنه التفت إليّ بعد برهة فقلت له مردداً عبارته التي قالها في مضايق توريز:

- أهو حدث عارض يا كابتن؟

- لا يا بروفيسور.. بل هو حادث هذه المرة.

- حادث خطير؟

- ربما..

- أهنأك خطر قريب..

- لا..

- هل اصطدمت الغواصة بشيء؟

- نعم.

- كيف ذلك؟

- بسبب عارض طبيعي لا لخطأ من جانبنا. فلم يكن ثمة أخطاء في قيادتنا للغواصة. وليس في مقدور أحد أن يمنع الطبيعة من السير في

مجرها. وإذا كان يمكن مقاومة قوانين البشر فلا يمكن مقاومة قوانين الطبيعة.

لقد اختار الربان نيمو لحظة فريدة للتعبير عن هذه التأملات الفلسفية، ولكن إجابته في عمومها لم توضح لي شيئاً. فقلت له:

- هل يمكن يا سيدي أن أعرف سبب هذه الحادثة؟

- لقد انقلبت كتلة ضخمة من الثلج بل جبل كامل رأساً على عقب. فجبال الجليد التي تعوم في مياه دافئة أو تتعرض لصدمات مفاجئة يرتفع فيها مركز التوازن فإذا هي تنقلب بأكملها. وهذا ما حدث، فقد انقلبت إحدى هذه الكتل وصدمت الغواصة في سيرها تحت سطح الماء. ثم انزلت تحت هيكلها. ودفعتها بقوة عارمة إلى مياه أقل كثافة. فألقت بها على أحد جانبيها.

- ألا يمكن الاستعانة بخزانات الماء لكي تسترد الغواصة توازنها؟
- هذا ما يفعله البحارة الآن يا سيدي. ويمكنك أن تسمع صوت المضخات وهي تعمل. انظر إلى مؤشر جهاز تسجيل العمق. إنه يدل على أن الغواصة ترتفع، ولكن كتلة الجليد ترتفع معها.

وظلت الغواصة على حالها. ولم يكن ثمة شك في أنها ستسترد توازنها عندما تتوقف كتلة الجليد عن الارتفاع معها. ولكن ما يدرينا أننا أن نصطدم إذ ذاك بقاع شاطئ الجليد فنعصر عصرًا شنيعًا بين سطحين متجمدين.

وفجأة أحسنا بحركة خفيفة في هيكل الغواصة.. وبدا لنا أنها

توازن إلى حد ما وكانت الأشياء المقلوبة في الصالون تعود إلى حالتها الأولى شيئاً فشيئاً. وأصبحت الحواجز أكثر استقامة. ولم يلفظ أحد بكلمة. وإنما أخذنا نرقب الغواصة وهي تسترد توازنها بانفعال متزايد وعادت الأرض تحت أقدامنا في وضع أفقي. ومرت عشر دقائق هتفت بعدها قائلاً:

- أخيراً توازنت الغواصة.

فقال الربان وهو يتجه إلى باب الصالون:

- نعم..

- هل ستطفو بنا مرة أخرى؟

- بالتأكيد. فما زالت الخزانات ممتلئة. فإن الغواصة ستصعد إلى

السطح عند تفرغها.

وعلى إثر ذهاب الربان لاحظت أن الغواصة كفت عن الصعود بأمر منه. ولو أنها استمرت في صعودها لاصطدمت بقاع الشاطئ الجليدي ولذلك كان من الأفضل بقاؤها في الماء.

وقال كونسايل:

- لقد نجونا بمعجزة.

نعم. كان يمكن أن نسحق بين كتلتين من الجليد، أو على الأقل نبقى محصورين بينهما وإذا عجزنا عن تجديد الهواء، فإن.. نعم.. لقد نجونا بمعجزة حقاً.

فغمغم نيد لاند قائلاً:

- ليت الأمر اقتصر على...

ولم أشأ أن أدخل مع نيد لاند في جدل عقيم وهكذا لم أرد عليه. وفضلاً عن هذا فقد رُفعت الألواح عن النوافذ البللورية في تلك اللحظة فانساب من خلالها ضوء الكشاف الكهربائي.

وكنا بين أحضان الماء كما قلت. ولكني رأيت على مسافة ثلاثين قدماً من جانبي الغواصة جداراً من الثلج الناصع. وكان هذا الجدار يبدو من أعلى ومن أسفل. من أعلى لأن قاع شاطئ الجليد يكون سقفاً هائلاً. ومن أسفل لأن كتلة الجليد التي كانت تنزلق تدريجياً وجدت حاجزين هابطين من سقف الشاطئ الجليدي فاستندت إليهما وبقيت مكانها. وهكذا غدت الغواصة حبيسة في نفق طولي من الجليد. يبلغ عرضه ستين قدماً. ممتلئ بالماء الساكن. ولهذا كان من السهل أن نمضي إلى الأمام؛ أو إلى الوراء، أو أن تجد - إذا غاصت بضع مئات من الأقدام- طريقاً مائئياً مفتوحاً تحت شاطئ الجليد.

ورغم انطفاء ضوء الصالون فقد ظل النور فيه باهراً؛ وذلك لانعكاس الضوء الكهربائي على جدران الجليد الناصعة بقوة مضاعفة. وليس في مقدوري أن أصف تلاعب أشعة الضوء الكهربائي فوق هذه الكتل ذات الأشكال العجيبة، فقد كانت كل زاوية وكل طرف وكل سطح يعكس ضوءاً يختلف باختلاف لون عروق الجليد. كانت بمثابة منجم مجوهرات رائع فيه الزمرد الذي تتقاطع إشعاعاته الزرقاء مع بريق الزبرجد الأخضر. وكانت الظلال السماوية اللون تجري هنا وهناك بين مختلف أطراف الزوايا كأنها مجموعة من اللآلئ التي يخطف بريقها

الأنظار. وكانت قوة ضوء الكشف قد تضاعفت مئات المرات بسبب هذه الانعكاسات وكأنها مصباح قوي يرسل أشعته بواسطة عدسات منارة ضخمة.

وهتف كونسایل قائلاً:

- آه.. ما أجمل هذا.. ما أجمله..

- نعم إنه مشهد رائع.. أليس كذلك يا نيد؟

- نعم. سحراً لكل شيء، إنه مشهد رائع حقاً، وإن اعترافي بهذه الحقيقة يزيدني غضباً على غضب فإن أحداً لم يشهد قط مثل هذا المنظر. ولكننا قد ندفع ثمن هذه المتعة غالياً. أعتقد أننا نرى هنا أشياء ما كان مقدراً في عالم الغيب أن يراها أحد.

وكان نيد لاند على حق. فإن المشهد كان أجمل مما يتصوره البصر. وفجأة بدرت من كونسایل صيحة جعلتني أستدير إليه قائلاً:

- ماذا حدث؟

- أرجو من سيدي أن يغمض عينيه ويكف عن النظر.

قال هذا وهو يرفع يديه بسرعة ويخفي بهما عينيه. فقلت:

- ولكن ماذا حدث يا بني؟

- لقد بهرت عيناى.. أصبت بالعمى.

فاستدارت عيناى برغمي إلى النافذة ولكني لم أستطع احتمال الوهج الناري الذي سلط عليهما، ولم ألبث أن أدركت ما حدث. فإن الغواصة قد انطلقت بكل سرعتها وإذا ذاك استحالت الأضواء الساطعة

المنعكسة في سكون إلى ومضات باهرة كخطف البرق. لقد تجمعت أضواء كتل الماس هذه واتحدت في وميض واحد.

ثم أغلقت نوافذ الصالون ووضعنا أيدينا فوق أعيننا التي بهرتها الأضواء الساطعة المتحركة كما تنبهر العيون من أشعة الشمس في سمت الظهيرة. واستغرق زوال الألم برهة غير وجيزة قال كونسایل بعدها وهو يرفع يديه:

- يا إلهي ما كنت لأصدق هذا أبدًا!

وقال نيد لاند:

- وأنا لا أكاد أصدق ما رأيت عيناى.

وأردف كونسایل قائلاً:

- عندما نعود إلى الأرض مثقلين بمثل هذه العجائب ماذا يكون شعورنا حيال القارات التافهة وآثار صنع الإنسان الهزيلة. كلا إن العالم المأهول لم يعد يليق لنا بعد الذي رأيناه.

كانت مثل هذه الكلمات التي فاه بها كونسایل الهادئ عادة تدل على مدى ما وصلت إليه انفعالاتنا النفسية. ولكن نيد لاند لم يعجز كعادته عن سكب بعض الماء البارد عليها فقال وهو يهز رأسه:

- العالم المأهول. لا تنزعج يا صديقي كونسایل. لن نرى قط العالم المأهول مرة أخرى.

وكانت الساعة الخامسة صباحًا إذ ذاك وفي تلك اللحظة أحسنا بهزة في الجزء الأمامي من الغواصة. فأدركت أن مقدمتها صدمت بكتلة

من الجليد. وقد خطر لي عندئذ أن ما حدث هو خطأ في القيادة. لأن النفق المائي المحفوف بالكتل الجليدية ليس طريقاً تسهل الملاحظة فيه ولهذا السبب تصورت أن الربان نيمو قد يدور حول هذه الكتل أو يستمر في اجتياز هذا النفق الضيق؛ ذلك لأن طريقنا لم يك على كل حال مغلقاً تماماً ولكن الغواصة بعكس ما توقعت أخذت في التراجع مما جعل كونسايل يقول:

- إنها تسير إلى الخلف.

- نعم لا شك أنه ليس للنفق مخرج في هذه الناحية.

- وماذا سيحدث بعد ذلك؟

- الأمر جد بسيط.. فسوف نعود أدراجنا لنخرج من الطرف الآخر.

هذا هو كل شيء.

وكنت أحس بقولي هذا أنني أبدو واثقاً من نفسي أكثر من الواقع.

وكان تراجع الغواصة خلال ذلك يزداد معدله. وكانت تحملنا برفاصها العكسي في سرعة بالغة..

وقال نيد لاند:

- سيكون هذا عاملاً من عوامل التأخير.

- وما قيمة بضع ساعات ما دمنا نخرج سالمين.

- نعم.. ما دمنا نخرج سالمين.

وأخذت أروح وأغدو برهة فيما بين الصالون وغرفة المكتبة. ولزم صاحبائي الصمت. وأخيراً تهالكت فوق الأريكة وتناولت كتاباً جعلت

أحدق فيه بنظرات آلية. وبعد ربع ساعة أقبل كونسایل نحوي قائلاً:

- هل يقرأ سيدي شيئاً شائئاً؟

- جداً..

- هذا ما خطر لي، لأن سيدي يقرأ كتاباً من مؤلفاته.

- مؤلفاتي؟!!

وتبينت حقاً أنني ممسك بكتابي «أعماق البحار» دون أن أدري.
فطويته واستأنفت مسيري جيئةً وذهاباً. وأخيراً نهض نيد لاند وكونسایل
للانصراف...

فقلت لهما:

- انتظرا.. لنبق هنا معاً حتى تخرج الغواصة من النفق.

فقال كونسایل:

- كما يشاء سيدي..

وانصهرمت ساعات وكنت أرفع بصري بين حين وآخر إلى الآلات
المعلقة على جدران الصالون فرأيت من مقياس الأعماق أن الغواصة
على عمق ثابت مقداره تسعمائة قدم، وأن البوصلة تشير إلى أننا نتجه
جنوباً وجهاز السرعة يدل على أننا ننطلق بسرعة عشرين ميلاً في الساعة،
وهي سرعة بالغة في مثل هذا الحيز الضيق. ولكن الربان نيمو كان يعرف
أنه لا يستطيع أن يمضي بأسرع من هذا رغم أن الدقائق عندئذ كانت
كالأجيال.

وفي الدقيقة الخامسة والعشرين بعد الساعة الثامنة، شعرنا بصدمة

أخرى في المؤخرة هذه المرة فامتقع وجهي، وأسرع صاحباي إلى جانبي، فأمسكت بيد كونسایل وأخذ كل منا يسأل الآخر بعينه في نظرات أبلغ من كل حديث.

وفي تلك اللحظة أقبل الربان إلى الصالون. فذهبت إليه قائلاً:

- هل الطريق مسدود من الجنوب؟

- نعم.. إن انقلاب كتلة الجليد سد جميع المخارج.

- هل أصبحنا إذن محاصرين؟

- نعم.



الفصل الأربعون

الحاجة إلى الهواء

وهكذا أحيطت الغواصة من فوقها ومن تحتها بجداران من الجليد لا منفذ منهما. وصرنا محصورين في شاطئ الجليد. وضرب نيد لاند المائدة بجمع يده في عنف. ولم يلفظ كونسایل بكلمة. ونظرت إلى الربان فإذا وجهه يسترد سكونه المعتاد ولم يلبث أن عقد ذراعيه على صدره كما يفعل حين يستغرق في تأملاته، وكانت الغواصة ثابتة لا تريم. وأخيرًا تكلم الربان بصوته الهادئ فقال:

- أيها السادة.. هناك وسيلتان للموت في ظروفنا الحالية..

والحق أن هذا الرجل العجيب بدا كأنه أستاذ للرياضيات يشرح مسألة لتلاميذه وقد استطرد يقول:

- أن نموت سحقًا بين كتل الجليد. والثانية أن نموت اختناقًا.. ولن أتحدث عن احتمال موتنا جوعًا لأن مخازن الغواصة فيها حقًا ما يكفي ويزيد.

فقلت:

- لا يمكن أن نموت اختناقًا يا كابتن. لأن مستودعات الهواء مملوءة.

- صحيح. ولكنها لن تفي بحاجتنا من الهواء إلا مدة يومين وقد مضى علينا الآن ٣٦ ساعة تحت الماء وجو الغواصة الثقيل يحتاج منذ الآن إلى تغيير الهواء. أي أن الاحتياطي منه سينفذ بعد ثمان وأربعين ساعة.

- حسنًا يا كابتن، يجب إذن أن نخرج من هذا المأزق قبل ثمان وأربعين ساعة.

- سنحاول بكل وسيلة أن نجد منفذًا بين هذه الأسوار الجليدية المحدقة بنا.

- في أي جانب سنبدأ المحاولة؟

- سأسعين بالمجسات. وستهبط الغواصة إلى الجانب السفلي ويرتدي رجالى ملابس الغوص لتحطيم أضعف جانب من هذا الجدار الثلجي.

- هل يمكن أن ترفع الألواح عن نوافذ الصالون؟

- بالتأكيد... إننا لا نتحرك الآن.

وخرج الربان نيمو. وانبعث فحيح فهمت منه أن الخزانات تمتلئ بالماء وأخذت الغواصة في الهبوط حتى استقرت فوق قاع من الثلج على عمق ثلاثمائة وخمسين ياردة وقد قلت:

- يا صاحباي! إن الموقف خطير ولكنني أعتد على شجاعتكما ونشاطكما.

فقال نيد لاند:

- ليس هذا هو الوقت المناسب لإزعاجك بالتذمر والشكوى. إنني مستعد للقيام بأي عمل لصالح الجميع.

فقلت وأنا أضافحه:

- عظيم جدًا يا نيد.

- إنني بارع في استخدام المعول براعتي في الصيد بالحربة. فإذا كنت ذا فائدة للربان فيمكنه الاعتماد عليّ.

- إنه لن يرفض خدماتك يا نيد... هلم إليه.

وقصدت مع نيد لاند إلى الغرفة التي كان رجال الغواصة يرتدون فيها ملابس الغوص وهناك أخبرت الربان باستعداد نيد للمعاونة. فرحب به. وارتدى صاحبي ملابس الغوص واستعد مع زملائه وحمل كل منهم على ظهره جهاز «روكوابرول» المليء بالهواء النقي وهو ما أنقص قدرًا كبير من احتياطي الهواء في الغواصة أما مصباح رومكروف فلم تكن له فائدة في مياه يسطع فيها الضوء الكهربائي.

ولما فرغ نيد لاند من ارتداء ملابس الغوص عُدت إلى الصالون حيث رأيت الألواح مرفوعة عن النوافذ البللورية فأخذت مكاني بجانب كونسايل ورحت أتفحص بنظري المرقد الجليدي الذي استقرت الغواصة فوقه.

وبعد لحظات رأينا نحو اثني عشر رجلاً من البحارة يخرجون إلى الجليد وكان بينهم نيد لاند الذي عرفته بطول قامته وكذلك الربان نيمو. وقبل ابتداء الحفر في الجدران استخدم الربان المجسات ضمناً لسلامة العمل. ونفذت المجسات الطويلة المدببة في الجدران الجانبية. ولكنها لم تلبث أن توقفت بعد أن نفذت مسافة ٤٥ قدماً عند جدران جليدية شديدة الكثافة والسّمك، ولم يكن ثمة فائدة من جس السقف الجليدي لأنه يكون قاع شاطئ الجليد الذي لا يقل سمكه عن ألف ومائتي قدم، وشرع الربان نيمو يجس الجانب السفلي من طبقة الثلج التي تفصلنا عن الماء فوجد أن سمكها لا يزيد على ثلاثين قدماً. وهكذا كان يتحتم علينا أن نستخرج من الجليد نحو سبعة آلاف ياردة مكعبة لنحفر فجوة تنفذ منها الغواصة إلى طبقة الماء السفلى.

وبدأ العمل فوراً في نشاط بالغ، وقد رأي الربان بدلاً من الحفر حول الغواصة - وهي عملية شاقة - أن يأمر بحفر خندق ضخم على مسافة ثمانى ياردات من مقدمتها. وفي وقت واحد شرع الرجال في الحفر في نقاط مختلفة على حدود الخندق وسرعان ما بدأوا في إخراج القطع الجليدية من أماكنها، وكانت هذه القطع بحكم قانون الجاذبية العجيب تطير لأنها أخف وزناً من الماء إلى سقف النفق حيث تلتصق به وتزيد من سمكه. بينما يزداد قاعه رقة.

وبعد ساعتين من العمل المتواصل عاد نيد لاند وزملاؤه إلى الغواصة مجهدين، وخلفهم في العمل عدد آخر من البحارة انضمت أنا وكونسايلى إليهم وكان رئيسنا في هذه المرة ضابط الغواصة الأول.

وكان الماء شديد البرودة، ولكنني لم ألبث أن استدفت وأنا أضرب بالمعول. وكنت أشعر بخفة في حركاتي رغم أننا كنا نعمل في ضغط يساوي ثلاثين ضغطًا جويًا.

ولما عدت إلى الغواصة بعد ساعتين من العمل لتناول الطعام والراحة، شعرت بفارق كبير بين الهواء الذي كان يزودني به المستودع وبين الهواء في جو الغواصة الذي أصبح مثقلًا بثاني أكسيد الكربون، ذلك أن هواءها لم يجدد في الثماني والأربعين ساعة الأخيرة، ففقد الكثير من عناصره المانحة للحياة. ومهما يكن فقد استطعنا في اثنتي عشرة ساعة أن نستخرج من الجليد ما يبلغ حجمه ستمائة ياردة مكعبة. ولكن حتى لو استطعنا العمل دائمًا بهذا المعدل فسنحتاج إلى خمس ليال وأربعة أيام لنفرغ من هذه المهمة.

- وقلت لصاحبي: خمس ليال وأربعة أيام وكل ما لدينا من هواء احتياطي لا يكفي أكثر من يومين.

فقال نيد لاند:

-حتى يغير هذا التقدير لو خرجنا من هذا السجن اللعين فسنبقى محصورين تحت شاطئ الجليد وقتًا آخر دون أن نجد الهواء النقي المطلوب.

وكانت تلك هي الحقيقة. فمن ذا يستطيع تحديد أقل مدة كافية لخلاصنا؟ ألا يحتمل أن نموت اختناقًا قبل أن تصل الغواصة إلى سطح الماء؟ أترى هل قُدر لها أن تدفن بمن فيها داخل هذا القبر الثلجي؟ لقد كان الموقف رهيبًا. ولكن كلاً منا أخذ يواجهه بشجاعة معتزمًا أن يؤدي

واجبه إلى النهاية.

وتم أثناء الليل كما توقع استخراج ستمائة ياردة مكعبة أخرى من الجليد، ولكن عندما جاء الصباح وارتدیت ملابس الغوص وذهبت إلى الماء وجدت الحرارة هبطت من ست إلى سبع درجات تحت الصفر، ولاحظت أن الجدران الجانبية يقترب بعضها من بعض تدريجيًا. وكانت المياه المستخرجة من الخندق دون أن تسخن بتأثير حركة العمال والمعاول تميل إلى التجمد مرة أخرى. فأى فرصة للنجاة إزاء هذا الخطر الجديد المحقق؟ وكيف نستطيع أن نمنع تجمد مياه النفق الضيق؟ فإنها لو تجمدت لحطمت جوانب الغواصة كما يتحطم الزجاج.

ولم أشأ أن أفضي إلى صاحبيّ بأمر هذا الخطر الجديد، ولم أغامر بتبسيط همتهم وهم يؤدون العمل الشاق ولكنني فاتحت الربان نيمو في الأمر عند عودتي إلى داخل الغواصة، فقال بصوته الهادئ الذي لا تنال منه الأحداث مهما اشتدت خطورتها:

- إنني أعرف هذا، إنه مجرد خطر جديد لا سبيل إلى اجتنابه. إن الفرصة الوحيدة للنجاة هي أن نعمل بأسرع من تجمد الماء. المسألة الآن سباق بيننا وبين الطبيعة..

فقلت وكان عليّ أن أعتاد هذا اللون من الحديث:

- نعم يجب أن نكون السابقين.

وفي ذلك اليوم أخذت أعمل بقوة ساعات عديدة. وكان العمل يذكي همتي، وفضلاً عن ذلك كان معنى هذا العمل التنفس من مستودع

الهواء النقي المتصل بجهاز الغوص، والبعد عن جو الغواصة الفاسد. وقرب المساء كنا قد حفرنا ستمائة ياردة مكعبة أخرى في الخندق. فلما عدت إلى الغواصة كدت أختنق بثاني أكسيد الكربون الذي ملأ جوها، إذ لم يكن لدينا المعدات الكيميائية التي تطرد هذا الغاز الخانق وإن كان عندنا الأكسجين بوفرة، لأن الماء يحتوى على قدر كبير منه وبوسعنا أن نحفظ بكميات كبيرة من هذا الماء السائل. لقد فكرت في هذا لكن ما الفائدة ما دام ثاني أكسيد الكربون الناشئ عن تنفسنا قد غزا كل أجزاء الغواصة. فلو أردنا امتصاصه لوجب علينا استخدام أملاح البوتاس الكاوية في أوعية مع هزها باستمرار. ولكن هذه المادة لم تكن موجودة في الغواصة وليس ثمة مادة أخرى تحل محلها.

وفي ذلك المساء، اضطر الربان نيمو إلى فتح صمامات مستودعات الهواء الاحتياطي وإطلاق كمية نقية منه داخل الغواصة، ولولا هذا لما استيقظنا أبداً من النوم.

وفي اليوم التالي، السادس والعشرون من شهر مارس، استأنفت عمل في حفر الخندق لرفع مسطح الياردة الخامسة من طبقة الجليد البالغ سمكها ثلاثين قدماً أو عشر ياردات. وكانت الجدران الجانبية وسقف شاطئ الجليد تزداد كثافة وسمكاً باستمرار. وكان الواضح أنها ستطبق بعضها على بعض قبل أن تخرج الغواصة من مأزقها. واستبد اليأس بي برهة. وكاد المعول يسقط من يدي. فقد خطر لي أنه لم يعد ثمة جدوى من العمل ما دمت سأموت مختنقاً ومنسحقاً تحت الماء المتحول إلى جمد، وإنها لميته لا تخطر ببال أشد الهمج وحشية. لقد خيل إليّ أنني بين

أشداق وحش توشك أن تنطبق عليّ بلا أمل في النجاة.

وفي تلك اللحظة مر بي الربان نيمو الذي كان يعمل ويشرف على العمل، فلمست ذراعه وأشارت إلى جدران سجننا التي اقتربت حتى صارت على قيد أربع ياردات من الغواصة.

وأدرك الربان ما أعني. وأشار إليّ أن أتبعه. فلما عدنا إلى الغواصة ونزعنا ملابس الغوص تبعته إلى الصالون حيث قال:

- لا بد يا مسيو أروناكس أن نقوم بعمل بطولي وإلا فُضي علينا في سجن قوامه الماء المتجمد كالأسمنت.

فقلت:

- نعم. وماذا يمكن أن نفعل؟

فهتف قائلاً:

- آه لو كان يتسنى للغواصة احتمال الضغط دون أن تتهشم.

فقلت وأنا لا أفهم ماذا يعني:

- ثم ماذا بعد؟

- ألا تعرف أن تجمد الماء هذا سيساعدنا؟ ألا ترى أنه في تجمده سيحطم جدران سجننا كما يحطم في ظروف مماثلة صخوراً أقوى من الجليد. ألا ترى أن تجمد هذا الماء سيكون سبباً لخلاصنا بدلاً من أن يكون وسيلة للقضاء علينا؟

- بلى يا كابتن. هذا ممكن ولكن أيّا كانت مقدرة الغواصة على احتمال الضغط فلن تستطيع المقاومة في هذه الحالة. وستسحق سحقاً

وتصبح مثل لوح من الصلب المضغوط.

- أعرف يا سيدي، ولهذا لا ينبغي أن نعتمد على الطبيعة في نجاتنا بل على أنفسنا، أي يجب أن نمنع تجمد الماء. فإن الجدران الجانبية لا تنطبق علينا فحسب، بل إنه لم يتبق أكثر من عشرة أقدام من الماء أمام الغواصة أو خلفها فإن الماء متجمد في كل مكان حولنا.

- إلى متى يكفينا الهواء للتنفس داخل الغواصة؟

فحدق الربان في وجهي ثم قال:

- إلى ما بعد الغد.. وعندئذ لا يبقى في المستودعات ذرة هواء احتياطي.

وتفصد العرق البارد على جبيني. ولكن.. هل كان ينبغي أن أدهش من هذا الرد؟ لقد هبطت الغواصة تحت سطح الماء في سمت القطب الجنوبي في اليوم الثاني والعشرين من شهر مارس. ونحن الآن في اليوم السادس والعشرين، أي أننا عشنا خمسة أيام نتنفس احتياطي الهواء في الغواصة وما تبقى منه يجب أن يخصص للمشتغلين في حفر الخندق. ولا أتمالك، حين أستعيد تلك الذكرى الأليمة وأنا أدون هذا، من الشعور بالفزع يستبد بكياني حتى ليخيل إليّ أنني أوشك على الاختناق.

وكان الربان نيمو في خلال هذا يفكر في صمت وسكون. وبدأ لي بوضوح أن فكرة ما طرأت على ذهنه. وأنه يحاول طردها عنه وهو يرد على نفسه بالنفي وأخيراً بدرت منه هذه العبارة:

- الماء المغلي..

فهمت قائلاً:

- الماء المغلي؟

- نعم يا سيدي... إننا محصورون في مكان مغلق نسبياً؟ أفلا يؤدي الماء المغلي المرسل باستمرار من مضخات الغواصة إلى رفع درجة الحرارة قليلاً وإعاقة عملية التجميد.

فقلت في إصرار:

- لا بد أن نقوم بهذه المحاولة..

- سنقوم بها يا بروفيسور...

وكانت الحرارة الجوية عندئذ سبع درجات تحت الصفر. فمضى بي الربان إلى المطبخ حيث يوجد جهاز الترشيح الذي يزودنا بماء الشرب بعد تحويل ماء البحر إلى بخار. وكانت مستودعات الجهاز مملوءة بالماء فسلط التيار الكهربائي المولد للحرارة على الأنابيب الغارقة في الماء، وسرعان ما وصلت المياه إلى درجة الغليان. فأرسلت إلى المضخات بينما حلت كمية أخرى من الماء محلها وهكذا. وبلغ من شدة الحرارة أن ماء البحر البارد كان لا يصل إلى الجهاز حتى يبلغ في المضخات درجة الغليان.

وبعد ثلاث ساعات من بدء العملية ارتفعت حرارة الجو إلى ست درجات تحت الصفر. لقد ظفرنا بدرجة واحدة. وبعد ساعتين كان الترمومتر يشير إلى أربع درجات. وعندئذ قلت بعد أن تتبععت مراحل هذه العملية:

- إننا سننجح يا كابتن ...

- أعتقد أننا سننجح .. إننا لن نُسحق. ولم يبق ما نخافه الآن سوى خطر الموت اختناقًا.

وأثناء الليل ارتفعت حرارة الماء إلى الدرجة الواحدة تحت الصفر ولم يستطع الجهاز أن يرفعها أكثر من هذا القدر. ولكن لما كانت مياه البحر لا تتجمد إلا في درجة حرارة لا تقل عن ٢ تحت الصفر، فقد اطمأنت أخيرًا الزوال خطر التجمد.

وفي اليوم التالي السابع والعشرين من شهر مارس، كنا قد رفعنا من الخندق ثمانية عشر قدمًا من طبقة الجليد. أي أنه لم يبق أمامنا سوى اثني عشر قدمًا تحتاج إلى جهد ثمان وأربعين ساعة. لم يعد في الإمكان تجديد الهواء داخل الغواصة. وفي ذلك اليوم سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ.

لقد أحسست بثقل شديد يجثم عليّ. في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بلغ شعوري بالألم حدًا كبيرًا. وشعرت بفكّي يكادان ينخلعان من طول ما فغرت فمي، ولهت رثائي وهما تتلمسان الأكسجين اللازم للحياة. والذي أخذ يقل تدريجيًا. وانتابني خدر، فتمددت مسلوب الحركة. أكاد أفقد كل وعيي. وجلس كونسایل الباسل المخلص بجانب فراشي رغم إحساسه بنفس الأعراض ونفس الآلام ممسكًا بيدي يشجعني وقد سمعته يغمغم قائلاً:

- آه لو كان في مقدوري ألا أتنفس لأوفر لسيدي المزيد من الهواء.

فلم أكد أسمع هذه الكلمات حتى طفرت الدموع من عيني.

وبسبب هذا الجو غير المحتمل داخل الغواصة كنا نشرع في ارتداء ملابس الغوص إذا حل دورنا للعمل ونحن نشعر بالبهجة واللهفة. وكانت المعاول ترن على السطح المتجمد. ولم نكن نحفل بكلل سواعدنا أو بتسلخ أيدينا. إذ ما قيمة التعب أو الجروح ما دامت رئاتنا تنعم بالهواء الضروري... لقد كنا نتنفس.. نعم كنا نتنفس..

ومع ذلك لم يكن أحدنا يحاول أن يطيل فترة العمل تحت سطح الماء، فإذا فرغ من العمل وضع على ظهر زميله اللاهث مستودع الهواء النقي الذي يسكب الحياة في جسمه. وكان الربان نيمو يضرب لنا المثل ويُخضع نفسه لهذا النظام الدقيق. فإذا جاء دوره سَلَّم المعول والجهاز إلى غيره. وعاد إلى داخل الغواصة ذات الجو الثقيل. هادئاً دائماً. لا يشكو ولا يتذمر.

وفي ذلك اليوم تم العمل كالمعتاد بنشاط متزايد. ولم يبق أمامنا غير طبقة من الثلج سمكها ستة أقدام.. ستة أقدام كانت تفصلنا عن أعماق البحر المفتوحة.. ولكن مستودعات الهواء الاحتياطي كانت أوشكت على النفاد. وكان علينا أن ندخر القليل الباقي للعمل في الخندق فلا نطلق ذرة منه داخل الغواصة.

ولما عدت إليها غدوتُ نصف مختنق. ويا لها من ليلة أمضيتها. إن الآلام التي عانيتُها تند على الوصف. وفي اليوم التالي ضاقت أنفاسي، ومع الصداق الذي كنت أعاني منه، شعرت بهذا الخدر الثقيل الذي جعل مني رجلاً كالسكير. وكان زملائي يحسون بهذه الأعراض نفسها، وقد

شعر بعض البحارة بصلصلة في حلوقهم.

وفي ذلك اليوم السادس من فترة حصارنا رأى الربان نيمو أن العمل بالمعاول يسير ببطء شديد. فقرر اقتحام الطبقة الباقية من الثلوج التي تفصلنا عن الماء الجاري. وظل هذا الرجل محتفظاً بهدوئه ونشاطه، مغالبًا الألم الجسماني بقوة الروح حتى استطاع أن يفكر ويدبر ويعمل. وأصدر أمره بتخفيف الغواصة، أي برفعها عن الثلج بواسطة التغيير في الجاذبية الفرعية، فلما طفت سُيرت في الخندق الكبير الذي حُفر ليتسع لها ثم ملئت خزاناتها بالماء. فشرعت تهبط...

وفي تلك اللحظة كان البحارة جميعاً قد دخلوها، وأغلقت جميع فتحاتها ثم استقرت الغواصة عندئذ على طبقة من الثلج لا يزيد سمكها على ثلاثة أقدام. كما أثبتت المجسات في عشر مواضع.

وفُتحت صمامات الخزانات كلها جملة واحدة، فاندفع إليها من الماء ما يقدر بمائة ياردة مكعبة مما أضاف إلى وزن الغواصة نحو مائتي ألف رطل. ولبشنا ننتظر ونرهف السمع ناسين آلامنا، تداعبنا الآمال بعد أن استنفدنا جميع المحاولات.

ورغم الطنين الذي كان يملأ رأسي شعرت برنين الرفاص في هيكل الغواصة وبازدياد هبوطها وسمعت صوت تكسر الثلوج المعروف كخرشة الورق الجاف وهو يتمزق.. وازداد هبوط الغواصة.

وهمس كونساييل في أذني قائلاً:

- لقد نفذنا..

ولم أستطع أن أجيب وإنما أمسكت بيده وضغطت عليها بحركات تشنجية. أما الغواصة فقد هبطت بقوة في الماء الجاري كأنها قذيفة مدفع أو كأنها تهوي في قاع هاوية ليس لها قرار.

ثم سلطت القوى الكهربائية كلها على المضخات التي أخذت تطرد الماء من المستودعات. وتوقف هبوطنا بعد لحظات. وبعد برهة بدأنا في الصعود وكان الرصاص يدور بقوة جعلت الهيكل الحديدي يهتز بكافة أجزائه وهو يندفع شمالاً.

ولكن إلى متى يستمر سيرنا تحت شاطئ الجليد قبل أن نصل إلى البحر المفتوح. يوم آخر! إنني أفضل الموت على احتمال هذا اليوم.

وازداد الشعور بالاختناق وأنا شبه راقد على الأريكة في غرفة المكتبة. وشاعت الزرقة في وجهي وشفتي وتسلل الخدر إلى حواسي فلم أعد أبصر أو أسمع شيئاً. وتلاشت من ذهني كل فكرة عن الوقت ولم يعد في مقدوري أن أحرك عضلاتي.

ولم أدر كم دامت هذه الحالة... ولكنني شعرت أن آلام الموت قد بدأت. أدركت أنني أحتضر. وفجأة أفقت لنفسي حين أحسست بأنفاس قليلة من الهواء النقي تصل إلى رئتي المعذبتين. ترى هل بلغنا سطح الماء؟ هل اجتزنا منطقة الشاطئ الجليدي؟

كلا.. كان نيد لاند وكونسايل - صاحباي الباسلان - يضحيان بنفسيهما من أجلي. فقد بقي قدر يسير من الهواء النقي في قاع الجهاز.. وبدلاً من أن يستفيدا منه راحا وهما يختنقان يستقطران هذا القليل في رئتي وقد حاولت أن أبعد الجهاز عني. ولكنهما أمسكا بيدي فلم يسعني

إلا أن أتنفس في نهم.

ووقعت نظراتي على الساعة، فإذا هي الحادية عشرة. ولا شك أن اليوم كان الثامن والعشرين من مارس. وكانت الغواصة تنطلق بسرعة هائلة مقدارها أربعون ميلاً في الساعة.

أين الربان نيمو؟ هل قضى نحيبه؟ وهل مات البحارة معه؟ وفي تلك اللحظة رأيت بواسطة جهاز الأعماق أننا على عمق خمسة وعشرين قدماً فقط من سطح الماء. أي أنه كان يفصلنا عن السطح حقل بسيط من الجليد فقط. أفلا يمكننا اقتحامه؟

ربما. ومهما يكن فقد بدا أن الغواصة تقوم بهذه المحاولة؛ إذ شعرت أنها تتخذ وضعاً رأسياً بخفض مؤخرتها ورفع مقدمتها. ثم إذا رفاصها يدور بكل قوته وإذا هي تندفع إلى سقف حقل الثلج مرة أخرى بكل سرعتها. وإذا حقل الثلج يتحطم. وإذا الغواصة - بمجهود أخير رائع - تقفز إلى السطح المتجمد الذي تهشم تحتها..

وفتحت منافذها.. بل كادت المنافذ تنتزع انتزاعاً.. واندفع الهواء النقي إلى كل مكان بداخلها.



الفصل الحادي والأربعون

من رأس هورن إلى الأمازون

لم أدر على وجه التحديد كيف وصلت إلى سطح الغواصة. ربما حملني السيد نيد لاند. ولكنني كنت أتنفس.. أستنشق الهواء المنعش.. هواء البحر، وكان صاحباي بجانبني يتشيان بجزيئات الهواء الطلق، إن البؤساء الذين حرموا الطعام طويلاً لا يستطيعون أن يلتهموا أول طعام يقدم إليهم مرة واحدة.. أما نحن فلم يكن ثمة ما يجعلنا نتمالك أنفسنا فانطلقنا نملاً رثائنا بذرات هذا الهواء، وكانت نسائم البحر نفسها هي التي تسكب الحياة في أجسادنا وقال كونسايل:

- آه.. ما أجمل الأكسجين.. لا تخف يا سيدي من التنفس بحرية. فإن في هذا الهواء ما يكفي الجميع.

ولم يقل نيد لاند شيئاً وإنما كان يفتح فكيه الواسعين إلى حد يفرع نمر البحر. كان يتنفس بقوة عجيبة وكأنه وهو يسحب الهواء منفاخ أتون في ذروة الحركة.

وسرعان ما استرددنا قوانا، ولما تلفت حولي رأيت أننا على سطح الغواصة وحدنا. فلم يكن أحد من البحارة معنا ولا الربان نيمو. لقد اكتفى هؤلاء البحارة المدهشون بتنفس الهواء الجاري داخل الغواصة دون أن يحاول أحدهم أن يستمتع بالهواء الطلق.

وكانت أول كلمات فهتُ بها تعبر عن شكري واعترافي بالجميل لصاحبي. فقد أطل نيد لاند وكونسايل بقائي خلال الساعات الأخيرة من هذه المحنة.

وإن كل إحساس بعرفان الجميل ليس بالكثير على مثل هذه التضحية بالنفس.

وقد رد نيد لاند على حديثي بقوله:

- إن ما فعلناه لا يستحق التنويه يا سيدي. أي فضل لنا فيما فعلنا؟ لا شيء! إن الأمر كله لا يعدو أن يكون مسألة حسابية.. فإن حياتك تساوي أكثر من حياتنا، ولهذا وجب العمل على الاحتفاظ بها.

- لا يا نيد لاند. إن حياتي ليس بأفضل منكما. إن الرجل الطيب الكريم لا يعلو عليه أحد. وأنت هذا الرجل. وأنت يا كونسايل الباسل.. لقد تعذبت كثيرًا.

- لم أتعذب كثيرًا إذا شاء سيدي الحقيقة. كنت حقًا في حاجة إلى بعض أنفاس من الهواء ولكنني كنت أعتقد أنني سأعتاد تلك الحالة. ثم إنني نظرت إلى سيدي وهو يحتضر وفقدت بدوري كل رغبة في الحياة، وقد أوقف هذا تنفسي كما يقولون.

واعتراه الارتباك بعد أن فاه بعبارته تلك، فلما توقف قلت لنيد لاند:
- إننا الآن يا صديقاَيّ مرتبطون معًا إلى الأبد. وأنا على استعداد
لتنفيذ كل رغبة لكما.

فقال نيد لاند:

- وأنا على استعداد لاستغلال هذه الفرصة.

فهتف كونسايل قائلاً:

- ماذا؟

فاستطرد نيد لاند قائلاً:

- نعم. وذلك بأن أصحبكما معي حين أغادر هذه الغواصة اللعينة.

فقال كونسايل:

- لقد ذكرّتني... هل نحن سائرون الآن في الطريق السوي؟

فأجبهته قائلاً:

- نعم.. لأننا نتجه نحو الشمس.. والشمس الآن في الشمال.

فقال نيد لاند:

- لا شك في هذا.

ولكن بقي علينا أن نعرف هل نحن في الطريق إلى المحيط الهادي
أو إلى الأطلنطي، أو بمعني آخر إلى البحار المطروقة أو المنعزلة.

ولم أستطع أن أجزم بشيء ولكنني خشيت أن يمضي بنا الربان إلى
المحيط المترامي الذي يغسل شواطئ آسيا وأمريكا. أعني المحيط

الهادي، وبهذا يكون قد أتم طوافه حول العالم تحت سطح الماء ثم عاد إلى البحار التي تتمتع فيها الغواصة بالحرية التامة.. ولكن إذا حدث هذا وطرقنا المحيط الهادي الشاسع البعيد عن المناطق المأهولة فماذا يكون من أمر المشروع الذي يعده نيد لاند للهرب؟

ولم نلبث أن أتاحت لنا الفرصة لمعرفة هذه الحقيقة المهمة. فقد كانت الغواصة تنطلق بسرعة بالغة وسرعان ما تجاوزنا الدائرة القطبية في طريقنا إلى رأس هورن ثم أصبحنا تجاه هذا الطرف الأمريكي في الساعة السابعة من صباح اليوم الواحد والثلاثين من شهر مارس.

وعندئذ نسينا كل آلامنا السابقة. وبدأت ذكريات حصارنا تحت الثلج تتلاشى من أذهاننا وأصبحنا لا نفكر إلا في المستقبل فقط. ولم يعد الربان نيمو يظهر في الصالون أو على سطح الغواصة وكانت عملية الرصد التي تجري كل يوم ويسجلها الضابط الأول على الخارطة تدلني على الاتجاه المحدد الذي تسير فيه الغواصة. وشد ما كان سروري في ذلك المساء حين علمت أننا مبحرون شمالاً في طريق المحيط الأطلنطي. وقد ذكرت نتيجة ملاحظاتي لكونسايل ونيد لاند الذي قال:

- هذه أخبار طيبة.. ولكن.. إلى أين تذهب بنا الغواصة؟

- لا أعرف يا نيد..

- ترى هل يحاول ربانها أن يمضي إلى القطب الشمالي بعد الجنوبي. ثم يعود أدراجه إلى المحيط الهادي بطريق الممر الشمالي الغربي المشهور؟

فقال كونسايل:

- لا سبيل إلى معارضته إذا أراد هذا. أليس كذلك؟

فرد الكندي قائلاً:

- حسنًا. سنفترق عنه قبل هذا على أي حال.

فأردف كونسايل:

- مهما يكن فإن الربان نيمو رجل عظيم. ولن نأسف على تعارفنا به.

فقال نيد لاند:

- لا سيما عندما نفترق عنه.

وفي اليوم التالي: الأول من شهر أبريل. وعندما كانت الغواصة تصعد إلى سطح البحر قبيل الظهر، رأينا الشاطئ الغربي المعروف باسم «تيراديل فيوجو» وهو الاسم الذي أطلقه عليه الملاحون القدامى لكثرة الدخان المتصاعد من أكواخ الأهالي ومعناه «أرض الدخان».

وتكوّن «تيراديل فيوجو» سلسلة كبيرة من الجزائر تمتد مساحتها بطول تسعين ميلاً وعرض مائتين وأربعين ميلاً. وتقع بين خطي العرض ٥٣، ٥٦ درجة. وخطي الطول ٥٠: ٦٧ - ١٥: ٧٧ غربًا. وكان الشاطئ يبدو أمامي واطئًا ولكن جبلاً عالية كانت ترتفع في الأفق البعيد؛ بل تصورت أنني رأيت لمحات من جبل سارينتو الذي يبلغ ارتفاعه ٦٥٠٠ قدم فوق سطح البحر وهو كتلة هرمية من صخور الشست المعدنية، ذات قمة مدببة قال عنها نيد لاند:

- إن ظهور القمة أو اختفاءها في غلاثل الضباب إعلان عن صفاء

الجو أو رداءته.

- إنها مقياس جوي مشهور يا صديقي.

- نعم يا سيدي.. إنها بارومتر طبيعي لم يخدعني قط حين كنت
أبحر بين ممرات مضيق مجلان.

وفي تلك اللحظة كانت القمة واضحة شامخة في السماء. أي كانت
دليلاً على صفاء الجو، وهذا ما تحققنا منه فعلاً..

واقتربت الغواصة وهي تسير تحت سطح الماء من الشاطئ على
مسافة أميال قليلة. ومن نوافذ الصالون كنت أرى أعشاب البحر الطويلة
ونبات الفوقس الهائل، وتلك المثنائيات من أعشاب الحماق «جدرى
الماء» التي كان البحر في القطب الجنوبي يحتوي على أنواع قليلة منها
وكانت بأوراقها النحيلة المصقولة تمتد نحو تسعمائة قدم. وهي تبدو
كأنسجة متينة وثيقة في سمك الإبهام. وكانت شديدة المقاومة ولذلك
كانت تستخدم في شد ألواح السفن. وثمة أعشاب أخرى تعرف باسم
«قلب» طول أوراقها أربعة أقدام، تعلوها المتحجرات المرجانية وكانت
تكسو قاع البحر. وتستخدم هذه الأعشاب كأوكار وغذاء لملايين
القشريات واللافقاريات وسرطانات البحر والحباريات «نوع من السمك»
وتنعم الفقمات وبعض الحيوانات البحرية بطعام شهى من هذا العشب
المؤلف من الأسماك والنباتات البحرية على الطريقة الإنجليزية.

وانطلقت الغواصة بسرعة بالغة في هذه الأعماق الدسمة الغنية.
واقتربت في المساء من أرخبيل جزائر فوكلاند التي استطعت في اليوم
التالي أن أعرف على مرتفعاتها الشديدة الانحدار. وكان البحر قليل

العمق في هذه المنطقة. ومن ثم خطر لي بحق أن هاتين الجزيرتين وما يحيط بهما من جزر صغيرة.. كانت فيما مضى شطراً من أراضي مجالن. ومن المرجح أن يكون مكتشف جزائر فوكلاند هو الرحالة المشهور جون دافيز الذي أطلق عليها اسم «دافيز الجنوبية». وقد سماها ريتشارد هوكنز فيما بعد جزائر «ميدن» العذراء ثم سميت بعد ذلك جزائر «المالينز» وهو الاسم الذي أطلقه عليها بعض صيادي السمك في «سانت مالو» في مستهل القرن الثامن عشر وأخيراً سماها الإنجليز «جزائر فوكلاند» بعد استيلائهم عليها.

وقد جاءتنا شباك الصيد من هذه المنطقة بأنواع بديعة من أعشاب البحر لا سيما الفوقس الذي تكسو جذوره أفضل أنواع المحار المعروفة في العالم. وكانت أسراب الإوز البحري والبط تحط على سطح الغواصة بالعشرات، ثم سرعان ما تنتقل لأيدينا إلى المطابخ. أما عن الأسماك فقد لاحظت بصفة خاصة أصنافاً عظيمة من سمك القوبيون وبخاصة أسماك البوليرت التي يبلغ طول الواحدة منها ست بوصات وكلها مكسوة بنقط بيضاء وصفراء. وقد أعجبت كذلك بكثير من قناديل البحر وبأجمل أنواع الأحياء المرجانية المعروفة باسم الكريزورا التي اشتهرت بها جزائر فوكلاند، وهي تكون أحياناً أشكلاً نصف كروية كمظلة مقلمة بخطوط حمراء بنية وتنتهي باثنتي عشرة باقة منتظمة وتبدو أحياناً أخرى كسلة مقلوبة تتفرع منها أوراق كبيرة وعسالج طويلة حمراء. وكانت هذه الأحياء المرجانية تسبح بأذرعتها التي تشبه أوراق الشجر تاركة شواربها الأمامية طافية وراءها. وقد تمنيت لو احتفظت بأنواع من هذه البحريات

الدقيقة ولكنها كانت تبدو كقطع من السحب أو الظلال التي لا تلبث أن تتبخر وتختفي من موطنها الأصلي.

وبعد أن غابت آخر مرتفعات أرخبيل فوكلاند وراء الأفق هبطت الغواصة إلى عمق يتراوح بين عشرين وثلاثين ياردة وأخذت تسير تجاه الشاطئ الأمريكي وفي خلال ذلك لم يخرج إلينا الربان نيمو.

وبقينا حتى اليوم الثالث من شهر أبريل في مناطق بتاجونيا تحت سطح الماء أحياناً، وأحياناً أخرى فوقه. واجتازت الغواصة مصب نهر لابلاتا الواسع؛ وفي الرابع من أبريل كنا تجاه أوروغواي ولكن على بعد خمسين ميلاً من شواطئها. وظل اتجاه الغواصة نحو الشمال متتبعاً سواحل أمريكا الجنوبية الطويلة المتعرجة - وكنا عندئذ قد قطعنا ستة آلاف فرسخ منذ رحيلنا في بحار اليابان.

واجتازنا في الساعة الحادية عشرة منطقة كابريكون الاستوائية على خط الطول ٣٧ درجة. ثم أصبحنا تجاه رأس فريو. ولكن الربان - لسوء حظ نيد لاند - لم يكن مولعاً بسواحل البرازيل المأهولة لأنه تجاوزها بسرعة بالغة. وما كان في مقدور سمكة أو طائر أن يلحق بنا، وهكذا فاتتنا متعة النظر إلى عجائب الطبيعة في بحار هذه المناطق.

واستمر معدل السرعة هكذا بضعة أيام، حتى إذا كان مساء اليوم التاسع من شهر أبريل رأينا أقصى الطرف الشرقي لأمريكا الجنوبية، أي الطرف الذي يكون رأس سان روك. ولكن الغواصة تابعت سيرها السريع وهي تغوص إلى أعماق بعيدة في المحيط حيث يقع الوادي البحري بين هذا الرأس وبين إقليم سيراليون في أفريقيا. إن هذا الوادي البحري يبدأ

من مرتفعات جزر الأنثيل، وينتهي شمالاً إلى أعماق ضخمة تبلغ ألف ياردة. وفي هذه المنطقة يتكون الحوض الجيولوجي للمحيط، عند جزائر الأنثيل الصغرى من سلسلة مرتفعات يبلغ ارتفاعها ثلاثة أميال ونصف ميل، شديدة الانحدار تقابلها عند جزائر رأس فيرد مرتفعات لا تقل امتداداً وارتفاعاً، وبين هذه وتلك تقع قارة الأطلانتيس الغارقة وتتناثر في قاع هذا الوادي البحري جبال تضيء عليه طابعاً خاصاً. وإني أصف هذا الحوض مستعيناً بخرائط بحرية كانت في مكتبة الغواصة، وهي خرائط يبدو بوضوح أنها من أعمال الربان نيمو، وأنه رسمها عن مشاهدات شخصية.

ولبنا يومين بين هذه الأعماق الغائرة ذات السهول والمنحدرات التي كانت الغواصة تبحر فيها بطريقة لولبية جعلتها تعلو وتهبط بين سائر المنحدرات والمرتفعات.

وفي اليوم الحادي عشر من شهر أبريل، صعدت الغواصة فجأة إلى السطح، وإذا نحن نرى الأرض عند مصب نهر الأمازون.. وهو مصب ضخم تنساب فيه كميات هائلة من ماء النهر إلى البحر فتجعلها أقل ملوحة إلى مسافة أميال عديدة.

وكنا عندئذ قد عبرنا خط الاستواء وعلى مسافة عشرين ميلاً نحو الغرب رأينا أرض غانا الفرنسية التي كان يمكن أن نجد فيها ملاذاً سهلاً. ولكن الريح كانت تهب كالإعصار، والأمواج الثائرة ما كانت لتسمح لزورق صغير أن يطفو فوقها. ولا شك أن نيد لاند قد أدرك هذه الحقيقة، لأنه لم يتحدث إليّ بشيء، أما من ناحيتي فإني لم أعرض لمشروع هربه،

لأنني لم أرد إغراءه للقيام بمحاولة تنتهي بالفشل حتمًا.

وشغلت نفسي عن موضوع الهرب بالاستغراق في دراساتي الممتعة. ففي خلال يومي ١١ و ١٢ أبريل لم تترك الغواصة سطح البحر؛ وقد جاءتنا شباك الصيد بكميات هائلة من الأحياء المرجانية وأسماك الزواحف المائية.

وكانت بعض الأحياء المرجانية قد أخرجت من البحر معلقة في سلاسل الشباك وكان معظمها من أنواع العشبيات المنتمية إلى أسرة الإشعاعيات. وكان بين الأنواع الأخرى الخمائر العشبية التي تستوطن هذه المنطقة من المحيط، وهي عبارة عن جذوع أسطوانية محلاة بخطوط رأسية، ومرقطة بنقط حمراء تتوج أذرعتها التي تبدو في ازدهار الورد البديع. أما اللاقاريات فهي تتكون من أنواع سبق لي ذكرها. ثم البراجيات «حيوانات بحرية أرجلها في رأسها وتسمى الرسجلية» والفورفوريات الزيتونية ذات الخطوط المنتظمة المتشابكة والنقط الحمراء التي تبدو بوضوح على مسطح من اللحم. والسرخسيات الحية العجيبة التي تبدو كالعقارب المتحجرة. وأسماك الشفافيات والأرجونات والحباريات ذات الطعم اللذيذ وبعض أنواع خاصة من أسماك الكالمر التي يضعها بعض علماء عجائب الطبيعة بين أنواع السمك الطائر، وهي تستخدم في معظم الأحوال طعمًا لصيد سمك البكلاه.

أما أسماك هذه المنطقة التي لم تتح فرصة دراستها، فقد شهدت أنواعًا عجيبة منها: فمن الأسماك الغضروفية رأيت التيرونيرون-بريكا. وهي من أنواع ثعابين البحر طولها خمس عشرة بوصة، برؤوس

مخضرة، وزعانف بنفسجية، وظهور رمادية مائلة للزرقة، وبطن فضية، ومكسوة بنقط لامعة، وتحيط بإنسانات عيونها حلقات ذهبية. وهي أسماك بحرية عجيبة لا شك أن تيارات نهر الأمازون هي التي تأتي بها إلى البحر؛ لأنها عادة تستوطن المياه العذبة. وأسماك الإسكانا الدرفية بحيازيمها المدببة وذيلها الطويلة المعقوفة والمسلحة بمنشار طويل. ونمور البحر الصغيرة التي لا يزيد طولها على ياردة، بجلود رمادية في بياض، وصفوف عديدة من الأسنان المعقوفة إلى الخلف ويسمىها العامة «البابوج» والوسير طبليات «الخفافيش البحرية» وهي نوع من الأسماك كالمثلث المتساوي الضلعين طولها قدمان، مائلة للحمرة، تتصل زعانفها الصدرية بزوائد غشائية تجعلها تبدو كالخفافيش. ولكن الزوائد العظمية القريبة من خياشيمها جعلت العلماء يسمونها «وحيدة القرن البحرية» وأخيرًا بعض أنواع السمك الفراز ذي الجوانب المرقطة التي تلمع بلون ذهبي. وأسماك القبريص ذات اللون البنفسجي الفاتح والظلال المتدرجة كأعناق الحمام.

وإني هنا أختتم هذه القائمة الجافة نوعًا بأسماء سلسلة من الأسماك العظمية التي رأيتها في هذه المنطقة.. فقد رأيت سمك الباسان المنتمي إلى فصيلة المعاريات بحيازيم بيضاء كالثلج شديدة الانفراج، وأجسام سوداء ناعمة مزودة بزنانر طويل معقوف وأسنان شائكة. وأسماك السردين التي يبلغ طولها تسع بوصات وتتألق بلون فضي. وأنواع من سمك الأسكوبر المزودة بزعانف شرجية وسمك النمر - سترونت ذي الأطراف السوداء الذي يصاد بالمشاعل - وطول السمكة منه ستة

أقدام ولحمها أبيض متماسك، له -وهو طازج- مذاق لحم ثعابين البحر ولكن وهو جاف كالرنجة. وسمك الشناف الأحمر الذي تتركز قشوره فقط في أطراف زعانفه الظهرية والشرجية. والسمك العقيقي الذي يتألق بالألوان الذهبية والفضية المموهة ببريق الياقوت الأحمر والأصفر. وسمك الأسبار الذهبي الذيل الذي يمتاز بطيب مذاق لحمه والذي تكشفه في الماء خصائصه الفسفورية. وسمك الحفار ذي الألسنة الرقيقة والأطراف البرتقالية. وسمك الظليل بزعانف الذيل الذهبية - والذبول الشوكية الفاتحة. وسمك أنابيب سوريتام.. إلخ.

ولكن «إلخ» هذه لا تدعني أنسى سمكة لن يستطيع كونسایل أن ينساها أمدًا طويلًا..

فقد جاءتنا إحدى الشباك بسمكة من نوع الإسكانة شديدة الفرطحة، بحيث إذا قطع ذيلها أصبحت كالقرص المستدير، وكانت تزن أربعين رطلًا، بيضاء البطن، محمرة الظهر، ذات نقط كبيرة مستديرة زرقاء تحيط بها دوائر سوداء، وجلد ناعم ينتهي بزعنفة مشطورية. ولما وضعناها على سطح الغواصة جعلت تكافح وتحاول بحركات تشنجية أن تنقلب على بطنها. وقد بذلت محاولات عدة حتى انتهى الأمر في وثبتها الأخيرة باندفاعها نحو الماء، ولكن كونسایل الذي كان حريصًا على الاحتفاظ بها اندفع إليها وأمسكها بكلتا يديه قبل أن أستطيع منعه.

وسرعان ما سقط على الأرض وساقاه في الهواء، ونصف جسمه مشلول، وهو يصيح:

- سيدي.. سيدي.. أدركني..

وكانت تلك أول مرة يناديني فيها صاحبي المسكين بصيغة المخاطب بدلاً من صيغة الغائب..

وأدركته أنا ونيد لاند، وشرعنا ندلكه بقوة، حتى إذا استرد صوابه راح يتمتم في صوت مضضع بسلسلة من التعنيفات لهذه السمكة قائلاً:
- مرتبة الغضروفيات فصيلة الإسكانة، أسرة الرأي، نوع الطوربيد
و...

- نعم يا صديقي. إنها سمكة من نوع الراي المكهرب الذي فعل بك كل هذا..

- آه.. أرجو من سيدي أن يصدقني إذا قلت إنني سأنتقم من هذه الملعونة.

- كيف؟

- سأكلها..

وهذا ما فعله في المساء.. أكلها بدافع الانتقام فقط. لأن لحمها شديد الخشونة..

كان كونسایل المسكين أمسك بيديه نوعاً من سمك «الرعاش» وهو من أخطر أنواع السمك. إن هذا السمك العجيب يرسل شحنات كهربائية في الماء -وهو موصل جيد للكهرباء- فيصعق الأسماك الأخرى إلى مسافة ياردات عديدة. وإن نطاقه المكهرب لشديد القوة بحيث لا تقل مسافته السطحية عن سبعة وعشرين قدماً مربعاً.

وفي اليوم التالي ٢١ من شهر أبريل اقتربت الغواصة أثناء النهار من

الساحل بالقرب من مصب نهر ماروني. وهناك رأيت قطعاناً كثيرة من أبقار البحر ترعي معاً. وهي من نوع المناطق التي تنتمي -كالأطوم والنجميات- إلى مرتبة الخيلينيات «حيوانات بحرية ثديية». ويبلغ طول هذه الحيوانات البديعة الهادئة المسالمة من ثمانية عشر إلى واحد وعشرين قدماً وتزن الواحدة نحو ثمانمائة رطل. وقد ذكرت ليند لاند وكونسايل أن الطبيعة البعيدة النظر قد عهدت إلى هذه الحيوانات بمهمة كبيرة، لأنها كالفقمت، تعيش على أعشاب المراعي البحرية وهي لذلك تقضي على تكاثر الأعشاب التي تسد مصبات الأنهر الاستوائية، وقد أضفت إلى حديثي قائلاً:

- وهل يعرف أحدكما النتائج التي ترتبت على وشك انقراض هذه الحيوانات المفيدة، إن تكاثر الأعشاب وتعطنها يسمم الهواء. والهواء المسمم هو سبب الحمى الصفراء التي جعلت هذه المناطق الجميلة خالية من السكان. لقد تكاثرت النباتات المتعفنة تحت سطوح البحار الاستوائية مما أدى إلى انتشار الأوبئة والأمراض ابتداء من مصب نهر رويودي لابلاتا حتى شواطئ فلوريدا.

وإذا صحت نظرية العالم تاوسينل في هذا الشأن، فإن الأجيال التالية من البشر سوف تعاني الكثير من الحميات والأوبئة عندما تخلو البحار من الحيتان والفقمت والثدييات آكلة العشب. ذلك لأن البحار ستصبح موبوءة بالهلاميات وقناديل البحر والحباريات، ومرتعاً ضخماً للأوبئة ما دامت المياه تخلو من هذه البطون الواسعة التي خلقها الله لتطهير البحار. ومهما يكن فإن بحارة الغواصة رغم هذه النظرية أمسكوا بست من هذه

الأبقار البحرية لتزويد مخازنها باللحم الطيب. ولم تحاول هذه الأبقار أن تقاوم عمليات صيدها بالحرايب. وهكذا أضيفت إلى مخازن الغواصة بضعة آلاف رطل من اللحم الذي تقرر تحفيفه.

وفي ذلك اليوم جاءتنا إحدى الشباك بمزيد من اللحم صالح للحفظ. إذ حملت إلينا كمية من الأسماك تنتهي رؤوسها بصحاف بيضاوية ذات أطراف لحمية. إنها من الشوكيات التي تنتمي إلى الأسرة الثالثة من اللعنفيات البحرية (اللعنفيات أي اللينة الزعانف من القشريات) وكانت أقراصها المفرطحة تتكون من عظام غضروفية معقوفة متخالفة تمكن هذه الأسماك من إحداث خلخلة فراغية تجعلها تلتصق بأي جسم كالقدح المفرغ.

وينتمي سمك الرامور «سمك له عضو امتصاص في ظهره يلتصق به في غيره» الذي شاهدته في البحر الأبيض إلى هذا النوع، إلا أن النوع المعروف في هذه البحار من نوع الشوكيات البحرية، وقد عمد بحارة الغواصة إلى وضع هذه الأسماك بعد نقلها من الشبكة في دلاء مملوءة بالماء.

وبعد انتهاء الصيد اقتربت الغواصة من الشاطئ، فقد رأينا في تلك المنطقة عددًا من السلاحف المائية نائمة على سطح الماء ولم يكن من السهل اصطياد هذه السلاحف، لأن أقل حدث كان يكفي لإيقاظها، كما أن دروعها القرنية تحميها من ضربها بالحربة. ولكن أسماك الرامور كانت كفيلة باصطيادها حقًا. ذلك أن هذه الأسماك هي في الواقع خطاطيف حية يسعد بها صياد السمك ويشرى.

فقد ربط بحارة الغواصة حلقات في ذيول هذه الأسماك وكانت حلقات واسعة لا تعوق حركتها وشدوا في الحلقات حبلًا طويلًا مثبت إلى جانب من الغواصة من الناحية الأخرى.

وما أن أُلقيت أسماك الرامور في البحر حتى بدأت عملها فورًا، فقد التصقت بدروع السلاحف وكانت شدة الالتصاق تبلغ حدًا يجعل الأسماك تفضل أن تمزق إربًا على أن تفصل من دروع السلاحف. وهكذا رفعت إلى سطح الغواصة ومعها الصيد الثمين الملتصق بها.

وبهذه الطريقة ظفرنا بعدد كبير من السلاحف يبلغ عرض كل منها نحو ياردة ووزنها نحو أربعمائة رطل. وكانت دروعها المكسوة بصحائف قرنية كبيرة رقيقة شفافة بنية بنقط بيضاء وصفراء ترفع أثمانها في سوق البيع والشراء. ثم إنها من ناحية المذاق تشبه السلاحف «الترسة» العادية ذات النكهة اللذيذة.

ووضع لصيدنا في هذا اليوم حد لقربنا من شواطئ نهر الأمازون. وما إن حل المساء حتى كانت الغواصة قد ابتعدت إلى عرض المحيط.



الفصل الثاني والأربعون

الأخطبوطات

استمرت الغواصة بضعة أيام مبحرة بعيداً عن الشاطئ الأمريكي، وقد وضح أن الربان لا يريد أن يجوب مياه خليج المكسيك أو بحار جزر الأنتيل. نعم إن المياه في هذه المناطق جد موفورة، لأن معدل عمق هذه البحار هو ألف وثمانمائة ياردة ولكن ربما كانت كثرة الجزر الصغيرة فيها والسفن التي تمخر عبابها، من الأسباب التي جعلت الربان نيمو يجتنبها.

وفي اليوم السادس عشر من شهر أبريل شاهدنا جزائر المارتنيك وجواديلوب على مسافة ثلاثين ميلاً وقد رأيت لمحات من قممها المرتفعة.

وكان نيد لاند قد أعد مشروع الهرب لينفذه في خليج المكسيك إما بالوصول إلى الشاطئ أو الاستعانة بإحدى السفن المتقلة من جزيرة إلى أخرى. ولهذا اشتد حنقه لضياح هذه الفرصة. لقد كان الهرب عندئذ ممكناً لو استطاع نيد لاند الاستيلاء على زورق الغواصة دون علم الربان ولكن الاستيلاء على الزورق في عرض المحيط يصعب بلا فائدة.

ومرة أخرى تبادلت مع كونسایل ونید لاند حديثاً طويلاً في هذا الموضوع، فقد مضى على أسرنا في الغواصة ستة أشهر، وقطعنا ١٧ ألف فرسخ دون أن يتضح لنا كيف تكون نهاية هذا كله كما قال نيد لاند، ولذلك اقترح عليّ شيئاً لم أكن أتوقعه وهو أن أسأل الربان مرة أخرى وأخيرة هل ينوي استبقاءنا في غواصته حتى نهاية أعمارنا.

وكنت أشعر بنفور شديد من القيام بهذه المهمة لاعتقادي في عدم جدواها، فإن العبث أن نتوقع شيئاً كهذا، من الربان نيمو. إذ كان علينا أن نعتد على أنفسنا فقط. وفوق هذا فقد بدا الربان في الفترة الأخيرة أميل إلى الكآبة والعزلة وأبعد عن المخالطة، بل بدا لي أنه يحاول أن يتحاشاني ولذلك لم أكن ألتقي به إلا في فترات نادرة وقد كان من قبل يشعر بشيء من البهجة وهو يشرح لي عجائب الغواصة. أما الآن فكان يتركني لدراستي ولا يغشي الصالون إطلاقاً.

فأي تغيير طرأ عليه؟ إنني أشعر أنني غير مسؤول عن هذا التغيير. ربما كان وجودي في الغواصة عبئاً ثقيلاً عليه. ولكن مهما يكن من شيء، فلا أعتقد أنه الرجل الذي يرضى بإطلاق سراحنا.

ولهذا كله رجوت نيد لاند أن يترث ويفكر ملياً قبل أن يفعل شيئاً. فإنه إذا لم ينجح في محاولته فسوف يثير الشك ويضعف من حرج موقفنا، ويمكن أن أزيد على ما تقدم أنه لم يكن ثمة مدعاة للشكوى من الناحية الصحية. ف فيما عدا المحنة التي ألمت بنا أثناء احتباسنا تحت الشاطئ الجليدي فإن حالتنا الصحية تعد من جميع الوجوه على ما يرام. فالطعام صحي والجو نقي والمعيشة المنتظمة والحياة المعتدلة كل ذلك

وقانا عوادي الأمراض. وبوسعي أن أدرك عوامل الرضى والارتياح التي يشعر الربان الكاره للحياة على الأرض في الانتقال بغواصته إلى حيث يشاء بوسائل خفية على غيره ميسورة له، مما يتيح له المضي رأسًا إلى حيث يريد. أما نحن فلم نقطع علاقتنا بإخواننا في البشرية. ثم إنني لا أحب أن تدفن معي دراساتي الفريدة المبتكرة. وقد صار من حقي الآن تدبيج مؤلف صادق عن البحار، وبودي أن يظهر هذا المؤلف عاجلاً أو آجلاً.

ومرة أخرى.. يا لهذه العجائب البحرية التي كان عليّ أن أسجلها في مذكراتي ونحن في مياه جزر الأنتيل على عمق عشر ياردات!.. لقد كان من بين ما رأيت من أنواع الدوبيات النباتية تلك الحيتان المعروفة باسم «فيزالي بيلاجيكا» وهي نوع من أنواع المثانيات كبيرة بيضاوية الشكل بأطراف من عرق اللؤلؤ رافعة أغشيتها في اتجاه الريح تاركة مجساتها الزرقاء تطفو وراءها كخيوط الحرير. وقناديل البحر الجميلة مشهداً، المنفرة ملمساً، المفرزة سوائل مهيجة للجلد. كما رأيت بين المفصليات «ذوات المفاصل» أنواعاً من الحلقيات الدودية طولها خمسة أقدام. مسلحة بخرطوم قرمزي، ومزودة بألف وسبعمئة عضو حركي تدور تحت الماء وترسل عند مرورها كل ألوان الطيف الشمسي. أما في محيط الأسماك فقد رأيت أنواعاً من راي المالابار. وهي أسماك غضروفية ضخمة طول الواحدة عشرة أقدام ووزنها ستمائة رطل. ولكل منها زعنفة ظهر مثلثة الشكل ويرتفع وسط ظهرها قليلاً كالسنام وتقع عيناها في أقصى طرفي وجهها خلف الرأس. وكانت تسبح كأشعة

السفن وتحجب نوافذ الصالون البللورية كأنها مصاريع خشبية. ومما رأيت بعض الحيتان الأمريكية كستها الطبيعة باللونين الأبيض والأسود فقط. وسمك القويون الطويل المكتنز، بزعانفه الصفراء وأشداقه البارزة، وسمك المكريل الذي طول الواحدة منه خمسة أقدام مكسوة بقشور صغيرة ولها أسنان قصيرة مدببة وهي تنتمي إلى نوع سمك البياض. ثم رأيت سمك البوري يسبح جماعات وهو مكسو بخطوط ذهبية تمتد من الرأس إلى الذيل. وكان هذا السمك يدير زعانفه اللامعة، فتبدو وكأنها قطع من الجواهر النادرة. وكان للرومان شغف بهذا النوع من السمك الملون الذي ورد عنه في الأمثال: «إن الذي يظفر به لا يأكله» وأخيرًا السمك التفاحي الذهبي المزين بحلقات زمردية والمكسو بالمخمل والحريز الذي كان يمر أمام نواظرنا كموكب من أشراف فيرونا، وكذلك رأيت أسماكًا مهمازية تسبح بعيدًا بزعانفها الظهرية السريعة. والصابوغيات التي يبلغ طول الواحدة منها خمس عشرة بوصة يحيط بها لألاء فسفوري، والبوري الذي يضرب الماء بذيوله السمينة العريضة. وسمك القريجوس الذي يقطع الماء بزعانفه المنجلية الشكل. والهاليات الجديرة باسمها -التي كانت تطفو إلى أفق الماء الفضية كمجموعة أقمار.

وكان يمكن أن أرى غير هذا كله كثيرًا من العجائب والألوان، لو لم تهبط الغواصة إلى أعماق أبعد. فقد غاصت بها ألواحها المائلة إلى عمق ألفي ياردة ثم أربعة آلاف. وفي مثل هذا العمق كانت المملكة الحيوانية ممثلة في أنواع من الأسكرفيات، ونجميات البحر، والخماسيات، والبنكارينات الفاتنة برؤوسها التي تشبه رؤوس قناديل البحر، والتي

تحمل سويقاتها ما يشبه الأقداح الصغيرة ثم اللافقاريات الساحلية ذات الحجم الكبير. وفي اليوم العشرين من أبريل صعدنا إلى عمق معدله ألف وأربعمائة ياردة. وكانت أقرب نقطة لليابسة إلينا عندئذ هي أرخبيل باهاما الذي تتناثر جزائره على سطح الماء كأكوام من الصخور، وكنا نرى في الأعماق مرتفعات صخرية وجدراناً مستقيمة من الكتل المتآكلة، وبينها فجوات عميقة سوداء لم يكن ضوء الغواصة الكهربائي يصل إلى نهايتها. كانت هذه الصخور مكسوة بأعشاب كبيرة، وطحالب ضخمة ودروع هائلة ونباتات مائية جديدة بمملكة البحر حقاً.

وتطرق بثلاثتنا الحديث عن هذه النباتات الهائلة إلى ذكر حيوانات البحر الضخمة التي قُدر على بعضها أن يكون طعاماً لغيرها. ومهما يكن فإنني لم أر من نوافذ الغواصة التي كانت أقرب إلى الوقوف، من هذه النباتات الطويلة الأوراق سوى النباتات المفصليّة المتفرعة من أقسام السويقات الخاصة ببحار جزر الأنثيل.

وكانت الساعة نحو الحادية عشرة عندما لفت نيد لاند نظري إلى تجمعات ضخمة بين الأدغال العشبية، فقلت له:

- حسنًا.. هذه كهوف خفية للأخطبوطات.. ولن يدهشني أن أرى بعض هذه الوحوش.

فهتف كونسایل قائلاً:

- ماذا؟.. أهى حيوان الكالاماري البحري من مرتبة الرشحبيّيات «الأخطبوطات»؟

- لا. إنها أخطبوطات من الحجم الكبير.. ولكن لا شك أن الصديق
نيد لاند قد أخطأ النظر فإني لا أرى شيئاً.

قال كونسایل:

- يؤسفني هذا.. فقد كان بودي أن أرى الأخطبوطات التي سمعت
عنها الكثير، والتي يقال إن في مقدورها جذب السفن إلى قاع البحر.

فقال نيد لاند:

- لا شيء يجعلني أصدق بوجود مثل هذه الحيوانات.
- لماذا؟ لقد صدقنا جميعاً وجود الكركدن البحري الذي حدثنا عنه
سيدي.

- لقد كنا مخطئين يا كونسایل.

- بالتأكيد. ولكن هناك كثيرين ممن يعتقدون بوجودها.
- هذا محتمل يا كونسایل. أما أنا فلا يمكن أن أسلم بوجود هذه
الوحوش ما لم ألمس إحداها بيدي.

- إذن فإن سيدي لا يؤمن بوجود الأخطبوطات الهائلة.
فهتف نيد لاند قائلاً:

- ومن ذا يصدق بوجودها؟

- كثيرون يا صديقي نيد.

- ليس بينهم صيادون، ربما آمن العلماء بوجودها.

- معذرة يا نيد! يستوي في هذا العلماء والصيادون.

وعندئذ قال كونساييل بلهجة جادة:

- أما أنا فأذكر أنني رأيت سفينة كبيرة يجرها إلى أعماق البحر
رُسْحَبلي «أخطبوط» ضخمة بأذرع الثمانية.

فسأله نيد لاند قائلاً:

- رأيت هذا حقاً؟

- نعم يا نيد.

- رأيت رأي العين.

- نعم.

- وأين كان هذا بالله؟

فقال كونساييل بهدوء:

- في سانت مالو...

فهتف نيد لاند متهمكاً:

- في الميناء؟

- لا.. في الكنيسة.

فهتف نيد لاند قائلاً في دهشة:

- في الكنيسة؟

- نعم يا صديقي نيد لاند.. رأيت صورة تمثل الرُسْحَبلي

«الأخطبوط» الذي نتحدث عنه.

فضحك نيد لاند قائلاً:

- لا بأس أن كونسايل يحاول أن يسخر مني.

فقلت: إنه يقول الحقيقة. لقد سمعت عن هذه الصورة، ولكن الموضوع يمثل مشهداً من أسطورة، وأنت تعرف طبعاً قيمة الأساطير إذا اتصلت بالتاريخ الطبيعي. وفضلاً عن هذا فإن الخيال يشط عادة إذا تناول موضوع الوحوش. ألم يقولوا فقط إن في مقدور هذه الرسحليات «الأخطبوط» أن تجر سفينة إلى القاع؟ بل قيل إن شخصاً يدعي أوليوس مانوس تحدث عن رسحلي «أخطبوط» طوله ميل وكان يبدو أقرب إلى جزيرة منه إلى حيوان. ومما قيل في هذا الصدد أيضاً أن أسقف مدينة نيودروس أقام قداساً على صخرة كبيرة. فلما انتهى القداس عادت الصخرة إلى البحر، وقيل إنها لم تكن سوى رسحلي «أخطبوط» ضخمة. فقال نيد لاند:

- أهذا كل شيء؟

- لا.. إن أسقفاً آخر هو راعي كنيسة برجيم تحدث عن «أخطبوط» رسحلي استطاعت كتيبة من الفرسان أن تقوم بمناورتها فوقه.

- يبدو أن الأساقفة كانوا جد خياليين في تلك الأيام.

- وأخيراً يصف علماء التاريخ الطبيعي القدماء هذه الوحوش بأن لها أفواهاً كالخيلجان، وأنها أكبر حجماً من أن تمر في مضيق جبل طارق.

فقال الكندي:

- ما أبدع هذا الخيال!

فقال كونسايل:

- ولكن ما هي الحقيقة في كل هذه الحكايات؟

فقلت:

- لا أثر فيها للحقيقة يا صديقي نيد. لا شيء إلا إذا تجاوزنا حد الاحتمال ودخلنا في نطاق الأساطير والخرافات، فلا شك أن هناك عوامل أذكت خيال رواة الأساطير. فلا يمكن إنكار وجود هذه الوحوش الأسطورية في العصور السابقة، ولكن في أحجام أقل من أحجام الحيتان الضخمة. فقد ذكر أرسطو أن طول الأخطبوط نحو عشرة أقدام، وفي متاحف تريستا ومونبلييه هياكل لهذه الوحوش من هذا النوع الذي يبلغ طوله ستة أقدام له زعانف كالأذرع طولها سبعة وعشرون قدمًا؛ وهذا ما يجعل منه وحشًا رهيبًا.

فقال نيد لاند:

- وهل يمكن صيدها الآن؟

- إذا لم يمكن صيدها فإن البحارة يرونها. فكثيرًا ما أكد لي أحد أصدقائي وهو الربان بول بوز من الهافر، أنه رأى أحد هذه الوحوش الهائلة في بحر الهند. ولكن الحادث المدهش الذي يثبت بصفة قاطعة وجود هذه الوحوش، وقع منذ أعوام قلائل.. أي في عام ١٨٦١.

- ما هو هذا الحادث؟

- في عام ١٨٦١ وفي الشمال الشرقي من تيناريت. أي في نفس خط العرض الذي نحن فيه الآن شاهد بحارة سفينة البريد «الليكتون» أخطبوطًا هائلًا يسبح في مياه قرية واقترب الربان بوجير بالسفينة من

الوحش وهاجمه بالحرا ب وبالمدافع بلا جدوى، إذ كانت الحرا ب وقنابل المدفع تنزلق على جسمه الطري الهلامي القوام. وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع البحارة أن يلقوا أنشودة من الحبال حول جسمه اللا فقاري ولكن الأنشودة انزلقت إلى زعانفه الذنبية واستقرت عندها. وقد حاولوا رفع الوحش إلى سطح السفينة، ولكن ثقل وزنه جعل الحبل يفصل ذيله عن جسمه، وما لبث الوحش بعد أن حرم من الذيل أن اختفى في الماء.

وعندئذ قال نيد لاند:

- أهذه حقيقة راهنة؟

- نعم حقيقة لا جدال. وقد اقترح بعضهم تسمية هذا الوحش الهلامي باسم أخطبوط بوجير.
فقال نيد لاند:

- كم كان طول هذا الوحش؟

فقال كونسايل الذي كان ينظر من النافذة البللورية إلى كهوف الجدار الصخري:

- ألم يقدر طوله بثمانية عشر قدمًا؟

فقلت:

-تمامًا.

- ألم تكن عيناه بارزتين أو كبيرتين جدًّا؟

- أجل يا كونسايل..

- ألم يكن فمه كمنقار البيغاء تمامًا.. ولكنه منقار ضخم؟

- نعم يا كونسايل.

- حسنًا إذن.. إذا تفضل سيدي بالحضور إلى هذه النافذة فسوف

يرى... أعني إذا لم ير وحش بوجير فسيرى على الأقل أخًا له..

فنظرت إلى كونسايل بينما اندفع نيد لاند إلى النافذة فإذا هو يهتف

قائلًا:

- الوحش الرهيب..

فنظرتُ بدوري ولم أتمالك من الشعور بالتقزز. فقد رأيت أمام

عيني وحشًا جديرًا بأن يتصدر عالم الأساطير والخرافات.

كان أخطبوطًا هائل الحجم لا يقل طوله عن اثنين وثلاثين قدمًا،

وكان يسبح بحركات عكسية بسرعة مخيفة نحو الغواصة وكان يحدق

فينا بعينه الخضراوين الهائلتين. وكانت أذرع الثماني أو على الأصح

سيقانه الثمانية تبدأ من رأسه. ولهذا سمي رَسْحَبَلِي «رأس حبلي» وكان

طول كل منها ضعف طول جسمه، ملتفة كالشعر المنفوش. ولاحت لنا

بوضوح المسام المائتين والخمسين في الجوانب الداخلية من أذرع

وهي على هيئة كبسولات شبه كروية، وكانت هذه المسام تلتصق ببللور

النوافذ بطريقة الكؤوس المفرغة الهواء. أما فم الوحش وهو منقار قرني

على هيئة منقار البيغاء فكان يفتح ويقفل رأسيًا، وكان لسانه وهو مادة

قرنية مزودة بصنفوف عديدة من الأسنان الحادة يخرج منتفضًا من منقاريه

الحادين كالنصال. وكان في جملته إحدى خوارق الطبيعة الساخرة، إذ

كان له في جسم هلامي لا فقاري منقار عظمي. وكان جسمه المنتفخ والمنبجج من الوسط عبارة عن كتلة لحمية يتراوح وزنها بين أربعين ألف طن وخمسين ألفاً. أما لونه المتقلب الذي كان يتغير بسرعة بالغة تبعاً لاهتياج الوحش، فهو يتدرج بين الرمادي القاتم إلى البني المحمر...

ترى ما الذي أثار هذا الوحش الهلامي؟ لا شك أنها الغواصة التي هي أكبر منه وأقوى، والتي تعجز مسامه الماصة عن الالتصاق بها. ومع ذلك فما أشد وحشية هذه الأخطبوطات وما أعظم الحيوية التي أودعها الخالق فيها. وما أوفر القوة التي تبعثها قلوبها المثثة في حرركاتها.

لقد جاءت بنا المصادفة وحدها إلى هذا المكان لنشاهد هذا الوحش العجيب؛ وما كنت لأضيع فرصة كهذه لدراسة هذا النوع من الأخطبوطات بعناية. وهكذا تغلبت على الفزع الذي اعتراني لدى رؤيته وتناولت قلمًا وشرعت أرسم معالمه.

وقال كونسایل:

- لعله نفس الوحش الذي حاول بحارة السفينة «الليكتون» اصطاده.

فقال نيد لاند:

- لا إن لهذا الوحش ذيلًا. أما الآخر فقد فقد ذيله.

فقلت:

- ليس هذا هو التعليل. فإن ذبول هذه الوحش وأذرعها تنمو مرة أخرى بطريقة التجديد؛ وإن مُضِيَّ سبعة أعوام على حادث السفينة الليكتون يتيح لأخطبوط بوجير أن يجدد ذيله.

فقال نيد لاند:

- وفضلاً عن ذلك فإذا لم يكن هو فقد يكون واحداً من هذه...

والواقع أنني رأيت أخطبوطات أخرى أحصيت منها سبعة كانت تتبع الغواصة في شبه موكب، وكنت أسمع صوت احتكاك مناقيرها بالهيكل الحديدي. وهكذا توافر أمامنا عدد كبير منه ما نريد دراسته. وتابعت مهمتي وبقيت هذه الوحوش في مستوى الغواصة حتى بدت كأنها لا تتحرك. وكان في مقدوري أن أرسم معالمها على زجاج النوافذ، ثم إن الغواصة كانت تسير بسرعة معتدلة.

وما لبثت الغواصة أن توقفت بصورة مفاجئة جعلتها تهتز بعنف.

فقلت:

- ترى هل جنحت الغواصة؟

فأجاب نيد لاند قائلاً:

- مهما يكن فلا بد أن تستمر ثانية لأننا نطفو فوق الماء.

وكانت الغواصة طافية فعلاً ولكنها لم تكن تتحرك إلى الأمام، لأن ألواح الرفاض كفت عن ضرب الماء. ومرت دقيقة ثم أقبل الربان نيمو إلى الصالون يتبعه ضابطه الأول.

ولم أكن رأيت الربان منذ فترة طويلة وقد بدا لي هذه المرة شديد الوجوم وهو يقصد إلى النوافذ البللورية دون أن يتحدث إلينا أو يختصنا بنظرة واحدة، ثم شرع ينظر إلى الوحوش الهلامية. وبعد أن تحدث قليلاً إلى ضابطه الأول انصرف هذا من الصالون وسرعان ما أسدلت الألواح

على النوافذ وأضيئت أنوار الغرفة. فاقتربت من الرمان وقلت له بغير اكتراث وكأنني متفرج أمام زجاج معرض بحري:

- إنها مجموعة عجيبة من الأخطبوطات..

- نعم يا بروفيسور... وسنشتبك معها في معركة سافرة.. وجهًا لوجه.

فنظرت إليه كمن أخطأ السمع ثم كررت كلماته الأخيرة قائلاً:

- وجهًا لوجه؟

- نعم يا سيدي.. لقد توقف الرصاص. وأعتقد أن منقار أخطبوط منها قد اشتبك بأحد ألواحها وهذا ما يعوقنا عن التقدم.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- سنخرج إلى الماء ونذبح هذه الوحوش كلها.

- إنها مهمة عسيرة.

- نعم هي كما تقول، فإن الرصاص الكهربائي لا يجدي مع هذا النوع من الأجسام لأنها لن تجد فيها المقاومة التي تجعلها تنفجر ولكننا سنهاجمها بالمعاول.

فقال نيد لاند..

- وبالحراب. إذا لم ترفضوا مساعدتي لكم.

فقال الرمان:

- إنني أقبّلها يا مستر نيد لاند.

فقلت وأنا أتبع الربان إلى السلم المركزي مع صاحبي:

- سنصحبكم نحن الثلاثة.

وألفينا عشرة رجال مسلحين بالفؤوس الحادة واقفين على أهبة الاستعداد. وتناولت فأساً حادة وكذلك فعل كونساييل، فأما نيد لاند فأمسك بحربة صيد الحيتان....

وكانت الغواصة عندئذ فوق سطح الماء. وكان أحد البحارة على درجات السلم السفلي يفك مغاليق المنفذ الخارجي. ولكنه ما كاد يفرغ حتى انفتح الغطاء بعنف أيقنا منه أن ماصات أخطبوط قد جذبته بقوة.

وسرعان ما انسابت إلينا أحد هذه الأذرع الأفعوانية، بينما كانت عشرون ذراعاً أخرى تستعد لاقتحام المنفذ إلينا؛ ولكن الربان نيمو استطاع بضربة قوية من فأسه الحادة قطع الذراع الرهيبة فانزلقت على السلم وهي تنتفض بشدة.

وفي تلك اللحظة جعلنا نتزاحم للصعود إلى سطح الغواصة، وفجأة امتدت ذراعان إلى بحار واقف أمام الربان نيمو وجذبتاه بقوة غلابة؛ وعندئذ أرسل الربان صيحة عالية، واندفع في أثر البَحَّار ونحن نتبعه.

ويا له من مشهد!

كان البحار المسكين بين براثن الذراعين ملتصقاً بالمسام الماصة معلقاً في الهواء تبعاً لنزوات الوحش الهائل. وكان صوته مختنقاً وهو يصيح مستنجداً بلغة فرنسية جعلتني أجمد في مكاني برهة من فرط الدهشة. إذن فإن هذا البحار فرنسي مثلي.. ومن يدري، فلعل بين البحارة

غيره من أهل الوطن. الحق أنني لم أنس ما عشت رنين هذه الصبيحة الممزقة للقلوب.

كان ذلك الرجل البائس مقضيًا عليه لا محالة. فمن ذا الذي يستطيع إنقاذه من برائن ذلك الوحش؟ ولكن الربان نيمو ألقى بنفسه على الأخطبوط وفصل بفأسه ذراعًا أخرى. وكان الضابط الأول يصارع في غضب وحشًا آخر كان يحاول التسلق إلى الغواصة واشتبك البحارة في المعركة بفتوسهم.

وكنت وكونسايل ونيد لاند نغوص بفؤوسنا طعنًا في لحم الوحوش. وغمرت الجوارحة نفاذة عنيفة كان لها تأثير شنيع.

وأيقنت برهة أن البحار المسكين الواقع بين برائن الوحش ستجذبه الماصات القوية وتذهب به. لقد قطعت سبعة من أذرعه ولم يبق غير الثامن ممسكًا بالرجل كالريشة المتأرجحة في الهواء، ولكن ما إن اندفع الربان نيمو والضابط الأول نحو الوحش حتى أطلق عمودًا من سائل أسود كان مخترنًا في كيس داخل معدته، ففقدنا الرؤية في الحال حتى إذا تلاشت هذه الغشاوة كان الوحش قد اختفى مع مواطني المسكين.

واندفعنا في غضب شديد إلى قتال هذه الوحوش التي غزا عشرة أو اثنا عشر منها سطح الغواصة وجوانبها، وكنا نتدحرج بلا انتظام بين هذه الخراطيم الأفعونانية التي كانت تتلوى على السطح في بحيرات من الدماء والمداد الأسود. وبدا لنا كأن هذه الأذرع تنبثق متجددة كرؤوس الغدار «ثعبان خرافي له تسع رؤوس» وكانت حربة نيد لاند تصيب في كل ضربة عين أحد الوحوش ولكن صاحبي الباسل ما لبث أن سقط

فجأة بضربة ذراع لم يستطع تفاديها.

آه... شد ما خفق قلبي انفعالاً ورعباً. فقد انفتح منقار الوحش
الرهيب فوق رأس نيد لاند وأوشك المسكين أن يشطر إلى نصفين
فأسرعت إلى نجده. ولكن الربان نيمو كان أسرع مني. وإذا فأسه تغوص
في فم الوحش بضربة أنقذت نيد لاند بأعجوبة. وسرعان ما نهض ودفع
حربته إلى قلب الوحش بضربة قاضية.

وقال الربان نيمو لنيد لاند:

- لقد سددت ديني لك.

فأخني نيد لاند رأسه دون أن يجيب.

واستمرت المعركة ربع ساعة انسحبت الوحوش بعدها من سطح
الغواصة جريحة ممزقة واختفت في أعماق الماء.

ووقف الربان نيمو بغير حراك قرب مقصورة الكشف وهو مغطى
بالدماء وراح ينظر إلى البحر الذي ابتلع واحداً من رفاقه والدموع تنحدر
من عينيه.

* * *

الفصل الثالث والأربعون

تيار الخليج

لن ينسى أحد منا ذلك المشهد الرهيب الذي كان يوم ٢٠ أبريل. لقد كتبت وصف ذلك المشهد متأثراً بأشد الانفعال. ولما راجعته بعد ذلك وقرأته على نيد لاند وكونسايل وجدناه مطابقاً للواقع، ولكن تعوزه قوة التأثير. والواقع أن تصوير مشهد كهذا لا ينهض به سوى قلم أعظم شعرائنا... فيكتور هوجو...

قلت إن الربان نيمو بكى وهو ينظر إلى البحر. فقد كان حزنه بالغاً. ذلك لأن البحار كان ثاني رفيق فقدته منذ ركوبنا الغواصة. ويا لها من مية.. إن هذا الرفيق الذي تحطم واختنق تحت ذراع الوحش الرهيب بل طحن طحنًا في قبضته الفولاذية، لم تتح له فرصة الرقاد في سلام مع زملائه الثاوين في المدافن المرجانية تحت سطح الماء.

لقد مزقت قلبي صيحة اليأس التي أطلقها ذلك البائس أثناء المعركة. إن هذا الفرنسي المسكين قد نسي لغته الموقوتة، واستغاث في لحظته الأخيرة بلغة بلاده، ومعنى هذا أنه كان لي مواطن فرنسي بين بحارة الغواصة.. مواطن منضم بجسمه وروحه إلى الربان نيمو، مجتنب مثله

كل علاقة بالبشر. ترى أكان هذا هو الفرنسي الوحيد في هذه المنظمة الخفية المكونة كما يبدو من أعضاء مختلفي الجنسيات. ذلك لغز جديد من ألغاز هذه الغواصة التي لا تبرح تتوارد في ذهني، وعاد الربان نيمو إلى غرفته ولم أره بعد ذلك فترة طويلة. ولكن لشد ما كان حزينًا مترددًا، فقد أدركت ذلك من أسلوب مسير الغواصة التي هو روحها والتي تتأثر بكل ما يطرأ عليه. ومن ثم لاحظت أن نيمو يقودها على غير هدى حين وجدتها تروح وتجيء طافية فوق سطح الماء كأنها شيء لا حياة فيه. لقد تحرر رفاصها مرة أخرى. ولكنه لم يستخدم إلا قليلًا. وذهبت الغواصة تضرب حيثما اتفق. ولكنها لم تستطع أن تنتزع نفسها من مسرح المعركة الأخيرة.. من البحر الذي التهم واحدًا من أبنائها...

ومرت عشرة أيام على هذه الحال. ولم تتخذ الغواصة طريقًا مرسومًا نحو الشمال إلا في أول شهر مايو بعد أن لمحننا جزائر باهاما عند مدخل قناة باهاما. وكنا عندئذ نسير مع تيار أكبر الأنهار البحرية الذي له شاطئاه الخاصان وأسمাকে وحرارته. وهو الذي أسميته «تيار الخليج».

إنه في الواقع نهر ينساب طليقًا وسط المحيط الأطلنطي دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط - إنه بحر مالح، أشد ملوحة من المياه المحيطة به، ويبلغ معدل عمقه ثلاثة آلاف قدم ومعدل اتساعه ستين ميلًا. وينساب تياره في بعض أجزائه بسرعة تتجاوز الثلاثة أميال في الساعة؛ أما كثافة مياهه النوعية فهي أشد تركيزًا من مياه جميع أنهار العالم.

وينبع تيار الخليج - الذي اكتشفه الربان موري - في خليج بسكاي فهناك تبدأ مياهه - الخفيفة في الحرارة واللون - في التكوين وهو ينحدر

نحو الجنوب ويمر بشاطئ أفريقيا الاستوائية حيث تُدْفئ مياهه أشعة الشمس الحامية، ثم يعبر المحيط الأطلسي، ويصل إلى رأس سان روك على الشاطئ البرازيلي ثم يتشعب إلى فرعين أحدهما يغمر بحار جزر الأنтил بجزائياته الدافئة، ثم يبدأ عندئذ تيار الخليج الذي تنحصر رسالته في موازنته لمختلف درجات الحرارة أي خلط المياه الاستوائية بالمياه الشمالية، وعندما ترتفع درجة حرارة مياهه إلى الذروة في خليج المكسيك، فإنه يصعد إلى الشمال بمحاذاة الشواطئ الأمريكية حتى جزر نيوفوند لاند. وهناك يندفع تحت التيار البارد الآتي من مضائق دافيز، ثم يتخذ طريق المحيط متتبعاً إحدى الانحناءات للكرة الأرضية ثم ينقسم عند الخط ٤٣ درجة تقريباً إلى ذراعين يعود أحدهما إلى خليج فرساي وجزر أزور بمساعدة الرياح الآتية من الشمال الشرقي ويتجه الثاني بعد تدفئة شواطئ إيرلندا والنرويج إلى ما وراء ميناء بنزرجن حيث يكون بعد هبوط حرارته أربع درجات البحر المفتوح في القطب الشمالي.

كانت الغواصة تبهر في تيار هذا النهر إذن. وبعد أن خرجت من قناة جزر باهاما حيث كان اتساع تيار الخليج عندئذ ثمانية وأربعين ميلاً وعمقه ١٠٠ ياردة وسرعته ٥ أميال في الساعة، وكانت هذه السرعة تقل بانتظام كلما تقدمنا نحو الشمال. وفي الواقع كان المطلوب أن يبقى هذا الانتظام دائماً لأنه إذا تغيرت سرعة التيار واتجاهه، فإن الأجواء الأوروبية تتعرض لاضطرابات خطيرة لا تقدر عواقبها.

وحوالي الظهر كنت مع كونسایل على سطح الغواصة أحدثه عن الخصائص المختلفة لتيار الخليج فلما فرغت من الشرح طلبت منه أن

يغرق يديه في التيار.

ولما أطاقني دهش إذ لم يشعر بأي إحساس للبرودة أو الدفء.

فقلت له:

- يرجع هذا إلى أن حرارة تيار الخليج عند خروجه من خليج المكسيك تساوي حرارة الدماء، إن تيار الخليج هذا ما هو إلا موقد تدفئة ضخمة يمنح الخضرة الدائمة للشواطئ الأوروبية. وإذا صحت أقوال موري، فإن الحرارة الكامنة في هذا الخليج يمكنها بالتركيز أن تطلق سعرًا حراريًا يكفي لإبقاء نهر من الحديد المنصهر سائلًا، ولو كان هذا النهر في حجم نهر الأمازون أو نهر ميسوري.

وكانت سرعة التيار عندئذ خمسة أقدام في الثانية. وكان مجراه واضحًا مميزًا عما حوله من مياه البحر، لأن مياهه المضغوطة المركزة كانت مرتفعة قليلًا عن مياه المحيط. ولما كانت مياهه موفورة الملح، فقد كان لونها أزرق قاتمًا، بينما كانت مياه المحيط حوله خضراء. وكان الخط الفاصل بينهما واضحًا إلى حد أن الغواصة كانت وهي تحاذي جزر كارولينا، تقطع بمقدمتها مياه تيار الخليج، بينما يضرب رفاصها مياه المحيط.

ويحمل هذا التيار عالمًا من الأحياء المائية، وكانت أسماك الأرجونوت المعروفة في البحر الأبيض المتوسط تسبح معه في مجموعات كبيرة. وكان من أهم أنواع الأسماك الغضروفية، سمك الراي الذي يكون ذيله المعقوف ثلث جسمه، والذي يبلغ طوله -كأسماك اللوزنج الكبيرة- نحو خمسة وعشرين قدمًا. ثم سمك الكلب وطول

الواحدة ثلاثة أقدام برأس كبير وحيزوم قصير مستدير وأسنان مدببة في صفوف عديدة وجسم يبدو مكسواً بالقشور والحراشيف.

أما عن الأسماك العظمية فقد لاحظت وجود أنواع من سمك الراص الرمادي الخاص بهذه المياه وسمك الحفار الذي تتألق عيونه كالنار والينشور وسمك البركيت «الملون كالبغاوات» والذي يُرسل في مياه المحيط ألواناً من قوس قزح تفوق في بهائها ألوان الطيور الاستوائية. والمزجناحيات برؤوسها الفضية وذيلها الصفراء وأنواع مختلفة من السالمون، والبوري البياج المرن الناعم اللامع الذي كان الملك الاسبيد يكرّسه لطعام زوجته الجميلة. وأخيراً السمك المعروف باسم «الفارس الأمريكي» المزين بعدد لا يحصى من الشرائط والأوسمة. وهو يكثر على شواطئ البلاد الأمريكية التي لا يكاد شعبها يهتم بالأوسمة والنياشين.

ويسوغ لي القول إن مياه تيار الخليج تشع في الليل ضوءاً فسفورياً يفوق الضوء الكهربائي المنبعث من كشاف الغواصة، ولا سيما في الأجواء العاصفة التي كانت تتهددنا بين حين وآخر.

وفي الثامن من شهر مايو كنا تجاه رأس هاتيراس في نهاية ولاية كارولينا الشمالية. وهنا كان اتساع تيار الخليج خمسة وسبعين ميلاً وعمقه مائتين وعشر ياردات. وظلت الغواصة تسير حيثما اتفق. وبدا لي أنه لم يعد ثمة أي إشراف عليها. وأعترف أنه يمكن الهرب بنجاح في مثل هذه الظروف. ذلك أن الشواطئ المأهولة تتيح في الواقع أكثر من ملجأ ميسور في جميع الجهات. وكانت البواخر العديدة تشق عباب البحر دواماً في تنقلها بين نيويورك وبوسطن وخليج المكسيك، وكانت

السفن الصغيرة لا تنقطع ليلاً ونهاراً عن الإبحار على الشواطئ الأمريكية لأغراض التجارة. وكان يمكن أن تلتقنا إحدى هذه السفن. ولهذا كله كانت الفرصة سانحة للهرب، رغم الأميال الثلاثين التي تفصل بين الغواصة والساحل الأمريكي.

ولكن شيئاً واحداً معاكساً خيب آمال نيد لاند وذلك هو الجو المكفهر. فقد كنا نقترّب من منطقة تكثّر فيها الزوابع، وهي منطقة العواصف والأعاصير المتولدة عن تيار الخليج. وكان الخروج إلى بحر كهذا في زورق صغير معناه الرغبة في الموت. وقد اعترف نيد لاند بهذا. وما برح يشقي نفسه بحنين إلى موطنه لا شفاء له منه إلا بالهرب. وفي ذلك اليوم قال لي:

- سيدي.. ينبغي أن تكون لهذه الحالة نهاية. فأنا أريد أن أعرف ما هو موقفنا الآن. إن صاحبك نيمو يتعد عن اليابسة نحو الشمال ولكني أعلن لك أنني نلت كفايتي من القطب الجنوبي ولن أتبعه إلى القطب الشمالي.

- ولكن ماذا نستطيع أن نفعل يا نيد والهرب غير ممكن الآن؟
- إنني أعود إلى اقتراحي الأول وهو وجوب التحدث مع الربان. إنك لم تحدثه عندما كان في بحار وطنك. ولكني سأتحدث إليه الآن وهو في بحار وطني. فإني كلما فكرت في أن الغواصة ستكون بعد أيام قليلة تجاه نونافا سكوتيا، وأن هناك بالقرب من نيوفوند لاند خليجاً واسعاً تصب فيه شلالات نهر لورنس، وأن نهر لورنس هو نهر بلادي.. نهر مدينة كوبيك عاصمة كندا بلادي.. وطني - عندما أفكر في هذا كله يشتد

غضبي ويقف شعر رأسي وأقول لك يا سيدي إنني أفضل إلقاء نفسي في هذا البحر على البقاء هنا... فأني سأختنق.

وبدا لي بوضوح أن نيد لاند قد نفذ صبره وأن طبيعته العنيفة لم تألف هذا الأمر الطويل، وكان وجهه ينم عن الغضب المتزايد يومًا بعد يوم ومزاجه يزداد سوءًا. وشعرت بما يعانيه يقينًا لأن روح الحنين إلى الوطن سرت إلى نفسي أيضًا. فقد مضى نحو سبعة أشهر لم تصلنا فيها أنباء ما عن اليابسة، وفوق هذا كانت عزلة الربان وتقلب أهوائه لا سيما بعد معركة الأخطبوط وانطواؤه، مما جعلني أرى الأمور بنظرة مختلفة. إن على الإنسان أن يكون هولنديًا - مثل كونسايل - لكي يتقبل هذه الحياة القائمة على الحيتان وغيرها من الأحياء البحرية. والواقع لو كان لكونسايل خياشيم بدل الرئة، لكان سمكة عظيمة.

وقال نيد لاند حين وجدني لا أجيب:

- حسنًا يا سيدي.

- حسنًا يا نيد. تريد مني أن أعرف نوايا الربان نيمو بشأننا؟

- نعم يا سيدي.

- وذلك رغم أنه صارحنًا بهذه النوايا من قبل؟

- نعم فأني أريد أن أتأكد من نواياه للمرة الأخيرة. ويمكنك أن تتكلم عني فقط إذا شئت.

- ولكنني لا أراه إلا نادرًا. إنه يتحاشاني.

- وهذا سبب يزيد من ضرورة السعي لمقابلته.

- سأكلّمه يا نيد.

فقال الكندي ملحًا:

- متى؟!

- عندما ألتقي به.

- يا مسيو أروناكس. أتريدني أن أذهب إليه بنفسي؟

- لا. دع هذا الأمر لي. غدًا.

- بل اليوم.

- حسنًا جدًّا.. سأقابله اليوم.

قلت هذا لنيد لاند لئلا يتصرف من تلقاء نفسه فيسيء إلينا جميعًا.

وبقيت وحدي. لقد استقر عزمي على إتمام هذه المهمة فورًا ما دمت قد اتخذت قرارًا بشأنها، فأنا أحب العمل الحاسم بدلًا من الإرجاء والتسويق.

ودخلت غرفتي، وهناك شعرت بشخص في غرفة الربان نيمو يسير جيئةً وذهابًا، فلم أشأ أن تفلت هذه الفرصة من يدي وطرقت الباب ولكنني لم أسمع جوابًا، فكررت الطرق ثم أدت المقبض وفتحت الباب.

ودخلت ورأيت الربان في الغرفة عاكفًا على العمل فوق منضدته. ولذلك لم يسمع شيئًا فقررت ألا أخرج قبل أن أعرف رأيه فاقتربت منه فرفع رأسه فجأة وقطب جبينه وقال بخشونة:

- أنت هنا؟ ماذا تريد؟

- أريد التحدث معك يا كابتن.

- ولكنني مشغول يا سيدي. إنني أقوم بعملتي. إن الحرية التي تتمتع بها هنا للانفراد بنفسك ألا يحق لي أن أتمتع بمثلها أيضًا؟

ورغم أن هذا الاستقبال لم يكن مشجعًا فقد قررت أن أسمع كل شيء لأعرف كل شيء. فقلت بهدوء:

- يجب أن أتحدث إليك يا كابتن في مسألة لا يمكن تأجيلها.

فقال متهمًا:

- وما هي هذه المسألة يا سيدي؟ هل اكتشفت شيئًا فاتني اكتشافه، هل باح لك البحر بسر جديد؟

ولكن هذا الحديث كان بعيدًا عن موضوعنا، وقبل أن أرد عليه أشار إلى مخطوط أمامه وراح يقول برصانة:

- هذا مخطوط مكتوب بعدة لغات يا مسيو أروناكس. إنه يتضمن دراستي عن عجائب البحار إن شاء الله. إن هذا المخطوط الموقع باسمي والمذيل بتاريخ حياتي سيوضع في خزانة محكمة لا تغرق. وآخر من يبقى على قيد الحياة في هذه الغواصة سيكون عليه أن يلقي بالخزانة العائمة إلى البحر حيث تحملها الأمواج إلى أي مكان.

اسم هذا الرجل. تاريخ حياته مكتوب بقلمه؟ إذن فإن الأسرار التي تكتنفه ستذاع يومًا، مهما يكن قد وجدت الآن ثغرة أنفذ منها إلى موضوعي فقلت له:

- إنني يا كابتن متفق معك في الفكرة التي حفزتك إلى هذا العمل،

إن ثمار دراساتك لا ينبغي أن تضيع. ولكن الوسائل التي تستخدمها تبدو لي بدائية جدًا. فمن يدري إلى أين تلقي الرياح بالخزانة وفي أيدي من تقع. ألا تستطيع أن تجد وسيلة أفضل؟ ألا يمكن أن تقوم أنت أو أحد رجالك؟..

فقاطعني قائلًا:

- هذا مستحيل.

- إذن فأنا وصاحباي يمكننا الاحتفاظ بمخطوطك إذا منحتنا الحرية.

فنهض الربان قائلًا:

- الحرية يا سيدي؟

- نعم يا كابتن. وهذا ما جئت أحدثك عنه، فقد مضى علينا الآن سبعة أشهر في غواصتك. وإني أسألك الآن عن نفسي وصاحباي هل تنوي أن تبقى هنا دائمًا؟

- يا مسيو أرونالكس! إن جوابي هو نفس الجواب الذي قلته لك منذ سبعة أشهر. إن من يدخل غواصتي لا يخرج منها أبدًا.

- ولكن هذا نوع من الاستعباد!

- سمّه ما شئت.

- ولكن العبد له في كل مكان الحق في استرداد حريته. إنه يعتبر كل فرصة تنهياً له للتحرر مشروعة في نظره.

- وهل أنكر أحد عليكم مثل هذا الحق؟ هل قيدتم بقسم غليظ؟

وتطلع الربان إليّ وهو يعقد ذراعيه على صدره.

فقلت له:

- سيدي. لم يكن ثمة موجب للعودة إلى الحديث في هذا الموضوع ولكن ما دمنا قد بدأنا الحديث فلنستمر. إن الدراسة المثلى شيء مفيد وهواية متأصلة واندماج يجعلني أنسى كل ما عداه. بوسعي مثلك أن أعيش مجهولاً مغموراً مؤملاً تقديم نتائج أعمالي إلى الناس في المستقبل بواسطة خزانة تبقى تحت رحمة الرياح والأمواج. وبالإجمال أستطيع الإعجاب بك والمضي معك مسروراً في الاضطلاع بعمل أفهمه إلى حد معين. ولكن في حياتك جوانب يكتنفها الغموض والأسرار. وهي محجوبة عني وعن صاحبي فقط. وحتى لو نبضت قلوبنا من أجلك وخفقت بالآلامك، وامتلاّت إعجاباً بأعمالك وبسالتك فإننا مضطرون إلى كتم كل إحساس بالمشاركة الوجدانية التي تثيرها المشاركة في كل ما هو طيب أو جميل سواء كانت صادرة عن عدو أو صديق. إن شعورنا بالغربة عن كل شيء يتعلق بك هو الذي يجعل موقفنا لا يحتمل. حتى بالنسبة لي. وإن كان بالنسبة لنيد لاند جحيم لا يطاق. إن كل إنسان بوصفه إنساناً - أهل للرعاية والتقدير. فهلا سألت نفسك عن المعني الذي يثيره حب الحرية وكرهية الاستعباد عند رجال مثل نيد لاند وعمما قد يفكر فيه أو يندفع إليه.

وأخلدت إلى الصمت ونهض الربان نيمو قائلاً:

- لا يهمني قط ما يفكر فيه نيد لاند أو يحاوله. أنا لم أسره، ولا أبقيه في غواصتي إرضاء لنفسي. أما أنت يا مسيو أروناكس فإنك من القلائل

الذين يمكنهم إدراك كل شيء، حتى الصمت. وليس لديّ ما أقوله لك أكثر مما قلت. إن المرة الأولى التي حدثتني فيها عن هذا الموضوع يجب أن تكون الأخيرة. لأنني لا أستطيع أن أنصت إليك مرة أخرى.

وهكذا انسحبت من الغرفة مدرّكاً أن موقفنا منذ هذا اليوم أصبح واضحاً. ولما ذكرت لصاحبي هذا الحديث قال نيد لاند:

- نحن نعرف الآن أنه لا يمكن أن نتوقع شيئاً من هذا الرجل. وإن الغواصة تقترب من جزيرة «لونج إيلاند» ومهما تكن حالة الجو فسوف نحاول الهرب.

ولكن السحب ازدادت تكاثفاً في السماء وبدت لنا بوضوح بوادٍ عاصفة عاتية في الطريق. فقد استحال الجو إلى هذا اللون الأبيض المشع بالضباب، وتعاقت في الأفق شرائط السحاب الخفيف تتلوها كتائب من السحب الملبدة، وكان ثمة سحب أخرى خفيفة تطير فوقنا بسرعة، وارتفعت أمواج البحر ضخمة عالية، واختفت الطيور إلا أطيّار النورس صديقة العاصفة، وهبط جهاز الضغط الجوي بسرعة مسجلاً وجود ضغط بخاري شديد في الجو، وتحلل المزيج في «زجاجة العاصفة» بسبب الشحنات الكهربائية في الجو. وعلى الجملة كانت إحدى ثورات الطبيعة في الطريق إلينا.

وهبت العاصفة في اليوم الثامن عشر حين كانت الغواصة تطفو تجاه جزيرة «لونج إيلاند» على مسافة أميال قليلة من ميناء نيويورك. وبوسعي أن أصف ثورة هذه العناصر الطبيعية، لأن الرّبان نيمو رأى بسبب ما أن يواجهها على سطح الماء.

كانت الرياح تهب من الجنوب الغربي بسرعة خمسة وأربعين قدمًا في الثانية. وقبل الساعة الثالثة بعد الظهر بلغت خمسة وسبعين قدمًا في الثانية وهذه هي سرعة العاصفة..

واتخذ الربان نيمو الذي لم يحفل كثيرًا بالعاصفة مكانه على سطح الغواصة بعد أن شد نفسه بحبل لمقاومة الأمواج الرهيبة التي كانت تكتسح السطح فاقتديت به وشدت نفسي بحبل وأنا أوزع إعجابي بين العاصفة وبين هذا الرجل الفريد الذي وقف يتحداها.

وكانت السحب المهلهلة تكتسح البحر، وتنغمس في ذؤابات الموج حتى لم أعد أرى الأمواج المتوسطة بل كنت أرى منبسطاً مائياً ضخماً مائجاً لا يبدو على سطحه شيء من الزبد لفرط تكاثفه. واشتد ارتفاع الموج حتى كانت الغواصة ترقد على جانبها حيناً. وحيناً آخر تبدو رأسية كالصارى. وهي في كل حين تتمايل وتتأرجح بصورة مروعة.

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر انهمرت الأمطار سيولاً، ولكنها لم تخفف من ثورة الرياح أو هياج البحر. وظلت العاصفة مندفة بسرعة أربعين ميلاً في الساعة وهي في مثل هذه الظروف تحطم البيوت وتطير الأسقف والأبواب وتقتلع البوابات الحديدية وتدحرج مدفعاً عيار قذيفته ٢٤ رطلاً ومع هذا كانت الغواصة بين هذا الإعصار تؤكد قول مهندس خبير إنه لا توجد سفينة محكمة البناء تعجز عن تحدي البحر. إنها لم تكن مجرد صخرة راسية تستطيع الأمواج اقتلاعها بل كانت بمثابة مغزل حديدي طيع متحرك. بلا أشعة أو صوار تدمرها العاصفة.

وفي خلال ذلك كنت أتأمل هذه الأمواج الشائنة الفائرة، كان ارتفاع

الموجة لا يقل عن ٤٥ قدمًا وطولها عن ٢٥٠ قدمًا وسرعتها مثل سرعة الرياح أي ٤٠ قدمًا في الثانية. وقد فهمت عندئذ الدور الذي تلعبه الأمواج، فهي تأسر الهواء وتلقي به إلى أعماق البحار محملة بالحياة المتمثلة في الأكسجين. وقد ثبت أن شدة ضغط الأمواج تصل أحيانًا إلى ستة آلاف رطل على كل قدم مربع من سطح الماء الذي تصطدم به. وبلغ من قوة الأمواج العالية أنها ابتلعت في جزائر هبريد صخرة زنتها ٨٤ ألف رطل، وفي عاصفة ٢٣ ديسمبر عام ١٨٦٤ قلبت الأمواج جزءًا من مدينة ييدو اليابانية. وكانت تنطلق بسرعة سبعمئة كيلو متر في الساعة وتكر في اليوم نفسه على الشواطئ الأمريكية.

وازداد عنف العاصفة أثناء الليل وهبط البارومتر كثيرًا كما حدث في إعصار لاريونون عام ١٨٦٠ وشاهدت في مستهل الليل سفينة تمر في الأفق وهي تقاوم في استماتة. ولم أشك في أنها إحدى بواخر الخط الملاحي بين نيويورك وليفربول أو الهافر. وسرعان ما اختفت في الظلام. وفي العاشرة مساء كان البحر شعلة نار. إذ كان البرق المتواصل يغمر الجو بأضوائه الساطعة حتى لم أستطع احتمالها. هذا بينما بدا الربان نيمو الذي جعل يحدجه بنظراته كأنه روح العاصفة.

وملأ الجو دوي رهيب منبعث من الأمواج والرياح والرعد. كانت الرياح تندفع إلى كل مكان والإعصار يبدأ من الشرق ليدور ويعود إليه، مجتازًا الشمال والغرب والجنوب مضادًا لاتجاهات عواصف الأجواء الجنوبية.

يا لتيار الخليج هذا! إنه يثبت جدارته باسم «ملك العواصف» فإن

هذه الأعاصير الهائلة من صنعه: سببها اختلاف الحرارة في طبقات الهواء فوق تياراته.

وبعد سيول المطر، انهمرت سيول النار، فقد استحالت قطرات الماء إلى وهج خاطف. وقد يخيل للناظر أن الربان يلتمس لنفسه موتة جديرة به وهو يحاول أن يصعقه البرق. ورأيت الغواصة ترفع مقدمتها في الهواء بحركة عنيفة مفاجئة كأنها موصل كهربائي وترسل شرراً. وعندما برح بي التعب زحفت على يدي وقدمي إلى فتحة الغواصة فرفعت عنها الغطاء وهبطت إلى الصالون. وكانت العاصفة عندئذ قد بلغت ذروتها فاستحال على الإنسان أن يقف متوازناً داخل الغواصة.

وحوالي منتصف الليل أقبل الربان نيمو وسمعت صوت الخزانات تملأ بالماء. فأخذت الغواصة تهبط إلى الأعماق ببطء.

ومن خلال نوافذ الصالون رأيت الأسماك الكبيرة المذعورة تنساب كالأشباح بين المياه النارية وشهدت بعضها يصعقها البرق...

وتابعت الغواصة هبوطها إلى الأعماق، وقد خطر لي أننا سنجد منطقة هادئة على عمق ستة عشر ياردة، ولكن لا... لقد كان سطح الماء شديد الاهتياج والعنف، وهكذا اضطررنا أن نهبط إلى عمق خمسين ياردة لالتماس منطقة هادئة.

حقاً ما أروع الهدوء والسكون في تلك الأعماق وما أجملها مثابة يسودها السلام... فمن ذا يصدق أن هناك على سطح هذا المحيط ذاته عاصفة رهيبة تهب.

الفصل الرابع والأربعون

فيما بين خط العرض ٢٤ - ٢٧ وخط الطول ١٨ - ١٧

طوّحت بنا العاصفة شرقاً مرة أخرى، وهكذا تلاشى كل أمل للهرب على شواطئ نيويورك أو خليج لورنس. ومن ثم اعتكف نيد لاندن المسكين في مقصورته كالربان نيمو وبقيت مع كونسايلا لا يفترق أحدنا عن الآخر.

والتزاماً للدقة أقول إن الغواصة كانت تتجه صوب الشمال الشرقي. وقد ظلت بضعة أيام تبهر كيفما اتفق. أحياناً فوق السطح وأحياناً في الأعماق، ودائماً في خضم طبقات الضباب الكثيف الذي يفزع منه البحارة. فما أكثر الحوادث التي سببها الضباب. وما أكثر اصطدام السفن بالحواجز المرجانية أو الصخرية عندما يحجب زئير العاصفة صوت تكسر الأمواج على الصخور. وما أكثر اصطدام السفن بعضها ببعض رغم إشارات الضباب وأجراس الإنذار.

كانت قيعان هذه البحار تبدو كميدان معركة تتهاذى فيه ضحايا المحيط. بعضها قد أصبح قديماً مغلفاً بالصدأ وبعضها ما زال مصفراً يعكس أضواء مصباح الغواصة على الألواح والجوانب الحديدية

والنحاسية. وكان بينها سفن غرقت بكل من عليها من بحارة وركاب ومهاجرين عند هذه الرؤوس الصخرية الخطيرة المسجلة على الخرائط. رأس سيرس. وجزيرة سانت بول. ومضيق بيل آيل. ومصب نهر سانت لورنس. وقد أضيف إلى قيمة الخسائر المؤلمة عدد كبير من ضحايا السفن الغارقة منذ إنشاء خطوط الشركات الملاحية رويال ميل، وأنان ومونتريال، وكانت هذه السفن الغارقة مثل سالوي وإيزيس وبارموتا التابعة لدول مختلفة مثل المجر وكندا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا، ومنها السفينة ليونيز المعدة للمناطق القطبية التي غرقت نتيجة اصطدامها بسفينة أخرى، ومنها السفن «بنزدنت» و«باسفيك» و«سيتي أوف جلاسجو» التي غرقت لأسباب غير معروفة. وكانت الغواصة تسير بين هذه البقايا المحزنة كأنها تمر بمعرض للموتى.

وفي اليوم الخامس عشر من شهر مايو كنا في أقصى الطرف الجنوبي لشاطئ نيو فوندلاند. ويتكون هذا الشاطئ من الرواسب المؤلف من أكوام كبيرة من مواد عضوية حملها تيار الخليج من المناطق الاستوائية أو التيار المضاد الآتي من المياه بالقطب الشمالي مارًا بالشواطئ الأمريكية وكذلك من الكتل الصخرية التي تدفع بها مياه الثلوج الذائبة. وهذا الشاطئ أيضًا مستودع ضخم للافقاريات والجسيمات النباتية التي تهلك في أرجائه بالملايين.

ولم يكن البحر شديد العمق عند شاطئ نيو فوندلاند، إذ لم يكن عنقه يجاوز بضعة مئات من الياردات ولكن ثمة منخفض عند الجنوب يبلغ عمقه نحو ثمانية آلاف ياردة وفيه يتسع تيار الخليج فيفقد كثيرًا من

سرعته وحرارته. ويصبح بحرًا...

وعلى هذا الشاطئ النيو فوندلاندني العامر بخيرات البحر دائماً، فوجئت برؤية مقادير ضخمة من سمك القد «البكلاه» في المياه المفضلة عند هذا النوع.

ويمكن القول إن القد من أسماك المناطق الجبلية؛ لأن جزيرة نيو فولاند ما هي إلا جبل غاطس. وبينما كانت الغواصة تخوض بين جماعات هذا السمك الكثيفة قال لي كونسایل:

- أهذه أسماك البكلاه؟ كنت أحسبها مفلطحة كالنعال.

- إنها كذلك عند البقال فقط. أي بعد أن تشق أجسامها وتجفف. ولكنها في هذه المياه تبدو ملفوفة الأجسام كالبروري وهذا التكوين يتيح لها سرعة الحركة.

- ولكنها هنا بمقادير ضخمة..

- كان يمكن أن تكون أوفر من هذا لولا أعداء هذا النوع من السمك، الإنسان ونمور البحر.

- هل تعرف كم يبلغ عدد البيض في الأثنى الواحدة منه؟

- نعم أعرف.. نصف مليون بيضة.

- لا.. إن عدد البيض في السمكة الواحدة أحد عشر مليوناً.

- أحد عشر مليوناً.. لن أصدق حتى أفحص هذا العدد بنفسي.

- افعل إذا شئت. ولكن أسرع لك أن تصدقني. وفضلاً عن هذا فإن

الصيادين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين والدانمركيين والنرويجيين

يصيدون هذا النوع بالآلاف، وهكذا تتعرض كميات كبيرة منه للاستهلاك ولولا خصوبة أنثاه العجيبة لخلت البحار منه تمامًا. وفي أمريكا وإنجلترا فقط خمسة آلاف سفينة يعمل عليها ٧٥ ألف بحار تستخدم لصيد هذا السمك. وتصيد كل سفينة نحو أربعين ألف سمكة في العام، أي أن مجموع ما يصيده الأسطولان يبلغ ٢٥ مليون سمكة، ويصاد مثل هذا القدر من شواطئ النرويج أيضًا.

فقال كونسايل:

- إنني أثق في إحصائيات سيدي، ولهذا فلن أعدد...

- تعد ماذا؟

- أعدد الأحد عشر مليون بيضة. ولكن لي ملاحظة واحدة.

- وما هي؟

- إذا تم فقس هذا البيض كله فإن أربع سمكات فقط تكفي لإطعام إنجلترا وأمريكا والنرويج.

وقد رأيت بالقرب من شواطئ نيو فوندلاند حبال الصيد المزودة بمئات الخطاطيف التي تعلقها زوارق الصيد بالعشرات وهي تطفو فوق سطح الماء بالعائمات من الفلين. وكان على الغواصة أن تسير في حذر بين هذه الشبكة المائية.

ومهما يكن فإن الغواصة لم تبق طويلًا في تلك المناطق المأهولة وإنما اتجهت شرقًا إلى الدرجة ٤٢ من خط العرض المحاذي لرأس سانت مون في نيو فوندلاند ورأس هارت كونتننت حيث توجد إحدى

نهاية خطوط الكابلات التلغرافية التي تعبر المحيط.

ولكن الغواصة لم تلبث أن انحرفت شرقاً بدلاً من استمرارها في الإبحار شمالاً كأنما تتبع الهضبة التلغرافية التي ترقد عليها الكابلات والتي حددت مواقعها كثرة قياسات الأعماق التي أجريت عليها.

وفي اليوم السابع عشر من شهر مايو رأيت الكابل التلغرافي راقداً في القاع على عمق ٣٨٠٠ ياردة وعلى بعد خمسمائة ميل تقريباً من رأس هارت كوتنتنت، وقد حسبه كونساييل الذي لم أخبره بشيء عنه ثعباناً بحرياً هائلاً واستعد لتصنيفه بين الأنواع البحرية بطريقته المعهودة، ولكنني هونت عليه الأمر وشرعت أحدثه عن التفاصيل الخاصة بوضع هذه الكابلات في الأعماق.

لقد وضع أول كابل فيما بين عامي ١٨٥٧ - ١٨٥٨ ولكنه توقف عن العمل بعد إرسال نحو أربعمائة برقية. وفي عام ١٨٦٣ أتم المهندسون تصميم وصنع كابل جديد بلغ طوله ألفي ميل ووزنه ٤٥٠٠ طن ونقلته السفينة جربت إيسترن، ولكن هذه العملية منيت كذلك بالفشل.

والآن ونحن في الخامس والعشرين من شهر مايو وعلى عمق ٣٨٠ ياردة كنا مع الغواصة نوتيليوس في الموضع الذي حدث فيه تمزق الكابل وفشل العملية. إن هذا الموضع يبعد ٦٣٨ ميلاً عن الساحل الإيرلندي وقد شوهد موضع الخلل في تمام الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الاتصالات التلغرافية مع أوروبا قد توقفت ولكن الكهربائيين على سطح السفينة جريت إيسترن لم ييأسوا وصمموا على قطع طرفي الكابل لرفعه مرة أخرى إلى سطح السفينة واستطاعوا في الساعة الحادية

عشرة مساءً أن يرفعوا الجزء الممزق منه، فصنعوا له توصيلة محكمة ثم أعادوه إلى القاع مرة أخرى ولكنه تمزق ثانية بعد أيام قليلة ولم يستطيعوا العثور عليه في أعماق المحيط.

على أن الأمريكيين لم ييأسوا. فقد عمد الرجل المكافح بدروس فيلد - صاحب المشروع الذي غامر فيه بكل ثروته إلى القيام باكتتاب جديد وسرعان ما تم صنع كابل آخر وضع في الأعماق في حالة أفضل. فقد غُلِّفت الأسلاك الموصلة بالطبرخي «جوتا بركا» وحفظت في جراب من نسيج القُنْب المتين المغلف بالمعادن. وقد أبحرت السفينة جريت إيسترن بهذا الكابل الجديد في الثالث عشر من شهر يوليو عام ١٨٦٦.

وسارت العملية كما ينبغي دون أن يعترضها سوى عائق واحد. فقد لاحظ المهندسون مرارًا في أثناء إنزال الكابل إلى الماء أن ثمة مسامير دقت فيه حديثًا بغية إفساد الأسلاك بتسرب المياه إليها، فعقد الربان أندرسون وضباط السفينة والمهندسون اجتماعًا تبادلوا فيه الرأي ثم أعلنوا أنهم إذا قبضوا على الجاني الأثيم فسيلقون به إلى البحر دون محاكمة. وعندئذ لم تتكرر المحاولة الإجرامية لإفساد الكابل.

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليو لم تكن السفينة جريت إيسترن تبعد أكثر من خمسمائة ميل عن جزيرة نيو فوندلاند عندما وردت عن طريق الكابل الجديد أنباء الهدنة بين روسيا والنمسا بعد موقعة سادوا. وفي اليوم السابع والعشرين لمحت السفينة من خلال الضباب رأس هارت كونتنت.

وهكذا كلل هذا المشروع بالنجاح فكانت البرقية التي أرسلتها القارة

الأمريكية الشابة إلى أوروبا العجوز تتألف من هذه الكلمات الحكيمة التي قلما يدرك معانيها أحد «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام والمحبة لجميع البشر».

ولم أكن أتوقع أن أرى الكابل بنفس الحالة الطبيعية التي خرج بها من المصنع، فقد كان الثعبان الطويل «مكسّواً بمخلفات البحر والمحار وغيره، كما لم يخل من عبث اللافقاريات وقرضها له». وكان ملقى في القاع ساكناً بعيداً عن حركة الأمواج وواقعاً تحت ضغط مناسب يسمح بمرور الشرارة الكهربائية التي تنطلق من أمريكا إلى أوروبا في ٣٢ من مائة من الثانية. واحتمال هذا الكابل غير محدود، فقد لوحظ أن مادة المطاط «الجوتا باركا» التي تغلف الأسلاك تزداد تحسناً بماء البحر.

ومن حسن الحظ أن الكابل بوضعه على هذه الهضبة البحرية لا يحتاج إلى إنزاله في أعماق بعيدة تؤدي إلى تمزقه. وقد تتبعته الغواصة إلى أعماق مكان، فكان ممدداً بسكون فوق قاع يبلغ عمقه ٤٤٠٠ ياردة وبعد ذلك اقتربنا من المكان الذي وقع فيه حادث التمزق عام ١٨٦٣.

كان قاع المحيط في هذه المنطقة مكوناً من واد فسيح يمكن أن يستقر فيه جبل مونت بلانك الأوروبي دون أن ترتفع قمته فوق سطح الماء. وهذا الوادي تسده من ناحية الشرق مرتفعات صخرية يبلغ ارتفاعها ستة آلاف قدم. وكان وصولنا إلى هذا المكان في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو بحيث لم يصبح بيننا وبين الشاطئ الإيرلندي سوى مسافة مائة وعشرين ميلاً.

ترى هل كان الريان نيمو ينوي المسير شمالاً ماراً بالشواطئ

الإنجليزية؟ كلا لقد دهشت حين رأيته يعود إلى الجنوب مرة أخرى شطر البحار الأوروبية. وعندما كانت الغواصة تدور حول جزيرة أميرالد لمحت من بعيد منارة رأس كليبر ومنارة فاستنت اللتين تسترشد بضوءهما آلاف السفن بين جلاسجو وليفربول، وعندئذ دار بذهني سؤال مهم؛ وهو: هل تجرؤ الغواصة على دخول مياه بحر المانش؟ لقد ظل نيد لاند -الذي عاد إلى الظهور منذ اقترابنا من اليابسة- يلقي عليّ هذا السؤال مرارًا. فكيف كان بوسعي أن أجيبه؟ لقد ظل الربان نيمو مختفيًا عن أنظارنا بعد أن أَرانا لمحة من الشواطئ الأمريكية، فهل يرينا جزءًا من الشواطئ الفرنسية؟

وتابعت الغواصة اتجاهها إلى الجنوب. وفي اليوم الثلاثين من شهر مايو رأينا رأس لاندزايند الواقعة بين الطرف الأقصى لإنجلترا وجزر شيللى التي كانت لدى الجانب الأيمن من الغواصة. وكان على الغواصة أن تتجه إلى الشرق إذا أرادت دخول بحر المانش، ولكنها لم تفعل.

وفي خلال اليوم الواحد والثلاثين من شهر مايو قامت بسلسلة من الحركات الدائرية على سطح الماء أثارت أشد اهتمامي. فقد بدا أنها تبحث عن موضع ليس من اليسير العثور عليه. وأقبل الربان نيمو وقت الظهيرة ليحدد موضع الغواصة بنفسه ولم يتحدث إليّ بكلمة. وإنما بدا أشد ما يكون اكتئابًا. تُرى ما السبب في حزنه الشديد هذا؟ أهو اقترابه من الشواطئ الأوروبية؟ أهى بعض الذكريات عن بلاده التي هجرها؟ ترى ما هو الشعور الذي يستبد به؟ أهو الأسى أم الندم؟ لقد ظل هذا الخاطر يطوف بذهني طويلًا. وأحسست في أعماق نفسي بأن الأقدار ستكشف

لي أسرار الربان قبل وقت طويل.

وفي اليوم التالي الأول من شهر يونيه استمرت الغواصة في مناورتها الدائرية؛ وكان الواضح أنها تبحث عن موضع محدد في المحيط، وقام الربان نيمو بتحديد مكان الغواصة وقت الظهيرة كما فعل في اليوم السابق. وكان البحر هادئًا والسماء صافية. وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشرق بدت عند الأفق سفينة تجارية كبيرة ولم يكن ثمة راية ترفرف على ساريتها، فلم أستطع معرفة جنسيتها.

وقبل أن تتجاوز الشمس سمت الظهيرة بلحظات، تناول الربان آله الراصدة وأخذ يقوم بملاحظاته في دقة بالغة. وكان هدوء البحر التام يساعده على القيام بهذه العملية؛ لأن الغواصة لم تكن تتأرجح أو تميل. وكنت إذ ذاك فوق السطح، فلما فرغ الربان من ملاحظاته فاه بهاتين الكلمتين فقط:

– إنها هنا.

ثم هبط إلى الداخل. تُرى هل رأى السفينة التي استدارت وبدأ كأنها تنوي اللحاق بنا. ذلك ما لم يكن لي به علم.

وعدت إلى الصالون حيث كانت الألواح مسدولة على النوافذ البللورية. ولكنني سمعت صوت الماء وهو يتدفق إلى الخزانات وسرعات ما بدأت الغواصة في الهبوط رأسياً إلى الأعماق بينما توقف رفاصها ولم يعد يشير في جوانبها أي حركة.

وبعد لحظات توقفت على عمق ١٨٣٦ ياردة حيث استقرت فوق

القاع وعندئذ أطفئت أنوار الصالون ورفعت الألواح عن النوافذ البللورية فاستطعت أن أرى من خلالها مياه البحر مضاءة في محيط نصف ميل بمصباح الغواصة الكهربائي.

ونظرت من نافذة الجانب الأيسر فلم أر شيئاً غير خضم المياه الساكنة، أما في الجانب الأيمن فقد رأيت نتوءاً ضخماً استرعى اهتمامي. فقد بدا كأطلال مدفونة تحت طبقة من المحار المائل للبياض وكأنه كساء من الثلج. وبعد أن دقت النظر في الكتلة الضخمة، أحسست أنني أرى منها هيكل سفينة تجردت من ساريتها وهوت رأساً على عقب. ولا شك أن هذه السفينة مُنيت بالكارثة منذ أمد بعيد. فإن بقاياها كانت مكسوة بطبقة جيرية تكونت عليها وهي راقدة في القاع أعواماً مديدة.

ترى ما هي هذه السفينة. ولماذا هبطت الغواصة لتزور قبرها، أهي مجرد حطام غارق أثار اهتمام الربان فهبطت بالغواصة إليه؟

وبينما كنت في حيرة من هذا سمعت الربان ينمو عن كذب يقول بصوت متدد:

- كانت هذه السفينة تسمى المارسليز يوماً ما. وكانت تحمل أربعة وسبعين مدفعاً. وقد نزلت إلى البحر أول مرة عام ١٧٦٢. وفي الثالث عشر من أغسطس عام ١٧٧٨ خاضت بقيادة ربانها لابوليت فيرتيرو غمار معركة مريرة ضد السفينة الحربية بريستون. وفي عام ١٧٧٩ ساعدت الأدميرال داستلنج في الاستيلاء على جزر جرانادا. وفي الخامس من شهر سبتمبر عام ١٧٨١ اشتركت في معركة خليج تشيرابيك البحرية. وفي عام ١٧٩٤ غيرت فرنسا الجمهورية اسمها. وفي السادس عشر

من شهر أبريل من العام نفسه انضمت في مياه بريست إلى قوة بحرية يقودها فيلاريه -جويس لحماية قافلة من حاملات القمح كانت آتية من أمريكا بقيادة الأميرال فان ستابل. وفي اليوم الحادي أو الثاني عشر من شهر برايريال «الشهر التاسع بتقويم الثورة الفرنسية» من العام الثاني للثورة التحمت بالقوة البحرية للسفن الإنجليزية. واليوم يا سيدي، هو الثالث عشر من شهر برايريال - الموافق اليوم الأول من شهر يونيه عام ١٨٦٨. لقد مضى على هذا اليوم ٧٤ عامًا وفي هذا الموضع الواقع بين خط العرض ٤٧ - ٢٤ وخط الطول ١٨ - ١٧ آثرت هذه السفينة بعد معركة باسلة فقدت فيها صواريخها وجرح ثلث بحارتها أن تغرق ببهارتها الثلاثمائة والستة والخمسين دون أن تقبل الاستسلام. وكان كل من عليها يهتفون وهم يغرقون «تحيا الجمهورية».

وعندئذ صحت قائلاً:

- إذن فهي السفينة فانجير «المنتقم».

فغمغم الربان قائلاً وهو يعقد ذراعيه على صدره:

- نعم يا سيدي... فانجير... وإنه لاسم عظيم.



الفصل الخامس والأربعون

المجزرة

كان هذا المشهد المفاجئ وأسلوب الحديث عنه وسرد تاريخ هذه السفينة الوطنية بلهجة فاترة أولاً. ثم الانفعال الذي اعترى هذا الرجل العجيب وهو يفوه بكلماته الأخيرة فضلاً عن اسم هذه السفينة ودلالته التي لم تكن تخفى عليّ. كل ذلك قد أثار خيالي إلى حد بعيد. لقد رحت أشخص إليه طويلاً وهو باسط ذراعيه نحو البحر ويرنو بعينين كلهما الإعجاب إلى الحطام المجيد.

وقد يُحتمل ألا أعرف قط من يكون هذا الرجل ومن أين جاء، وإلى أين يمضي. ولكنني ألفتته ينسلخ شيئاً فشيئاً من شخصية العالم الباحث وأحسست أن اجتماع الربان ورفاقه في هذه الغواصة لم يكن وليد مجافاة للمجتمع.. بل هي نزعة من نوازع الكراهية بشعة أو متسامية لم يستطع الزمن أن يخفف من حدتها.

ترى أما تزال تلك الكراهية تذكي نزعة الانتقام في قلبه، إن المستقبل كفيل بالجواب.

وفي خلال هذا كانت الغواصة ترتفع ببطء إلى سطح الماء وأخذ حطام السفينة فانجبر يختفي عن ناظري تدريجياً. ولم ألبث أن أدركت من تأرجح صغير أننا قد وصلنا إلى سطح البحر والهواء الطلق.

وفي تلك اللحظة سمعنا صوت انفجار مكتوم فنظرت إلى الربان
فإذا هو لم يتحرك فقلت:

- كابتن نيمو.

ولما لم يجبني انصرفت عنه إلى سطح الغواصة حيث رأيت
كونسايل ونيد لاند قد سبقاني إليه فسألتهما قائلاً:

- ما هذا الصوت؟

فقال نيد لاند:

- إنها طلقة مدفع.

فنظرت في اتجاه السفينة التي لمحتها من قبل فإذا هي تقترب من
الغواصة بسرعة متزايدة بحيث لم يبق بيننا وبينها غير ستة أميال.

وقلت لنيد لاند:

- ما نوع هذه السفينة؟

- يبدو من أبراجها وصواريخها القصيرة أنها فرقاطة حربية... ليتها
تأتي وتغرقنا إذا لزم الأمر مع هذه الغواصة اللعينة.

فقال كونسايل:

- بأي ضرر يمكن أن تصيب هذه الغواصة يا صديقي نيد لاند؟....

هل يمكنها مهاجمتها تحت سطح الماء؟ هل يمكنها أن تقصفها بالمدافع
وهي في أعماق البحر؟

وقلت له بدوري:

- أيمكن أن تخبرني بجنسية هذه السفينة يا صديقي نيد لاند؟

فزوى نيد لاند ما بين حاجبيه وحق بقوة إلى السفينة ثم قال:

- لا أستطيع يا سيدي أن أعرف إلى أي دولة تنتمي هذه السفينة.
فإن أعلامها غير مرفوعة ولكنني أذكر أنها سفينة حربية لأنني أرى علمًا
مستطيلًا يرفرف وراء صاريها الكبير.

وقضينا ربع ساعة نتطلع إلى هذه السفينة التي جعلت وجهتها
إلينا. وكنت أعتقد أنها لم تكن قد رأت الغواصة بعد من تلك المسافة،
وبالأحرى لم تعرف بعد كنهها.

وسرعان ما أعلن نيد لاند أن السفينة بارجة حربية ذات سطحين
ودروع من الصلب، وكان الدخان الكثيف ينساب من مدخنتيها. ولم
تكن صواريها القصيرة تبدو بوضوح بين دروعها وأبراجها. ولم يكن
ثمة أعلام ترفرف عليها. وكانت المسافة بيننا لا تتيح لنا رؤية لون رايتها
القصيرة التي كانت ترفرف وراء الصاري القصير كشريط ضيق.

وجعلت تقترب منا بسرعة بالغة. ولو تركها الربان نيمو تزيد اقتربًا
فربما تهيأت لنا فرصة الهرب.

وقال نيد لاند:

- سيدي. إذا مرت هذه السفينة على بعد ميل واحد فسألقي بنفسي
في البحر لأسبح إليها وأنصحك أن تحذو حذوي.

فلم أجب بشيء على اقتراح نيد لاند بل عدت بنظري إلى السفينة
التي كانت تزداد اقتربًا، ولم يكن لدي شك في أنها ستقتدنا إذا نحن ألقينا

بأنفسنا في الماء سواء كانت إنجليزية أو فرنسية أو أمريكية أو روسية.

فقال كونسايل:

- أرجو أن يتذكر سيدي أن لي خبرة بالسباحة، فإذا عمل بنصيحة نيد لاند فأرجو أن يسمح لي بمعاونته في الوصول إلى هذه السفينة.

وقبل أن أجيب انبعث دخان أبيض من مقدمة السفينة ولم تمض لحظات حتى ارتفع الماء خلف الغواصة كأنما أُلقي إليه بجرم ثقيل. وعلى الأثر سمعنا دوي القذيفة.

- عجباً.. إنهم يطلقون المدافع علينا.

وقال نيد لاند:

- إنهم أذكاء لم يصدقوا أننا بحارة نجوا من سفينة غارقة وتعلقوا بطوق خشبي.

وقال كونسايل وهو ينفض عن نفسه الماء الذي تناثر عليه بعد طلقة ثانية:

- إذا سمح لي سيدي أن أدلي برأيي. فإني أوافق نيد لاند وأستطيع سيدي القول إنهم يحسبون الغواصة نوعاً من الكركدن البحري ولهذا يطلقون عليه المدافع الآن..

فهتفت قائلاً:

- ولكن عليهم أن يدركوا أنهم يهاجمون رجالاً من بني البشر.

فقال نيد لاند وهو ينظر إليّ:

- لعل هذا هو فعلاً سبب هجومهم علينا.

وسطعت الحقيقة في ذهني. لا شك أنهم يعرفون الآن ما هو ذلك الوحش البحري المزعوم. ولا شك أن الربان فارجوت قد أدرك أن النوتيلوس ليست إلا غواصة، وأنها كانت أشد خطراً من أي وحش بحري عندما اصطدمت بسفينته الحربية إبراهيم لنكولن.

نعم لا ريب أن الأمر كذلك... ولا ريب أنهم يطاردون هذه الأداة الرهيبة للدمار في كل البحار...

وهي رهيبة إذا صح أن الربان نيمو يستغلها في أعمال انتقامية. ألم يكن يهاجم إحدى السفن في تلك الليلة حين أغلق علينا باب الزنزانة الحديدية في المحيط الهندي. وذلك الرجل الذي دفناه في المقبرة المرجانية بقاع المحيط. ألم يكن ضحية اصطدام الغواصة بالسفينة المجهولة؟ أجل أكرر القول إن هذه الغواصة لا بد أن تكون أداة للانتقام؛ وهكذا انكشفت لي جوانب خفية من حياة الربان نيمو. وإذا ظلت شخصيته يحوطها الغموض والخفاء فبوسع الدول أن تتكتل ضده على الأقل وهي الآن لا تطارد شخصية خرافية وإنما تطارد رجلاً طوى حياته على الكراهية المريرة.

لقد بدا الماضي الرهيب كله أمام عيني: فبدلاً من أن نلتقي بأصدقاء في السفينة المقتربة سنواجه أعداء لا يرحمون. وفي خلال هذه كانت قذائف المدافع تتكاثر حولنا وكان بعضها حين يلتقي بسطح الماء يتوابع مسافات بعيدة ولكن لم تصل واحدة منها إلى الغواصة.

وصارت المدرعة على بعد لا يزيد على ثلاثة أميال. ورغم قذائفها

المتوالية علينا، فإن الربان نيمو لم يصعد إلى السطح. ومع ذلك لو أن قذيفة منها أصابت هيكل الغواصة إصابة مباشرة لكانت القاضية.

وعندئذ قال لي نيد لاند:

- ينبغي يا سيدي أن نحاول شيئاً للنجاة من هذا الخطر. هيا نشير لهم فلعلهم يدركون أننا رجال شرفاء.

وتناول منديله ليلوح به في الهواء، ولكنه ما كاد يبسطه حتى أمسكت به قبضة حديدية، وسقط رغم قوته الشديدة على سطح الغواصة وإذا الربان نيمو يقول له صائحاً:

- أيها الشقي. أتريد أن أشدك إلى مقدمة الغواصة الحديدية قبل أن أضرب بها هذه السفينة؟

كان الربان نيمو رهيباً لسماعه، وأشد رهبة لمن ينظره. لقد اشتد شحوب وجهه بسبب انتفاضات قلبه الذي لا شك أنه توقف برهة. وضاعت حدقتاه إلى حد مروع. ولم يكن يتحدث بل كان يزأر وهو منحني فوق نيد لاند يهز كتفيه بقوة وعنق.

وتركه أخيراً واستدار نحو المدرعة التي كانت قذائفها تنهمر حول الغواصة.

ثم قال بصوت رهيب:

- آه.. أتعرفين من تهاجمين يا سفينة الدولة الملعونة؟ لست بحاجة إلى رؤية أعلامك ومعرفة جنسيتك انظري. سأجعلك ترين أعلامي...

ونشر الربان نيمو علماً أسود في مقدمة الغواصة كالعلم الذي رفعه

فوق القطب الجنوبي.

وفي تلك اللحظة أصابت إحدى القذائف سطح الغواصة أفقيًا
وتأرجحت قرب الربان نيمو ثم سقطت في البحر.

وهز الربان كتفيه وقال لي بصوت جاف:

- اهبط إلى داخل الغواصة... أنت وصاحبك.

فصحت قائلاً:

- سيدي... هل تنوي مهاجمة هذه السفينة؟

- إنني سأغرقها يا سيدي.

- لن تفعل هذا!

- بل سأفعله. لا تجعل من نفسك قاضيًا عليّ يا سيدي. لقد أراك

القدر ما لم يكن ينبغي أن تراه، لقد بدأت الهجوم علينا وسيكون الرد
عنيفًا رهيبًا. اهبطوا إلى الداخل.

- ما جنسية هذه السفينة؟

- ألا تعرف. حسنًا هذا أفضل كثيرًا، إن جنسيتها ستبقي خافية عليك

على الأقل.. اهبطوا إلى الداخل.

ولم يسعنا إلا أن نطيع أمره، وكان خمسة عشر من بحارة الغواصة قد
وقفوا حول الربان نيمو وأخذوا ينظرون إلى السفينة المقتربة منهم نظرات
مفعمة بالكرهية، وأحسنا أن هذا الشعور مشترك بينهم جميعًا. وهبطت
إلى الداخل عندما أصابت قذيفة أخرى سطح الغواصة، وسمعت الربان
وهو يهتف قائلاً:

- اضربي أيتها السفينة المجنونة.. انثري قذائفك التافهة. فلن تهربي من ضربة الغواصة لك... ولكن ليس هذا هو المكان الذي سيكون فيه غرقك. فإني لن أسمح لحطامك أن يختلط بحطام السفينة فانجير.

وقصدت إلى غرفتي. بينما بقي الربان والضابط على سطح الغواصة. وعاد الرفاص إلى العمل وابتعدت الغواصة بسرعة عن مرمى مدافع السفينة. ولكن المطاردة استمرت. وقع الربان بحفظ هذه المسافة بينه وبين السفينة المطاردة.

وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر لم أستطع مغالبة شعور القلق واللهفة الذي استبد بي، فعدت إلى السلم المركزي. ولما رأيت غطاء منفذ السطح مرفوعاً غامرت بالصعود، فرأيت الربان ما زال يذرع السطح جيئةً وذهاباً وهو مهتاج وقد اتجه بنظره إلى السفينة التي كانت على مسافة خمسة أو ستة أميال في الجانب الأيسر؛ فخطر لي أنه ربما كان متردداً في مهاجمتها.

ومرة أخرى رغبت في التدخل ولكنني ما كدت أهم بالكلام حتى ألزمني الصمت قائلاً:

- إنني هنا أمثل الحق والعدل. أنا المظلوم... وهذه رمز الظلم.. فبواسطتها فقدت كل شيء في الحياة كنت أحبه وأعز به وأقدس.. فقدت الوطن.. والزوجة.. والأبناء.. والأب.. والأم.. فقدتهم جميعاً.. وأمامي الآن رمز كراهيتي... فاصمت.

فألقيت نظرة أخيرة على المدرعة التي زادت من سرعتها. ثم عدت إلى نيد لاند وكونسایل وقلت لهما بحماس:

- يجب أن نهرب.

فقال نيد لاند:

- حسنًا، وما جنسية السفينة؟

- لا أعرف.. ولكن أيا كانت جنسيتها فإنها ستغرق قبل حلول الليل. ومهما يكن فخير لنا أن نموت من أن نشترك في قصاص لا ندري مداه من الحق..

فقال نيد لاند ببرود:

- وهذا هو رأيي أيضًا... يجب أن ننتظر حتى المساء.

وأقبل الليل، وخيم الصمت على الغواصة. وعلمت من البوصلة أن الغواصة لم تغير اتجاهها، وكنت أسمع رفاصها وهو يضرب الأمواج بانتظام، وظلت الغواصة فوق سطح الماء وهي تتأرجح قليلًا من جانب إلى آخر.

وكنت وزميلاي قد قررنا الهرب عندما تغدو السفينة قريبة منا بحيث يستطيع بحارتها أن يرونا أو يسمعوننا لأن القمر الذي سيكتمل بعد ثلاثة أيام كان يضيء الماء بسطوع. وإذا استطعنا الوصول إلى سطح السفينة فسنحاول بذل كل ما تتيحه لنا الظروف لإنقاذها إن عجزنا عن تجنبها الضربة التي تهددها. وقد ظننت أكثر من مرة أن الغواصة تستعد للهجوم ولكنها كانت تستدرج السفينة للاقتراب. ثم لا تلبث أن تبتعد سريعًا.

وانصرم جانب من الليل دون أقل حادث. وكنا نتحين الفرصة للعمل ولم يطل حديثنا لفرط انفعالنا. وقد أراد نيد لاند أن يلقي بنفسه

في البحر ولكني استطعت حملة على الانتظار، فقد قدرت أن الغواصة
ستهاجم المدرعة على سطح الماء وعندئذ لا يكون هربنا ممكناً فقط بل
وسهلاً كذلك.

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل دفعني القلق إلى سطح الغواصة
حيث رأيت الربان في مكانه... كان واقفاً عن كذب من علمه الذي كان
النسيم الرقيق يحركه فوق رأسه. ولم يكن يحول عينيه عن السفينة.
وبدا كأن نظراته المسلطة عليها تجذبها وتستهوئها وتشدها إليه
بأسرع ما يمكن وأقوى مما لو كانت مشدودة بالحبال.

وكان القمر عندئذ ينحدر نحو المغيب. ونجم المشتري يبرز من
الشرق وكان الهدوء يخيم على الماء والسماء، والبحر يهيم «لملكة
الليل» أصفى مرآة يمكن أن تعكس فيها صورتها.

وعندما ذهب أقارن بين سكون العناصر الطبيعية وبين الغضب
المتأجج في جوانب الغواصة لم أتمالك أن أحسست برعدة تسري في
كياني.

وظلت المسافة بيننا وبين السفينة نحو ميلين دون تغيير، وما برحت
السفينة تقترب منا مسترشدة بالضوء الفسفوري المنبعث من الغواصة.
وكان في مقدوري أن أرى الأضواء الخضراء والحمراء والمصابيح
البيضاء المعلقة في ساريها الكبير. وقد كشف لنا انعكاس يسير في
جوانبها عن مدى تأجج النيران داخل أفرانها. وكان الشرر وألسنة اللهب
تنبثق من مداخنها وتملأ الجو حولها وميضاً.

وبقيت هكذا حتى السادسة صباحًا دون أن يبدو على الربان نيمو أنه يراني، وغدت السفينة على بعد ميل ونصف. وقد بدأت مع شروق الشمس في ضربنا بالمدافع مرة أخرى. وأيقنت أن اللحظة قد حانت - عند هجوم الغواصة على السفينة - لكي نفترق إلى الأبد عن هذا الرجل الذي لم أجسر قط أن أحكم عليه أو أدينه.

وعندما هممت بالهبوط إلى داخل الغواصة لأخبر زميلي بالأمر صعد الضابط إلى السطح يصحبه عدد كبير من البحارة. ولم يرهم الربان أو لعله أبى أن يراهم. وقد اتخذوا بعض إجراءات يمكن القول إنها استعدادًا للمعركة. ولم تكن سوى إجراءات جد يسيرة: فقد طوي السياج الحديدي المحيط بالسطح. وأدخلت مقصورة الكشف الكهربائي ومقصورة عجلة القيادة إلى فجوتها حتى صارت في مستوى واحد على السطح، وحتى لم يبق شيء يعوق هيكل الغواصة الانسيابي المستطيل الشبيه بالسيجار الضخم عن الحركة والمقاومة.

وعدت إلى الصالون. وظلت الغواصة طافية فوق الماء. وبزغت خيوط الصباح من مرقدها المائي وكانت الأمواج المتأرجحة تعكس على نوافذ الصالون البللورية وهجًا أحمر للشمس المشرقة في ذلك اليوم الرهيب الثاني من شهر يونيه.

وفي الساعة الخامسة صباحًا، أبان جهاز السرعة أن الغواصة بدأت تخفف من انطلاقها فأدركت أنها تترك للسفينة المهاجمة فرصة الاقتراب. وفضلاً عن هذا فقد بدأ قصف المدافع يُسمع بوضوح تام؛ وكانت القذائف التي تحرث سطح الماء حول الغواصة تنطفئ مقتربة

بفحيح غريب.

وقلت لنيد لاند وكونسايل:

- حان الوقت يا صاحباي... خطوة واحدة والله معنا..

وبدا نيد لاند قوي التصميم. وكونسايل هادئاً، أما أنا فقد كنت لفرط الانفعال لا أكاد أسيطر على نفسي.

وذهبنا معاً إلى غرفة المكتبة. وفيما نحن نفتح الباب المؤدي إلى ردهة السلم المركزي سمعت صوت غطاء المنفذ العلوي وهو يغلق بقوة.

ووثب نيد لاند إلى السلم ولكنني أمسكت به. فقد أدركت من صوت الخريز المعروف. أنهم يملأون الخزانات بالماء وما هي إلا لحظات حتى هبطت الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء.

وعرفت عندئذ هدف الغواصة. كما أدركت أن الوقت قد فات للقيام بأي عمل من جانبنا. فإن الغواصة لا تنوي ضرب المدرعة في جوانبها المحصنة بالصلب بل تحت علامة الماء حيث لا يوجد هذا الوقاء الحصين.

مرة أخرى أصبحنا سجناء.. نشهد برغمنا هذه المأساة الرهيبة التي توشك أن تتم. ولم يكن لدينا وقت للتفكير والتأمل. فذهبنا إلى غرفتي نحتمي بها ونحن نتبادل النظر دون أن يفوه أحدها بكلمة. وانتابني ذهول عميق استحوذ على عقلي. وخيل إليّ أن تفكيري بطل وانعدم وصرت في شر حال من الترقب المؤلم الذي يسبق الانفجار الرهيب.. وجعلت

أنتظر وأرهف السمع حتى لكأنني استحلت إلى آذان.

وفي تلك الفترة زادت سرعة الغواصة زيادة واضحة وبدأ لي أنها تتحفز للانقضاض؛ إذ كان هيكلها يهتز بقوة اندفاعها.

وفجأة بدرت مني صيحة.. فقد أحسست بالاصطدام ولكنه كان اصطدامًا خفيفًا نسبيًا كما شعرت بدرع الغواصة الحاد في مقدمتها وهو ينفذ في هيكل السفينة.. نعم.. وسمعت صوت الاحتكاك والاصطدام والنفاذ.. فقد اندفعت الغواصة بكل قوتها ونفذت في قلب السفينة الضخمة كما تنفذ الإبرة في قلع المركب.

ولم أستطع أن احتمل أكثر من هذا، فاندفعت إلى الصالون كالمجنون حيث رأيت الربان نيمو واقفًا في هدوء وصمت وثبات ينظر من خلف إحدى النوافذ البللورية.

وكان ثمة جرم ضخيم يغوص في الماء. وإمعانًا في رؤية عذاب السفينة الغارقة، جعلت الغواصة تغوص معها وقد رأيت على بعد ثلاثين قدمًا هيكل السفينة المحطم والماء يندفع فيه هادرًا كقصف الرعد، ثم رأيت صف المدافع المزدوج ثم الجانب المدرع ثم السطح المغطى بظلال سوداء متحركة.

وأخذت المياه ترتفع بسرعة... ورأيت بحارة المدرعة التعساء وهم يهرعون هنا وهناك كالفيران ويتعلقون بالصواري والحبال أو يسبحون في الماء مغالبين الغرق.. وكان مشهدهم كمشهد قرية من النمل اجتاحتها ماء البحر.

وأحسست بشعر رأسي يقف وأنا واقف مشلول الحركة جامد من
فرط الألم والضنى، أنظر بعينين جاحظتين وأنفاس لاهثة وصوت مختنق
وكأنما تشدني إلى النافذة قوة غلابة.

وجعلت السفينة الضخمة تغرق ببطء والغواصة تتبعها وترقب كل
حركاتها.

وفجأة وقع انفجار رهيب أطار الهواء المضغوط على سطح السفينة
كأنما اشتعلت النيران في مخازن ذخيرتها. وبلغ اضطراب الماء حولها
أن الغواصة أخذت تارجح بقوة.

ثم شرعت المدرعة المنكودة تغوص بسرعة فظهرت لنا سطوحها
العالية المثقلة بالضحايا ثم أدفأها التي تنوء بالرجال ثم قمة صاريها
الكبير.. وأخيرًا اختفت السفينة بكل من عليها من البحارة الأحياء
والقتلى الذين جذبتهم إلى الأعماق تلك الدوامة الرهيبة التي أثارها غرق
السفينة.

واستدرت إلى الربان نيمو فإذا هذا المنتقم الرهيب: نموذج الحقد
المجسم ما زال في مكانه يتفرج. ولما انتهى كل شيء يمم شطر غرفته
ففتحها ودخل وأنا أتبعه بنظراتي. وهناك رأيت من مكاني تحت مجموعة
اللوحات المصورة صورة سيدة شابة وطفلين، وقد تطّلع الربان إلى
الصورة برهة ثم ركع وانفجر باكياً.

الفصل السادس والأربعون

كلمات الربان نيمو الأخيرة

وأغلقت النوافذ البللورية على هذا المشهد الرهيب ولكن الصالون بقي مظلمًا. كما خيم الظلام والسكون في أرجاء الغواصة التي أخذت تبتعد عن هذا المكان الموحش بسرعة بالغة وهي على عمق مائة قدم تحت سطح الماء. ترى إلى أين هي ذاهبة إلى الشمال أو الجنوب؟ ما هي وجهة هذا الرجل بعد ذلك الانتقام المروع؟

وعدت إلى غرفتي حيث وقف نيد لاند وكونسايل صامتين. لقد ساورني فزع شديد من ذلك الربان... إذ مهما تكن الآلام التي كابدها، فهو غير محق في الانتقام على هذه الصورة، وهو إذا لم يجعلني شريكًا فيما حدث فقد جعلني على الأقل شاهدًا على انتقامه. وهذا أكثر مما يجب.

وفي الساعة الحادية عشرة سطع الضوء الكهربائي مرة أخرى فقصدت إلى الصالون ونظرت إلى مختلف الأجهزة حيث علمت أن الغواصة تندفع نحو الشمال بسرعة خمسة وعشرين ميلًا في الساعة: أحيانًا فوق سطح الماء وأحيانًا على عمق ثلاثين قدمًا.

ولما نظرت إلى مكاننا على الخريطة رأيت أننا نجتاز مدخل بحر المانش في طريقنا إلى البحار الشمالية بسرعة بالغة.

وبسبب هذه السرعة كان يتعذر عليّ أن أرى سمك الكلب بخيشومه الطويل وسمك المطرقة والروجيت الذي يكثر في تلك المياه، وسمك نسور البحر وفرسان البحر والثعابين المائية التي كانت تتلوى كأنها حيات؛ وحشود سرطانات البحر والتي كانت تندفع في خطوط متعرجة وقد عقدت مخالبها على صدقاتها. وأخيرًا جموع سمك الرنجة الذي كان يسابق الغواصة بسرعة. وهكذا لم يكن ثمة فرصة للملاحظة والدراسة والتصنيف.

وفي المساء قطعنا المائي فرسخ الباقية من المحيط الأطلسي وهبط الليل وانتشر الظلام فوق الماء ريثما ييزغ القمر.

وقصدت إلى غرفتي ولكنني لم أستطع النوم إذ وقعت في قبضة كابوس ثقيل. فإن مشهد الدمار الفظيع أخذ يتعاقب في ذهني.

من يدري بعد اليوم إلى أين ستمضي بنا الغواصة في حوض الأطلنطي الشمالي هذا. إنها تسير بسرعة متغيرة، بين غلاثل من الضباب المتصل. ترى هل وصلت في انطلاقتها إلى قرب ميناء سبتزبرجن أو بلغت شواطئ نوفازميلا؟ هل كنا في الطريق إلى ارتياد البحر الأبيض «القطبي» أو بحر كارا، أو خليج أوبي أو أرخبيل لياردف أو شاطئ آسيا المجهول؟ لا أدري. بل لم أكن أدري كيف كان الوقت يمر، فقد توقفت الساعات داخل الغواصة. وبدا كأن الليل والنهار لا يتعاقبان بنظامهما المعتاد. كما هو الحال في الأصقاع القطبية. لقد شعرت كأنني مسوق إلى

منطقة العجائب التي طالما صال فيها خيال الكاتب إدجاريو. وكذلك كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن أبصر كما حدث لجوردن بايم بطل قصة بو «ذلك الوجه الإنساني المقنع الذي يبدو أكبر حجمًا من وجوه سكان الأرض وقد اندفع عبر الشلال الذي يحمي مدخل القطب الشمالي...». وقد قدرت - وربما كنت مخطئًا- أن الغواصة استمرت في طريقها المحفوف بالمخاطر نحو أسبوعين أو عشرين يومًا. وما كان لي أن أعلم إلى أي مدى هي ذاهبة لولا الكارثة التي وضعت حدًا لرحلتها. ولم يظهر لنا الربان نيمو لحظة واحدة خلال هذه الرحلة ولا الضابط ولا أحد من البحارة.... وتابعت الغواصة طريقها تحت سطح الماء باستمرار. وإذا صعدت إلى السطح لتجديد الهواء كنت أرى المنافذ تفتح وتغلق آليًا. ولم يعد أحد يرصد مكاننا من العالم، وهكذا لم أستطع أن أعرف أين نحن.

ويجب أن أقول أيضًا إن نيد لاند لم يكن يظهر كذلك لفرط شعوره بالضيق ونفاد الصبر وعبثًا حاول كونسایل أن يستدرجه إلى الحديث وهو يخشى أن يقتل المسكين نفسه في نوبة جنون مفاجئ ولذلك راح يراقبه في إخلاص واهتمام.

ومفهوم أن الموقف في ظروف كهذه لا يمكن أن يحتمل طويلاً. وهكذا حدث صباح يوم لا أعرف تاريخه أن استيقظت عند الفجر بعد نوم مضطرب فرأيت نيد لاند ينحني فوقى وهو يهمس قائلاً:

- إننا سنهرب.

فانتصبت جالسًا وقلت:

- متى؟

- الليلة.. يبدو أن الرقابة قد اختفت من الغواصة. وأن نوعًا من السبات العميق يخيم في جوانبها، فهل تستعد يا سيدي؟

- نعم.. وأين نحن الآن من العالم؟

- على مرأى من اليابسة التي رأيته منذ لحظات من خلال الضباب... على بعد عشرين ميلاً نحو الشرق.

- وأي أرض هذه؟

- لا أدري... ولكن مهما تكن فسنلجأ إلى حماها.

- نعم يا نيد.. نعم.. فسنهرب الليلة حتى لو ابتلعنا البحر.

- إن البحر هائج والرياح عاصفة.. ولكن قطع عشرين ميلاً في زورق الغواصة الخفيف ليس بالأمر المخيف، لقد وضعت فيه بعض المؤن وزجاجات الماء دون علم البحارة.

- سأمضي معك..

فأردف الكندي قائلاً:

- إذا وقعت في قبضتهم سأدافع عن نفسي حتى الموت.

- سنموت معاً يا صديقي نيد لاند.

وقررت أن أواجه كل احتمال في هذا السبيل. ولما تركني نيد لاند انتقلت إلى سطح الغواصة حيث لم أكد أحتمل ثورة الأمواج؛ وكانت السماء مكفهرة ولكن ما دامت الأرض تقع وراء أستار هذا الضباب،

فلا بد معه من الهرب بل يجب ألا نضيع يومًا أو ساعة.

وهبطت إلى الصالون وأنا أشعر بالرغبة في مقابلة الربان نيمو والخوف منه في هذه المقابلة في وقت واحد. ترى ماذا يمكن أن أقول له؟ هل أستطيع أن أخفي عنه شعور الفزع الغريزي الذي أثاره في نفسي؟. كلا. من الخير ألا أجد نفسي أمامه وجهًا لوجه! من الخير أن أنساه.. ومع هذا...

ما أطول ذلك اليوم الأخير الذي كان عليّ أن أقضيه في الغواصة! لقد بقيت وحدي كما حرص نيد لاند وكونسايل على اجتنابي لئلا يكشف السر بالحديث معي.

وفي الساعة السادسة مساء تناولت طعام العشاء بلا شهية ولكني أرغمت نفسي على الأكل رغم نفوري منه حتى أحتفظ بقواي كاملة.... وأقبل نيد لاند إلى غرفتي في منتصف السابعة مساء وقال لي:

- لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى قبل الهرب. إن القمر لن يبرز حتى العاشرة مساء وسوف نستغل فرصة الظلام... فتعال إلى الزورق حيث أكون أنا وكونسايل في انتظارك.

وانصرف على الأثر قبل أن يدع لي فرصة الرد.

وأردت أن أعرف اتجاه الغواصة فذهبت إلى الصالون ورأيت أنها تتجه نحو الشمال الشرقي بسرعة مخيفة وعلى عمق خمسين ياردة.

ورحت أجيل النظر للمرة الأخيرة في مجموعات العجائب الطبيعية والكنوز الفنية التي ضمها ذلك المتحف: تلك المجموعات النادرة التي

قضي عليها أن تضيق في أعماق الماء مع الرجل الذي جمعها. وبدا لي أن أطبع دقائقها في مخيلتي، فلبثت ساعة على هذه الحال أستوعب تلك الكنوز المتألقة في خزانها الزجاجية يغمرني الضوء المنبعث من السقف وأخيراً قفلت عائداً إلى غرفتي.

وهناك ارتديت ملابس البحر المتينة وجمعت مذكراتي وشددتها حول وسطي بعناية وكان قلبي يخفق بقوة حتى لم أستطع تهدئة دقاته. ولو أن الربان نيمو رأني لفضح انفعالي الشديد أمري.

ترى ماذا عساه يفعل في تلك اللحظة؟ لقد أرهفت السمع وراء باب غرفته فسمعت وقع أقدام. إذن فالربان في الغرفة. إنه لم يأو إلى فراشه بعد. ومع كل حركة منه كنت أتوقع أن أراه يبرز أمامي ويسألني لماذا أريد الهرب. ولذلك لزمت أشد الحذر. وكان خيالي يجسم في نظري كل شيء. وقد بلغ من وطأة هذا الشعور أنني سألت نفسي أليس من الأفضل أن أدخل غرفته وأقف أمامه وجهاً لوجه وأتحدها بالنظر والإيماء؟

هذه نزوة مجنون لا شك. ولحسن الحظ استطعت أن أتمالك نفسي. ورقدت في فراشي تسكيناً لاضطراب جسمي ثم هدأت أعصابي رويداً. ولكنني جعلت أستعيد في ذهني المضطرب كافة التفصيلات التي اقترنت بفترة وجودي في الغواصة، كافة الأحداث السعيدة والمحزنة التي مرت بي منذ اختفائي عن سطح السفينة الحربية إبراهيم لنكولن، تذكرت جولات الغواصة تحت سطح الماء ومضايق توريث وسكان جزائر بابو الهمج، وجنوح الغواصة، والمدافن المرجانية، ونفق خليج السويس وجزيرة سانتورين والغواص الكريتي، وخليج فيجو، وقارة

الأطلانتيس، وشاطئ الجليد والقطب الجنوبي، وحصار الثلوج لنا ومركة الأخطبوطات، وعاصفة تيار الخليج، والسفينة الباسلة فانجير والمشهد الرهيب لغرق المدرعة ببهارتها جميعاً... تواردت كل هذه الأحداث في ذهني كأنها مشاهد على خشبة المسرح، ومن بين هذه الذكريات العجيبة بدا لي الربان نيمو محفوقاً بأشد الغرابة والغموض بحيث لم يعد في نظري إنساناً من بني البشر. بل مارد البحر.

وبلغت الساعة التاسعة والنصف وأنا على هذه الحال حتى لم أتمالك أن وضعت رأسي بين كفي لثلا تنفجر، وأغمضت عيني وصممت أن أكف عن كل تفكير. فقد كان عليّ أن أنتظر نصف ساعة أخرى. وإن فترة أخرى تحت وطأة هذا الكابوس المروع قمينة بأن تفقدني الصواب. وفي تلك اللحظة سرى إلى سمعي عن بُعد عزف الأرغن.. كانت نغمات حزينة لأغنية كلها الشجن.. نغمات كأنها أنات روح تريد أن تحطم قيودها الأرضية. وأرهفت السمع بكل حواسي وقد كتمت أنفاسي وشعرت -كالربان نيمو- بهذا اللون من الاستغراق الموسيقي الذي يرتفع بالإنسان فوق حدود هذا العالم.

ثم خطرت ببالي فكرة أفزعني؛ وهي أن الربان قد غادر غرفته وجلس في الصالون الذي كان عليّ أن أجتازه في طريقي للهرب. وهناك سألتقي به للمرة الأخيرة.. سيراني وقد يتحدث إليّ. وأن إيماءة منه قد يكون فيها نهايتي وكلمة واحدة يفوه به تقيديني إلى الغواصة.

وأوشكت الساعة أن تدق العاشرة، أي حانت اللحظة التي أترك فيها غرفتي للانضمام إلى زميلي.

ولم أتردد في مغادرة الغرفة حتى لو اعترض الربان نيمو سبيلي.
فتفتحت الباب بحذر. رغم ذلك أحسست كأني أصدرت صوتاً رهيباً.
ولكن لعل هذا الصوت لم يصدر إلا في خيالي.

وتحسست طريقي إلى وسط الغواصة. وكنت أتوقف بعد كل خطوة
لأهدئ من ضربات قلبي.

ووصلت إلى باب الصالون وفتحته في رفق. وكان الصالون مطبق
الظلام وكانت نغمات الأرغن تنساب خافتة.. ومعنى هذا أن الربان نيمو
ما زال موجوداً به؛ ولكنه لم يرني وأعتقد أنه ما كان يستطيع رؤيتي حتى
لو كان الضوء ساطعاً في الصالون، إذا كان مستغرقاً في نشوته الموسيقية.

وسرت فوق السجادة بخفة متحاشياً الاصطدام بشيء حتى لا يفضح
وجودي أدنى صوت. واستغرقت خمس دقائق في الوصول إلى باب
المكتبة وبينما كنت أهم بفتحه جمدت في مكاني حين سمعت الربان
نيمو يتنهد. فقد أدركت أنه نهض من مكانه.. بل لقد رأيته فعلاً في الضوء
اليسير المنبعث من غرفة المكتبة إلى الصالون. وراح يقترب من مكاني
عاقداً ذراعيه على صدره صامتاً، يمشي كأنه شبح وكان صدره المحزون
يرتفع ويهبط بنحيب مكتوم وسمعته يغمغم بهذه الكلمات.. وهي آخر
كلمات سمعتها منه:

- كفى.. كفى يا إلهي العظيم.

أكانت كلمات ندم تفلت من ضمير ذلك الرجل؟

واندفعت في يأس إلى غرفة المكتبة واتجهت إلى السلم المركزي

وانحرفت إلى مكان القارب حيث سبقني زميلاي وهتفت قائلاً:

- هيا بنا.. هيا بنا..

وأجاب نيد لاند قائلاً:

- فوراً...

وأغلقتنا المنفذ المؤدي إلى القارب بمفتاح كان نيد لاند قد تزود به،
كما أغلقنا المنفذ العلوي أيضاً، ثم بدأ نيد لاند يفك الأربطة الحديدية
التي تشد القارب إلى الغواصة.

وفجأة سمعنا صوتاً داخل الغواصة.. بل أصوات يجيب بعضها
على بعض. ماذا حدث؟ هل اكتشفوا أمر فرارنا؟ وشعرت بنيد لاند وهو
يمسك بخنجر حاد.

فقلت له:

- نعم. سنعرف كيف نموت.

وتوقف نيد لاند عن عمله ثم انبعثت كلمة واحدة تكررت عشرين
مرة.. كلمة رهيبة كشفت عن سبب الالتهاب الذي حدث داخل الغواصة..
وكان البحارة هم الذين راحوا يكررونها في فزع هاتفين:

- الملسطروم... الملسطروم...

الملسطروم.. إنها أروع كلمة يمكن أن تسمعها أذن في أروع
موقف كموقفنا.. إذن فقد كنا في أخطر منطقة من الساحل النرويجي..
ترى هل تجذب الغواصة إلى تلك الدوامة الرهيبة في نفس اللحظة التي
نستعد فيها للهرب بالزورق.

كان المعروف جيداً أنه في وقت المد تندفع المياه المحصورة بين جزيرتي فارو ولوفدن بقوة هائلة مكونة دوامة مائية لا يمكن أن تنجو منها سفينة مهما تكن قوتها. فقد كانت الأمواج العنيفة في تلك المنطقة تندفع من كل مكان وتكوّن الخليج المعروف باسم «سر المحيط» والذي تمتد قوة جاذبيته مسافة عشرة أميال. وهو لا يجذب إلى أعماقه السفن وحدها بل يجذب كذلك الحيتان والدببة الآتية من المناطق القطبية الشمالية.

إلى هذه المنطقة كانت الغواصة تندفع شاء ربانها أو أبى. وكانت في انطلاقها تنساق بطريقة حلزونية كانت مجالاتها تضيق تدريجياً وكذلك كان الزورق المشدود إليها يندفع بسرعة تصيب الرأس بالدوار. لقد انتابني ذلك الشعور السقيم الذي يشعر به المرء حين يركب عجلة سريعة الدوران. واشتد بنا الفرع واضطراب الأعصاب حتى غمرنا عرق بارد كالذي يكسو الإنسان في لحظة الموت. وما أفضع ذلك الصوت الذي كان يحيط بزورقنا الخفيف. وما أشد ذلك الهدير الذي كان صدها يتردد من مسافة بضعة أميال. وما أروع ذلك الدوي الذي كان يصدر عن تكسر الأمواج على الصخور الحادة في القاع حيث تتحطم أصلب الأجسام، وحيث تتآكل جذوع الشجر، وتتحول إلى فراء كما يقول أهل النرويج.

ويا له من موقف، لقد كان يقذف بنا بعنف داخل الغواصة. وكانت الغواصة تدافع عن كيانها كأنها كائن آدمي. فكانت «عضلاتها» الحديدية تصلصل وكانت تنصب أحياناً واقفة ونحن معها.

وقال نيد لاند:

- يجب أن نتماسك ونعمل على شد أربطة الزورق مرة أخرى إلى الغواصة. إننا قد ننجو إذا بقينا فيها..

لكن ما كاد يتم عبارته حتى حدثت قرقعة شديدة، فقد انفلتت الأربطة الحديدية وإذا الزورق الذي انفصل عن فجوته في جانب الغواصة يطير كحجر من «مقلاع» إلى وسط الدوامة.

واصطدمت رأسي بهيكله الحديدي فغبت عن صوابي بقوة الصدمة.



الفصل السابع والأربعون

الخاتمة

وهكذا انتهت هذه الرحلة تحت سطح البحر.. أما ماذا حدث في تلك الليلة وكيف نجا الزورق من الدوامات العاتية في هاوية «الملسطوم» وكيف خرجت مع كونسايل ونيد لاند من الخليج فهذا ما لا أعرف عنه شيئاً. ولكنني عندما أفقت من غشيتي ألفتني راقداً في كوخ صياد بجزائر لوفدن. وجلس زميلاي بقربي سالمين آمنين يضغطان على يدي فجعلنا نتصافح بحرارة.

ولم نستطع إذ ذاك أن نفكر في العودة إلى فرنسا ووسائل المواصلات بين شمال النرويج وجنوبه لم تكن ميسورة. ولهذا اضطرت إلى انتظار السفينة التجارية التي تصل رأس نورت مرتين في الشهر.

وكذلك أقمت في ضيافة هؤلاء القوم الأوفياء عاكفاً على مراجعة ما دونته عن هذه المغامرات وقد وجدته مطابقاً للأصل.. لم أغفل حقيقة واحدة، ولم أبالغ في شيء من التفاصيل.. إنها قصة واقعية عن رحلة عجيبة في ذلك العالم الذي لا يزال مغلقاً في وجه الإنسان. ولكن المدنية ستفتح الطريق إليه يوماً.

ترى هل يصدقني أحد؟ لا أدري، مهما يكن من شيء فإن ذلك لن يعينني كثيراً. إن ما أستطيع أن أؤكدته هو حقي في الحديث عن البحار

التي عشت في أعماقها أقل من عشرة شهور - حيث قطعت عشرين ألف فرسخ في رحلة مائة حول العالم أأمطت الكثير من عجائب المحيط الهادي والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر الأبيض والمحيط الأطلنطي والمناطق القطبية الجنوبية والشمالية.

ولكن ماذا كان مصير الغواصة نوتيلوس؟ هل قاومت دوامات الملسطورم؟ أما زال الربان نيمو على قيد الحياة؟ أما زال ماضيًا في قصاصه المروع تحت سطح المحيط أم كانت نهايته لدى ذلك القبر المائي الرهيب؟ ومخطوطاته التي تتضمن تاريخ حياته كلها، هل تقذف الأمواج بها ذات يوم؟ هل يقدر لي أخيرًا أن أعرف اسم الرجل كاملاً؟ والمدرعة التي غرقت هل تكشف لنا جنسيتها عن جنسية الربان نيمو؟

ذلك ما أرجو أن يتحقق كله، كما أرجو أن تكون غواصته القوية قد تغلبت على دوامات ذلك الخليج الرهيب ونجت من كارثة أودت بكثير من السفن قبلها. فإذا صح هذا أي إذا كان الربان نيمو ما برح يتخذ من المحيط وطنه المختار، فعسى أن تكون الكراهية قد زالت من قلبه الوحشي.. وعسى أن يكون التأمل في مثل هذه العجائب الكثيرة قد أطفأ شهوة الانتقام في نفسه... وعسى أن تختفي منه شخصية القاضي لتبرز شخصيته كعالم يواصل بحوثه العلمية في أعماق البحر. وإذا كانت حياته عجيبة فهي أيضًا رفيعة الشأن. ألم ألابس هذا بنفسني؟ ألم أعش عشرة أشهر من هذه الحياة الخارجية عن مألوف الطبيعة؟ هناك رجلان فقط يحق لهما الجواب عن السؤال الذي ورد في سفر الأخبار منذ ستة آلاف سنة «من ذا عنده العلم بذلك الذي هو بعيد قصي وعميق سحيق».....

هذان الرجلان هما: الربان نيمو وصاحب هذه السطور...